

موسوعة غزوات النبي المصطفى دروس وعبر

د/ أمير بن محمد الملاوي

٢٠١٤٣٨ - ١٧ هـ

مُوسَى عَنْ وَالْبَيْهِيِّنِي
لِرَفِيقِ الْجَبَرِيِّ

د. أمير بن محمد سالم درويش



مُوسَىٰ وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى

دَرْقُهُ مَقْبُلٌ

الحقوق محفوظة

لكل مسلم

«الطبعة الأولى»

«1437هـ - 2016م»



**كتاب الكتب المنشورة
للسنة 1986م**

للطباعة والنشر والتوزيع
صنعاء الدائري الغربي - جولة
القادسية

تلفون : (215243)

فاكس: (215323)



للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي صنعاء - شارع
العدل

تلفاكس : (224694)

ت : (2370) ص . ب : (227855)
القرطاسية : (270961)

فرع عدن بكريتر الميدان تحت فندق العامر فرزة الشيخ عثمان
ت: (02/265706)

مركز خالد بن الوليد الدائري الغربي تقاطع شارع الرباط
ت: 215699,



المحتويات

5	المحتويات
27	المقدمة
28	غزوة بدر دروس وعبر
34	دروس وعبر من غزوة بدر
	1- وعسى أن تجروا شيئاً وهو شر لكم:
34	
	2- قوة الإيمان هي السلاح البatar:
36	
	3- قوة الترابط بين المؤمنين:
37	
	4- الثبات وذكر الله عند لقاء الأعداء:
39	
	5- الشورى بين القائد الجندي:
39	
	6- استكشاف قوة الأعداء :
41	
	7- المسلم الصادق موصول بجند السماء:
42	
	8- من يحارب الإسلام إنما يحارب الله:
44	
	9- خطبة النبي - ﷺ - يوم بدر ترسم طريق النصر:
45	



..... مروءة ووفاء:	- 10
45	
..... أخوة الإيمان تعلو على أخوة النسب:	- 11
46	
..... سيف عكاشة والمعجزة:	- 12
46	
47 حقيقة النصر من الله تعالى:	- 13
48	
..... يوم الفرقان:	- 14
51	
..... الولاء والبراء من فقه الإيمان:	- 15
53	
..... المعجزات التي ظهرت في بدر وما حوالها:	- 16
55	
..... حكم الاستعانة بالمشرك:	- 17
56	
..... النصر مع الصبر:	- 18
57	
..... سر الانتصار:	- 19
58	
..... صفات المنصوريين:	- 20
59	
..... نصر الله سنة ماضية:	- 21
61	
..... النصر ثمرة الإخلاص:	- 22
61	
..... توحد القيادة والشعب:	- 23
62	
..... لا عذر في القعود:	- 24
63	
..... الدعاء ومقاطعة العدو:	- 25
64	
..... الرضا بقضاء الله تعالى وقدره:	- 26
65	
..... الاستشارة من أسباب النصر:	- 27
66	
..... علو منزلة النبي ﷺ عند الصحابة :	- 28
66	
..... وجوب الحذر من الأعداء :	- 29
67	
..... النصر من عند الله العزيز الحكيم:	- 30

31-	طاعة الله والدعاء من أسباب النصر:	67
32-	ولا تنازعوا فتفشلوا:	68
33-	علو منزلة أهل بدر على غيرهم من الصحابة :	69
34-	الإسلام والأسرى:	69
35-	الإسلام يهتم بالعلم:	70
36-	الشيطان يخذل أتباعه:	71
37-	الأسوة الحسنة ﷺ:	72
38-	الكتمان وأهميته في الحرب:	73
39-	بناء عريش القيادة:	74
40-	من نعم الله على المسلمين قبل القتال:	75
41-	الخطة المكتملة للرسول ﷺ في المعركة:	76
42-	الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:	78
44-	التعبة المعنوية على القتال:	79
45-	العمل بالأسباب وانتظار المدد الرباني:	81
46-	نهاية الطغاة:	82
47-	إنها جنان كثيرة:	88
48-	الشوق إلى الآخرة:	88
49-	بيوت الصحابة تتنافس من أجل الجنة:	89
50-	محاولة اغتيال القائد ﷺ:	90
51-	إمداد الله للمسلمين بالملائكة:	93
52-	بعد النصر ومخاطبة أهل القليب:	96
53-	الحياة البرزخية للأموات:	98
	غزوة أحد دروس وعبر ..	100

101	غزوة أحد
103	دروس وعبر من غزوة أحد
103	1- أثر المعاصي في النصر والهزيمة:.....
105	2- خطورة إيهار الدنيا على الآخرة :.....
106	3- ويتخذ منكم شهداء:.....
114	4- سنة الله في الصراع بين الحق والباطل:.....
115	5- لا بد من الأخذ بالأسباب:.....
115	6- التضحية من أجل الدين:.....
116	7- العاقبة للمتقين:.....
117	8- الابتلاء بذوي القرى:.....
117	9- ولا تنازعوا:.....
117	10- الأنبياء عبيد مخلوقون :.....
117	11- العرفان لمن خدم هذا الدين:.....
118	12- حب الصحابة لنبيلهم ﷺ:.....
119	13- الأمور بخواتيمها:.....
120	14- إنما الأعمال بالنيات:.....
121	15- قل هو من عند أنفسكم :
122	16- من دلائل النبوة:.....
122	17- تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:.....
123	18- كيفية معالجة الأخطاء:.....
123	19- ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:.....
124	20- التعلق والارتباط بالدين:.....
127	21- تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد:.....

127	- اللجوء إلى الله:.....	22
128	- «أحد جبل يحبنا ونحبه»:.....	23
128	- الملائكة في أحد:.....	24
129	- وما النصر إلا من عند الله:.....	25
129	- استخراج العبودية في السراء والضراء :	26
130	- حكمة تبدل الأحوال :	27
130	- الخضوع لجبروته تعالى :	28
130	- رفع منازلهم :	29
131	- تحريضهم على الجد في العبودية لله:.....	30
131	- تربية الأبناء على حب الجهاد:.....	31
132	- الخذر من اليهود:.....	32
132	- الجهاد يلزم بالمشروع فيه ويتبعن إذا طرق العدو ديار المسلمين :	33
132	- يدفن الشهداء في مصارعهم :	34
133	- يجوز دفن الثلاثة في القبر الواحد :	35
134	- قول فداك أبي وأمي لسعد منه ﷺ:.....	37
135	- جواز التداوى:.....	38
135	- سنة الله في رسle:.....	39
136	- في تأخير النصر عبرة:.....	40
136	- جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد :	41
137	- جواز الاستئماثة:.....	42
138	- قاتل نفسه في النار:.....	44
138	- الشهيد لا يغسل والجنب يغسل:	45
138	- النعاس في الخوف وال الحرب نعمة جليلة:.....	46

47- متابعة حركة العدو وكتمان الأخبار:.....	139
48- دروس في الصبر تقدمها الصحابيات للأمة:.....	141
49- أهمية الشورى:.....	143
50- تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة :	144
51- سنة البناء:.....	145
غزوة الأحزاب دروس وعبر.....	148
غزوة الأحزاب.....	149
دروس وعبر من غزوة الأحزاب.....	154
1- الأمل والثقة بالله تعالى:.....	154
2- الكفر ملة واحده:.....	155
3- المنافقون وخطرهم:.....	156
4- درس في الشورى:	158
5- الحكمة في اختيار غطfan بالذات للصلح:.....	160
6- رسالة للمسلمين عبر التاريخ:.....	160
7- في موقف الصحابة من الصلح دروس:.....	161
8- شدة التضرع سبب من أسباب النصر:.....	161
دروس وعبر من قصة حذيفة:	163
9- معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال:.....	164
10- الانضباط العسكري الذي يتحلى به حذيفة:.....	164
11- كرامات الأولياء:.....	164
12- لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه:.....	164
13- سرعة البديهة:.....	165
14- الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها أئٌ وجدها:.....	165



15- درس للحكام والحاكمين: 166
16- الرؤوف الرحيم ﷺ : 166
17- واعدوا لهم: 166
18- أول مستشفى إسلامي حري: 167
19- النصر من عند الله وحده: 168
20- المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة: 168
21- مشروعية قضاء الفائنة: 169
22- ولا يتحقق المكر السيئ إلا بأهله: 169
23- جلد الكافر في مواطن الشدة: 170
24- من يخذل الله يُخذل: 170
25- فضائل لسعد بن معاذ رضي الله عنه: 171
26- ضمة القبر نسأل الله العافية : 173
27- الحرب خدعة: 174
28- الإسلام يكرم المرأة : 174
29- شجاعة المرأة المسلمة: 175
30- من أدب الخلاف: 175
31- عدم صحة ما يروى عن جبن حسان رضي الله عنه: 176
32- التوفيق في اختيار الواقع : 177
33- إحكام الخطة في المعركة: 178
34- الاهتمام بالجبهة الداخلية: 178
35- معجزات أيد الله بها نبيه ﷺ : 182
36- بث الخذلان في صفوف الأعداء: 183
37- أهمية الصلاة الوسطى: 184

38- بين التصور والواقع:	185
39- ولينصرن الله من ينصره:	186
40- شدة عداوة اليهود للإسلام وأهله:	186
41- جواز قتال من نقض العهد:	187
42- جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم:	187
43- مشروعية الاجتهاد في الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها:	188
44- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :	189
45- حكم القيام إكراما للقادم:	189
46- البلاء والصبر:	191
47- الحلال والحرام:	191
48- جزاء عادل:	191
49- تخطيط محكم:	192
50- جنود الله تأتي بعد العمل بالأسباب:	193
غزوة خيبر دروس وعبر	194
غزوة خيبر	196
دروس وعبر من غزوة خيبر	199
1- النصر من عند الله :	199
2- الإخلاص في الجهاد:	200
3- دخل الجنة وما سجد الله سجدة:	200
4- بطل لكنه إلى النار:	201
5- صفية بنت حبي وزواجهما من النبي ﷺ:	201
6- تحريم أكل لحوم الحمر الإنسية:	203

7	- حرمة وطء السبايا الحوامل:.....	204
8	- حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:.....	204
9	- حرمة ربا الفضل:.....	205
10	- حرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبير الفضة بالورق العين:.....	205
11	- مشروعية المساقاة والمزارعة:.....	205
12	- حل أكل لحوم الخيل:.....	207
13	- تحريم المتعة:.....	207
14	- مشاركة المرأة في غزوة خيبر:.....	208
15	- جواز القتال في الأشهر الحرم :.....	209
16	- عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض :.....	209
17	- إذا خالف أهل الذمة شيئاً مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة :.....	210
18	- حب الصحابة للنبي ﷺ :.....	210
19	- الغلول قبل القسم لا يملك وإن كان دون الحق:.....	210
20	- استحباب التفاؤل :.....	211
21	- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم :.....	211
22	- جواز جعل عنق الرجل أمنته صداقاً لها بغير إذنها وبلا شهود ولا ولی غیره :.....	211
23	- تربية المجاهدين:.....	212
24	- التزام الأمر في كل شيء وليس في القتال فقط أو الكف عنه:.....	212
25	- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ما لم يتضمن ضرر ذلك الغير :.....	213
26	- جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة من حضر مكان القتال :.....	213
27	- مشروعية تقبيل القادم والتزامه :.....	214

214	28- معجزات للنبي ﷺ في خير:
215	29- فضل الدعوة الى الله تعالى :
215	30- حادي القوم:
216	31- الشوري في غزوة خير:
216	32- ومن الأحكام في هذه الغزوة :
217	33- اللجوء إلى الله وتعظيم شعائر الإسلام:
217	34- موقف حزم وخبرة من عباد بن بشر:
218	35- شجاعة علي بن أبي طالب ؓ:
219	36- نتائج خير:
220	غزوة بني المصطلق دروس وعبر
222	غزوة بني المصطلق
224	دروس وعبر من غزوة بني المصطلق
224	1- المنافقين و محاولة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:
225	2- عبد الله بن أبي والإساءة إلى الرسول ﷺ:
226	3- (أ) الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصفة الداخلية:
228	4- (ب) (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا):
228	5- (ج) مثل أعلى في الإيمان:
229	6- (د) محاربة العصبية الجاهلية:
230	7- توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق:
232	Hadathat al-Ifak wal-Duroos wal-Ubri minha:
233	9- (ب) الخير ييزغ في الشر:
234	10- (ج) الحفاظ على سمعة المؤمنين:
234	11- (د) تكذيب القائلين بالإفك:

12 - (ه) بيان فضل الله على المؤمنين ورافقته بهم:.....	234
13 - (و) التثبت من الأقوال قبل نشرها:.....	234
14 - (ز) النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه:.....	234
15 - (ح) النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين:.....	234
16 - (ط) بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورافقته بهم وكرر ذلك تأكيداً له:.....	235
17 - (ي) النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك:.....	235
18 - (ك) الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا ^(١) :.....	235
20 - من سنن الله:.....	236
21 - الناس مع الإلفك أربعة أقسام:.....	236
22 - الصالحون مستهدفوون:.....	238
23- بشرية الرسول ﷺ:.....	238
24 - منهج مواجهة الشائعات:.....	238
25 - حد القذف وأهميته في الحفاظة على أعراض المسلمين:.....	240
26 - الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي:.....	241
27 - اعتذار حسان <small>رضي الله عنه</small> للسيدة عائشة ل:.....	241
28 - جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار:.....	242
29- مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر:	242
30 - كفر من سب عائشة ل:.....	242
31 - حكم العزل عن النساء:.....	242
فتح مكة دروس وعبر	243
غزوة فتح مكة	245
دروس وعبر من غزوة فتح مكة	248

1- على المسلمين أن يتلوكوا المبادأة:	248
2- تحقيق المفاجأة وخداع العدو:	248
3- الكتمان:	249
4- بعد النظر:	252
5- العقيدة قوة عظمى:	253
6- أهمية المعنويات في الجهاد:	253
7- رسول السلم ﷺ:	254
8- حكم التحالف مع غير المسلمين فيما لا يتعارض مع الإسلام:	255
9- أسباب مساعدة لفتح مكة وتأديب كفارها :	256
10- عزل العدو دولياً.....	257
11- الثقة واليقين بنصر الله عز وجل:	257
12- تجريد العدو من إرادة القتال:	259
13- النصر ليس مداعاة للكبر:	261
14- الإسلام دين سلام ودين قوة:	263
15- موافق دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس:	264
16- العاقبة للمتقين:	269
17- في الإسلام "لا ويل للمغلوب "	270
18- لا شفاعة في حدود الله؟	271
19- الوفاء الحمدي:: الحيا محياكم والممات مماتكم:	271
20- السلام لا يعني الاسترخاء في الإعداد وبناء القوة:	272
21- كشف خبر حاطب:	272
22- قبول عذر المسلم:	273
23- غضب الصحابة لله:	274

24- الفطر في السفر وأنه أفضل من شق عليه الصوم: -	275
25- إرهاب العدو بالقوة:	275
26- قراءة القرآن على الدابة:	275
27- طمس الصور:	276
28- عدم موالة المشرك ولو كان قريباً:	276
29- رعي النبي ﷺ للغنم:	277
30- قبول الهدية ولو كانت يسيرة:	277
31- الأمان للمشرك:	278
32- صلاة الضحى:	278
33- الصلاة داخل الكعبة:	278
34- قبول إجارة المرأة:	279
35- الكلام في المغتسل للحاجة:	279
36- عودة حرمة مكة:	279
37- لا يرث المسلم الكافر:	280
38- تغيير الشيب بغير السواد:	280
39- أداء الأمانة إلى أهلها:	281
40- لبس السواد للحاجة:	281
41- لبس أدوات السلاح داخل الحرم:	282
تأملات في قصة حاطب بن أبي بلتعة:	282
42- الموازنة بين المصالح والمفاسد : (التخزن الكتاب أو لنجردك).	282
43- عدم التسريع في إصدار الأحكام :	282
44- المصارحة والوضوح : (ما حملك على ما صنعت ؟)	283
45- الاستماع إلى الرأي المخالف :	283

46-	تحریم نکاح المتعة:.....	283
47-	الولد للفراش والعاهر الحجر:.....	283
48-	إنزال الناس منازلهم:.....	284
49-	وجوب كسر الأصنام:.....	284
50-	جواز صلح أهل الحرب :.....	284
51-	رسول الكفار لا يقتل :.....	284
52-	جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلما :.....	284
53-	جواز تحرید المرأة للمصلحة العامة :.....	285
54-	الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تکفر بالحسنة الكبيرة الماحية :.....	285
55-	قوة إيمان حاطب في شهود بدر محت ما صنع :.....	286
56-	دروس من خطبته العظيمة ﷺ ثاني يوم الفتح :.....	287
57-	جواز إجارة المرأة وأمانها للرجلين:.....	288
58-	جواز قتل المرتد الذي تغلوظت رده من غير استتابة :	288
59-	مثل لعزة الإسلام والمسلمين(أذان بلال في الكعبة) :	289
	غزوة حنين دروس وعبر ...	290
	غزوة حنين.....	293
	دروس وعبر من غزوة حنين	294
1-	القوة لله جيئا:.....	294
2-	إرسال العيون لطلب أخبار العدو:.....	295
3-	ضيمان العارية إذا تلتفت:.....	297
4-	مشاچة هذه الأمة الأمم السابقة:.....	297
5-	التكبير عند التعجب والاستغراب:.....	298
6-	لا رجعة للوثنية:.....	298

299	7 - الحراسة في الغزو:.....
301	8 - التوكّل لا ينافي العمل بالأسباب:.....
302	9 - الالتفات في الصلاة للحاجة:.....
302	10 - الإعجاب بالكثرة يحجب نصر الله:.....
303	11 - الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:.....
306	12 - الصبر على جفاء الأعراب:.....
306	مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب.....
307	13 - تعامله ﷺ مع هوانن لما أسلمت:.....
310	14 - تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:.....
310	15 - أسباب الهزيمة:.....
311	16 - عوامل النصر:.....
312	17 - نزول الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكْتُ أَهْمَانُكُم﴾ [النساء: 24]:.....
312	18 - منع المختين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات:.....
312	19 - النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء من لا يشترون في القتال ضد المسلمين:.....
313	20 - تشريع العمرة من الجعرانة:.....
313	21 - إرشاده ﷺ للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج:.....
314	22 - من قتل قتيلاً فله سلبه:.....
315	24 - وفاة ندر كان في الجاهلية:.....
316	25 - أنس بن أبي مرثد الغنوبي وحراسة المسلمين:.....
317	26 - شجاعة أم سليم يوم حنين:.....
317	27 - الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ من الرضاعة:.....

28-	إسلام كعب بن زهير -الشاعر- والهيمنة الإعلامية على الجريدة:	318
29-	رفع الصوت للحاجة:	320
30-	تأثير قبضي الحصى والتراب في أعين الأعداء:	320
31-	فضل أبي سفيان بن الحارث <small>رضي الله عنه</small> :	321
32-	بيان خطورة الشرك بالله:	322
33-	ثباته <small>صلوة الله عليه</small> وأثره في كسب المعركة:	323
34-	جواز مقاتلة النساء عند أمر الفتنة:	324
35-	ما كان لبني أن تكون له خائنة الأعين :	325
36-	معجزتان حسيتان للنبي <small>صلوة الله عليه</small> :	325
37-	ذكر الرجل نفسه عند اللقاء ببعض مناقبه:	327
	وقفات تربوية مع حديث تقسيم الغائم في حنين ^(١) .	328
38-	الوقفة الأولى: كرم بلا حدود:	328
39-	المصلحة الشرعية ميزان العطاء والمنع:	329
40-	المبادرة إلى حل الإشكالات:	330
41-	الحلم مع القدرة:	332
42-	الصراحة، والوضوح:	333
43-	الموعظة وليس الغلطة والفظاظة:	334
44-	التذكير بالفضائل لأجل المتابعة:	335
45-	لا لإشاعة أخبار المشاكل:	339
46-	التعيم لا التعين:	340
47-	فضيلة الأنصار:	342
48-	استخدامه <small>صلوة الله عليه</small> أسلوباً جديداً في القتال:	342
49-	اختيار رسول الله <small>صلوة الله عليه</small> مكاناً مناسباً عند القتال:	343

50- استخدام الحرب النفسية والدعاية:	344
51- مناداة الناس بمناقبهم شرف لهم:	344
52- في أمور الحرب وسياسة القتال:	344
53- ضرب الأمثال:	345
54- الله حكم:	346
55- عدم جواز قتل النساء والصبيان وغيرهم من الضعفاء:	346
56- الإلحاح في الدعاء وقت الأزمات:	348
57- جواز العارية:	348
58- مشروعية الدعاء للكافرين بالهدایة:	349
59- استشهاد أبي عامر الأشعري:	350
60- جواز عقر مركوب العدو إذا كان عوناً على قتله :	350
فوائد تربوية:	350
61- البناء العقدي والتربوي:	350
62- معاملة كل فرد بما يصلحه:	351
63- المال لله يضعه حيث يشاء:	351
غزوة تبوك دروس وعبر ...	353
غزوة تبوك	355
دروس وعبر من غزوة تبوك	359
-1 ليميز الله الخبيث من الطيب:	359
-2 الإيمان يصنع العجائب:	359
-3 أمة الجهاد:	360

3.....	الإنفاق في هذه الغزوة وحرص المؤمنين على الجهاد:
360	
4-.....	الإخلاص وحب الجهاد:
362	
5-.....	جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضي المصلحة ستره:
364	
6-.....	قصة أبي ذر الغفارى وال عبر منها:
366	
7.....	قصة أبي حيثمة والدروس منها:
367	
8-.....	الحق لا بد له من قوة :
370	
9.....	العقيدة أقوى سلاح:
370	
10.....	وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحجر ثود:
370	
11.....	وفاة الصحابي عبد الله ذي البجادين ؓ :
371	
12.....	موقف المنافقين من غزوة تبوك:
373	
13.....	جواز القتال في الأشهر الحرم :
376	
14.....	بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة:
376	
15.....	إذا استنفر الإمام الجيش لزمهن التفير:
379	
16.....	خطر الاستهزاء بالدين والصالحين:
380	
17.....	وجوب الجهاد بمالا:
382	
دروس من قصة مسجد الضرار:	
382	(ب)محاولة التدليس على المسلمين:
382	(ج)فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين:
383	(د)العلاج النبوى الحاسم:
383	(ه)ما يلحق بحكم مسجد الضرار:
384	(و)قاعدة معرفة ما يلحق بمسجد الضرار :
385	(ز) مساجد الضرار في بلاد المسلمين:
24.....	

25-	لا يعذر العاجز بماله حتى يبذل جهده:	386
	دروس وعبر من قصة المخلفين الثلاثة:	386
26-	(أ) الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب الرفيع:	391
27-	(ب)الصدق سفينة النجاة:	392
28-	(ت) الهجر التربوي وأثره في المجتمع:	392
29-	(ث)تنفيذ أوامر القيادة في المجتمع المسلم:	393
30-	(ج)الولاء التام لله ورسوله:	393
31-	(ح)توبة الله على العبد قيمة دينية يتطلع إليها الصادقون:	394
32-	(خ)تشريع أنواع من العبادات شكرًا لله عند النعمة:	395
33-	(د)لم يكن يتخلّف عنه ﷺ إلّا منافق أو معذور أو من خلفه النبي ﷺ:	396
34-	(ر)جواز الطعن اجتهادا:	396
35-	(ز)الحكم بالظاهر :	396
36-	(س)ترك رد السلام على من أحدث حدثا :	396
37-	(ش) تبسم الغضب :	396
38-	(ص)جواز معايبة الإمام والمطاع أصحابه:	397
39-	(ط)توفيق الله لکعب وصحابييه:	397
40-	ظ(خ)يه ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة لتأديبهم دليل على صدقهم:	397
41-	(ع)التنكر والوحشة دليل على حياة القلب:	398
42-	(غ)رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب :	399
43-	(ف)دخول دار الصاحب من غير إذن :	399
44-	(ق)ابتلاء الله لکعب بمكتابة ملك غسان له:	399
45-	(ك)إتلاف ما يخشى منه المضررة في الدين:	399
46-	(ل)عداوة غسان لرسول الله ﷺ وكتابه ﷺ لهم :	399



400	- (م) حرص الصحابة على الخير : 47
400	- (ن) استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية : 48
401	- (ه) يوم توبه المسلم خير الأيام : 49
401	- (و) سروره ﷺ بتوبة الله على المخالفين دليل على شفنته على أمته : 50
401	- (ي) من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمها إخراج جميعه: 51
402	- استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على من بقي : 52
402	- معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة تبوك: 53
403	- ممارسة الشورى في هذه الغزوة: 54
405	- لا يجوز الشرب ولا الطبخ ولا العجن ولا الطهارة من آبار ثمود : 55
405	- جواز الجمع بين الصلاتين في السفر : ... 56
405	- جواز التيمم بالرمل : 57
405	- ترجيح قصر الصلاة في السفر دون تحديد مدة الإقامة : 58
406	- التدريب العملي العنيف: 59
407	- تركه ﷺ قتل المنافقين : 60
408	- ثواب من حبسه العذر: 61
408	- تحريق أمكنة المعصية وهدمها : 62
409	- جواز إنشاد الشعر للقادم فرحاً به : 63
409	- أهم نتائج الغزوة: 64
411	ختاماً
413	المصادر والمراجع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحمد لله مُعزٌ من أطاعه واتقاء، ومذلٌ من خالف أمره وعصاه،
فاهر الجباره وكاسر الأكاسره، لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه،
ينصر من نصره ويغضب لغضبه ويرضى لرضاه، أحمده سبحانه
وأشكره حمدًا وشكراً يملآن أرضه وسماءه، وأشهد أن سيدنا ونبينا
محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه ومصطفاه، صلى الله وسلم
وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين ولكل من نصره ووالاه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُولُوا أَنَّهُ حَقٌّ تُقَاتَلُونَ وَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمُ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾

[آل عمران: 102]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَتَقُولُوا أَنَّهُ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

[النساء: 1]

وبعد :

حين ينظر المرء نظرةً لواقعنا ، ويقارنه بماضينا يت hypers ، يت hypers يوم يجد البؤن شاسعاً و الفرق عظيماً ، يت hypers يوم يرى تلك الأمة وقد كانت قائدة و إذا بها قد أصبحت تابعة.

الأمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعود إلى المنهج النبوى والسيره النبوية لأخذ الدروس وال عبر النيرات المباركات ، و تتعلم منها الآداب الرفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسمو الأخلاق ، وطهارة القلب ، وحب الجهاد في سبيل الله ، وطلب الشهادة في سبيله؛ ولهذا قال علي بن الحسن: «كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة

من القرآن» وقال الزهري: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»⁽¹⁾. وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ يعدها علينا ويقول هذه مأثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»⁽²⁾.

اقرءوا التأريخ أذ فيه العبر *** ضلَّ قَوْمٌ لَيْسَ يَذْرُونَ الْخَبْرَ
وها نحن نحط وإياك أخي القارئ في بداية هذه الموسوعة المباركة
بإذن الله : (غزوات النبي المصطفى دروس و عبر).

وفيها حاولت الغوص في بطون كتب السيرة النبوية القديمة والمعاصرة لاستلهام الدروس وال عبر من غزوته ﷺ بلا إطالة ولا إسهاب في ذكر الروايات والأثار والأحاديث لتكون سهلة الفائدة للقارئ الكريم.

وأسأل الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيمة إنه ولني ذلك وال قادر عليه .



غزوة بدر دروس و عبر

أول محطة نقفها وإياكم في هذه الموسوعة مع غزوة بدر الكبرى ، وسوف ننقى الضوء على بعض الدروس وال عبر حول هذه الغزوة ليأخذ المسلمين منها الزاد في مقارعة الأعداء ومنازلة الخصوم، في هذا الوقت العصيب الذي تداعى فيه الأكلة لغزو بلادنا، وتتدليس أرضنا، ونهب خيراتنا، على نهر من الدماء، وتلال من الضحايا والأشلاء، متجاوزين بذلك كل الموثيق والأعراف الدولية، بل متجردين من كل معاني الإنسانية.

(1) البداية والهداية: لابن كثير(3)، 257 ط/ دار المعرفة، (3) 242/ ط2/ 1978م مكتبة المعرفة - لبنان ، مكتبة النصر - الرياض.

(2) انظر: البداية والهداية (2) 242/ ط.

ال المسلم عندما يطالع أنباء موقعة بدر، ويستعرض مقدماتها ونتائجها؛ يشعر أن لها منزلة خاصة، ويدرك أن التاريخ أودع في فصولها سرًا تكتنفه الهيبة، وجعل من أدوار القتال فيها موظةً خالدةً لا تفتأ تتجدد ذكرها ما بقي في الدنيا قتال بين الحق والباطل، وصراع بين الظلم والنور.

غزوة بدر الكبرى: إنها الموقعة الفاصلة في عبادة الله على هذه الأرض هل ستبقى أم ستفنى؟! ويشعر قائد المعركة بهذه الحقيقة الحاسمة فيلجاً إلى الله مستنجزاً وعده، مستقبل القبلة، وماداً يده يهتف :«**اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعْدَنِي، اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعْدَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَنْ تُثْبِتَ فِي الْأَرْضِ**»، وما يزال يهتف بريه ماداً يديه حتى سقط رداوه عن منكبيه، وحتى نزل الوحي مطمئناً؛

﴿سَيِّرْهُمْ جَمِيعًا وَيَوْمَئِنَ الْذِبْرَ﴾ [القمر: 45]

غزوة بدر الكبرى: موقعة تكون الخصومات فيها في الله، ويكون القتال فيها بدايةً لسلسلة من المعارك، يحتمم النزاع فيها بين الحق والباطل، هذه السلسلة من المعارك التي خاضها المسلمون – من بعد فارس والروم لا تحسب الصلة بينها وبين بدر مقطوعة؛ إنها صلة النسب بين الأصل ونتائجها؛ فكان أول سيف شهراً في بدر إذًا بابتداء النضال المسلح بين الحق والباطل، كلما انتهت معركة قامت أختها.

غزوة بدر الكبرى: هي أعظم غزوات الإسلام فضلاً وشرفًا للأسباب التالية:

أولاً: لأنها أول غزوة كان لها أثرها في إظهار قوة الإسلام، كانت بدء الطريق ونقطة الانطلاق في انتشار الإسلام.

وثانياً: لأنها رسمت الخط الفاصل بين الحق والباطل، وكانت الفرقان النفسي والمادي والمفاصلة التامة بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعانى، فعاشرها الصحابة واقعًا مادياً وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت قيم الجاهلية، فالنقي الابن مقاتلاً لأبيه وأخيه والأخ مواجهة لأخيه.

وثالثاً: لأن المحرك لها هو الإيمان بالله وحده، لا العصبية ولا القبيلة ولا الأحقاد والضغائن ولا الثأر، وفيها تجلت صور رائعة من الإيمان بالله وصفاء العقيدة وحب هذا الدين.

✿ **غزوَة بدر الكبُرى:** بنت التصور الإسلامي لعوامل النصر

والهزيمة بطريقة عملية واقعية، وقررت أن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة، وإنما بمقدار الاتصال بالله الذي لا يقف أمامه قوة العباد، ليوقن المسلمون في عصورهم المختلفة أنهم يملكون في كل زمان ومكان القدرة للتغلب على أعدائهم مهما كانوا هم من القلة وعدوهم من الكثرة، شريطة أن تتحقق فيهم عوامل النصر الحقيقة.

✿ غزوَة بدر الكبُرى: تُعد ميلاداً ثانياً لقوَّةٍ ناهضةٍ ودولَةٍ ناشئةٍ لل المسلمين، ظنتها قريش لا تقوى على مطاولة أو محاولة، لكن نصر الله لل المسلمين في هذه الغزوَة مَكِّن للدين في النفوس، وللإسلام في جزيرة العرب، بل العالم كله.

✿ غزوَة بدر الكبُرى: كانت إيقافاً لمَدِ الشراك على ظهر الأرض وتقليم أظافره والإطاحَة بكل رؤوسه ودفهم في بدر، لقد خرج أبو جهل وقال له الناس: ارجع قد نجت التجارة، ارجع لا داعي للاشتباك مع محمد فقال: لا، وأقسم باللات والعزى أنه لن يرجع، حتى يرد بدر فيقيم فيها ثلثاً، ماذا يصنع؟ ينحر ويذبح ويشرب ويُغْنِي ويُعْزِف وتسمع الدنيا بمسيرته، فلا يجرؤ محمد ولا غيره أن يتعرّض لهم مرة أخرى، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ بَطَرًا وَرَثَاءَ

النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ٤٧
 الشَّيْطَنُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ
 فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَنَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
 إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٤٨ [الأنفال: 47، 48]

✿ **غزوة بدر الكبرى:** أوقفت التطاول على رُسُل الله وعلى منهج الله وعلى دين الله، ولذلك القرآن الكريم يقول لل المسلمين لأهل بدر: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ ذَاتَ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُم﴾ [الأفال: 7] تريدون التجارة والله يريد أمراً آخر، أمراً كبيراً، أمراً عظيماً، أمراً هو بداية للبشرية، للحياة الحقيقة للبشرية ﴿وَيَرِيدُ اللَّهُ أَن يُحَقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ

✿ **دار الکفرین** [الأفال: 7]

✿ **غزوة بدر الكبرى:** ليست كتاباً يقرأ ولا محاضرة تُقال، بدر ينبغي على المسلم أن يعيشها وهي حُجَّة على كل مسلم على ظهر الأرض، أن النصر منه قريب لو آمن بالله حقاً، وأنه لا يهودية ولا نصرانية ولا شيوعية، كل هؤلاء عندما يعتصم المسلمون بالله يصبحون هباء ويصبحون هواء، ونفحة واحدة لا تُبقي منهم أحداً، حين أقبل أهل بدر على المولى - تبارك وتعالى - وصدقوا وتجددوا وأخلصوا وطرحوا الدنيا وراءهم، ووضعوا في أنفسهم أمراً واحداً؛ أن تكون كلمة الله هي العليا وما عداها السفلى عندها قال الله لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ

✿ **قتَّلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكُنَّ اللَّهُ رَمَى﴾ [الأفال: 17]**

✿ **غزوة بدر الكبرى:** التي فرضت على المسلمين فرضاً، وفوجئوا على غير استعداد بتحدي صناديد قريش وأبطالها لهم؛ ولم يكن بُدُّ من قبول هذا التحدي، وواجهه النبي ﷺ الموقف بما يتطلبه من إيمان وثقة، غير أن كثيراً من المسلمين تسائل..؛ إذ كيف يواجه هذا العدو الذي لم يستعد له؟! ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فِرَقَأَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ

✿ [الأفال: 5]

✿ **غزوة بدر الكبرى:** التي كانت بعد أن بلغ المسلمين تحركاً قافلة

تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة⁽¹⁾ اقرىش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلاً⁽²⁾ ، فأرسل الرسول ﷺ بسبس بن عمرو⁽³⁾ لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله ﷺ أصحابه للخروج وقال لهم: «**هذه غير قريش فيها أموالهم فاخروا إليها لعل الله ينفكموها**»⁽⁴⁾، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه⁽⁵⁾ من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده غير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلماً وعدواناً⁽⁶⁾.

✿ غزوة بدر الكبرى: كان عدد المسلمين فيها ثلاثة وتسعة

عشرة رجال⁽⁷⁾، من المهاجرين ستة وثمانون ومن الأوس أحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعين وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج ، وإن كانوا أشد منهم وأقوى شوكه وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت في عالي المدينة ، في حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثة»⁽⁸⁾ ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثة وأربعين من الصحابة البدربيين⁽⁹⁾ وكانت قوات المسلمين في بدر لا تمثل القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية، ذلك أنهم إنما خرروا لاعتراض قافلة واحتواها، ولم يكونوا يعلمون أنهم سوف يواجهون قوات قريش

(1) قدرت قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي 50 ألف دينار، انظر: موسوعة نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (286/1).

(2) جوامع السيرة لابن حزم ص(107).

(3) ورد الاسم في صحيح مسلم بصيغة التأنيث مصححاً إلى بسيسة وصححه ابن حجر.

(4) ابن هشام السيرة (61/2) بسنده صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

(5) انظر: حديث القرآن عن زوجات الرسول، . محمد آل عابد (43/1).

(6) مسلم، شرح النووي (84/12).

(7) فتح الباري (290/7-292).

(8) البداية والنهاية (314/3) وكذلك الطبقات، وخليفة بن خياط.

وأحلافها مجتمعة للحرب، والتي بلغ تعدادها ألفاً⁽¹⁾ معهم مائتا فرس يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القيان يضربون بالدفوف، ويغنين بهجاء النبي ﷺ وأصحابه، في حين لم يكن مع القوات الإسلامية من الخيل إلا فرسان، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبها⁽²⁾.

غزوة بدر الكبرى: التي استشهد فيها من المسلمين يومئذ أربعة عشر رجلاً : ستة من المهاجرين وستة من الخزرج ، واثنان من الأوس ، وفرغ رسول الله ﷺ من شأن بدر والأسرى في شوال .

غزوة بدر الكبرى بالأرقام:

عدد المسلمين: (314) .

عدد المشركين: (1000) .

شهداء المسلمين: (14).

قتل المشركين: (70) قتيلاً، و(70) أسيراً وعامتهم من القادة والزعماء والصناديد.

العتاد: المسلمين لم يكن معهم سوى (فرسين).

المشركون: (100) فرس عليها مائة درع، سوى دروع في المشاة، و(700) (ناقة).

غزوة بدر الكبرى : هي الغزوة الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام، والتي أعز الله فيها الإسلام وأهله، ومرّغ أنف الشرك في أولى الهزيمة بعد أن قذفت قريش في خضم هذه المعركة برجالها وصناديدها، ولكن الله جعل كيدهم في نحورهم، لأنهم خرموا، والغرور يملأ نفوسهم، والشيطان فيها حليفهم.

(1) البداية والنهاية (3/260).

(2) المسند (411/1)، مجمع الزوائد (69/6)، جوامع السير، ص108

غزوة بدر الكبرى : هي الغزوة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون فرقاناً بين الحق والباطل، وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي، ومن ثم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني.

غزوة بدر الكبرى : هي الغزوة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يتعلم المؤمنون منها عوامل النصر وعوامل الهزيمة، وأن يأخذوها مباشرة من الله عز وجل، وهو في ميدان المعركة وأمام مشاهدها.

غزوة بدر الكبرى : هي الغزوة التي تجلت فيها نعم الله تعالى على عباده المؤمنين بالنعاس والمطر والملائكة.

غزوة بدر الكبرى : هي الغزوة التي تجلت فيها روح الإيمان والإخلاص لله تعالى ومبدأ الإعداد والتخطيط الدقيق من قبل الرسول ﷺ وأصحابه لهذه الغزوة.

غزوة بدر الكبرى : هي الغزوة التي تجلت فيها مبدأ الأخذ بالأسباب ومبدأ الشورى بين القائد والجيش.

هذه غزوة بدر الكبرى إجمالاً وإليك أخي القارئ الدروس وال عبر من هذه الغزوة بالتفصيل والله الموفق وعليه التكalan.



1- وعسى أن تنبوا شيئاً وهو شر لكم:

حين نودي على الجهاد وعد الله المؤمنين هذا الوعد:

(وَإِذْ يَعْذِّكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ دَاتِ

الشَّوْكَةُ تَكُونُ لَكُمْ [الأناشال: 7] .. والنفـس البشرية دائمـاً تمـيل إلـى الراحة والدـعة وتنـتـوقـيـ المـشـقةـ والمـضـرـ، ولو كانـ فـيـ الـراـحةـ الخـسـرانـ وـفيـ الـضـرـ وـالمـشـقةـ النـصـرـ وـالـتـمـكـينـ وـهـذـاـ مـاـ حـكـاهـ الـقـرـآنـ، فـيـ هـذـاـ الـوـعـدـ وـيـتـأـكـدـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: **كِتَابٌ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْزٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** [آلـبـقـرةـ: 216].

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكرور قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكرور، لم يأمن أن توافقه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد. قال الحسن رحمه الله: "لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك"، وأنشد أبو سعيد الضرير:

ربِّ أَمْرٍ تُنْقِيَهُ جَرَّ أَمْرًا تُرْتَضِيهُ خَفِيَ المَحْبُوبُ مِنْهُ وَبِدَا
الْمَكَّةُ رَوَهُ فِي هَذِهِ الْمَكَّةِ
وَمِنْ كَلَامِ الْحَكَمَاءِ:

"رب مسرا هى الداء، ومرض وهو الشفاء".

وکما قیل:

لَكَ بَيْنَ أَنْيَابِ النُّوَائِبِ
مِنْ حَيْثُ تَرْتَقِبُ الْمُصَابَّ
وَمِسْرَةٌ قَدْ أَقْبَلَتِ
فَاصْبِرْ عَلَى حَدَّثَانِ دَهْرَكِ فَالْأَمْرُ لَهَا عَوَاقِبُ
وَلَكُلَّ كَرْبٍ فَرْجَةٌ وَلَكُلَّ خَالِصَةٍ شَوَّائِبُ
وَ(عَسَى) مِنَ اللَّهِ إِيْجَابٌ، وَالْمَعْنَى عَسَى أَنْ تَكُرُّهُوا مَا فِي الْجَهَادِ مِنَ
الْمَشْفَةِ، وَهُوَ خَيْرُ لَكُمْ فِي أَنْكُمْ تَغْلِبُونَ وَتَظَافِرُونَ وَتَعْنَمُونَ وَتُؤْجِرُونَ،
وَمِنْ مَاتَ مَاتَ شَهِيدًا، وَعَسَى أَنْ تَحْبُوا الدُّعَةَ وَتَرَكُوا الْقِتَالَ، وَهُوَ شَرٌّ
لَكُمْ فِي أَنْكُمْ تُغْلِبُونَ وَتُذَلَّلُونَ وَيَذْهَبُ أَمْرُكُمْ، ثُمَّ يَقُولُ الْقَرْطَبِيُّ مَعْقِبًا:
وَهُذَا صَحِيحٌ لَا غَبَارٌ عَلَيْهِ، كَمَا اتَّفَقَ فِي بَلَادِ الْأَنْدَلُسِ، تَرَكُوا الْجَهَادَ،
وَجَبَّنُوا عَنِ الْقِتَالِ، وَأَكْثَرُوا مِنِ الْفَرَارِ، فَاسْتَوْلَى الْعَدُوُّ عَلَى الْبَلَادِ،

وأي بلاد؟! وأسر وقتل وسبى واسترق، فإنما لله وإنما إليه راجعون!
ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!»

هذا الذي قاله الإمام القرطبي على الأندلس نقوله نحن عن فلسطين، وقد انتزعها بضعة ملايين من يهود، من أيدي مليار مسلم؛ وذلك لتركهم الجهاد، وقعودهم عن القتال، وإخلادهم إلى الأرض، وإتباعهم الشهوات؛ إذ الجهاد والقتال كريه إلى النفس وبغيض إلى القلب، بينما الترف والشهوات وزينة الأرض محبوبة إلى النفس ويهواها القلب، وغابت عنهم حقيقة هذه الآية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وَفِي بَدْرٍ {لِيُحَقَّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَيُقْطَعَ دَابِرُ الْكَافِرِينَ لِيُحَقَّ الْحَقُّ وَيُبْطَلَ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرُمُونَ} [الأنفال: 7].

2- قوّة الإيمان هي السلاح البتار:

فما الذي حمل هؤلاء الأصحاب على أن يقفوا هذا الموقف مع أن جذوة المعركة وجوانبها المادية؛ لتجعل أشد الناس تفاولاً ينظر إلى آثارها من خلال غيوم سود؟

إنه الإيمان بالله الذي يضع أمر الله ورسوله في جانب، والدنيا كلها في جانب آخر، وإنه التسليم لله ورسوله مهما حذر العقل، ونهت ظواهر الأشياء، وإنها الثقة التي لا تجادل في أن الموت في الله شرف، لا يقل عن شرف النصر على الناس، وهيئات لمن يحمل هذه المبادئ أن يذل أو يهزم، أو يكون بعيداً عن تأييد الله ونصره.

وهكذا جرفت موجة الإيمان كافة عوامل التردد، وجاءت الساعة
الرهيبة ودار القتال، ومشي ملأ الموت يقطع رقاب الكفار، وتنجست
الرمال بدماء الطائفة التي أذت الله ورسوله، ووطئت أقدام المسلمين
حوداً وحياماً طالما استنكرت أن تُسجد لله رب العالمين.

يقول شاهد عيان لأبي ل heb يصف له ما كان: ولا تسيء يا عماء ما كان إلا أن لقيناهم فمن حنناهم أكتافنا يقتلوننا؛ ويأمر وننا كيف شاءوا.. لقينا رجالاً لا يتلقاهم شيء، ولا يقوم لهم شيء، وصدق الله

العظيم إذ يقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمِيتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُّلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
ذَلِكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ مُوْهِنٌ كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ [الأناشيد: 18.17].

3- قوة الترابط بين المؤمنين:

وبعد قوة الإيمان تأتي قوة الترابط بين المؤمنين والمحبة فيما بينهم والتاليف بين قلوبهم، وهذه منة من الله ومن أعظم أسرار النصر: يقول الله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكُ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأناشيد: 63-62].

وقفنا أمام غزوة بدر الكبرى، فعلمنا أن من أسباب النصر العظيمة تآلف القلوب وتراحمها، كان أصحاب النبي في قلة من العدد والعدة، ولكن كانت بينهم المحبة والصفاء والمودة، كانوا متراحمين متعاطفين متألفين متكافئين متناصرين متازرين، شعارهم: لا إله إلا الله فسبحان من أعزهم وهم أذلاء، سبحان من أغناهم وهم فقراء، سبحان من رفعهم

وهم وضعاء.

التألف والتعاطف والتكافف والتناصر والتآزر سبيل إلى نصر المؤمنين، طريق لعزه الآخيار والصالحين، فإن وجدت أهل الإسلام متعاطفين متراحمين فاعلم أن النصر حليفهم، وإن وجدتهم منقاطعين متباعدين متلاحررين، إن مزقتهم الجماعات والحزبيات والرأييات والشعارات فادمع على الإسلام بين أهله.

إن من أبرز سمات معركة بدر أنه تلاشت فيها العصبيات والقبليات وعيبة الجاهلية، فلم يكن المسلمون ينتصرون لقبيلة أو لون أو جنسية، بل كانوا ينصرن الإسلام وأهله ويواجهون المشركين أعداء الله بغض النظر عما بينهم من خلافات إن وجد بينهم خلافات، **{الَّذِينَ آمَنُوا بِيَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}** [النساء:76]. وهذا هو حال المسلم في كل مكان وزمان، ينصر إخوانه المسلمين ولو اختلفت أسلفهم وألوانهم؛ لأنه بذلك ينصر الدين والعقيدة والملة، فالمسلمون يوم بدر قاتل الأخ أخاه والابن أبيه، فلا مجال للمساومات؛ إذ العقيدة لا تقبل المساومات ولا التنازلات. ولقد استشار النبي ﷺ الصحابة في أسرى بدر، فقال عمر له: أرى أن تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتمكّن علياً من أخيه عقيل فيضرب عنقه، وتمكّني من فلان نسيبي فأضرب عنقه، وأشار أبو بكر رض على الرسول ﷺ أن يقبل الفدية ففعل، فأنزل الله تعالى قوله: **{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُثْخَنَ فِي الْأَرْضِ}** [الأفال:67].

وما أحسن بيان هذا المعنى في قول الإمام البنا: "ولقد كنت -ولا زلت- أقول في كل مناسبة: "إنكم لن تغلبوا أبداً من قلة عدكم، ولا من ضعف وسائلكم، ولا من كثرة خصومكم، ولا من تأليب الأعداء عليكم، ولو تجمع أهل الأرض جميعاً ما استطاعوا أن ينالوا منكم، إلا ما كتب الله عليكم، ولكنكم تغلبون أشدَّ الغلب، وتفقدون كل ما يتصل بالنصر والظفر بسبب إذا فسدت قلوبكم، ولم يصلح الله أعمالكم، أو إذا تفرقت كلمتكم، واختلفت آراؤكم.. أما ما دمتم على قلب رجل واحد متوجه إلى الله تبارك وتعالي، آخذ في سبيل طاعته، سائر نهج مرضاته، فلا تهنووا أبداً ولا تحزنوا أبداً، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يترکم

أعمالكم".

والحديث عن غزوة بدر في سورة الأنفال يؤيد هذا المعنى؛ حيث يقول تعالى في صدر السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنُكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾ [الأنفال: 1].

فإصلاح ذات البين وتوحيد الصف، ورفع النزاع والخصومة بين المؤمنين من أولى مقومات النصر ولوازمه، والتفرق والتنازع من أعظم مسببات الضعف والفشل.. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 42].

4- الثبات وذكر الله عند لقاء الأعداء:

في الحديث عن غزوة بدر، والتعليق عليها في سورة الأنفال يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِيَّةً فَاثْبِتُوْا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45] أمر الله تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكروا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستغثثوا به ويتوكلوا عليه أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَاهُوتِهِ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرَغْ عَلَيْنَا صَبَرًا وَتَبَّتْ أَفْدَامَنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قُولُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا دُنْوَبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرَنَا وَتَبَّتْ أَفْدَامَنَا وَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147].

5- الشورى بين القائد الجندي:

لما بلغ النبي ﷺ نجاة القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم.

وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاءمة العدو⁽¹⁾ وكان للمقادير بن الأسود موقفاً متميزاً، فقد قال عبد الله بن مسعود رض: شهدت من المقادير بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به⁽²⁾: أتى النبي صل وهو يدعى على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَذْخِلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت الرسول صل أشرق وجهه وسره⁽³⁾، وفي رواية: ⁽⁴⁾ قال المقادير: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن امض ونحن معك، فكأنه سرّى عن رسول الله صل.

وبعد ذلك عاد رسول الله صل فقال: «أشيراوا عليّ أيها الناس»، وكان إنما يقصد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صل خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي صل من ذلك فنهض قائلاً: «والله لكانك تريدين يا رسول الله؟ قال صل: «أجل». قال: (لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخصته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريكم منا ما تقر به عينكم فسر على بركة الله)⁽⁵⁾. سرّ النبي صل من مقالة سعد بن معاذ، ونشرته ذلك فقال صل: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكانني أنظر إلى مصارع القوم»⁽⁶⁾.

كانت كلمات سعد مشجعة لرسول الله صل وملهمة لمشاعر الصحابة

(1) انظر: موسوعة نصرة النعيم (288/1).

(2) المبالغة في عظمة ذلك المشهد، وأنه كان لو خير بين أن يكون صاحبه وبين أن يصل له ما يقابل ذلك لكن حصوله أحب إليه.

(3) البخاري، كتاب المغازي (287/7).

(4) البخاري، كتاب التفسير (273/8).

(5) مسلم (1404/3) رقم (1779).

(6) انظر: البداية والنهاية (262/3) بإسناد صحيح، المسند (259/5) رقم (3698).

فقد رفعت معنويات الصحابة وشجعتهم على القتال.

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فاما إلى العلياء، وإما تحت الغراء⁽¹⁾.

٦- استكشاف قوة الأعداء :

قام النبي - ﷺ - باستكشاف قوة الأعداء بنفسه؛ حيث صحب أبا بكر، وتجوّلا حول معسكر مكة، فوجدا شيخاً من العرب فسألته رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه. سأله عن الجيشين زيادةً في التكتيم. ولكن الشيخ قال لا أخبر كما حتى تخبراني ومن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ . «إذا أخبرتنا أخبرناك»، قال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم» قال

الشيخ: "فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم مكان كذا وكذا- للمكان الذي به جيش المدينة- . وبلغني أن فريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا- للمكان الذي به جيش مكة".

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ : «نحن من ماء» ، ثم انصرف عنه وبقي الشيخ يتغوطه، ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟!

ثم أرسل ثلاثة من قادة المهاجرين، علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من الصحابة إلى ماء بدر فوجدوا غلماً يستقون لجيش مكة، فألقوا عليهم القبض وجاءوا بهم والرسول يصلي، فقالوا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهم فضربوهم، فقالوا: نحن لأبي سفيان، ونحن في العير، فأمسكوا بهم، فسلم رسول الله ﷺ وقال: «إِنْ صَدَقُوكُمْ ضَرِبْتُمُوهُمْ وَإِذَا كَذَبُوكُمْ تَرَكْتُمُوهُمْ؟» ثم أقبل عليهم يسألهم، فأخبروه أن قريشاً خلف هذا الكثيب وأنهم ينحررون يوماً عشراً ويوماً تسعراً، وأعلموه بمن خرج

⁽¹⁾ انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص 37.

من مكة، فقال ﷺ: «الْقَوْمُ مَا بَيْنَ الْأَلْفِ وَالْتَّسْعَمَائِةِ» ، وقال: «هذه مكة قد ألقى إلينكم أفالاً كبدها» (1).

كان من هدي النبي ﷺ حرصه على معرفة العدو والوقوف على أهدافه ومقاصده؛ ولأن ذلك يعينه على رسم الخطط الحربية المناسبة لمحاباته وصد عدوه، فقد كانت أساليبه في غزوة بدر في جمع المعلومات تارة بنفسه وأخرى بغيره، وكان ﷺ يطبق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذْأْعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].

7- المسلم الصادق موصول بجند السماء:

إن المسلم في مواجهته للباطل يحشد ما استطاع من قوة، ولا يدخر في ذلك وسعاً، ثم هو بعد ذلك لا يرهب قوة الأعداء، وإن كانت تفوقه عدداً وعتاداً؛ لأنه على يقين من أنه ليس في الميدان وحده، وإنما معه جند الله الذي لا يعلمها إلا هو، وفي بدر يتجلى ذلك في مواقف عدّة؛ حيث تنتصر القلة المؤمنة على الكثرة المشركة وذلك بفضل ما سخر الله للمسلمين من جند السماء والأرض والتي كان منها:

أ- الملائكة مدد من السماء: حين استغاث الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بربهم أدمهم بالملائكة: ﴿إِذْ شَسْتَغِيْثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمْدُّكُمْ بِالْفِيْلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِيْنَ﴾ [الأفال: 9]، والمتأمل يرى أن عدّة الملائكة بعدة المشركين، وبذلك يتحقق ما أخبر به الله من الشرى والطمأنينة للمؤمنين: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَّرَى وَلِتَطمَئِنَّ بِهِ فُلُوْبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأفال: 10].

ب- النوم والمطر: قبل المعركة كان المسلمين في حالة من التعب والإعياء والخوف يحتاجون إليها إلى قسط من الراحة قبل المواجهة،

كما أن ساحة المعركة كانت في حاجة إلى تجهيز وإعداد بما يمكن المسلمين من الحركة في الميدان وفي المقابل يعوق حركة المشركين؛ فأنزل الله عليهم النعاس والمطر .. **(إِذْ يُعَثِّكُمُ النَّعَاسٌ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُئْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رُجْزَ الشَّيْطَانِ وَلَيُرِبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُتَبَّتِّبَ بِهِ الْأَقْدَامُ)** [الأفال:11].

يقول الماوردي: "وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم، كما يقال: الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر (1)، وعن علي - قال: ما كان فيما فارس يوم بدر غير المقاداد، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلی تحت الشجرة حتى أصبح(2)، وعن عروة بن الزبير - قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد الأرض ولم يمنعهم المسير، وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه (3)، وروي أنهم كانوا على جنابة وظمة، وأن الشيطان ألقى في قلوبهم الحزن، وقال: أتر عمون أن فيكمنبياً، وأنكم أولياء الله، وتصلون محبين محدثين؟! فأنزل الله من السماء ماءً فسال عليهم الوادي ماءً؛ فشرب المسلمون وتطهروا وثبت أقدامهم وذهبت وسوسته

ج- سلاح الربع: إن سلاح الربع من أقوى الأسلحة التي يتحقق بها الغلبة على الأعداء، وهذا السلاح إذا سرى في أقوى الجيوش وأعتاها، فإنه ينهار ولا يعني عنه لا عدد ولا عتاد، وهذا السلاح لا يملك خزانته إلا من يقدر على الوصول إلى القلب الذي هو محل التثبيت والخوف والهلع، وتأمل قول رب القلوب: **(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَيْ مَعَكُمْ فَتَبَثِّوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)** [الأفال:12].

1) القرطي: 237 / 7

2) الدر المنشور: 310 / 3

3) الدر المنشور: 311 / 3

ومن خصائص نبينا ﷺ وخصائص الأمة الإسلامية النصر بالرعب مسيرة شهر؛ فعن جابر بن عبد الله أن النبي - ﷺ - قال : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأليماً رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغامن ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة» (١).

إن الرعب سلاح يفتّك بالمشركين والكافرين قبل المواجهة، قال الله تعالى : **{سَلَّقَيْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}** [آل عمران: 151] ، وفي حق يهود يقول : **{وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِيِ الْمُؤْمِنِينَ قَاعِتُرْبُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ}** [الحشر: 2] ، وفي حق الأحزاب : **{وَقَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتَلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}** [الأحزاب: 26] ؛ فسلاح الرعب سلاح ينفذ إلى أعماق القلوب، فيسلب من أصحابها العقل والحسن، و يجعلها في حالة من الذهول واللاوعي **{لَا يَفْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}** [البقرة: 264] .

8- من يحارب الإسلام إنما يحارب الله:

إن الذين ينصبون لواء الحرب والعداء على الإسلام والمسلمين إنما يعلنون الحرب على الله، ومن يعلن الحرب على الله لن تقوم له قائمة مهما كان عدده وعتاده، والعجيب أن قريشاً كانت تعلم ذلك، وهذه الواقعة تؤكد ذلك؛ فقد جاء في تفسير قوله تعالى : **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرَئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}** [الأنفال: 47]. عند القرطبي أن المقصود بالأية : «يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمعنفات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث خفاف الكناني، وكان صديقاً لأبي جهل، بهدايا إليه مع ابن عم له، وقال: إن شئت أمدتك بالرجال، وإن شئت أمدتك بنفسك مع ما خف من قومي، فقال أبو

جهل: إننا كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فهو الله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فهو الله إن بنا على الناس لقوه، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمور، وتتعزف علينا القيان، فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجننا؛ فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»⁽¹⁾.

9- خطبة النبي - ﷺ - يوم بدر ترسم طريق النصر:

كل هذه المعاني السابقة وغيرها تجدها في خطبة النبي - ﷺ - يوم بدر؛ حيث حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق لا يقبل الله فيه أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من العَمَّ، وتدركون النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: {لَمْ يَقُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتُكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [غافر: 10].

انظروا الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته، وأعزكم به بعد ذلة؛ فاستمسكوا به يرضي به ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوتجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته؛ فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه الجانا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين»⁽²⁾.

10- مرودة ووفاء:

(1) انظر: تفسير القرطبي (25/8).

(2) المسند (431/5).

نهى النبي - ﷺ - عن قتل أبي البختري وفاءً لما قدم له من معروف وهو بمكة؛ لأنَّه كان كفَّ القوم عنه وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفَة المقاطة، ولكنَّ أبي البختري قُتُل؛ حيث إنَّ المجذر بن زياد ألقاه في المعركة مع صاحب له يقاتلان سوياً فقال المجذر: يا أبي البختري إنَّ رسول الله - ﷺ - قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟! فقال: لا.. والله ما نحن بتاركي زميلك ما أمرنا رسول الله - ﷺ - إلا بك وحدك؛ فقال: لا والله إذن لأموتن أنا وهو جمِيعاً، لا تتحدث عنِّي نساء مكة أني تركت زميلاً حرصاً على الحياة؛ فقال أبو البختري حين نازله المجذر وأبى إلا القتال، يرتجز :

لن يُسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله
فاقتلا، فقتله المجذر إلى قتله⁽¹⁾.

11- أخوة الإيمان تعلو على أخوة النسب:

كان مصعب بن عمير رض حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصار: شد يدك به فإنْ أمه ذات متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك، تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك⁽²⁾، إنها القيم المطروحة للتقويم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي أصرة النسب والقرابة وهي الرابط الاجتماعي⁽³⁾.

فرابطة الإيمان أعلى الروابط وأبقاها، وتعلو على روابط الدم
والنسب والأرض.

12- سيف عكاشه والمعجزة:

⁽¹⁾ سيرة ابن هشام: 2/197

⁽²⁾ انظر: البداية والنهاية (307/3).

⁽³⁾ انظر: معين السيرة، ص 213.

وذكر ابن القيم في زاد المعاد: أن سيف عكاشه بن محسن انقطع يومئذ، فأعطيه النبي ﷺ جذلاً من حطب، فقال: «دونك هذا» فلما أخذه عكاشه وهزه، عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يقاتل به حتى قتل في الردة أيام أبي بكر⁽¹⁾. وقال رفاعة بن رافع: "رميت بسهم يوم بدر، ففقت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء"⁽²⁾.

قال الدكتور أبو شهبة: "وما ينبغي لأحد أن يزعم أن المعجزات الحسية لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارها واضحة جلية في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات أنهنبي يوحى إليه، فقد أخبر بمعجزات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنه خبر السماء، وغير خفي ما يحدثه من انقلاب عود أو عرجون في يد صاحبه سيفاً بتاراً في إيمانه وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التردد أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيف خرقته به العادة وصار مثلاً وذكري في الأولين والآخرين⁽³⁾".

13- حقيقة النصر من الله تعالى:

إن حقيقة النصر في بدر كانت من الله تعالى قال سبحانه فقد بين سبحانه وتعالى أن النصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: 126]. وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأفال: 10].

في هاتين الآيتين تأكيد على أن النصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، والمعنى: ليس النصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزة التي لا ترام⁽⁴⁾، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه

(1) انظر: زاد المعاد (186/3) وذكر المحقق أن ابن إسحاق ذكرها من غير سند.

(2) انظر: زاد المعاد (186/3) والأثر فيه خلاف بين التصحیح والتضعیف.

(3) انظر: السیرة النبویة لأی شهہ (178/2).

(4) انظر: تفسیر ابن کثیر (411/1).

وتعالى⁽¹⁾.

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتقويض أمره به مع التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون، لكن يجب أن لا يغتروا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه، ثم بين سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأن النصر الذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضله ومعونته. وبهذه الآية الكريمة يربى القرآن المسلمين ويعلمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلِكُنَّ اللَّهُ قَاتِلُهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلِكُنَّ اللَّهُ رَمَى وَلِيُنْبَلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾** [الأفال: 17]. ولما بين سبحانه وتعالى أن النصر كان من عنده، وضح بعض الحكم من ذلك النصر، قال تعالى: **﴿لِيُقْطَعَ طَرْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيُنَقْلِبُوا حَائِبِينَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَئُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾** [آل عمران: 127، 128].

وأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتذكروا دائمًا تلك النعمة العظيمة؛ نعمة النصر في بدر، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر، قال تعالى: **﴿وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعُفُونَ فِي الْأَرْضِ تَحَاوُلُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُوكُمُ النَّاسُ فَأَوْاْكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقْكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [الأفال: 26].

14- يوم الفرقان:

سمى يوم بدر يوم الفرقان، ولهذه التسمية أهمية عظيمة في حياة المسلمين، وقد تحدث الأستاذ سيد قطب عن وصف الله تعالى ليوم بدر بأنه يوم الفرقان في قوله تعالى: **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ حُمْسَةٌ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنِّي السَّبِيلٌ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النَّقَى الْجَمِيعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الأفال: 41]. فقال: كانت غزوة بدر، التي بدأت وانتهت بتديير الله وتوجيهه وقيادته ومدده، فرقانًا بين الحق والباطل،

(1) انظر: تفسير ابن كثير (302/2) نقلًا عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (105-97/1).

كما يقول المفسرون إجمالاً، وفرقانًا بمعنى أشمل وأدق وأوسع وأعمق كثيراً. كانت فرقانًا بين الحق والباطل فعلاً.. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء والأشياء.. الحق الذي يتمثل في نفرد الله سبحانه بالألوهية والسلطان والتدبیر والتقدير، وفي عبودية الكون كله سمائه وأرضه، أشيائه وأحيائه، لهذه الألوهية المترفة، ولهذا السلطان المتعدد، ولهذا التدبیر وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك، والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك، ويغشى على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما شاء، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء، فهذا الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر، حيث فرق بين ذلك الحق الكبير، وهذا الباطل الطاغي، وزيل بينهما فلم يعودا يلبسان.

لقد كانت فرقانًا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق، على أبعاد وأمامات، كانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير؛ فرقانًا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور، وفي الخلق والسلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات، وكانت فرقانًا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر، كذلك فرقانًا بين العبودية الواقعية للأشخاص، والأهواء، وللقيم والأوضاع والشرائع والقوانين وللتقاليد والعادات، وبين الرجوع في هذا كله للواحد الذي لا إله غيره، ولا مسلط سواه، ولا حاكم دونه، ولا مشرع إلا إيه، فارتقت الهامات لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة.

وكانت فرقانًا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية: عهد المصابرة والصبر والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادرة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويرًا جديداً للحياة، ومنهجًا جديداً للوجود الإنساني، ونظامًا جديداً للمجتمع، وشكلًا جديداً للدولة، بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير الإنسان في الأرض بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهته⁽¹⁾.

(1) انظر: في ظلال القرآن (3)، 1521/1522.

إلى أن قال: وأخيراً فقد كانت بدر فرقانًا بين الحق والباطل بمدلول آخر، ذلك المدلول الذي يوحى به قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعْذُّمُ اللَّهُ أَخْذَى الطَّائِفَيْنَ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُونَ أَنْ عَيْرَ ذَاتَ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقَّ الْحَقُّ بِكَلْمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحَقِّ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرَهَ الْمُجْرُمُونَ ﴾. لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين إنما خرجوا ي يريدون عبر أبي سفيان واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا، أراد لهم أن تقتل منهم قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة)، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة)، وأن تكون معركة وقتالاً وقتلاً وأسرًا، ولا تكون قافلة وغنية ورحلة مرية، وقد قال الله سبحانه: ﴿ لِيُحَقِّ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ ﴾ وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة، إن الحق لا يحق وإن الباطل لا يبطل -في المجتمع الإنساني- بمجرد البيان النظري للحق والباطل، ولا بمجرد الاعتقاد النظري بأن هذا حقٌ وهذا باطلٌ، إن الحق لا يحق، وإن الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا الناس، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهرها ويهاجم جند الباطل ويندحرها، فهذا الدين منهج حركي واقعي، لا مجرد نظرية للمعرفة والجدل، أي لمجرد الاعتقاد السلبي.

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة، وكان هذا النصر العملي فرقانًا واقعياً بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته سبحانه من وراء المعركة، ومن وراء إخراج الرسول ﷺ من بيته بالحق، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة. ولقد كان هذا كله فرقانًا بين منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقة في حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لفرقان ندرك بهاليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تمييع في نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين، حتى ليصل هذا التمييع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعاوة الناس إلى هذا الدين، وهكذا كان يوم بدر: **(يَوْمُ الْفُرْقَانِ يَوْمُ التَّقَىِ الْجَمِيعَانِ)** [الأناقل: 41]. بهذه المدلولات المتنوعة الشاملة العميقة، والله على كل شيء قادر، وفي هذا اليوم مثل من قدرته على كل شيء، مثل لا يجادل فيه مجادل، ولا يماري فيه ممارٍ.. مثل من الواقع المشهود،

الذى لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله. وأن الله على كل شيء قادر⁽¹⁾.

15- الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمة صوراً مشرقة في الولاء والبراء، وجعلت خطأً فاصلاً بين الحق والباطل، وكانت الفرقان النفسي والمادي والمعنوي التام بين الإسلام والكفر، وفيها تجسدت هذه المعانى، فعاشرها الصحابة واقعاً مادياً وحقيقة نفسية، وفيها تهاوت القيم الجاهلية، فاللتى الابن بأبيه والأخ بأخيه:

1- كان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة في صف المسلمين، وكان أبوه عتبة وأخوه الوليد وعمه شيبة في صف المشركين، وقد قتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

2- كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صف المسلمين.. وكان ابنه عبد الرحمن في صف المشركين.

3- كان مصعب بن عمير رضي الله عنه حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صف المشركين، ثم وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصارى: شد يدك به فإن أمه ذات متع، فقال أبو عزيز: يا أخي هذه وصيتك بي؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك، تلك كانت حقائق وليس مجرد كلمات: إنه أخي دونك⁽²⁾، إنها القيم المطروحة ل تقوم الإنسانية على أساسها، فإذا العقيدة هي أصرة النسب والقرابة وهي الرابط الاجتماعي⁽³⁾.

4- كان شعار المسلمين في بدر (أحد، أحد) وهذا يعني أن القتال في سبيل عقيدة تتمثل بالعبودية للإله الواحد، فلا العصبية ولا القبلية، ولا الأحقاد والضغائن، ولا الثأر هو الباعث والمحرك، ولكنه الإيمان بالله وحده.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر واحدة في مضمونها⁽⁴⁾، وللإيمان فقه عظيم، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله

(1) انظر: في ظلال القرآن (1523/3)، (1524).

(2) انظر: البداية والنهاية (307/3).

(3) انظر: معين السيرة، ص 213.

(4) المصدر نفسه، ص 217.

إلى المدينة، هاجر إليها كل من استطاع ذلك من المسلمين في مكة، وحبس من كان مضطهداً ولم يستطع ذلك، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صف المشركين منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ فشهد المعركة، وكان أحد الصحابة الذين نالوا هذا الشرف العظيم⁽¹⁾.

وأما الآخرون فلم يفعلوا ذلك، وشهدوا المعركة في صف المشركين وقد أصيروا جمِيعاً⁽²⁾ فقتلوا تحت راية الكفر، فنزل في حقهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمٌ إِنَّفِسِهِمْ قَالُوا فَيْمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من المسلمين أقاموا بمكة، وكانوا يستخفون بالإسلام، فآخر جهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا على الخروج، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إنهم لم يُعذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صف المؤمنين متوفرة، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصفيين، ولن يعدموا لو أرادوا الفرصة في الانتقال إلى رسول الله كما فعل عبد الله بن سهيل⁽³⁾.

إن للإيمان مستلزمات تعبّر عن صدقه وقوته، ومن مستلزماته استعلاؤه على كل القيم مما سواه، فإذا كان كذلك كان لأصحابه الأثر الفعال، والقوة الفاعلة في بناء الحق والخير الذي أراده الله، إن الإيمان يصبح السلوك، فإذا به يشع من خلال الحركة والجهد، ومن خلال الكلمة والابتسامة، ومن خلال السمت والانفعال؛ ولذا لم يعذر الذين كانوا في صف المشركين؛ لأن الإيمان الذي ادعوه لم توجد له

(1) انظر: معين السيرة، ص 217.

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (2/253).

(3) انظر: معين السيرة، ص 217.

مستلزمات فلم يؤت ثماره⁽¹⁾.

ولهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصحابة الكرام في بدر مثلاً علية لصدق الإيمان، التي تدل على أنهم أثروا رضاء الله ورسوله ﷺ على حب الوالد والولد والأهل والعشيرة، فلا يعجب المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصادقة في قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُؤْمِنُونَ مَنْ حَادَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْرَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أَوْ لَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَاضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْ لَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: 22].

16- المعجزات التي ظهرت في بدر وما حولها:

من المعجزات التي ظهرت على يدي رسول الله ﷺ في بدر إخباره عن بعض المغيبات، ومن المعلوم أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آية من كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبُ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبَعْثُرُونَ ﴾ [النمل: 65]. وقال تعالى: ﴿ وَعَنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا شَقَقَ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: 59].

ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يعلمون الغيب ولا اطلاع لهم على شيء منه، فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَفُوْلُ لَكُمْ عِنْدِي حَرَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُؤْخَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50]، وكما جاءت الأدلة تدل على أن الله تبارك وتعالى قد اختص بمعرفة علم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، جاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم، ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ

(1) انظر: معين السيرة، ص 218.

الطَّيْبٌ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلَعُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَجْتَنِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَنْفُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿آل عمران: 179﴾. وقال تعالى: **﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ أَرْتَصَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾** [الجن: 26، 27]. فنخلص من ذلك أن ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الأخبار بالمعنيات فهو حي من الله تعالى، وهو إعلام الله عز وجل لرسوله ﷺ للدلالة على ثبوته وصحة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره باطلاع الله له على المعنيات⁽¹⁾. وكان لأحداث غزوة بدر نصيب من تلك المعجزات الغريبة منها:

1- مقتل أمية بن خلف:

فعن عبد الله بن مسعود قال: انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: ألا تنظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت؟ فبينما سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكتيبة، فقال سعد: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالكتيبة آمنا وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم، فتلاهيا⁽²⁾ بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعوني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه فغضب سعد فقال: دعنا عنك. فإني سمعت محمداً يزعم أنه قاتلك، قال: إيه؟ قال: نعم. قال: والله ما يكذب محمد إذا حدث، فرجع إلى امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي البثري؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي، قالت: فوالله ما يكذب محمد، قال: فلما خرجوا إلى بدر جاء الصريح، قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخيك البثري؟ قال: فأراد ألا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسر يوماً أو يومين، فسار معهم يومين فقتله الله⁽³⁾.

2- مصارع الطغاة:

(1) انظر: موسوعة نصرة العجم (453/1).

(2) تلاهيا: تلاوة وتنازعا، انظر: ال نهاية (243/4).

(3) البخاري ز انظر: الفتح (3632/6).

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة فتراءينا الهلال، وكنت رجلاً حديداً بصراً (1) فرأيته وليس أحد يزعم أنه رأه غيري، قال فجعلت أقول لعمر: أما تراه؟ فجعل يقول لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلقٍ على فراشي، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «**هذا مصرع فلان غداً، إن شاء الله**» قال: فقال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه (2).

3- إخبار العباس بن عبد المطلب بالمآل الذي دفعه، وإعلام عمير بن وهب بالحديث الذي حدث بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه من عمه دفع الفداء، وأجابه العباس: ما ذاك عندي يا رسول الله، فقال له: «**أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟** فقلت لها: إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا الأمر ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل. وما حدث به عمير بن وهب لما جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه باتفاق مع صفوان بن أمية، فقد أنبأه نبا المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه وصدق إيمانه (3).

17- حكم الاستعانة بالشريك:

في غزوة بدر -في الأحداث التي سبقتها- أراد شريك أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه الموافقة على قبوله معهم، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه فقال صلوات الله عليه وآله وسلامه: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**» (4) فال الحديث يبين أن القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشرط معينة وهي: تحقق المصلحة، أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألا يكون ذلك على حساب الدعوة ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلامية، لا

(1) حديد البصر: أي نافذ.

(2) مسلم رقم (2873).

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (178/2).

(4) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (355/2).

متبوعاً، ومقوداً فيها لا قائداً لها، وألا تكون هذه الاستعانة. مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقة لهذه الاستعانة وبمن يستعان به، فإذا تحققت هذه الشروط جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق لم تجز الاستعانة. وفي ضوء هذا الأصل رفض رسول الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عير قريش إذ لا حاجة به أصلاً، وفي ضوء الاستثناء وتحقق شروطه استعان النبي ﷺ بالشرك عبد الله بن أريقط الذي استأجره النبي ﷺ وأبو بكر في هجرتهم إلى المدينة؛ ليدللهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء وتحقق شروطه قبل ﷺ حماية عمّه أبي طالب له، كما قبل جوار أو إجارة المطعم بن عدي له عند رجوعه عليه الصلاة والسلام من الطائف، وكذلك قبول الصحابة الكرام جوار من أجارهم من المشركين ليدفع هؤلاء الأذى عنم أجاروهم⁽¹⁾. وضبط هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقه دقيق وإيمان عميق.

18- النصر مع الصبر:

من عبر يوم بدر أخذنا أن الصبر مفتاح الفرج فما ضاقت الأمور على من صبر، الصبر مفتاح الخير.
 أخذنا من غزوة بدر أن مع العسر يسراً، وأن عاقبة الصبر خير
﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبَرْكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127]. صبر حبيب الله ورسول الله فأقر الله عينه ونصر الله حزبه **﴿بِلِّي إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّا وَيَأْتُوكُمْ مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾** [آل عمران:125]. فإن وجدت عبداً من عباد الله قد صُبِّت عليه المحن والبلایا من الله ونصب وجهه صابراً لله، فبشره بحسن العاقبة والمآل من الله ، علمنا أن الصبر عواقبه الخير، ولقد صدق رسول الهدى إذ يقول ﷺ: «**مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ عَطَاءً أَفْضَلُ مِنَ الصَّبَرِ**». بالصبر يتسع ضيق الدنيا، وبالصبر تتبدد همومنها وغمومها وأحزانها، يطيب العيش وترتاح النفوس وتطمئن القلوب، وصدق عمر وأرضاه إذ قال:
﴿وَجَدْنَا أَذْ عِيشَنَا بِالصَّبَرِ﴾

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (144/2، 145).

19- سر الانتصار:

والحق أن "الإسلام" هو السر وراء انتصار المسلمين الفريد، وهو ما تكشف عنه المقارنة بين حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده، فقد حدث لهم "تحول عظيم" كان من بين مظاهره أن المسلم أصبح له وزن كبير في موازين القوى، وها هو "المثنى بن حارثة الشيباني" يصف الفرق بين المقاتل العربي في الجاهلية وهذا المقاتل ذاته بعد الإسلام فيقول: "قد قاتلت العرب والعجم الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب، ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم".

وقد كان النبي - ﷺ - في قتاله دفاعاً عن الدين يحارب عرباً بعرب، بل قرشيين بقرشيين، فلا يمكن أن تكون هناك مزايا لدى طرف دون طرف في القوة والشجاعة، فالسر وراء انتصار المسلمين هو أن الإسلام وجه نزعات العرب في نفوسهم إلى غاية عظمى رفعت أقدارهم، وهي إعلاء كلمة الله، وإعزاز راية دينه، وما يدخل في مفهوم كلمة سبيل الله من قيم فاضلة وقضايا عادلة وأهداف نبيلة، وكان الإسلام حريصاً على أن يزود المسلمين بذلك الدوافع التي تملأ نفوسهم حمية واستبسالاً، ولهذا كان "حساب المقاتل المجاهد" في الحرب وفي ميزان القوى مقدراً بما في قلبه من عقيدة وإيمان، وربما في نفسه من مبادئ يُحارب عنها، وأسباب تدعوه إلى خوض هذه الحرب.

وهذا ما نجده في قول الله - تعالى - : **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْنَاكُمْ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنْكُمْ عَزِيزٌ وَنَصَارَاؤُنَّا صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائِتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾** [الأنفال: 65]، وذلك لأن الذين كفروا قد خلت نفوسهم من المبادئ الكريمة والدوافع الصادقة، ولذلك "حرموا الفقه" الذي كان من شأنه أن يبصرهم بالمبادئ التي يقاتلون عليها، والمثل التي يدافعون عنها، ومن حرم هذا الفقه في مجال الحرب، فقد تعرى من كل سلاح يدافع به، وكانت عاقبته الهزيمة والبوار.

وقد برز ذلك في أول مواجهة بين المسلمين والكافر في غزوة بدر الكبرى، إذ كان هدف المسلمين "إعلاء كلمة الله"، بينما كان هدف المشركين ما عبر عنه قول زعيمهم أبي جهل: "والله لا نرجح حتى نرداً، فنقسم عليه ثلاثة نحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقي الخمر،

وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.

إذا ما تأملنا موقف المسلمين، فإننا نجد الإسلام ينزعه المقاتل عن دوافع المفاخرة أو حب الظهور أو الرغبة في الثناء، فهو لا يستحق الجنة ولا يجد ريحها إلا إذا كان جهاده خالصاً من أجل إعلاء كلمة الله، فقد سئل الرسول - ﷺ - عن الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكوين **كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**(1).

قال الحسن بن الربيع: خرج فارس ملثم فقتل فارساً من العدو كان قد نال من المسلمين، فكبر له المسلمون، وعاد ودخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد فتبعته حتى سأله بالله أن يرفع لثامه، فعرفته وقلت أخفيت نفسك من هذا الفتح العظيم الذي يسره الله على يديك! فقال "الذي فعلت له، لا يخفى عليه عملي".

20- صفات المنصورين:

المؤمنون الذين ضمن الله لهم النصر وأخبر أن لهم الغلبة ولا سلطان للكافرين عليهم، ذكرهم الله - تعالى - في أوائل سورة الأنفال، حيث قال - تعالى - مبيناً صفة المؤمنين المنصورين في الدنيا والآخرة: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُبَيَّثُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ رَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرَزْقٌ كَرِيمٌ}** [الأنفال: 2-4].

فهؤلاء هم المنصورون والسعداء في الدنيا والآخرة "ما داموا" متصفين بهذه الصفات الخمس التي وصفهم الله بها، أما إذا حادوا عن دينهم وعدلوا عن كتاب ربهم، عند ذلك يتخلى الله عنهم وعن نصرهم: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُعِيرُ مَا يِقُولُ حَتَّى يُعِيرُوا مَا يِأْنِسُهُمْ}** [الرعد: 11]، ويقول الرسول - ﷺ -: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا

(1) متفق عليه.

كتاب الله وسنتي «⁽¹⁾»، وقد قال عمر بن الخطاب - رض - لسعد بن أبي وقاص - رض -: "وأمرك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراساً من المعاشي من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه، وإنما ينتصر المسلمون بمعصية عدوهم لله".

21- نصر الله سنة ماضية:

نصر الله للمؤمنين سنة ماضية يشهد بها سجل التاريخ الإسلامي في عهد النبوة وفي فتوح الإسلام ومعارك المسلمين ضد الصليبيين والمغول وغيرهما.

ولقد سأله الإمبراطور البيزنطي هرقل قادته: أخبروني ويلكم من هؤلاء القوم الذين تلقونهم؟ أليسوا بشراً مثلكم؟.. فأنتم أكثر أمهم؟ قالوا: نحن أكثر منهم أضعافاً، وما لقيناهم في موطن إلا ونحن أكثر منهم. قال: ويلكم مما بالكم تنهرون إذا لقيتموه؟.. فقام شيخ من الحاضرين يجيب عن سؤاله فكان مما قال: من أجل أن القوم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعرفة وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحداً ويتناصفون فيما بينهم، إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا لم يكذبوا !!

وذلك وقفه ينبغي أن تفعها الأمة كلها، وهي في حال انكسارها وتراجعها؛ لتسعد من تاريخها نوراً يبدد ظلام حاضرها، ورُشدًا لمن ضلّ منها عن طريقه، وهذا للسائرين في ضلاله، والخابطين خطأً عشواء؛ حتى لا نبدو كأننا أمة لا تاريخ لها تفيده منه، ولا جذور لها تستعصم بها، على أن وقائع يوم بدر لم تكن مجرد تاريخ ينبغي تدبره، بل كانت قرآنًا يتنى إلى قيام الساعة، وموافق نبوية مركزة في ضمير أمتنا ووعيها.

إن شعوبنا المسحوقة قهراً وعسفاً، وطغياناً وعجزاً، في حاجة إلى أن تتدارس قول ربنا عن الجماعة المؤمنة يوم بدر: **﴿وَلَقْدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَدْلَلُهُ فَانْقُوا اللَّهُ لَعْلَكُمْ تُشْكُرُونَ﴾** [آل عمران: 123]، قوله عن أصحاب الدعوات على امتداد تاريخ الصراع بين الحق والباطل **﴿كُمْ مِنْ فِتَّةٍ قَلِيلٍ غَلَبْتُ فِتَّةً كَثِيرَةً بِإِنْدِنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [البقرة: 249]،

(1) صحيح، أخرجه الترمذى ح (3788).

وتدرك أن النصر من عند الله وحده، يمنه من نصار دينه وأعز دعوته، وأعد عدته، وأجاد التوكل عليه، بغير نظر إلى قلة أو كثرة..

إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمْدُّكُمْ بِالْفَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشَرًا وَلَتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأفال: 9-10]، قوله تعالى :- **(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَّأْلُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلُقُوكُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوهُمْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوهُمْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانِ)** [الأفال: 12] وقوله تعالى :- **(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُنْبَلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** [الأفال: 17].

أيها المجاهدون المستضعون في أقطار الأرض، يا أهلنا في فلسطين والعراق والشام وأفغانستان وكشمير والشيشان وغيرها، يا من استبيحت أو طأنهم، واحتلت بلادهم، وانهكت حرماهم، وديست مقدساتهم، لا يكاد يشعر بهذه الآيات القرآنية الكريمة أحد مثلاً تشعرون أنتم بها، وقد أحستم عزة الإسلام رغم قهر أعدائكم، وتخاذل المنافقين عنكم، وخيانات المارقين لكم، ورأيتم من تباشير النصر وأيات الرحمن وكريم لطفه وعزيز تأييده ما عميتم عن إدراكه عيون القاعددين والمثبتين والخائرين والعاجزين.. **وَلَا تَهُنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** [آل عمران: 139].

إن جهادكم ليس عدواً على أحد، ولا إرهاباً كما يرجف المرجفون، بل أنتم من اعدى عليه المجرمون، وأرادوا لهم الحسنة والهوان، وفرض عليكم القتال فرضاً، فلا بديل لكم عنه، وهو كريه إلى أنفسكم، وكذلك كان شأن أسلافكم يوم بدر.. **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهَةٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكُرَهُوَا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوَا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** [البقرة: 216].

وهم إنما خرجو لاسترداد بعض أموالهم التي سلبها منهم المشركون، ففاثتهم العبر، ووجدوا أنفسهم في مواجهة النفيرو جحافل الشرك في غروره وعجبه، وقد **خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرَيَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** [الأفال: 47].

فككونوا على ثقة أن اختيار الله لكم - حين فرض عليكم الجهاد ورد عادية الظالمين - خير من اختياركم لأنفسكم، وقد كنتم في بلادكم آمنين، وكذلك كان اختيار الله لأهل بدر ليخطروا أبهى نصر في تاريخ الإسلام.. **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارُهُونَ**

يُجَادِلُوكُ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَائِنًا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَإِذْ يَعْذِذُكُمُ اللَّهُ إِلَّا طَائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَإِرْيَدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلْمَاتِهِ وَيُقْطِعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ {

[الأనفال: 7-5].

22- النصر ثمرة الإخلاص:

لقد نزل النصر على أهل بدر من القلة المؤمنة بعد أن اطلع الله تعالى - عليهم فرأى في قلوبهم الإخلاص، وفي نفوسهم العزم، وقد حرروا ولاهم الله - تعالى - وحده، ولما التقى الجمuan كان القول الفصل لاصرة الإيمان وأخوة الإسلام، التي استعلت على أواصر القربى وروابط الدم، أما قبل اللقاء فكان الاستعداد الجازم والرؤى الصافية والطاعة البصيرة لقيادة المؤمنة المجاهدة، وقد قال سعد بن معاذ للنبي - ﷺ - وهو يشاورهم: "لقد آمنا بك وصدقاك.. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخطته لخضناه معك، وما تخلف منا واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك.." .

أما القيادة المؤمنة- المتمثلة في رسول الله - ﷺ - فكانت في مقدمة صفوف المجاهدين، حتى قال علي بن أبي طالب - ؓ -: "لقد رأينا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله - ﷺ - وهو أقربنا من العدو".

23- توحد القيادة والشعب:

إن أمتنا اليوم في أمس الحاجة إلى أن تستلهم روح بدر، تلك التي توحدت فيها رؤية القيادة والأمة، وأنسقت مساراتهم فكانت مساراً واحداً، وعملاً متوحداً، وإن درس الشورى واحترام إرادة الأمة لم ينجز دروس بدر التي نظر إليها بعد أكثر من أربعة عشر قرناً في إجلال، وننظر إلى واقعنا الراهن بعد هذه القرون في حسرة وأسف.. !! لقد شاور الرسول - ﷺ - أصحابه في أمر محاربة العدو الرابض على مقربة منهم، وقبل مشورة أحدهم وهو الحباب بن المنذر أن يغير موضع الجيش إلى مكان آخر يتحكم في مياه منطقة القتال، فنزل النبي - ﷺ - على رأيه، وهو جد سعيد.

ولم تكن الشورى في حياة النبي - ﷺ - وصحابته مقتصرة على أمور الحكم وقضايا السياسة، بل كانت حلقة عاماً، تربى عليه ذلك الجيل

الفرد، واستمسك به، وإن النصر في تاريخنا لشديد الارتباط بالحرية السياسية، كما أن الهزيمة والنكسات فريل الاستبداد والقهر، وهل ضاعت القدس وسيناء والجولان وغيرها عام 1967م إلا في أجواء الدهر السياسي، حين استأسد الحاكمون على شعوبهم، وكانوا بعثاً أمام العدو، حين جد الأمر وحان القتال.. (أسد على.. وفي الحروب نعامة)، وهل احتل الأميركيان - ومن حالفهم - العراق في نكبة دامية إلا في ظل استبداد حاكمها وطغيانه؟!

وبقي على الشعوب أن تدفع ثمن هذا وذاك من كرامتها ودماء أبنائهما، وهو ثمن فادح ثقيل ما كانت ستدفع معشاره لو أخذت على أيدي ظالميهما، وأضطررتهم إلى لزوم الجادة، وأعادتهم إلى الصواب، وأفاقتهم من نشوة الحكم وغرور السلطان، وأوقفتهم على حقيقة أمرهم أنهم أجراء عند شعوبهم - محض أجراء - إن أحسنوا بقوا، وإن أساءوا عزلوا، ورجم الله أبا بكر الصديق عليه السلام حين قال مخاطباً شعبه: "إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أساءت فقوموني".

24- لا عذر في القعود:

إن المجاهدين يوم بدر لم يُبْغُوا حُجَّةً لقاعد، ولا عذراً للمتخاذل يتحجّج بقلة ذات اليد، وعظم إمكانات العدو وقدراته، فواجهوا جيشاً يفوقهم عدداً بثلاث مرات، ولم يكن في جيش المسلمين سوى سبعين بعيراً يعتقبونها، فيركب البعير الواحد ثلاثة والأربعة منهم، واحداً تلو الآخر، وكانوا كما وصفهم النبي - ﷺ - في دعائه ربّه: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم، عالة فاغنهم، جياع فاطعهم..»، وكان في مقدورهم القعود لكل ذلك.

ولأنهم يخوضون معركة لم يتخيّلوا لها، إذ خرجوا لغير قريش، وبقي منهم عدد صالح بالمدينة لو يعلم قتالاً لخف إلى مشاركتهم.. لكنهم حين فرض عليهم القتال، ورأوا أنه لا بد منه وقد سارت إليهم قريش.. أدركوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فاستغاثوا ربّهم، وأحسنوا اللجوء إليه، وفروا من حولهم وقوتهم إلى حوله وقوته.. **إذ تستغيثون ربكم فاستجيب لهم** [الأفال: 9].

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب قوله: "لقد

رأيَّنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله -ص. تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح، وذلك ليلة بدر.. وهو يُكثِر من قول: يا حي يا قيوم.. ويكررها وهو ساجد..".

25- الدعاء ومقاطعة العدو:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَتَيْ مُمْدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾

لما نظم صفواف جيشه، وأصدر أوامره لهم وحرضهم على القتال، رجع إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر رض، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته وهو شاهر سيفه، واتجه رسول الله ص إلى ربه يدعوه ويناشده النصر الذي وعده ويقول في دعائه: «اللهم أجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبداً»، وما زال ص يدعو ويستغيث حتى سقط رداوئه، فأخذ أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفالك مناشتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك⁽¹⁾, فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وفي رواية ابن عباس رض: قال: قال النبي ص يوم بدر: «اللهم أنشدك عهداً ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبي الله، فخرج ص وهو يقول: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبَرَ﴾⁽²⁾.

وهذا درس رباني مهم لكل قائد أو حاكم أو زعيم أو فرد في التجرد من النفس وحظها، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره. ويبقى مشهد نبيه، وقد سقط رداوئه عن كتفه وهو مادٌ يديه يستغيث بالله، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ووجانه، يحاول تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، حيث تناثط به المسئولية وتلقى عليه أعباء القيادة⁽³⁾.

يا قومنا.. نحن أحوج ما نكون اليوم إلى أن نتأسى برسولنا وصحابه في تمام التوكل على الله، وحسن الدعاء بين يديه، ودؤام الاستغاثة به؛ حتى يتنزل علينا نصره، ويرتفع عننا بلاءه، ونحن في

(1) انظر: مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة بدر (384/3).

(2) البخاري، كتاب المغازي، باب قصة بدر (6/5) رقم (3953).

(3) انظر: التربية القيادية (36/3).

حاجة أيضاً إلى إدراك دور كل منا في دعم الجهاد ونصرة إخوانه في ساحات الشرف والابتلاء: بالدعاء لهم.. دعاء الصالحين الموقنين بالإجابة، وبمقاطعة منتجات العدو، وإضعاف اقتصاده، وشلّ يده عن مقدراتنا وثرواتنا؛ لعل الله- عز وجل - يرى فينا خيراً وصدقاً فينزل علينا نصره وتمكينه.

اللهم نصرك الذي وعدتنا.. إنك سميع قريب.. **{أَذْنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ إِنَّهُمْ طَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا تَفْعُلُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِمْتَ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [الحج:40].

26- الرضا بقضاء الله تعالى وقدره:

قال تعالى: **(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)** [الحديد: 22] ، وقال سبحانه: **(إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَا بِقَدْرٍ)** [المرمر: 49] ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ»⁽¹⁾.

ويتضح الرضا بالقضاء والقدر جلياً في سبب الغزو، عن كعب بن مالك قال: (لم أختلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنني تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ غير قريش حتى جمع الله بينهم على غير ميعاد سابق)⁽²⁾.

قال تعالى: **(إِذَا نَتَمَ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوىِّ وَالرَّكْبِ أَسْفَلُ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكُنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرَا كَانُ مَفْعُولاً لِيَهُكَّ مِنْ هَلْكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيَحْيَى مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلَيْهِ)** [الأفال: 42].

فرضي الرسول ﷺ وجميع الصحابة الذين خرجوا معه للقاء غير قريش بما قدره الله من لقائهم بجيش قريش .

(1) مسلم 2653

(2) البخاري حديث 3951

27- الاستشارة من أسباب النصر:

إن استشارة أهل التقوى من أهل العلم بالدين وأهل الخبرة في أمور الدنيا من أسباب النصر وصلاح أحوال المجتمع المسلم؛ ويتضح ذلك جلياً عندما استشار النبي ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار في لقاء جيش المشركين، ولقد استجاب الرسول ﷺ لمشورة الحباب بن المنذر عندما تحرك الرسول ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل أدنى ماء من مياه بدر، فقام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزل لكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه أم هو الحرب والرأي والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى (أقرب) ماء من القوم ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملوه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ : «لقد أشرت على بالرأي»، فنهض رسول الله ﷺ وسار معه الصحابة حتى نزل بالمكان الذي أشار به الحباب بن المنذر⁽¹⁾.

إن هذه الحرية التي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً، وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه⁽²⁾.

ونلحظ عظمة التربية النبوية التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأنب أمام رسول الله ﷺ فتقديم دون أن يطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول ﷺ . يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل لا أنزل لكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة؟ إن

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 224- الطبقات لابن سعد ج 2 ص 10.

(2) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (4/110).

هذا السؤال ليسي بع策مة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائد، فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم، عليه الصلاة والسلام. وتبدو ع策مة القيادة النبوية في استماعها للخطة الجديدة، وتبني الخطة الجديدة المطروحة من جندي من جنودها أو قائد من قوادها⁽¹⁾.

28- علو منزلة النبي ﷺ عند الصحابة :

لقد كان للنبي ﷺ منزلة رفيعة في قلوب أصحابه ﷺ، فقد كانوا على أتم استعداد للتضحية بأنفسهم وأولادهم وأموالهم من أجل الدفاع عن النبي ﷺ، ويتبين ذلك جلياً في قول سعد بن معاذ: «يا نبي الله، إلا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائب ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخافوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك». فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم بني لرسول الله ﷺ عريشاً فكان فيه⁽²⁾.

29- وجوب الحذر من الأعداء :

يجب أن نحذر من أعدائنا حتى لا نؤاخذ على غرة يجب علينا جمع المعلومات التي تساعدننا على التعرف على أحوال أعدائنا وقوتهم وتحركاتهم حتى لا يباغتونا، فيحدث ما لا تحمد عقباه، ويتبين ذلك جلياً عندما بعث الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر فأصابوا رجلين من قريش لسقي الماء، فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ واستطاع أن يحصل منهما على معلومات مهمة عن عدد

(1) انظر: التربية القيادية (21/3).

(2) سيرة ابن هشام ج 2 ص 225.

قريش وقوتهم⁽¹⁾.

30- النصر من عند الله العزيز الحكيم:

يجب علينا الإيمان بأن النصر إنما يكون من عند الله وحده مع وجوب الأخذ بالأسباب ولو كانت قليلة، ويتبين ذلك جلياً عندما نعقد مقارنة بين قوة جيش المسلمين وقوة المشركين في غزوة بدر، حيث كان عدد المسلمين ثلاثة وسبعين عشر، وعدد المشركين تسعمائة وخمسين رجلاً، وكان مع المسلمين سبعون بعيراً يعتقونها، كل ثلاثة على بعير، فكان رسول الله ﷺ ومعه اثنان من الصحابة يعتقون بعيراً واحداً، وكان مع المسلمين فرسان فقط أحدهما للزبير بن العوام والثاني للمقداد بن الأسود، وكان مع المسلمين ستون درعاً، بينما كان للمشركين أكثر من سبعمائة بعير، ومعهم مائتا فرس، وستمائة درع⁽²⁾.

فإذا نظرنا إلى الأسباب المادية وجدنا تفوق المشركين، ولكن يجب علينا أن نؤمن أننا لا نعتمد في حربنا مع أعداء الإسلام على كثرة العدد والأسلحة، ولكننا نعتمد أولاً وأخيراً على قوة إيماننا بالله تعالى وحده، وأنه هو الحافظ لهذا الدين وإن كانت قوتنا المادية قليلة، قال الله تعالى: **﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾** [آل عمران: 126] ، وقال تعالى: **﴿كَمْ مِنْ فَتَّةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتَّةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** [البقرة: 249] ، وتجلى نصرة الله لأهل الإيمان في غزوة بدر بنزول المطر عليهم وإلقاء النعاس عليهم وتشتيتهم عند القتال وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ونزول الملائكة وقتالهم في صف المسلمين.

31- طاعة الله والدعاء من أسباب النصر:

المحافظة على الطاعات والإخلاص في الدعاء من أعظم أسباب النصر على الأعداء؛ كان ذلك عندما دخل رسول الله ﷺ عريشه ومعه أبو بكر الصديق، فأخذ الرسول ﷺ ينشد ربه بالدعاء قائلاً: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَنْتَيْ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ مِنْ أَهْلِ إِلَيْسَامِ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ**». فما زال يهتف لربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداوه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ

(1) الطبقات لابن سعد ج 2 ص 10 .

(2) البداية والنهاية لابن كثير ج 3 ص 259، 260.

رداهه وألقاه على منكبيه ثم التزمه وقال: يا نبى الله كفاك مناشتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: {إذ تستغثون ربكم فاستجاب لكم أني مدمكم بآلف من الملائكة مردفين} [الأنفال: 9] ، فأمده الله بالملائكة

فمتى نصرنا الله بطاعته واجتناب نواهيه وتحكيم شرعة جاء النصر المبين والتمكين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتْصِرُّوَا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُثْبِتُ أَفْدَامَكُمْ}

[محمد: 7]

وقال جل شأنه:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتُخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55]

32- ولا تنازعوا فتفشوا:

ويتضح ذلك عندما اختلف الصحابة في غنائم غزوة بدر فقال الذين جمعوا الغنائم هي لنا، وقال الذين كانوا يقاتلون المشركين: هي لنا، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ: هي لنا، فلما اشتد الخلاف في هذا الأمر نزل قول الله تعالى: {يَسْأَلُوكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 1]

روى أحمد عن أبي أمامة الباهلي رض قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا عشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساعت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء يقول على السواء

(1)

فيجب علينا عند الاختلاف والتنازع في أمر ما أن نرد التنازع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لنقف على الحكم الشرعي في هذا الأمر، قال تعالى: {إِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرِدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلٍ} [النساء: 59].

(1) حديث حسن لغيره: مسنن أحمد ج 37 ص 410.

33- علو منزلة أهل بدر على غيرهم من الصحابة :

إن الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر هم الذين اصطفاهم الله على غيرهم من المؤمنين وذلك؛ لأن غزوة بدر كانت هي المفتاح لوصول الإسلام إلى البشرية جماء، وأصحاب بدر هم النجوم المضيئة في التاريخ الإسلامي حتى أصبح يقال للواحد منهم «البدرى»، وكفى بهذا الوصف شرفاً وتعظيماً له في حياة الناس، وكفى به أجراً وإحساناً عند الله تعالى، وهذا فضل الله يؤتى به من يشاء من عباده المؤمنين.

وظهر ذلك في قصة حاطب بن أبي بلعة رض عندما أرسل كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بخروج النبي ﷺ إليهم، وأخبر الوحي الرسول بذلك، وهم عمر بن الخطاب رض أن يقتل حاطباً - إلا أن رسول الله ﷺ قال: «لعل الله أطلع على أهل بدر ف قال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم» ⁽¹⁾.

وروى البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر - قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: وكذلك من شهد بدوا من الملائكة» ⁽²⁾.

34- الإسلام والأسرى:

لما رجع رس إلى المدينة فرق الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً» ⁽³⁾ وبهذه التوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُنْكَه مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: 8]. فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا رأى قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسرى خيراً»، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداة هم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البر لوصية رسول الله ﷺ ⁽⁴⁾.

وهذا أبو العاص بن الربيع رض يحدثنا قال: "كنت في رهط من

(1) البخاري ح 3980، ومسلم ح 3494.

(2) البخاري ح 3992.

(4) مجمع الزوائد (6/86) وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن.

الأنصار جزاهم الله خيراً، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثرتوني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إلى، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد، وكانوا يحملوننا ويمشون⁽¹⁾.

كان هذا الخلق الرحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين، وذكر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خلقاً، وكان لهم طبيعة، قد أثر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر، بعيد وصول الأسرى إلى المدينة، وتتنفيذ وصية رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب بن عبيد⁽²⁾ بعد أن فدى نفسه، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم، وطهرت نفوسهم، وعاد الأسرى إلى بلادهم وأهلיהם يتحدثون عن محمد ﷺ ومكارم أخلاقه، وعن محبته وسماته، وعن دعوته وما فيها من البر والتقوى والإصلاح والخير⁽³⁾.

إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد على سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام في معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار⁽⁴⁾.

ألا تسمع الدنيا بهذه الصورة الكريمة لمعاملة الأسرى في الإسلام، بعد ما سمعت ما كان وما يكون في سجن أبي غريب، وما كان في سجن جوانتنامو بل وفي سجون معظم دول العالم، وليس لأسرى، وإنما لأحرار أبرياء لم تثبت عليهم أي تهمة، ولم يحرموهم من حقوق الإنسان الذي كرمه الله بل حق الحياة المكفول للحيوان حرم السجين منه، ومنهم من قضى نحبه تحت التعذيب، ومنهم من ينتظر، وسمعت بهم الدنيا، وما تحركت أي قوة لفك قيدهم أو إطلاق سراحهم.

35- الإسلام يهتم بالعلم:

إن الإسلام دائماً يدعو إلى العلم، ويظهر هذا الاهتمام جلياً في غزوة بدر عندما شرع المسلمون في قبول فداء الأسرى مقابل أربعة

(1) انظر: المغازي للواقدي (119/1).

(2) (6) انظر: محمد رسول الله، عرجون (474/3).

(4) انظر: التاريخ الإسلامي (175/4)، 176.

أو ثلاثة آلاف درهم، ومن لم يكن عنده مال من الأسرى وكان يحسن القراءة والكتابة دفع إليه الرسول ﷺ عشرة من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة، فإذا أجادوها تم إطلاق سبي هذا الأسير، وكان من تعلم الكتابة بهذه الطريقة: زيد بن ثابت (1). هذه الطريقة النبوية المباركة في فداء الأسرى كانت طريقة غير مسبوقة قبل ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما : "كان ناس من الأسرى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة؛ وبذلك شرع الأسرى يعلمون غلمان المدينة القراءة والكتابة، وكل من يعلم عشرة من الغلمان يفدي نفسه (2). وقبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلِمَ بِالْفِلْمِ ﴾ [العلق: 4-1]. واستفاضت فيه نصوص القرآن والسنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أول من وضع حجر الأساس في إزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام (3).

36- الشيطان يخذل أتباعه:

إن الشيطان دائمًا بالمرصاد للإنسان يزيّن له المعصية حتى إذا وقع فيها تركه وتبرأ منه، ويتبّع ذلك في غزوة بدر، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لما كان يوم بدر سار إبليس برعيته وجنوده من المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحدًا لن يغلبكم وإنني جاز لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى مدد الملائكة نكس على عقبه ورجع مدبرًا وقال: إنني أرى ما لا ترون (4) فعلى المسلم العاقل أن يعلم الشيطان يخذل من أطاعه في أي وقت وفي أي مكان، وصدق الله العظيم حيث يقول في

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 2 ص 16 .

(2) انظر: التربية القيادية (74/3).

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (164/2، 165).

(4) تفسير ابن كثير ج 7 ص 100 .

كتاب العزيز: ﴿كَمَلَ الشَّيْطَانُ إِذَا قَالَ لِإِنْسَانٍ أَكُفِّرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16]

وقال سبحانه عن الشيطان يوم القيمة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا فُضِيَّ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بُمُصْرِخُكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشَرَّكُنُونِي مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]

37- الأسوة الحسنة :

نبينا محمد ﷺ هو القدوة الحسنة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ولقد تجلّت هذه القدوة الحسنة في كثير من مواقفه ﷺ في غزوة بدر الكبرى، وسوف نذكر بعضًا من هذه المواقف:

1- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه زميلاً رسول الله ﷺ وكانت عقبة رسول الله ﷺ أي (جاء دوره في السير على قدميه) فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكم»⁽¹⁾.

2- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس -أي عم النبي ﷺ- فداءه، قال: «والله لا تذرون منه درهم».

قال ابن حجر -رحمه الله- تعليقاً على هذا الحديث: «الحكمة في ذلك أنه خشي أن يكون في ذلك محاباة له لكونه عمه لا لكونه قريبه من ناحية النساء فقط»⁽²⁾.

ولقد حثنا الله تعالى على الاقتداء ببنينا محمد ﷺ والرضا بجميع أحكامه، وحذرنا مخالفته، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

(1)Hadith Hasan: Musnud Ahmad ج 7 ص 17.

(2)فتح الباري ج 7 ص 375.

**يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ
وَيُسِّلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴿النساء: 65﴾ .

وقال سبحانه: **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿النور: 51﴾ .

وقال جل شأنه: **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴿الحشر: 7﴾ . وقال تعالى: **وَمَا كَانَ
مُؤْمِنٌ وَلَا مُؤْمِنَةٌ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِيناً** ﴿الأحزاب: 36﴾ .

وقال سبحانه: **فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ
يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿النور: 63﴾ .

38- الكتمان وأهميته في الحروب:

لقد تحلى رسول الله ﷺ بصفة الكتمان في عامة غزواته، فعن كعب بن مالك ﷺ قال: "ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَى بغيرها..." . (1) وفي غزوة بدر ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

1- سؤاله ﷺ للشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجشه، وعن قريش وجيشه.

2- تورية الرسول ﷺ في إجابته عن سؤال الشيخ من أنتما؟ بقوله ﷺ: «**نَحْنُ مِنْ مَاءٍ**» وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين عن قريش.

3- وفي انصرافه فور استجوابه كتمانً أيضًا، وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبباً في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ: «**مِنْ مَاءٍ**»⁽²⁾.

4- أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر⁽³⁾.

(3) انظر: سيرة ابن هشام (228/2).

(1) البخاري (2947/2)

(3) انظر: مرويات غزوة بدر، أحمد محمد باوزير، ص100.

5- كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ: «... إن لنا طلبةٌ فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا...»⁽¹⁾.

وقد استدل الإمام النووي بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو⁽²⁾.

ونلحظ أن التربية الأمنية في المنهاج النبوي مستمرة منذ الفترة السرية، والجهوية بمكة، ولم تقطع مع بناء الدولة، وأصبحت تنمو مع تطورها، وخصوصاً في غزوات الرسول ﷺ.

39- بناء عريش القيادة:

بعد نزول النبي ﷺ وال المسلمين معه على أذني ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ جوهـنـعـهـ على رسول الله ﷺ بناء عريش له يكون مقراً لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يا نبـيـ اللـهـ أـلـاـ نـبـنـيـ لـكـ عـرـيـشـاـ تـكـوـنـ فـيـهـ ثـمـ نـلـقـيـ عـدـوـنـاـ،ـ إـنـ أـعـزـنـاـ اللـهـ وـأـظـهـرـنـاـ عـلـىـ عـدـوـنـاـ كـاـنـ ذـلـكـ مـاـ أـحـبـبـنـاـ،ـ وـإـنـ كـاـنـ الـأـخـرـىـ جـلـسـتـ عـلـىـ رـكـائـبـكـ فـلـحـقـتـ بـمـنـ وـرـاءـنـاـ،ـ فـقـدـ تـخـلـفـ عـنـكـ أـقـوـامـ،ـ يـاـ نـبـيـ اللـهـ،ـ مـاـ نـحـنـ بـأـشـدـ لـكـ حـبـاـ مـنـهـ،ـ وـلـوـ ظـنـوـاـ أـنـكـ تـلـقـيـ حـرـبـاـ مـاـ تـخـلـفـوـ عـنـكـ،ـ يـمـنـعـكـ اللـهـ بـهـمـ،ـ وـيـنـاصـحـوـنـكـ،ـ وـيـجـاهـدـوـنـ مـعـكـ) فـأـثـنـىـ عـلـيـهـ رـسـوـلـ اللـهـ خـيـرـاـ وـدـعـاـ لـهـ بـخـيـرـ،ـ ثـمـ بـنـىـ الـمـسـلـمـوـنـ الـعـرـيـشـ لـرـسـوـلـ اللـهـ عـلـىـ تـلـ مـشـرـفـ عـلـىـ سـاحـةـ الـقـتـالـ،ـ وـكـانـ مـعـهـ فـيـهـ أـبـوـ بـكـرـ،ـ وـكـانـ تـلـةـ مـنـ شـبـابـ الـأـنـصـارـ بـقـيـادـةـ سـعـدـ بـنـ مـعـاذـ يـحـرـسـوـنـ عـرـيـشـ رـسـوـلـ اللـهـ⁽³⁾.

ويستفاد من بناء العريش أمور، منها:

- لا بد أن يكون مكان القيادة مشرفاً على أرض المعركة، يتمكن القائد فيه من متابعة المعركة وإدارتها.
- ينبغي أن يكون مقر القيادة آمناً بتوافق الحراسة الكافية له.
- ينبغي الاهتمام بحياة القائد، وصونها من التعرض لأي خطر.

(1) مسلم، كتاب الإمارة (3) 1510/3 (رقم 1901).

(2) شرح النووي لصحيح مسلم (45/13).

(3) انظر: سيرة ابن هشام (2) 233/2.

4- ينبغي أن يكون للقائد قوة احتياطية أخرى تعوض الخسائر التي قد تحدث في المعركة⁽¹⁾.

40- من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من الممن التي منَ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدر أنه أنزل عليهم النعاس والمطر، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُعْشِيْكُمُ الْئَعَاسَ أَمَّةً مِّنْهُ وَيَنْزَلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُدْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُنَبِّئَ بِهِ الْأَفَادَام﴾ قال القرطبي: (وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، وكأن الله ربط جأشهم).

وعن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقادد على فرس أبلق، ولقد رأينا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه تحت شجرة يصلی ويبكي حتى أصبح.

وفي امتنان الله عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهن:

أولهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثاني: أن أمّنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال: «الأمن مُنيم، والخوف مُسْهِر»⁽²⁾.

وبين سبحانه وتعالى أنه أكرم المؤمنين بإزالة المطر عليهم في وقت لم يكن المعتمد فيه نزول الأمطار، وذلك فضلاً منه وكرماً، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتتبّيه على أنه أكرمهم به.

قال الإمام الرازى: (وقد علم بالعادة أن المؤمن يكاد يستقدر نفسه، إذ كان جنباً، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب فلا جرم عَدَ الله تعالى وتقديس تمكينهم من الطهارة من جملة نعمه...)⁽³⁾.

وقوله تعالى: **﴿وَيُدْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾** فقد روى ابن حير

(1) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص 66.

(2) انظر: تفسير القرطبي (327/7).

(3) انظر: تفسير الفخر الرازى (133/15).

عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ -يعني حين سار إلى بدر- والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة. أي كثير مجتمعة. فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلوك المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين، فأمطر الله عليكم مطرًا شديداً، فشرب المسلمون وتظروا، وأذهبوا الله عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشي الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم⁽¹⁾. فقد بين سبحانه أنه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة فتطهروا به حسياً ومعنوياً إذ ربط الله به على قلوبهم وثبت به أقدامهم، وذلك أن الناظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رملاً متراكمة لا زالت حتى اليوم ومن العسير المشي عليها، ولها غبار كبير، فلما نزلت الأمطار تماست تلك الرمال وسهل السير عليها، وانطفأ غبارها، وكل ذلك كان نعمة من الله على عباده⁽²⁾.

41- الخطة المحكمة للرسول ﷺ في المعركة:

ابتكر الرسول ﷺ في قتاله مع المشركين يوم بدر أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى، لم يكن معروفاً من قبل حتى قاتل ﷺ بنظام الصنوف⁽³⁾، وهذا الأسلوب أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصلاة، وتقل هذه الصنوف أو تكثر تبعاً لقلة المقاتلين أو كثرةهم. وتكون الصنوف الأولى من أصحاب الرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصنوف التي خلفها من أصحاب النبال، لتسديدها من المهاجمين على الأعداء، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدر:

- 1- إرهاب الأعداء ودلالة على حسن وترتيب النظام عند المسلمين.
- 2- جعل في يد القائد الأعلى ﷺ قوة احتياطية عالج بها المواقف المفاجئة في صد هجوم معاكس، أو ضرب كمين غير متوقع، واستنفاد

(1) انظر: تفسير الطبرى (9/195).

(2) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (1/91).

(3) انظر: القيادة العسكرية، د. محمد الرشيد ص 401.

منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة والفرسان، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأول مرة في غزوة بدر سبباً عسكرياً تميزت به المدرسة العسكرية الإسلامية على غيرها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان⁽¹⁾.

ويظهر للباحث في السيرة النبوية أن النبي ﷺ كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة، وخاصة تلك التي لم يعهد لها العرب من قبل، على نحو ما قام به النبي ﷺ في يوم بدر، وأحد وغيرهما.

ومن جهة النظرة العسكرية، فإن هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصية النبي ﷺ وبراعته العسكرية؛ لأن التعليمات العسكرية التي كان يصدرها خلال تطبيقه لها، تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة⁽²⁾.

وتفصيل ذلك فقد اتبع ﷺ أسلوب الدفاع ولم يهاجم قوة قريش، وكانت توجيهاته التكتيكية التي نفذها جنوده بكل دقة سبباً في زعزعة مركز العدو، وإضعاف نفسيته، وبذلك تحقق النصر الحاسم بتوفيق الله على العدو برغم تفوقه⁽³⁾، بنسبة 3 إلى 1، فقد كان ﷺ يتصرف في كل موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال والظروف، وقد طبق الرسول ﷺ في الجانب العسكري أسلوب القيادة التوجيهية في مكانها الصحيح. أما أخذه بالأسلوب الإقاعي في غزوة بدر فقد تجلى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضع متعددة؛ لأنه ﷺ لا يقود جنده بمقتضى السلطة، بل بالكفاءة والثقة، وهو ﷺ أيضاً لا يستبد برأيه، بل يتبع مبدأ الشورى وينزل على الرأي الذي يبدو صواباً، ومارس ﷺ في غزوة بدر أسلوب القيادة التوجيهية، فقد تجلى في أمور، منها:

1- الأمر الأول: أمره ﷺ الصحابة برمي الأعداء إذا اقتربوا منهم؛ لأن الرمي يكون أقرب إلى الإصابة في هذه الحالة «إن دنا القوم منكم فانضحوهم بالنبل»⁽⁴⁾.

2- الأمر الثاني: نهيه ﷺ عن سل السيوف إلى أن تتدخل

(1) انظر: الرسول القائد، خطاب، ص 111، 116، 117.

(2) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية، محمد محفوظ، ص 121.

(3) انظر: مقومات النصر، د. أحمد أبو الشباب (154/2)

(4) صحيح السيرة النبوية برواية أخرى ونفس المعنى، ص 239.

الصفوف⁽¹⁾ «وَلَا تسلُّوا السَّيُوفَ حَتَّىٰ يَغْشُوكُمْ»⁽²⁾.

3- الأمر الثالث: أمره ﷺ الصحابة بالاقتصاد في الرمي⁽³⁾ «وَاسْتَبِقُوا نَبْلَكُمْ»⁽⁴⁾.

وعندما تقارن هذه التعليمات الحربية بالمبادئ الحديثة في الدفاع تجد أن رسول الله ﷺ كان سباقاً إليها من غير ع Kovf على الدرس ولا التحاق بالكليات الحربية، فالنبي ﷺ يرمي من وراء تعليماته التي استعرضناها آنفاً إلى تحقيق ما يعرف حديثاً بكتب النيران إلى اللحظة التي يصبح فيها العدو في المدى المؤثر لهذه الأسلحة، وهذا ما قصده في قوله: «وَاسْتَبِقُوا نَبْلَكُمْ»⁽⁵⁾.

42- الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهمل ﷺ فرصة الاستفادة من الظروف الطبيعية أثناء قتال العدو، فقد كان يستفيد من كل الظروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ﷺ قبل بدء القتال يوم بدر، يقول المقرizi: وأصبح ﷺ بدر قبل أن تنزل قريش، فطلعت الشمس وهو يصفهم فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه فاستقبلوا الشمس⁽⁶⁾.

وهذا التصرف يدل على حسن تدبيره ﷺ؛ واستفادته حتى من الظروف الطبيعية لما يحقق المصلحة لجيشه، وإنما فعل ذلك لأن الشمس إذا كانت في وجه المقاتل تسبب له عشا⁽⁷⁾ البصر فتقل مقاومته ومجابهته لعدوه⁽⁸⁾. وفيما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر إشارة إلى أن الظروف الطبيعية كالشمس والريح والتضاريس الجغرافية وغيرها لها تأثير عظيم على موازين القوى في المعارك، وهي من الأسباب التي طلب الله منها الأخذ بها لتحقيق النصر والصعود إلى المعالي⁽⁹⁾.

(1) انظر: غزوة بدر الكبرى، ص 63، 64، لأبي فارس.

(2) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 239.

(3) انظر: غزوة بدر الكبرى، لأبي فارس، ص 63، 64.

(4,6) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدر، رقم 3984، 3985.

(5) انظر: القيادة العسكرية، ص 453.

(6) سوء البصر بالليل والنهار يكون في النار والدواب والإبل والطير.

(7) انظر: تحفة الأحوذى بشرح مجامع الترمذى (175/7).

(8) انظر: القيادة العسكرية، ص 454.

43- ما وقع لسوار بن غزية:

كان سوار بن غزية في بدر يعدل الصنوف ويقوم بتسويتها لكي تكون مستقيمة متراسة، وبهذه سهم لا ريش له يعدل به الصنف، فرأى رجلاً اسمه سوار بن غزية، وقد خرج من الصنف فطعنه سوار في بطنه، وقال له: «استو يا سوار» فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد» فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سوار» قال: يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعاه رسول الله بخير(1).

ويستفاد من قصة سوار رض أمور، منها:

- 1- حرص الإسلام على النظام.
- 2- العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله ﷺ القود من نفسه.
- 3- حب الجندي لقائد.
- 4- تذكر الموت والشهادة.
- 5- جسد رسول الله ﷺ مبارك، ومسه فيه بركة، ولهذا حرص عليها سوار.
- 6- بطن الرجل ليس بعورة بدليل أن النبي ﷺ كشف عنه ولو كان عورة لما كشف عنه(2).

44- التعبئة المعنوية على القتال:

كان رسول الله ﷺ يربّي أصحابه على أن يكونوا أصحاب إرادات قوية راسخة ثابتة ثبات الشّم الرواسي، فيملاً قلوبهم شجاعة وجرأة وأملاً في النصر على الأعداء، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القوية أسلوب الترغيب والترهيب، الترغيب فيأجر المجاهدين الثابتين، والترهيب من التولي يوم الزحف، والفرار من ساحات الوغى، كما كان يحذّرهم عن عوامل النصر وأسبابه ليأخذوا بها ويلتزموها، ويحذرهم من أسباب الهزيمة ليقلعوا عنها، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 236.

(2) انظر: غزوة بدر، لأبي فارس، ص 52.

منها⁽¹⁾.

وكان ﷺ يحث أصحابه على القتال ويحرضهم عليه امتناعاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفَانِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَقْهِمُونَ} [الأفال: 65].

وفي غزوة بدر الكبرى قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**». فقال عمر بن الخطاب الأنصاري رض: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخ بخ (كلمة تعجب). فقال رسول الله صل: «**ما يحملك على قول: بخ بخ؟**». قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: «**فإنك من أهلها**».

فأخرج تمرات من قرنه (جعبة الشاب) فجعل يأكل منه، ثم قال: لئن أنا حبيت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل⁽²⁾.

وفي رواية قال: قال أنس رض : فرمى ما كان معه من التمر، وقاتل وهو يقول:

إلا التقى وعمل المعاد	ركضاً إلى الله بغير زاد
وكيل زاد عرضة للنفاد	والصبر في الله على الجهاد
	غير التقى والبر والرشاد

قاتل رحمه الله حتى استشهد⁽³⁾ . ومن صور التعبئة المعنوية أنه رض كان يبشرهم بقتل صناديد المشركين، وزيادة لهم في التطمئن كان يحدد مكان قتلى كل واحد منهم⁽⁴⁾ كما كان يبشر المؤمنين بالنصر قبل بدء القتال فيقول: «أبشر أبا بكر». ووقف رسول الله صل يقول للصحابة رضوان الله عليهم: «**والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل**

(1) انظر: المدرسة النبوية لأبي فارس، ص 140.

(2) انظر: خصر صحيح مسلم للمنذري (70/2) رقم (1157).

(3) انظر: صفة الصفوة (488/1)، زاد المعاد (182/3).

(4) انظر: جامع الأصول (202/8).

فِي قِتَل صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبَلًا غَيْرٌ مُدِيرٌ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ»(1).

وقد أثّرت هذه التعبئة المعنوية في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم والذين جاءوا من بعدهم بإحسان(2).

وكان ﷺ يطلب من المسلمين أن لا يتقدم أحد إلى شيء حتى يكون دونه، فعن أنس ﷺ قال: (... فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون دونه»)(3) فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرَضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**»(4).

45- العمل بالأسباب وانتظار المدد الرباني:

من أساسيات العقيدة الأخذ بالأسباب كما أمر الله: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْقُضُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾** [الأفال: 60]

وبعد الإعداد والأخذ بالأسباب يكون المؤمن على يقين تام أن الله هو الفاعل الحقيقي، فإن شاء أمضي الأسباب، وجعل قوتها المؤثرة أقوى من قوة القائم بها، وإن شاء عطلها وسلبها الآخر.

بعد أن دعا ﷺ ربه في العريش، واستغاث به خرج من العريش فأخذ قبضة من التراب، وحصب بها وجوه المشركين وقال: «**شافت الوجه**» ثم أمر ﷺ أصحابه أن يصدقو الحملة إثرها ففعلوا، فأوصل الله تعالى تلك الحصبة إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله(5)؛ ولهذا قال الله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكَنَ اللَّهُ رَمَى﴾** [الأفال: 17]، ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرمي، ونفي عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرمي يراد

(1) انظر: سيرة ابن هشام (239/1).

(2) المدرسة العسكرية لأبي فارس، ص 143.

(3) انظر: مسلم (1510/3) رقم (1901).

(4) انظر: المندري، مختصر صحيح مسلم، (70/2) رقم (1157).

(5) انظر: المستفاد من فصص القرآن (125/2).

به الحذف والإيصال فأثبت لنبيه الحذف، ونفى عنه الإيصال⁽¹⁾. ونلحظ أن الرسول ﷺ أخذ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله، فكان النصر والتأييد من الله تعالى، فقد اجتمع في بدر الأخذ بالأسباب بالقدر الممكن مع التوفيق الرباني في تهيئة جميع أسباب النصر متعاونة متكافئة مع التأييدات الربانية الخارقة والغيبية، ففي عالم الأسباب تشكل دراسة الأرض والطقس وجود القيادة والثقة بها والروح المعنوية لبناء أساسية في صحة القرار العسكري، ولقد كانت الأرض لصالح المسلمين، وكان الطقس مناسباً للمعركة، والقيادة الرفيعة موجودة والثقة بها كبيرة، والروح المعنوية مرتفعة، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكل مباشر وتوفيقه، وبعضها كان من فعل رسول الله ﷺ أخذًا بالأسباب المطلوبة، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله وزيد على ذلك التأييدات الغيبية والخارقة فكان ما كان، وذلك نموذج على ما يعطاه المسلمون بفضل الله إذا ما صلحت النيات عند الجندي والقادة، ووُجدت الاستقامة على أمر الله، وأخذ المسلمون بالأسباب⁽²⁾.

46- نهاية الطغاة:

أ- مصرع أبي جهل بن هشام المخزومي:

قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وشمالني، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أصلع منهما⁽³⁾, فغمزني⁽⁴⁾ أحدهما فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأجل منا، قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها.

(1) انظر: زاد المعاد (183/3).

(2) انظر: الأساس في السنة وفقها السيرة النبوية (474/1).

(3) أصلع: أقوى وأعظم وأشد.

(4) غمزني: قرصني.

قال: فلم أنسب⁽¹⁾ أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه، قال: فابتدرأه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيُّكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلتنه، فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا. فنظر في السيفين فقال: «كلَّاكما قتله»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، وكانا معاذ بن عفراة ومعاذ بن عمرو بن الجموح⁽²⁾. وفي حديث أنس قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه (ابنا عفراة حتى برد)⁽³⁾ فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتلته قومه أو قال: قتلتموه⁽⁴⁾، وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أدركك أبا جهل يوم بدر صريعا، فقلت: أي عدو الله قد أخزاك الله؟ قال: وبما أخزاني؟ من رجل قتلتموه، ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوق السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه، فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» قلت: الله الذي لا إله إلا هو. قال: فانطلق فاستثبتت فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته. فقال رسول الله ﷺ: «انطلق» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «هذا فرعون هذه الأمة»⁽⁵⁾.

كان الدافع من حرص الأنصاريين الشابين على قتل أبي جهل ما سمعاه من أنه كان يسب رسول الله ﷺ، وهذا تبلغ محبة شباب الأنصار لرسول الله ﷺ بذل النفس في سبيل الانتقام من تعرض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعود ﷺ وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار فيه عبرة بلغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى لل المسلمين في مكة قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم. ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين، ولقد كان أبو جهل مستكراً جباراً حتى وهو صريح وفي

(1) أنسب: ألبث.

(2) البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد بدر، رقم (3988).

(3) برد: قارب على الموت وكان في النزع الأخير.

(4) البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل رقم (3963).

(5) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 242.

آخر لحظات حياته⁽¹⁾. فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال عبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتز رأسه: لقد ارتقى مرتقى صعباً يا رويعي الغنم⁽²⁾.

ف والله تعالى لم يعِّل لهذا الخبيث أبي جهل بضربات الأبطال من أشبال الأنصار، ولكنه أبقياه مصرؤغاً في حالة من الإدراك والوعي بعد أن أصابته ضربات أشفت به على الهالك الأبدى، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة والذلة والخذلان على يد من كان يستضعفه ويؤذيه، ويضطهدء بمكمة من رجال الرعيل الأول -السابقين إلى مظلة الإيمان وظهر العقيدة، والتبع لله بشرائعه، التي أنزلها رحمة للعالمين- عبد الله بن مسعود رض فيعلو على صدره، ويدوسه بقدميه، ويقبض على لحيته تحقرأ له، ويقرّ عه تقريراً يبلغ من نفسه مجمع غروره واستكباره في الأرض، ويستل منه سيفه إمعاناً في البطش به فيقتلبه، ويمعن في إغاظته بإخباره أن النصر عقد بناصية جند الله وكتيبة الإسلام، وأن شnar الهزيمة النكراء وعارها، وخزيها وخذلانها قد رزئت به كتائب الغرور الأجوف في حشود النغير الذي قاده هذا الكفور الخبيث...⁽³⁾.

بـ- مصرع أمية بن خلف:

قال عبد الرحمن بن عوف رض: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتها⁽⁴⁾ بمكة وأحفظه في صاغيتها بالمدينة، فلما ذكرت (الرحمن) قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته (عبد عمرو).

فلما كان في يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه⁽⁵⁾ حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه ثم أبووا حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك.

(1) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (160 - 158/4).

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (247/2).

(3) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (3/431، 432).

(4) الصاغية: صاغية الرجل ما يميل إليه، وبطلى على الأهل والمال.

(5) أحرزه: أحمه.

فالقيت عليه نفسي لأمنعه، فتجalloه⁽¹⁾ بالسيوف من تحتي حتى قلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبد الرحمن بن عوف يرينا ذلك الآخر في ظهر قدمه⁽²⁾.

وفي رواية أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمه عبد عمرو فتسميت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو أر غبت عن اسم سماك أبوك؟ قال: فأقول نعم. قال: فإني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به، أما أنت فلا تجني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. قال: وكان إذا دعاني يا عبد عمرو لم أجبه، قال: فقلت: يا أبا علي اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: قلت: نعم. قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجبته فاتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو أخذ بيده قال: ومعي أدراج لي قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رأني قال: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك فيَ فأنا خير لك من هذه الأدراج التي معك؟ قال: قلت: نعم، ها الله؟ قال: فطرحت الأدراج من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ ثم خرجت أمشي بهما، قال ابن هشام: يربى باللبن أن من أسرني افتديت منه بإبل كثيرة اللبن⁽³⁾.

ونلحظ من الروايات السابقة:

1- ما جرى من بلال رضي الله عنه حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة، فلما رأاه في يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسريراً صرخ بأعلى صوته: لا نجوت إن نجا.

إنه موقف من مواقف التشفي في أعداء الله، والتشفي من كبار الكفارة الفجار وفي الحياة الدنيا نعمة يفرج الله بها عن المكروريين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطغاة، قال تعالى: (فَاتُّلُوْهُمْ يُعَذَّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفُ صُدُورَ قَوْمٍ

(1) تخللوه: طعنوه وأصابوه

(2) البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل المسلم حريرا رقم (2301).

(3) انظر: سيرة ابن هشام (243/2) سنه صحيح وقد صرخ ابن إسحاق بالقولين.

مُؤْمِنٍ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤﴾

[التوبية: 14، 15].

2- إن فيما جرى لأمية بن خلف من قتل مفزع درساً بلیغاً للطغاة المتجبرين، وعبرة للمعتبرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتقدون على الضعفاء، ويسلبونهم حقوقهم، فما لهم إلى عاقبة سيئة وخيمة في الآخرة، وقد يمكن الله للضعفاء منهم في الدنيا قبل الآخرة كما حدث لأمية بن خلف وأضرابه من طغاة الكفر⁽¹⁾، قال تعالى: **﴿وَنَرِيدُ أَن نَمُّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾** [القصص: 5].

3- وفي قول عبد الرحمن بن عوف: «يرحم الله بلا ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري»⁽²⁾ مع ما جرى من بلال من معارضة وانتزاع الأسيrians من يده بقوة الأنصار الذين استجد بهم دليل على قوة الرباط الأخوي بين الصحابة الكرام⁽³⁾.

4- موقف لأم صفوان بنت أمية: قيل لأم صفوان بنت أمية بعد إسلامها، وقد نظرت إلى الحباب بن المنذر بمكة: هذا الذي قطع رجل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر من قُتل على الشرك، قد أهان الله علياً بضربه الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربه علياً، قد كان على الإسلام حين خرج من هنا، فقتل على غير ذلك⁽⁴⁾، وهذا الموقف يدل على قوة إيمانها، ورسوخ يقينها حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها⁽⁵⁾.

وقولها على ابنها على: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا فقتل على غير ذلك» تعني أنه كان من عرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين، فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم⁽⁶⁾، فنزل فيهم قول الله

(1) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (152/4، 153).

(2) انظر: سيرة ابن هشام (2/244).

(3) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (4/153).

(4)، (5) نفس المصدر (4/154).

(6) انظر: تفسير الطبرى (10/21).

تعالى: ﴿أَذْيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوْلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأفال: 49].

ج- مصرع عبيدة بن سعيد بن العاص على يد الزبير:

قال الزبير بن العوام رض: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدحج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه فمات، قال هشام، فأخبرت أن الزبير قال: (لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها، وقد انتهى طرفاها).

قال عروة: فسأله إياها رسول الله ص فأعطاه، فلما قبض رسول الله ص أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قُتلت⁽¹⁾.

(هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام رض في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعيدة جداً لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف)..

د- مصرع الأسود المخزومي:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأسود المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق فقال: أعاده الله لأشربين من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقى ضربه حمزة فأطعن⁽²⁾ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب⁽³⁾ رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في

(1) انظر: صحيح البخاري، المغازي رقم (3998).

(2) أطعن: أطار.

(3) تشخب: تسيل بصوت.

الحوض(1).

وقد سأله أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف عن الرجل المعلم بريشة نعامة في صدره؟ فأجابه عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل (2): وهذه شهادة من أحد زعماء الكفر، وهذا يعني أنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً وتشريداً (3).

وكان هذا أول من قتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، فقد جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين، فتصدى له بطل الإسلام حمزة، فقضى عليه ولقن أمثاله من الحاقدين المتكبرين درساً في الصميم.

47- إنها جنان كثيرة:

عن أنس (رضي الله عنه) قال: أصيّب حارثة بن سراقة يوم بدر وهو غلام فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصيبر وأحتسب، وإن تكون الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك أَوَهَبْلَتِ أَوْجَنَّةً وَاحِدَةً هِيَ؟ إِنَّهَا جَنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ» (4) وفي رواية: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» (5).

48- الشوق إلى الآخرة:

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة أن عوف بن مالك وهو ابن عفرا (6) قال: يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**خمسة يده في العدو حاسراً**» (7) فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل (8).

(1) انظر: سيرة ابن هشام (237/2)

(2) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (151/4).

(3) المصدر نفسه (152/4).

(4) البخاري في المغازي، باب فضل من شهد بدرًا رقم (3982).

(5) الأساس في السنّة وفقهها السيرة النبوية (475/1).

(6) عفرا بنت عبد بن ثعلبة شارك أولادها السبعة في غزوة بدر.

(7) حاسرا: غير لابس الدرع.

(8) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 245

ولما سار رسول الله ﷺ إلى بدر وعرض عليه جيش بدر رد عمير بن أبي وقاص فبكى عمير فأجازه، فعقد عليه حمائل سيفه، ولقد كان عمير يتوارى حتى لا يراه رسول الله ﷺ فقال سعد: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى فقلت: ما لك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني ويردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة⁽¹⁾، وقد استشهد بالفعل.

وهذا الخبر يدل على قوة ارتباط الصحابة الكرام بالأخرة، وحرصهم على رضوان الله تعالى؛ ولذلك انطلق عوف بن الحارث رض كالسهم وهو حاسر غير متدرع يثخن في الأعداء حتى أكرمه الله بالشهادة، لقد تغيرت مفاهيم المجتمع الجديد، وتعلق أفراده بالأخرة، وأصبحوا حريصين على مرضاته بعد أن كان جل همهم أن تتحدث عنهم النساء عن بطولاتهم، ويرضى سيد القبيلة عنهم، وتنشد الأشعار في شجاعتهم⁽²⁾.

49- بيوت الصحابة تتنافس من أجل الجنة:

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه فخرج سهم سعد فقال له أبوه: يابني آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبتي لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد⁽³⁾.

وهذا الخبر يعطي صورة مشرقة عن بيوتات الصحابة في تنافسهم وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى، فهذا سعد بن خيثمة ووالده لا يستطيعان الخروج معًا لاحتياج أسرتهما وعملهما لبقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في نيل الشهادة حتى اضطروا إلى الاقتراء بينهما، فكان الخروج من نصيب سعد -رضي الله عنهما-، وكان الآباء في غاية الأدب مع والده، ولكنه كان مشتاقاً إلى الجنة

(1) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص 317، نقلأً عن صفة الصفوة، (294/1)، والمستدرك (188/3) والإصابة (35/3).

(2) انظر: التربية القيادية (31/2).

(3) الإصابة (23/2)، رقم (3118).

فأجاب بهذا الجواب البليغ: (يا أبت لو كان غير الجنة فعلت) (1).

50- محاولة اغتيال القائد

قال عروة بن الزبير: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر، بعد مصاب أهل بدر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، ومن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عنااء⁽²⁾ وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: (والله ما في العيش بعدهم خير). قال له عمير: صدقت، أما والله لولا دينٌ علي ليس عندي قضاوه، وعيال أخنى عليهم الضياعة⁽³⁾ بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتلها، فإن لي فيهم علة⁽⁴⁾، ابني أسير في أيديهم.

قال: فاغتنمتها صفوان بن أمية فقال: عليّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أو أسيئهم⁽⁵⁾ ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم على شأني وشأنك. قال: أفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ سُمّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمه الله به، وما أراهم في عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب وقد أنماخ راحلته على باب المسجد متوضحاً سيفه، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشّرٍ وهو الذي حرث بيننا، وحرزنا للقوم يوم بدر. ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوضحاً سيفه. قال **«فأدخله عليّ»** قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحملة⁽⁶⁾ سيفه في عنقه فلبيه بها، وقال لمن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ثم دخل

(1) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (87/4).

(2) عنا: التعب.

(3) الضياعة: الضياع والشتت.

(4) العلة: السبب.

(5) أسيئهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

(6) حملة السيف: ما يربط به السيف على الجسم.

(7) لبيه: قيده.

به على رسول الله ﷺ، فلما رأه رسول الله ﷺ وعمر أخذ بحملة سيفه في عنقه قال: «أرسله يا عمر، ادْنُ يا عمير».

فدن ثم قال: انعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحية خير من تحيتها يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة»⁽¹⁾.

قال: أما والله، يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قال: «فما بال السيف في عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيف! وهل أغنت عنا شيئاً؟!! قال: «اصدقني ما الذي جئت به؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لو لا دين عليٍّ وعيالٍ عندى لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلاني له، والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره ففعلا».

ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهذاً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوههم إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشرروا بوقعة تأييكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عن الركبان، حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فلحلف أن

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 259.

لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً»(1).
وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

1- حرص المشركين على التصفية الجسدية للدعاة، فهذا صفوان بن أمية وعمير بن وهب يتفقان على قتل النبي ﷺ، وهذا يرشدنا إلى أن أعداء الدعوة قد لا يكتفون برفض الدعوة، والتشويش عليها، وصد الناس عنها، بل يريدون اغتيال الدعاة، وتدمير المؤامرات لقتالهم، وقد يستأجرن المجرمين لتنفيذ هذا الغرض الخسيس(2). وقد يستغل الأغنياء المترفون من أعداء الدعوة حاجة الفقراء وفقرهم فيوجهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة ماربهم، وإن أدى ذلك إلى هلاكهم، فهذا هو صفوان قد استغل فقر عمير وقلة ذات يده ودينه ليرسله إلى هلاكه(3).

2- ظهور الحس الأمني الرفيع الذي تميز به الصحابة ﷺ ، فقد انتبه عمر ابن الخطاب لمجيء عمير بن وهب وحضر منه، وأعلن أنه شيطان ما جاء إلا لشّرٍ، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر، فقد كان يؤذى المسلمين في مكة، وهو الذي حرض على قتال المسلمين في بدر، وعمل على جمع معلومات عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر فيأخذ الأسباب لحماية الرسول ﷺ، فمن جهته فقد أمسك بحملة سيف عمير الذي في عنقه بشدة فعطله عن إمكانية استخدام سيفه للاعتداء على الرسول ﷺ وأمر نفراً من الصحابة بحراسة النبي ﷺ.

3- الاعتراض بتعاليم هذا الدين، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحية الجاهلية، ولم يرد على تحية عمير حين قال له: أنعموا صباحاً، وأخبره بأنه لا يحيي بتحية أهل الجاهلية؛ لأن الله تعالى أكرم المسلمين بتحية أهل الجنة.

4- سمو أخلاق النبي ﷺ فقد أحسن إلى عمير، وتجاوز عنه وعفا عنه مع أنه جاء ليقتلها(4)، بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عمير وقال لأصحابه: «فَقَهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ، وَأَقْرَئُوهُ الْقُرْآنَ وَأَطْلَقُوا لَهُ

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص260.

(2) انظر: المستفاد من قصص القرآن (159/2).

(3) انظر: غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص82.

(4) انظر غزوة بدر الكبرى، ص83.

(أسيروه)⁽¹⁾.

5- قوة إيمان عمير، فقد قرر أن يواجه مكة كلها بالإسلام، وقد أذن له رسول الله ﷺ، وفعل، وواجه، وتحدى، وعاد أدراجه إلى المدينة، وأسلم على يديه ناس كثير، وكان حين تعد الرجال يطرحه عمر رض من يزن عنده ألف رجل، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم أمير المؤمنين عمر، عمرو بن العاص -رض- الذين كان كلُّ واحد منهم بألف⁽²⁾.

51- إمداد الله المسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، ومرويات عدد من الصحابة البدريين؛ أن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَّوَّا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوهَا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوهَا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأفال: 12]. وقال تعالى: (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُهُ فَانْقُوا اللهُ لَعْلَكُمْ شَكُرُونَ إِذْ تَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّنَّ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةَ آلَافِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَنْقُوا وَيَأْتُوكُمْ مَنْ فَوْرَهُمْ هَذَا يُمْدِكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوَّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشَرَى لَكُمْ وَلَتَطَمَّنُ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾.

وأورد البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وغيرهم عدداً من الأحاديث الصحيحة التي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدر، وقيامهم بضرب المشركين وقتلهم⁽³⁾.

فعن ابن عباس رض قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتاد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم⁽⁴⁾. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً فنظر إليه فإذا هو خطم أنه⁽⁵⁾، وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 260.

(2) انظر: التربية القيادية، (73/3).

(3) انظر: موسوعة نصرة العجم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (1/291).

(4) حيزوم: اسم الفرس الذي يركبه الملك.

(5) خطم: الخطم: الأثر على الأنف.

أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله فقال: «**صدقت، ذلك مدد من السماء الثالثة**»⁽¹⁾ ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهمما أيضا قال: إن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»⁽²⁾. ومن حديث علي بن أبي طالب عليه السلام قال: (فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسييراً، فقال العباس: يا رسول الله إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح)⁽³⁾ من أحسن الناس وجهها على فرس أبلق⁽⁴⁾ ما أرآه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال «**اسكت فقد أيدك الله بملك كريم**»⁽⁵⁾. ومن حديث أبي داود المازني قال: (إني لأتبع رجلا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أنه قتله غيري)⁽⁶⁾.

إن إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعي ثابت لا شك فيه، وأن الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين، وهذا ما حصل بنزول الملائكة، فقد قاموا بكل ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين: من بشارتهم بالنصر، ومن تثبيتهم بما ألقوه في قلوبهم من بواعث الأمل في نصرهم، والنشاط في قتالهم، وبما أظهروه لهم من أنهم معانون من الله تعالى، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعلي في القتال، ولا شك أن هذا الاشتراك الفعلي في القتال قوى قلوبهم وثبتهم في القتال، وهذا ما دلت عليه الآيات وصرحت به الأحاديث النبوية⁽⁷⁾.

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة مع أن واحداً من الملائكة كجبريل عليه السلام قادر بتوفيق الله على إبادة الكفار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك فقال: لقد مضت سنة الله بتدافع الحق وأهله مع الباطل وأهله، وأن الغلبة تكون وفقاً لسفن الله

(1) مسلم - الجهاد، باب الإمداد بالملائكة رقم (1763).

(2) البخاري - المغازي، باب فضل من شهد بدر، رقم (3995).

(3) الأجلح: الذي أخسر شعره على جانبي رأسه.

(4) الأبلق: ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

(5) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 247.

(6) نفس المصدر، ص 247.

(7) انظر: المستفاد من قصص القرآن (132، 131/2).

في الغلبة والانتصار، وأن هذا التدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحق والباطل، ومن ثمرات التمسك بالحق والقيام بمتطلباته أن يحصلوا على عون وتأييد من الله تعالى، بأشكال وأنواع متعددة من التأييد والعون، ولكن تبقى المدافعة والتدافع يجريان وفقاً لسفن الله فيهما، وفي نتيجة هذا التدافع فالجهة الأقوى بكل معاني القول الازمة للغلبة هي التي تغلب، فالمدد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة، ذلك الإمداد الذي تحقق به ما يستلزم الغلبة على العدو، ولكن بقيت الغلبة موقوفة على ما قدمه أولئك المؤمنون في قتال و مباشرة لأعمال القتال، وتعرضهم للقتل، وصمودهم وثباتهم في الحرب، واستدامة توكيلهم على الله، واعتمادهم عليه، وثقتهم به، وهذه معانٍ جعلها الله حسب سنته في الحياة أساساً للغلبة والنصر، مع الأسباب الأخرى المادية، مثل العدة والعدد والاستعداد للحرب وتعلم فنونه... إلخ. ولهذا فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل وقتل المبطلين، وأن يهيئوا الأسباب المادية والإيمانية للغلبة والانتصار، وبأيديهم إن شاء الله تعالى ينال المبطلون ما يستحقونه من العقاب⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿ قَاتُلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِي صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبُ عَيْنَظَ قُلُوبِهِمْ وَيَنْثُرُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبه: 14، 15].

إن نزول الملائكة عليهم السلام من السماوات العلي إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبتات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتبوا موانعه، فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة في مقابلة الأعداء، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة، وبعد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عدداً القوي إعداداً وجيش المؤمنين القليل عدداً الضعيف إعداداً.

وهو في نفس الوقت عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشع في صفوفهم احتمال تكرار نزول الملائكة الذين شاهدتهم بعضهم عياناً، إنهم مهما قدروا قوة المسلمين وعدهم فإنه سييقى في وجدهم رب مزلزل من احتمال مشاركة قوى غير

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (131/2، 132)

منظورة لا يعلمون عددها ولا يقدرون مدى قوتها، وقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة ﷺ في العهد النبوي، وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك فكان عاملًا قويًا في انتصاراتهم المتكررة الخامسة مع أعدائهم⁽¹⁾.

52- بعد النصر ومخاطبة أهل القلب:

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتل المشركين سبعين رجلاً، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون أرسل ﷺ عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشروا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين⁽²⁾.

ومكث ﷺ في بدر ثلاثة أيام، فعن أنس رضي الله عنه قال: (إنه صلوة كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرضة ثلاثة ليل...) (3) ولعل الحكمة في ذلك:

1- تصفية الموقف بالقضاء على أية حركة من المقاومة البائسة التي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارين هرباً إلى الجبال.

2- دفن من استشهد من جند الله مما لا تكاد تخلو منه معركة، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة، ولم يرد ما يشير إلى الصلاة عليهم، ولم يدفن أحد منهم خارج بدر⁽⁴⁾.

3- جمع الغنائم وحفظها، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ حتى تؤدي كاملة إلى مستحقها، وقد أسننت أنفال وغنائم بدر إلى ابن الحارث عبد الله بن كعب الأنصاري، أحد بنى مازن⁽⁵⁾.

4- إعطاء الجيش الظافر فرصة يستروح فيها، بعد الجهد النفسي والبدني المضني الذي بذله أفراده في ميدان المعركة، ويضمد فيها جراح مجريه، ويدرك نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النصر

(1) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (145/4).

(2) انظر: المستفاد من قصص القرآن (133/2).

(3) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 250.

(4) انظر: موسوعة نصرة العيم (291/1).

(5) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (453/3).

المؤزر الذي لم يكن داني القطوف، سهل المنال، ويتذكر أفراده وجماعاته ما كان من أحداث ومفاجآت في الموقعة، مما كان له أثر فعال في استجلاب النصر، وما كان من فلان في شجاعته وفادئيته وجرأاته على اقتحام المضائق وتفریج الأزمات، وما تكشفت عنه المعركة من دروس عملية في الكر والفر، والتدبیر المحكم الذي أخذ به العدو، وما في ذلك من عبر، واستذكار أوامر القيادة العليا و موقفها في رسم الخطط، ومشاركة الفعلية في تنفيذها، ليكون من كل ذلك ضياء يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية، و يجعلون منه دعائماً لحياتهم في الجهاد الصبور المظفر بالنصر المبين.

5- مواراة جيف قتلى الأعداء الذين انفرجت المعركة عن قتلهم، والتعرف عليهم وعلى مكانتهم في حشودهم، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت، للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه اتقاء شره في المستقبل، كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمة، والذي كان في شأن رأس الكفر أمية بن خلف وأضرابهما، وقد أمر رسول الله ﷺ بإلقاء هؤلاء الأخبات في ركيٍّ(1) من قلب(2) بدر خبيث مُبْحَث، ثم وقف على شفة الركي(3)، وقد ورد أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وأواني الناس»(4).

ثم أمر بهم، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإنني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ما تخاطب من أقوام قد جيفوا؟ فقال: «والذي نفسي بيده ما أنت بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون الجواب»(5). قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله،

(1) ركي: حافة البئر.

(2) قلب: أبيار ومفرده بئر.

(3) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (3/454).

(4) زاد المعاد (3/187).

(5) أخرجه البخاري (7/234) في المغازي، باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش.

توبخاً، وتصغيراً، ونقطة، وحسرة، وندماً(1).

53- الحياة البرزخية للأموات:

الحديث السابق الذي ورد فيه أنه ﷺ وقف على القتلى فقال: «بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، وأخرجتموني وأواني الناس»(2).

ثم أمر بهم، فسحبوا إلى قليب من قلب بدر فطرحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، ويا فلان، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً»

إن مناداة الرسول ﷺ لقتلى قريش ببنت أمراً عظيماً، وهو أنهم بدأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، غير أنهم لا يجيرون ولا يتكلمون، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحيح الأحاديث، حتى إنه ﷺ مر بقبرين وقال: «إِنَّهُمَا يَعْذَبَانِ وَمَا يَعْذَبَانِ فِي كَبِيرٍ»(3)، وذكر أن سبب تعذيبهما النم بين الناس، وعدم الاستتزاه من البول(4). ولا بد من التسليم بهذه الحقائق الغيبية، بعد أن تحدث عنها الصادق المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم في تعذيب آل فرعون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا غُدُوا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: 46]. وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169].

وبعد هذا التطاويف مع الدروس وال عبر .. فهذا غيضٌ من فيض درس من مدرسة بدر الكبرى التي يجب على المسلمين أن يقفوا أمامها وفقة إجلال وتقدير، لينظروا من خلالها إلى المعايير الإيمانية في مواجهة الحق مع الباطل، وكيف أن الفئة المؤمنة القليلة العدد والعتاد، والمستضعفة في الأرض كيف أنها حين أخلصت لربها،

(1) الأساس في السنة - السيرة النبوية (479/1).

(2) زاد المعاد (187/3).

(3) رواه البخاري رقم 218.

(4) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، د. محمد فوزي فضل الله، ص 64.

وتجردت لعقيدتها، وانخلعت من الأهواء والشهوات، فإن الله - عز وجل - أعزّها، وسخر لها جنود السموات والأرض، فتحقق لها النصر الذي وعد الله به عباده في محكم التنزيل : ﴿وَلَقَدْ سَبَقْتُ كَلْمَاتِنَا لِعِيَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: 171-173]

الله انصر دينك وكتابك وسنة نبيك يارب العالمين واكتب لنا الشهادة في سبيلك بعد طول عمر وحسن عمل، إنك ولدي ذلك والقادر عليه .
هذا وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .



غزوة أحد دروس وعبر

الحمد لله الذي تفرد بالجلال والعظمة، والعز والكبراء والجمال، وأشكره شكر عبد معترف بالتقدير عن شكر بعض ما أوليه من الإنعام والأفضال، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده رسوله، وصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً . وبعد.

إن الحنين والشوق يشدنا دائماً إلى السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، لنجلس في أفياء أحداثها مجلس التلاميذ الذين يتلقون العلوم والدروس النافعة المفيدة في أمور العقيدة والإيمان، والعبادة والأحكام، والسيادة والقيادة، وال الحرب والجهاد، والسلم وإدارة شؤون الحياة؛ إنها مدرسة كاملة لإعمار هذه الدنيا على منهج الله عز وجل، وللسعى إلى رضوان الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

عندما يقف المسلم ويقلب صفحات غزوة أحد يجد أنَّ فيها سفراً عظيماً للدروس وال عبر التي تقوم اعوجاج مسالكنا، وتحيي وتقوى ضعف إيماننا، وتثبت مواضع أقدامنا، وتكتشف ما وراء المظاهر إلى حقائقها .

ولقد وصف القرآن هذه المعركة وصفاً دقيقاً، وسلط الضوء على خفايا النفوس، ودخلائل القلوب، وكان فيها تربية للأمة في كل زمان ومكان، ودروسأً تتوارثها الأجيال تلو الأجيال.

وتشتهر السلسلة المباركة (غزوات النبي المصطفى ﷺ دروس و عبر) ومع الوقفة الثانية مع (غزوة أحد دروس و عبر).

وسأقف وإياكم مع بعض الفوائد والحكم الربانية المستفادة من هذه الغزوة العظيمة. فهذه الغزوة العظيمة تعد نموذجاً حياً لما يمر به المسلمون اليوم من محن وشدائد، فما أحراانا أن نقف عندها، ونستفيد من دروسها وعبرها، وما أحوج الأمة وهي تمر بهذه المرحلة الحرجة في تاريخها، أن تراجع نفسها، و تستعيد ذاكرتها، وتعي سيرة نبيها -

فأخذ نصر لا هزيمة، معركة فياضة بال عبر والعظات، أحداثها



صفحات ناصعة، يتوارثها الأجيال بعد الأجيال.
نسأل الله بمنه وكرمه أن يعيد لهذه الأمة مجدها وعزها ،وان يجعلنا
مفاتيح للخير مغاليق للشر وصلّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه.



غزوة أحد

غزوة أحد:

التي أنزل الله على إثرها آيات تُتلَى إلى يوم الدين، فنزلت ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تتحدث عن هذه الغزوة، ابتدأت بذكر أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعركة في قوله تعالى :-
﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلَكَ ثُبُوتُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ الْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121]، وانتهت بالتعليق الجامع على نتائج المعركة، والحكم

التي أرادها الله منها فقال - سبحانه -:
﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلَعُكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ وَلَكُنَّ اللَّهُ بِحْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَقَوَّلُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل

عمران: 179]

غزوة أحد:

التي وقعت في الخامس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة من

الهجرة. قال ابن إسحاق: كان أحد يوم السبت للنصف من شوال⁽¹⁾.

غزوة أحد:

التي تعلم منها المسلمون أنه ينبغي أن تكون الشدائـد والمحن في كل زمان فـيـصـلـاً لـتـميـزـ المؤـمـنـينـ، وـفـضـحـ المـنـافـقـينـ.

غزوة أحد:

التي فيها دروساً للأمة جمـاءـ فيـ حـيـاتـهاـ وـعـامـلـاتـهاـ وـلـعـلـ درـوـسـ النـكـباتـ وـالـهـزـائـمـ أـعـظـمـ أـثـرـاـ مـنـ غـيرـهاـ فيـ كـلـ وـقـتـ وـحـينـ.

غزوة أحد:

تركت آثاراً غائرة في نفس النبي ﷺ تلازمـهـ حتـىـ آخرـ حـيـاتـهـ ولـمـ حـانـتـ وـفـاتـهـ جـعـلـ آخرـ عـهـدـ بـذـكـرـياتـ الـبـطـولـةـ أـنـ يـوـدـعـ قـتـلـىـ أحدـ وـأـنـ يـدـعـواـ اللـهـ لـهـمـ عـنـ عـقـبةـ بـنـ عـامـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ :ـ قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ عـلـىـ قـتـلـىـ أحدـ بـعـدـ ثـمـانـ سـنـوـاتـ كـالـمـوـدـعـ لـلـأـحـيـاءـ وـالـأـمـوـاتـ ثـمـ طـلـعـ المـنـبـرـ فـقـالـ:ـ «ـ إـنـيـ بـيـنـ أـيـدـيـكـمـ فـرـطـ وـأـنـاـ عـلـيـكـمـ شـهـيدـ وـإـنـ موـعـدـكـمـ الـحـوضـ وـإـنـيـ لـأـنـظـرـ إـلـيـهـ مـنـ مـقـامـ هـذـاـ، وـإـنـيـ لـسـتـ أـخـشـيـ عـلـيـكـمـ أـنـ تـشـرـكـوـاـ وـلـكـنـ أـخـشـيـ عـلـيـكـمـ الدـنـيـاـ أـنـ تـنـافـسـوـهـاـ قـالـ عـقـبةـ فـكـانـ آخـرـ نـظـرـتـهـ إـلـىـ الرـسـوـلـ»ـ⁽²⁾.

غزوة أحد:

إن مقارنة يسيرة بين حال الأمة في يومها وبين حالها يوم هُزمـتـ فيـ مـعـرـكـةـ أـحـدـ وـجـعـلـتـ الـهـزـيمـةـ بـسـبـبـ مـعـصـيـتـهـاـ وـمـخـالـفـتـهـاـ لـرـسـوـلـهـ توـحـيـ بـأـنـ الـأـمـةـ الـيـوـمـ لـمـ تـكـمـلـ أـسـبـابـ الـنـصـرـ وـالـتـمـكـينـ التـيـ وـرـدـتـ فـيـ كـتـابـ اللـهـ تـعـالـىـ وـإـنـماـ هـيـ فـيـ غـفـلـةـ مـعـرـضـةـ، لـمـ تـرـفـعـ بـالـدـيـنـ رـأـسـاـ فـيـ كـثـيرـ مـنـ بـقـاعـهـاـ وـأـسـقـاعـهـاـ وـفـيـ كـثـيرـ مـنـ أـحـوـالـهـاـ وـأـهـوـالـهـاـ.

غزوة أحد:

من المعارك التي خاضها النبي ﷺ بنفسـهـ غـزـوةـ أـحـدـ التـيـ كـانـتـ مـحـلاـ لـأـحـدـاثـ كـبـارـ دـرـوـسـ وـعـبـرـ عـظـامـ. فـهـيـ فـيـاضـةـ بـالـعـظـاتـ الـغـوـالـيـةـ وـالـموـاعـظـ الـقيـمةـ.

(1) انظر: السيرة النبوية لأبي هشام (3/116).

(2) أخرجه البخاري ومسلم.

غزوة أحد :

مع ما وقع فيها من الكوارث والنكبات، وما حوتة من النوازل والأزمات، إلا أنه يصدق فيها قوله تعالى: **﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بِلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾** [النور: 11]

هذه لمحه موجزة سريعة نقف وإياكم مع دروس وعبر من هذه الغزوة المباركة التي كان لها الأثر البالغ في حياة المصطفى ﷺ وحياة الصحابة وسيكون لها مثل ذلك التأثير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فهيا لنعيش مع هذه الدروس العبر .



1- أثر العاصي في النصر والهزيمة :

في غزوة أحد ظهر أثر المعصية والفشل والتنازع في تخلف النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمر النبي - ﷺ، وبسب التنازع والاختلاف حول الغنائم، ذهب النصر عن المسلمين بعد أن انعقدت أسبابه، ولاحت بوادره، فقال - سبحانه -:

وَلَقَدْ صَدَقُكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ أَذْ تَحْسُونَهُمْ يَادِنَهُ حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْبُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْتُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ {آل عمران: 152}

فكيف ترجو أمة عصت ربها، وخالفت أمر نبيها، وتفرقت كلمتها أن يتنزل عليها نصر الله وتمكينه؟ وبالمعاصي تدور الدوائر، ففاضت أرواح في تلك الغزوة بسبب خطيئة، وخرج أدم من الجنة بمعصيته، و«دخلت امرأة النار في هرة» فما الذي أهلك الأمم السابقة وطمس الحضارات البائدة سوى الذنوب والمعاصي :

فَكُلًا أَخْدُنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْدَثْنَاهُ الصَّيْحَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقَنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {القصص 40}

يقول بعض أهل العلم: يا سبحان الله! رماة خالفوا رسول الله ﷺ والموت على رءوسهم، وأنت تختلف رسول الله ﷺ في اليوم والليلة عشرات المرات ولا تخشى، ولذلك كان من نتيجة هذه المخالفة حلول الهزيمة وحلول الغلبة على المؤمنين رضي الله عنهم وأرضاهم، فمخالفة أمر الرسول ﷺ شوئ وفساد كبير، وما هناك تدمير لمستقبل الإنسان ولا خيبة أمل ولا تعكير لفهمه وذكائه ورزقه وولده مثل المعصية نعوذ بالله من المعاصي!

فالمعاصي سبب كل عناء وطريق كل شقاء، ما حلّت في ديار إلا أهلكتها ولا فشت في مجتمعات إلا دمرتها وأزالتها، وما أهلك الله تعالى أمة إلا بذنب وما نجى وما فاز من فاز إلا بتنورة وطاعة .

قال تعالى : **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذَيقُهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** {الروم 40}

وقال تعالى : **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ** {الشورى 30}

المعصية عذاب المعصية وحشة المعصية حتى ولو كانت صغيرة مع الإصرار عليها تعمي البصيرة وتسقط الكرامة وتُوجب القطيعة وتحق البركة ما لم يتلب العبد ويرجع خائفا وجلاً .

رأيت الذنوب ثميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وتركت الذنوب حياء القلوب وخير لنفسك عصيانها

قال مجاهد رضي الله عنه: "إن البهائم لتلعن عصاةبني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا شؤمه معصية بنى آدم" و لا حول ولا قوة إلا بالله. تأمل يا رعاك الله قول الحق سبحانه : **﴿أَوَلَمَا أَصَابْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبَّتُمْ مِثْلَيْهَا فَلَمْ تُمْنِعْنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (آل عمران 165).

فالزم يا عبد الله الطاعة والعبودية، يؤخذ بيديك في المضائق، وتفرج لك الشدائـد، ولا تجعل أعمالك جنداً عليك، يزداد بها عدوك قوة عليك.

2- خطورة إيهار الدنيا على الآخرة :

وهذه الغزوة تعلمنا كذلك خطورة إيهار الدنيا على الآخرة، وأن ذلك مما يفقد الأمة عنون الله ونصره وتأييده، قال ابن مسعود: "ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد الدنيا حتى نزل علينا يوم أحد : **﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾**" ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خضراء، وإن الله مستخلفكم فيها فلينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»⁽¹⁾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: (أدركوا الناس ونبي الله)، لا يسبقونكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم) وقال بعضهم: (لا نبرح حتى يأنن لنا النبي صلى الله عليه وسلم)⁽²⁾ (فنزلت:

﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (آل عمران: 14)..

وفي ذلك درسٌ عظيم يبيّن أن حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفي عليهم ذلك، فائزروها على ما عند الله، مما يوجب على المرء أن يتفقد نفسه وأن يفتح في خبائها، وأن يزيل كل ما من شأنه أن يحول بينها وبين الاستجابة لأوامر الله ونواهيه.

وقد وردت نصوص عديدة من آيات وأحاديث تبيّن منزلة الدنيا عند

(1) مسلم، رقم 2742.

(2) انظر: تفسير الطبرى (474/3).

الله وتصف زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذر من الحرص عليها، قال تعالى:

**﴿رِّبِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقْتَطِرَةِ
مِنَ الدِّهْبِ وَالْفَضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ
الَّذِيَّنَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآب﴾** [آل عمران: 14].

وقد حدّر الرسول الكريم ﷺ أمهـةـ من الاغترار بالدنيـاـ، والـحرـصـ الشـدـيدـ عـلـيـهـاـ فـيـ أـكـثـرـ مـوـضـعـ، وـذـلـكـ لـمـ لـهـذـاـ الـحرـصـ مـنـ أـثـرـهـ السـيـئـ عـلـىـ الـأـمـةـ عـامـةـ وـعـلـىـ مـنـ يـحـمـلـونـ لـوـاءـ الدـعـوـةـ خـاصـةـ.

إنـ الـذـيـ حدـثـ فـيـ أـحـدـ عـبـرـةـ عـظـيمـةـ لـلـدـعـاـةـ وـتـعـلـيـمـاـ لـهـمـ بـأـنـ حـبـ الـدـنـيـاـ قـدـ يـتـسـلـلـ إـلـىـ قـلـوبـ أـهـلـ الإـيمـانـ وـيـخـفـىـ عـلـيـهـمـ، فـيـؤـثـرـونـ الـدـنـيـاـ وـمـتـاعـهـاـ عـلـىـ الـآـخـرـةـ وـمـتـطـلـبـاتـ الـفـوزـ بـنـعـيمـهاـ، وـيـعـصـونـ أـوـامـرـ الـشـرـعـ الـصـرـيـحةـ كـمـاـ عـصـىـ الرـمـاـةـ أـوـامـرـ الرـسـوـلـ ﷺـ الـصـرـيـحةـ بـتـأـوـيلـ سـاقـطـ، يـرـفعـهـ هـوـيـ النـفـسـ وـحـبـ الـدـنـيـاـ، فـيـخـالـفـونـ الـشـرـعـ وـيـنـسـونـ الـمـحـكـمـ مـنـ أـوـامـرـهـ، كـلـ هـذـاـ يـحـدـثـ وـيـقـعـ مـنـ الـمـؤـمـنـ وـهـوـ غـافـلـ عـنـ دـوـافـعـهـ الـخـفـيـةـ، وـعـلـىـ رـأـسـهـاـ حـبـ الـدـنـيـاـ، وـإـيـثـارـهـاـ عـلـىـ الـآـخـرـةـ وـمـتـطـلـبـاتـ الـإـيمـانـ، وـهـذـاـ يـسـتـدـعـيـ مـنـ الـدـعـاـةـ التـفـتـيـشـ الـدـائـمـ الـدـقـيقـ فـيـ خـبـاـيـاـ نـفـوسـهـمـ وـاقـتـلـاعـ حـبـ الـدـنـيـاـ مـنـهـاـ، حـتـىـ لـاـ تـحـولـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ أـوـامـرـ الـشـرـعـ، وـلـاـ تـوـقـعـهـمـ فـيـ مـخـالـفـتـهـ بـتـأـوـيلـاتـ مـلـفـوـقـةـ بـهـوـيـ النـفـسـ وـتـلـفـتـهـ إـلـىـ الـدـنـيـاـ وـمـتـاعـهـاـ⁽¹⁾.

3- ويـتـخـذـ مـنـكـمـ شـهـادـاـ:

وـمـنـ الـحـكـمـ إـكـرـامـ اللـهـ بـعـضـ عـبـادـهـ بـنـيـلـ الشـهـادـةـ، الـتـيـ هـيـ مـنـ أـعـلـىـ الـمـرـاتـبـ وـالـدـرـجـاتـ، فـأـرـادـ - عـزـ وـجـلـ - أـنـ يـتـخـذـ مـنـ عـبـادـهـ شـهـادـةـ تـرـاقـ دـمـاؤـهـمـ فـيـ سـبـيلـهـ، وـيـؤـثـرـونـ مـحـبـتـهـ وـرـضـاهـ عـلـىـ نـفـوسـهـمـ.

مـصـعـبـ بـنـ عـمـيرـ ﷺـ:

قالـ خـابـرـناـ معـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ وـنـحـنـ نـبـتـغـيـ وـجـهـ اللـهـ، فـوـقـعـ أـجـرـناـ عـلـىـ اللـهـ فـمـنـاـ مـنـ مـضـىـ فـيـ سـبـيلـهـ وـلـمـ يـأـكـلـ مـنـ أـجـرـهـ شـيـئـاـ، مـنـهـمـ مـصـعـبـ بـنـ عـمـيرـ قـتـلـ يـوـمـ أـحـدـ، وـلـمـ يـتـرـكـ إـلـاـ نـمـرـةـ، كـنـاـ إـذـاـ غـطـيـنـاـ رـأـسـهـ بـدـتـ رـجـلاـهـ، وـإـذـاـ غـطـيـنـاـ رـجـلـيـهـ بـدـاـ رـأـسـهـ، فـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ: «ـغـطـواـ رـأـسـهـ، وـاجـعـلـواـ عـلـىـ رـجـلـيـهـ الـإـنـذـرـ»ـ، وـمـنـ أـيـنـعـتـ لـهـ ثـمـرـتـهـ فـهـوـ

(1) السـيـرـةـ النـبـوـيةـ ، عـلـيـ الصـلـابـيـ، غـزـوـةـ أـحـدـ .

يهدبها⁽¹⁾، ومن حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه أتى ب الطعام وكان صائماً، فقال: قُتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكان خيراً مني، فلم يوجد له ما يكفيه إلا بردة، وقتل حمزة أو رجل آخر خير مني، فلم يوجد له ما يكفيه، إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عَجَّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل بيكي⁽²⁾.

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه ودعا له ثم قرأ هذه الآية:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23]، ثم قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيمة، فأتواهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيمة إلا ردوا عليه»³.

سعد بن الربيع رضي الله عنه:

هذا الذي استكتمه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه خبر مسير قريش، وكان رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه يحبه، فلما انتهت معركة أحد قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟»؛ لأن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه قد رأى الأسنة شرعت إليه، فقال أبي بن كعب⁴: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال له: «إن رأيت سعد بن الربيع فأقرأه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه كيف يجدك؟» فنظر أبي فوجده جريحاً به رمق، فقال له: إن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة، وقد أذفت إلى مقاتلي⁵، وفي رواية صحيحة قال: على رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: «لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه وفيكم شفر⁽⁶⁾ يطرف»، قال: وفاضت نفسه

(1) البخاري في الجنائز، رقم 1286. أي: يحيطها.

(2) البخاري في الجنائز رقم 1274. 1275.

(3) انظر: المستدرك (200/3) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(4) وفي رواية أن المرسل هو زيد بن ثابت وليس أبي . كما جاء في زاد المعاد ص 207 ط 15 مؤسسة الرسالة.

(5) انظر: السيرة الحلبية (532/2).

(6) شفر: العين.

رحمه الله¹. وهذا نص حفظه رسوله في سكرات الموت يدل على قوة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة لم يتاثر بالموت ولا آلام الفروح.

عبد الله بن جحش رض:

قال سعد بن أبي وقاص رض: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد: إلا تدعوا الله، فخلوا في ناحية فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلْقُنِي رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتلها، وأخذ سلبه، فأمّن عبد الله بن جحش رض، ثم قال: «اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدد أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فاقول: فيك وفي رسولك، فتقول صدقت»، قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلان في خيط⁽²⁾. وفي هذا الخبر جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله، وتمنيه ذلك وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه⁽³⁾.

أنس بن النضر رض:

ولما انهزم الناس لم ينهرم أنس بن النضر . وقال: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني المسلمين وأبرا إليك مما صنع هؤلاء» يعني المشركين ثم تقدم فلقنه سعد بن معاذ فقال أين يا أبا عمر؟ فقال أنس رض: «واهَا لريح الجنة يا سعد إني أجده دون أحد» ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل بما عرف حتى عرفته أخته ببناته وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم⁽⁴⁾.

حنظلة بن أبي عامر - رض - (غسيل الملائكة):

لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوق على الأرض، فصاح حنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شداد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله - فقال: «إني رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 294.

(2) المصدر السابق، 293.

(3) انظر: زاد المعاد (3)، 212.

(4) أخرجه البخاري / 7 في المغازي : باب غزوة أحد .

المن، في صاحف الفضة» قال رسول الله - ﷺ: «**فاسألو أهله ما شاء؟**» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة، فقال رسول الله - ﷺ: «**فلذاك غسته الملائكة**».

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد، وكان قد استأذن رسول الله - ﷺ - أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلى بالصبح غداً يريد رسول الله - ﷺ - ولزمه جميلة فعاد فكان معها، فاجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعد: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، قلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها، وفي تعلق جميلة بنت عبد الله بن أبي حنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظية لدى الخطاب، لكنها تعلقت به رجاءً أن تحمل منه فتلد ولذاً ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات علياً في الصلاح أولًا، ثم بما ترجوه من نيله الشهادة، ولقد حصل لها ما أملت به فحملت منه وولدت ولذاً ذكرها سمي عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

عبد الله بن عمرو بن حرام - :

رأى عبد الله بن عمرو رؤية في منامه قبل أحد، قال: «رأيت في النوم قبل أحد، مبشر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء، قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى ثم أحبيب، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هذه الشهادة يا أبو جابر»، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنه.

أصرّ عبد الله بن عمرو بن حرام على الخروج في غزوة أحد، فخاطب ابنه جابر بقوله: يا جابر، لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمننا، فإنني والله لو لا أتركت بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي (1).

وقال لابنه أيضاً: «ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من

أصحاب النبي ﷺ، وإنني لا أترك بعدي أعز على منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن على ديننا فاقض واستوص بأخواتك خيراً»⁽¹⁾. وخرج مع المسلمين ونال وسام الشهادة في سبيل الله، فقد قتل في معركة أحد، وهذا جابر يحدثنا عن ذلك حيث يقول: «لما قُتِلَ أبي يوم أحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه»⁽²⁾.

وقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً ودينًا، قال ﷺ: «أفلأ أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلـى يا رسول الله، قال ﷺ:

«ما كُلِّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكُلِّمَ أَبَاكَ كَفَاحًا، يَا جابر أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَحِيَا أَبَاكَ فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أَعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبَّ تَحِينِي فَأُقْتَلُ فِيَكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ سَبَحَانَهُ: إِنَّهُ سَيِّقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ، قَالَ: يَا رَبَّ.. فَأَبْلَغَ مِنْ وَرَائِي»⁽³⁾. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

خيثمة أبو سعد - ؓ :

قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم بدر، لقد أخطأته وقعة بدر، وكانت والله عليها حريصاً، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاكاً إلى مرافقه في الجنة، وقد كبرت سني، ورقّ عظمي، وأحبببت لقاء ربّي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقه سعد في الجنة، فدعاه له رسول الله - ﷺ - بذلك فقتل بأحد شهيداً⁽⁴⁾.

(1) البخاري رقم 1351

(2) البخاري، رقم 1244

(3) صحيح ابن ماجة للألباني، رقم 190 (2800).

(4) انظر: زاد المعاد (3) (208/3).

و هب المزنی و ابن أخيه - مبشر -

أقبل وهب بن قابوس المزنی، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغم لهم من جبل مزينة، فوجدا المدينة خلواً فسألا: أین الناس؟ فقالوا: بأحد، خرج رسول الله - ﷺ - يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين فخرجا حتى أتيا النبي - ﷺ - بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله - ﷺ - وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من وراءهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا، فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله - ﷺ -: «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع. فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله - ﷺ -: «من لهذه الكتبية؟» فقال المزنی: أنا يا رسول الله، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا، ثم رجع المزنی، ثم طاعت كتبية أخرى فقال: «من يقوم لهؤلاء؟» قال المزنی: أنا يا رسول الله، قم، وأبشر بالجنة» فقام المزنی مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام يجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله - ﷺ - ينظر إلى المسلمين، حتى خرج من أقصاهم ورسول الله - ﷺ - يقول: «اللهم ارحمه» ثم يرجع فيهم، فما زال كذلك وهم محددون به، حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلواه، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المثلة يومئذ، ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: «إن أحب ميته أموت لما مات عليها المزنی».

وكان بلال بن الحارث المزنی يحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقسمت بیننا غائمنا، فأُسقط فتى من آل قابوس من مزينة، فجئت سعداً حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال، قال: مرحباً بك، من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس، قال سعد: ما أنت يا فتى من المزنی الذي قتل يوم أحد؟ قال: ابن أخيه، قال سعد: مرحباً وأهلاً وأنعم الله بك عيناً، ذلك الرجل شهدت منه يوم أحد مشهداً ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية ورسول الله - ﷺ - وسatan، والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله - ﷺ - ليرمي بيصره في الناس يتوصّم يقول: «من لهذه الكتبية؟» كل ذلك يقول المزنی: أنا يا رسول الله، كل ذلك

يرده فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله - ﷺ: «**قم وأبشر بالجنة**» قال سعد: وقمت على أثره يعلم الله أنني أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه - رحمة الله - وودت والله أنني كنت أصبت يومئذ معه، ولكن أجلني استآخر، ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطيه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع، فرجعنا.

وقال سعد: أشهد لرأيت رسول الله - ﷺ- واقفا عليه وهو مقتول، وهو يقول: «**رضي الله عنك فإني عنك راضٍ**»، ثم رأيت رسول الله - ﷺ- قام على قدميه وقد نال النبي - ﷺ- من الجراح ما ناله، وإنني لأعلم أن القيام ليشق عليه على قبره حتى وضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمد رسول الله - ﷺ- البردة على رأسه فخرمه، وأدركه فيها طولا، وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرمل فجعلناه على رجليه، وهو في لحده، ثم انصرف، فما حال أموت عليها أحب إليّ من أن ألقى الله - تعالى - على حال المزنبي.

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزنبي وابن أخيه ترك الأغنام بالمدينة والتحق بصفوف المسلمين وحرساً على نيل الشهادة، فأكرمه الله بها، وقد كانت تلك الملحة التي سطرها المزنبي محفورة في ذاكرة الصحابة، فهذا سعد بن أبي وفاص يتذكرها بعد مرور ثلاثة عشرة سنة تقريباً على غزوة أحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزنبي ويتنمى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزنبي.

عمرو بن الجموح -

كان عمرو بن الجموح - **رحمه الله** - أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله - ﷺ- المشاهد، وهم خlad ومعوذ ومعاذ وأبو أيمن، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا: إن الله - عز وجل - قد عذرك، فتأتي رسول الله - ﷺ- فقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه وللخروج معك فيه، فوالله إنني لأرجو أن أطأ برجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله - ﷺ-: «**أما أنت فقد عذرك الله - تعالى - فلا جهاد عليك**» وقال لبنيه: «**ما عليكم لا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة**» فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم لا تردني إلى أهلي خائباً فقتل شهيداً.

وفي رواية أتى عمرو بن الجموح - **رحمه الله** - إلى رسول الله - ﷺ-

قال: يا رسول الله: أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة، وكانت رجله عرجاء، قال رسول الله - ﷺ: «نعم» فقتلواه يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر بهم رسول الله - ﷺ- فجعلوا في قبر واحد⁽¹⁾.

وفي هذا الخبر دليل على أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج، وفيه دليل على شجاعة عمرو بن الجموح ورغبته في نيل الشهادة وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش - رضي الله عنهم:-

لما خرج رسول الله - ﷺ- إلى أحد رفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش في الآطام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلا ظمء⁽²⁾ حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد، أفلأ نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله - ﷺ-، لعل الله يرزقنا شهادة مع رسول الله - ﷺ-؟ فأخذنا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فاختلت عليه أسياف المسلمين فقتلواه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا، قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله - ﷺ- أن يديه، فتصدق حذيفة بيته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله - ﷺ- خيراً. وفي هذا الخبر، يظهر أثر الإيمان في نفوس الشيوخ الكبار الذين عذرهم الله في jihad وكيف تركوا الحصون وخرجوا إلى ساحات الوعي طلباً للشهادة وحبًا وشوقاً للقاء الله - تعالى -، وفيه موقف عظيم لحذيفة، حيث تصدق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالغفرة لكونهم قتلوا والده خطأ، وفيه أيضاً: أن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في jihad يظنونه كافراً، فعلى الإمام ديته من بيت المال؛ لأن رسول الله - ﷺ- أراد أن يدي اليمان أبي حذيفة، فامتنع حذيفة من أخذ الديمة، وتصدق بها على

(1) انظر: المسند (5/299)، السيرة النبوية لأبي هشام (3/101).

(2) ظمء حمار: أي مقدار ما بين شريتي حمار.

ال المسلمين (1).

منزلة الشهداء:

قال رسول الله ﷺ: «لما أصيَّب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتاوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم وماكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكروا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم» فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ هذه الآيات، قال تعالى: **﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءً عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يُلْحَقُوا بِهِمْ مَنْ كُلُّهُمُ إِلَّا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْرُثُونَ يَسْتَبِشُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (آل عمران: 169-171).

وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: **﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءً عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾**. قال: أما إنما سأله عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة، حيث شاءت، ثم تاوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهرون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتته؟! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، فعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

4- سنة الله في الصراع بين الحق والباطل:

وفي غزوة أحد تأكيد لسنة الله في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلal، فقد جرت سنة الله في رسالته وأتباعهم أن تكون الحرب سجالاً بينهم وبين أعدائهم، فيدخلوا مرة ويدال عليهم أخرى، ثم تكون لهم العاقبة في النهاية، ولئن انتفشت الباطل يوماً وكان له صولات وجولات، إلا أن العاقبة للمتقين، والغلبة للمؤمنين، فدولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

(1) انظر: زاد المعاد (3/218)

والجنة عزيزة غالبة لا تُتَّلَّ إلا على جسر من المشاق والمتابع،
والنصر الرخيص السهل لا يدوم، ولا يدرك الناس قيمته، ولذلك قال
الله تعالى:

**﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ
الصَّابِرِينَ﴾** (آل عمران 142).

5- لا بد من الأخذ بالأسباب:

لا بد أيضاً من الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية مع التوكل
على الله والاعتماد عليه، فقد ظاهر النبي - ﷺ - بين درعين، ولبس لامة
الحرب، وكافح معه الصحابة، وقاتل عنه جبريل وميكائيل أشد القتال،
رغم أن الله عصمه من القتل.

6- التضحية من أجل الدين:

إن سنة الله جل وعلا قد مضت أن هذا الدين لا يتحقق في الواقع
الحياة، ولا يثبت على هذه الأرض، ولا تعلو رايته خفافة فوق البقاء،
ولا يتحقق منهجه بين الناس إلا بجهد من أبناء هذا الدين يسبقه ويرافقه
ويعقبه توفيق من الله عز وجل.

إن هذا الدين لابد له من علم ينشر، ودعوة تبذل، وأموال تُنفق،
ومهج وأرواح تُزهق في سبيل الله عز وجل، إنه ليس أمراً هيناً؛ إنها
الرسالة العظيمة الخالدة، إنها الأمانة الكبيرة الماجدة: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِلَّا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾** (الأحزاب: 72)، ويختاطب الله
جل وعلا نبيه ﷺ فيقول: **﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾** (المزمول: 5)، إنها
أمانة هذا الدين والرسالة الخاتمة من رب العالمين، الدين الذي ارتضاه
الله سبحانه وتعالى للناس أجمعين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها
يوم يقوم الناس لرب العالمين.

هذه الرسالة العظيمة، وهذا الدرس الكريم نقف مع ومضات منه
لنرى صورته في غزوة أحد، ولست معنياً بالوقوف مع الأحداث
وترتبها، وإنما نأخذ هذا الدرس الواضح الجلي في هذه المعركة
العظيمة من معارك الإسلام الخالدة التي قادها محمد ﷺ برفقة الصحابة

الكرام الغر الميامين الأبطال الشجعان رضوان الله عليهم أجمعين.
 أنس بن النضر عليه السلام يصاب في هذه الغزوة ببضع وثمانين جراحة، ثم مثل به بعدها، فلم يعرفه أحد سوى أخيه عرفته ببناته.
 وفي سعد بن الربيع عليه السلام سبعون طعنة ، وقتل مصعب بن عمير عليه السلام ، فلم يوجد له ما يُكفن فيه إلا بردة ، واستشهد حمزة عم النبي صلوات الله عليه وسلم ، واستشهد سبعين من خيرة الصحابة الكرام.

فماذا قدمنا لدينا؟ وللصحابة الكرام الصحبة والسبق والإقدام، تقطعت منهم الأشلاء، وتمزقت الأجساد، وترمل النساء، قدّموا أرواحهم فداء لهذا الدين، حتى وصل إلينا كاملاً متّماً، فاقدر لهم قدرهم، واشكر لهم سعيهم، وترض عنهم، فقد أحبابهم ربهم، - رضي الله عنهم وأرضاهم -.

7- العاقبة للمتقين:

للحق جولة، وللباطل صولة، والعاقبة للقوى، فلا تيأس من إصلاح المجتمع، ولا تقنط من هدايته، فقد صَبَرَ النَّبِيُّ صلوات الله عليه وسلم على الأذى والجراح، حتى دخل الناس أفواجاً في دين الله، إن عوائق الأمور كلها بيد الله، فامض في الدعوة، وداموا على الدعاء، وهداية البشر بيد خالق البشر.

أبو سفيان في أحد يقود المشركين، وشعاره: "اعْلُ هُبْلٍ" ، وفي فتح مكة يقول: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ". ووحشى يقتل حمزة، ثم يُسلم ويقتل مُدعى النبوة مسلمة الكذاب.

فاحذر على نفسك القلب، «فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء». وسأله دواماً دواماً الثبات، والعبد وإن استغرق في العصيان، فالنوبة تحط الأوزار وإن بلغت العنان.
 خالد بن الوليد يقود خيالة الكفر، وُقتل على يديه فضلاء الصحابة، ولما شرح الله صدره للإسلام، أتى ببائع النبي، وقال: يا رسول الله، إني أشتّرط أن تُغفر زلتي، فقال: «يَا خَالِدًا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِ مَا قَبْلَهُ، وَأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا».

فأنفذ نفسك من وحل الأوزار، وأقبل على ربك تائباً من الآثام، فالحسنات يذهبن السيئات، ولا تستنكف عن التمسك بهذا الدين، فهو له سالت الدماء.

8- الابتلاء بذوي القربي:

المرء قد يُبتلى بذوي القربي والأرحام، فاصبر على ما تلاقيه منهم، فأقارب النبي تركوا أوطانهم وأموالهم، وقدموا إلى المدينة وقطعوا مسافة أربعين كيلومتر أو أكثر لقتل النبي، وفعلوا ما لم يفعله غالب الكفار، من تمثيلهم بالقتلى، مع أنهم بنو عمه، وفي الفتح عفا عنهم وصفح، وقال: «**لَا تُشَرِّبُ عَلَيْكُمْ أَذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الظَّلَاقُاء**». فاتخذ النبي ﷺ قدوة لك في الحلم والعفو، وصل رحمك، وغض الطرف عما يسوؤك منهم.

9- ولا تنازعوا:

في الفرقة والنزاع تبعثر الجهود، وفي الألفة والاتفاق صفاء القلوب، فلنحذر من تفرق الكلمة والاختلاف في الرأي، فهما الهزيمة، {**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا**} (الأناقل:46).

10- الأنبياء عبيد مخلوقون :

الأنبياء عبيد مخلوقون، يعتريهم ما يعتري البشر، لا يُرفعون فوق منزلة العبودية، ولا يخطئون من شأنهم، والنبي ظاهر بين درعين، ولبس لأمة الحرب، وكافح معه الصحابة، وقاتل عنه جبريل وميكائيل أشد القتال، ومع هذا شجّ في وجهه، وكسرت رباعيته، والأمر لله من قبل ومن بعد، وهو سبحانه وحده النافع الضار، ولو كان يملك لنفسه شيئاً ما سال الدم منه.

11- العرفان لمن خدم هذا الدين:

ومن مرويات الأفعال العرفان لمن خدم الدين، ومن جميل الخلال الوفاء للأصحاب، ودماء شهداء أحد بقيت في نفس الرسول إلى السنة التي مات فيها، فصلى على قتلى أحد بعد ثمان سنين، كالموعد لهم.

فَاجْلِ نَبْلَاءُ هَذَا الدِّينِ، وَاحْفَظْ وَدَ خَلَانِكِ، وَارْعِ حَقَّ صَحْبِهِمْ، وَاحْفَظْ سَرَهُمْ.

12- حُبُّ الصَّاحِبَةِ لِنَبِيِّهِمْ :

طوق المشركون رسول الله - ﷺ - ومن معه وكانوا تسعة قُتُلَ سبعة منهم بعد قتال عنيفة. ولم يبق معه غير سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله.

فطمعوا في القضاء على رسول الله - ﷺ - رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوق لشقه، وأصيّبت رباعيته اليمنى السفلی، وكلمت شفته السفلی، وتقدم إليه عبد الله الزهری فشجه في جبهته، وجاء عبد الله بن قمئه فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شکا لأجلها أكثر من شهر، وضربه بأبي هو وأمي ضربة أخرى عنيفة حتى دخلت حلقتان من حلق المقرر في وجنته، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يسلّط الدم عن وجهه: «**كَيْفَ يَفْلُحُ قَوْمٌ شَجَوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».**

واستتبّل سعد وطلحة في الدفاع عن رسول الله - ﷺ - فقد نثر رسول الله - ﷺ - كنانته لسعد بن أبي وقاص وقال: أرم فداك أبي وأمي، وأما طلحة فقد قاتل حتى شلت يده، وكان أبو بكر - ؓ - إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة. وروى الترمذی أن النبي - ﷺ - قال فيه يومئذ: «**مَنْ يَنْظَرُ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ**».

وخلال هذا الموقف العصيّب تسارع المسلمين إلى رسول الله - ﷺ - وأقاموا حوله سیاجاً من أجسادهم وسلاحهم وبالغوا في الدفاع عنه، قام أبو طلحة على رسول الله - ﷺ - يسور نفسه بين يدي رسول الله - ﷺ - ويرفع صدره ليقيه عن سهام العدو، وكان راماً يرمي فكلما رمى أشرف رسول الله - ﷺ - ليرى موضع سهمه، فيقول له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحرى دون نحرك، وقام أبو دجانة أمام رسول الله - ﷺ - فترس عليه ظهره والنبل يقع عليه، وهو لا يتحرك، وامتص مالك بن سنان الدم عن وجنته وأنفاه فقال: مجاه. فقال: والله لا أمجاه أبداً، ثم أدبر يقاتل، فقال النبي - ﷺ - : «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلَيَنْظُرْ إِلَى هَذِهِ**» فُقُلِّتْ شهيداً.

وقاتلت أم عمارة حول رسول الله - ﷺ - ضربها ابن قمئه على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربته فنجا بذرعه، وبقيت تقاتل

حتى أصابها اثنا عشر جرحاً.

وقام النبي ﷺ فعرفه كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله - ﷺ ، فأشار إليه أن اصمت لئلا يعرف المشركون موضعه، فلاذ إليه المسلمين فأخذ بالانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وأثناء القتال كان النعاس يأخذ المسلمين أمنة من الله، وفي أثناء الانسحاب عرضت لرسول الله - ﷺ صخرة من الجبل فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع، فجلس تحته طلحة بين عبيد الله فنهض حتى استوى عليها وقال: «أوجب طلحة» أي الجنة.

قال سعد بن أبي وقاص : مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبواها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعده جلل، تري صغيرة، وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

13- الأمور بخواتيمها:

إن الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة في هذا الدين، فقد وقع حادثان يؤكdan هذا الأمر، وفيهما عظة وعبرة لكل مسلم متعظ ومعتبر.

الأصيرم - ﷺ :

واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وروى قصته أبو هريرة - ﷺ : أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم رسول الله - ﷺ - وأصحابه بأحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأحد، فقال: أين بنو أخيه؟ فقيل: بأحد: فسأل عن قومه فقيل: بأحد، فبدأ له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورممه، وأخذ لأمته، وركب فرسه فعدا حتى دخل في عرض الناس، فلما رأه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى أختنه الجراحية، وبينما رجال منبني عبد الأشهل يتلمسون قتلهم في المعركة إذ هم به، فقالوا: والله إن هذا الأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لم ينك ل لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحب على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله - تعالى - ورسوله،

وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله - ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله - ﷺ. فقال: «إنه من أهل الجنة». وقيل: مات فدخل الجنة وما صلى من صلاة، فقال النبي - ﷺ: «عمل قليلاً وأجر» وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدثني عن رجل دخل الجنة ولم يصل قط، فإذا لم يعرفه الناس سأله من هو؟ قال: هو أصبرم بن عبد الأشهل.

مخيرق:

لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله - ﷺ يقاتل المشركين، جمع مخيرق قومه اليهود وقال لهم: يا عشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله - ﷺ. فقاتل معه حتى قُتل، فقال رسول الله - ﷺ: «**مخيرق خير يهود**».

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي أن مخيرق مات مسلماً، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله - ﷺ. أنه قال: «**مخيرق خير يهود**» قال: ومخيرق مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النصارى، ولا خير اليهود؛ لأن أ فعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثيود، يقال: إنهم نسبوا إلى يهودا بن يعقوب ثم عربت الذال دالاً.

وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبد الله الشقاوي في كتابه: (اليهود في السنة المطهرة) وذهب إلى أن مخيرق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصديق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتکالب عليه.

14- إنما الأعمال بالنيات:

كان من قاتل مع المسلمين يوم أحد رجل يدعى قzman، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله - ﷺ يقول إذا ذكر له: إنه من أهل النار، فتأخر يوم أحد فغيرته نساء بني ظفر، فأتى رسول الله - ﷺ وهو

يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكت كتيبة الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعه وأصابته جراحة، فوقع فناده قتادة بن النعمان: يا أبا العياد، هنيئاً لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلى على أحساب قومي، فلو لا ذلك ما قاتلت، فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال: «إِنَّمَا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبَّتُمْ مِثْلَهَا قُلْمُمْ أَنَّى هَذَا قُلْمُمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران 165)

وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وإنه من قاتل حمية عن قومه أو ليقال شجاع ولم تكن أعماله لله - تعالى - لا يقبل الله منه.

15- قل هو من عند أنفسكم :

قال تعالى: «أَوَلَمَّا أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبَّتُمْ مِثْلَهَا قُلْمُمْ أَنَّى هَذَا قُلْمُمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران 165)

لقد نزلت هذه الآية الكريمة لكي تشخص الداء وتقوم حال الجماعة المسلمة بعد مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ ونزل لهم لأخذ الغنائم ونرك الجبل للمشركين كي يقلبوا النتائج ويحولوا سير المعركة لصالحهم ، وقد كان النصر حليف المسلمين ، كيف لا وقد رأى بعض الصحابة خلايل نساء المشركين وهن يهربن من هول المعركة .

عندما قال ابن مسعود ﷺ قوله المشهورة التي ذكرناها آنفاً: ما كنت أظن أن أحد من أصحاب محمد ﷺ يريد الدنيا حتى نزل قول الله عز وجل : «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ»

- إن المتأمل في هذه الآية يجد الصراحة والوضوح في تحديد الخطأ الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية بدون مجاملة أو تعيم " **قل هو من عند أنفسكم** " .

- إنها الغنائم التي طالما حذر منها الحبيب ﷺ ، إنها الغنائم حينما تقفز على قائمة الأولويات والمهمات في حياة الدعاة والمصلحين فكذلك تتقرب قائمة النتائج والانتصارات .

- واليوم إذا أرادت الأمة الإسلامية وعلى رأسها الدعاة والمصلحون الانتصار والتمكين فلا بد من تحديد الخلل بصرامة ووضوح ثم العمل الجاد على الإصلاح والتغيير لا المراوغة والترير .

16- من دلائل النبوة:

أصيّبت عين قتادة - ﷺ - حتى سقطت على وجنتيه فردها رسول الله - ﷺ - بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما، وأصبحت لا ترمد إذا رممت الأخرى، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - فسألته من أنت؟ فقال له مرتجلًا:

أنا ابن الذي سالت على الخد فردت بكاف المصطفى أحسن عينيه
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسنها عيناً ويا حسن ما خد

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عند ذلك:
ذلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد
أبوا لا

17- تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنُنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمُؤْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْرُثُوا وَإِنَّمَا الْأَغْلُونُ إِنْ كُنْתُمْ مُؤْمِنِينَ} (آل عمران: 137-139).

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله سبحانه وتعالى لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محلة غزوة بدر، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهما ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم.

قال القرطبي: هو تسليمة من الله تعالى للمؤمنين.

ففي الآيات السابقة دعوة للتأمل في مصير الأمم السابقة التي كذبت بدعة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره. وجاء التعبير بلفظ الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى التعجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأن هؤلاء المكذبين مكن الله لهم في الأرض ومنهم الكثير من نعمه، ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلوكهم

بسبب طغيانهم .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَخْرُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن؛ لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

18- كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر:

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخَنَ فِي الْأَرْضِ ثُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لِمَسْكُمْ فِيمَا أَخْذَتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: 67].

وقال في أحد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقُوكُمُ اللهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مَنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْتُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 152]، وفي هذا حكمة عملية وتربيية قرآنية يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه.

19- ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: ﴿ وَكَائِنُ مَنْ نَبِيٌّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهْنَوْا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَغْفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قُولَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَاتَّاهُمُ اللهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 146-148].

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصبح بأن محمدًا قد قتل، فعدّلهم الله على فرارهم وتركهم القتال.

وضرب الله لهم مثلاً بأخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعة كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله، فما وهنا لـما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه، وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريض بال المسلمين الذين أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مواجهة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لثبتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: **وَمَا كَانَ قُولَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافُنَا فِي أَمْرَنَا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** (آل عمران: 147)، وهذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم - مع كونهم ربانيين - هضم لها واعتراف منهم بالتقدير ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدم على طلبهم ثباتهم أمام العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم النصر عن زكاة وطهارة وخضوع، وفي هذا تعليم للمسلمين إلى أهمية التضرع، والاستغفار وتحقيق التوبة. وتظهر أهمية ذلك في إنزال النصر على الأعداء **فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى الله، وإحسانهم في موقف الجهاد، وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخص الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقديمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده.

20- التعلق والارتباط بالدين:

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان، لا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئه إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف و وهن و تأخر، عن القتال، ففي ذلك أنزل الله:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا)

وَسَيِّجُرِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿آل عمران: 144﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

وقد جاء في تفسير الآية السابقة، أن الرسول ليست باقية في أقوامها أبداً، فكل نفسٍ ذاتُه الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به، وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائمًا مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى: **﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾** أي رجعتم القهقرى، وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني الإدبار بما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته: **﴿وَمَنْ يَنْقُلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيِّجُرِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حيًا أو ميتًا.

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أحد أنهم ببطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لاعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ ، فهذا الرابط بين عقيدة الإيمان بالله ربًا معبودًا وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالداً فيهم خالقه الحب المغلوب بالعاطفة، الرابط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول ﷺ البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة -رضي الله عنهم- من الفوضى والدهشة والاستغراب، ومتابعة الرسول ﷺ أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة، وتبلیغ الدعوة ونصرة الحق، وهذا التأسي هو الجانب الأغرّ من جوانب منهج رسالة الإسلام؛ لأن الداعمة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لاعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض، وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن غزوة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم وبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ ، أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو لا يموت ولو مات محمد أو قتل، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينهم، وما جاء به فكل نفسٍ ذاتُه الموت، وما نُعْتَ مَعَ مُحَمَّدٍ لِيُخْلَدَ، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بد منه، سواء

مات رسول الله ﷺ أو بقي، ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان، إن محمداً قد قتل فقال: «**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**
فَذَكَرْتُ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولَ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
يَنْقُلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (آل عمران: 144).

والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ ، وارتد من ارتد على عقبه، وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله، وأعزهم وظفرهم وجعل العاقبة لهم»⁽¹⁾.

في غزوة أحد نزل التشريع الإلهي بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أحد، وعند موت الرسول ﷺ جاء التطبيق حيث (لما توفي رسول الله ﷺ أقبل أبو بكر الصديق ﷺ على فرس من مسكنه بالسنج، حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رضي الله عنها فتيم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة)، فكشف عن وجهه رضي الله عنها ثم أكب عليه فقبله وبكي، ثم قال: «بابيء أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتين، أما الموتة التي كُتِبَتْ عليك فقد متها»⁽²⁾.

ومن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فاقبل الناس إليه وتركوا عمر رضي الله عنهما فقال أبو بكر رضي الله عنهما: أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: «**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ**
فَذَكَرْتُ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولَ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقُلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (آل عمران: 144).

وقال: والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر رضي الله عنهما قال: "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنهما تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاً، وحتى أهويت إلى

(1) انظر: زاد المعاد (224/3).

(2) البخاري، كتاب المغازي، باب مرض رسول الله ووفاته، رقم 4454.

الأرض حين سمعته تلها، علمت أن النبي ﷺ قد مات".

21- تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسِكُمْ فَرْحَّ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتُلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الدِّينَ أَمْتُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحَصَّنَ اللَّهُ الدِّينَ أَمْتُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ أُمْ حَسِبْمِ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ الدِّينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنَوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ﴾ (آل عمران: 143-140).

بَيْنَ اللَّهِ سَبَحَانَهُ لَهُمْ أَنَّ الْجَرْوَحَ وَالْقَتْلَى يَجِبُ أَلَا تَؤْثِرُ فِي جَسَدِهِمْ وَاجْتِهادُهُمْ فِي جَهَادِ الْعَدُوِّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَمَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ فَقَدْ أَصَابَ عَدُوَّهُمْ مِثْلُهُ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانُوا مَعَ بَاطِلِهِمْ وَسُوءَ عَاقِبَتِهِمْ لَمْ يَفْتَرُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ فِي الْحَرْبِ، فَبَأْنَ لَا يَلْحِقُهُمُ الْفَتْورُ مَعَ حَسْنِ الْعَاقِبَةِ وَالتَّمْسِكُ بِالْحَقِّ أَوْلَى.

قال صاحب الكشاف: والمُعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتُم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يتُبَطِّهُم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى أن لا تضعفوا. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل المؤمنون يوم أحد، اتَّخذَ اللَّهُ مِنْهُمْ شُهَدَاءَ، وَغَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرِ الْمُشْرِكِينَ فَجَعَلَ الدُّولَةَ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَرْبَعَ حُكْمًا لَمَا حَدَثَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي غَزْوَةِ أَحَدِ وَهِيَ: تَحْقِيقُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِظْهَارُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَإِكْرَامُ بَعْضِهِمْ بِالشَّهَادَةِ الَّتِي تَوَصَّلُ صَاحِبَاهُ إِلَى أَعْلَى الْدَّرَجَاتِ، وَتَطْهِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَخْلِيصُهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمِنْ الْمَنَافِقِينَ، وَمَحْقُ الْكَافِرِينَ وَاستِئْصالُهُمْ رَوِيدًا رَوِيدًا»⁽¹⁾.

22- الْجُوَءُ إِلَى اللَّهِ:

روى الإمام أحمد قال: لما كان يوم أحد وانكفا المشركون قال رسول الله ﷺ: «استروا حتى أثني على ربِّي عز وجل»، فصاروا خلفه فصفوفاً فقال: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضُ لِمَا بَسْطَتْ، وَلَا بَاسِطُ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِي لِمَنْ أَضَلْتَ، وَلَا مُضِلُّ لِمَنْ هَدَيْتَ وَلَا

(1) انظر: تفسير الكشاف (1/465).

معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا بعد لما قربت: اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسائلك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسائلك العون يوم العيляة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائز بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحياناً مسلمين، وأحققنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفراة الذين يكذبون رسالك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفراة الذين أوتوا الكتاب إله الحق».

23- أحد جبل يحبنا ونحبه:

عن أنس بن مالك رض قال: إن النبي صل طَلَعَ له أحدٌ فقال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**».

وهذا يدل على دقة شعور النبي صل حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتلاء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبر عن ذلك بأرقى وشائع الصلة وهي المحبة، أفلا يعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلق بخلق الوفاء؟ لا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء، ويفضي إليها من الأخلاق السامية ما لا يتصرف به إلا أفاليل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإن كان وفاؤه للجماد قد سما حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلاً عن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى .

24- الملائكة في أحد:

قال سعد بن أبي وقاص رض: "رأيت عن يمين رسول الله صل وعن شماله يوم أحد، رجلين عليهما ثياب يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل، عليهما السلام" ⁽¹⁾. وهذا

(1) مسلم، كتاب الفضائل، باب في قتال جبريل وميكائيل (4/1802).

خاص بالدفاع عن النبي ﷺ؛ لأن الله تكفل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال، ذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدّهم؛ وجعل وعده معلقاً على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإيتـان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد⁽¹⁾، قال تعالى:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ يُكَفِّرُكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةَ آلَافِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ إِلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوَّمِينَ﴾ (آل عمران: 124).

25- وما النصر إلا من عند الله

النصر ابتداءً وانتهاءً، بيد الله عز وجل، وليس ملكاً لأحد من الخلق، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عنمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأناشيد: 10).

وحين يقدر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة، قال تعالى:

﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: 160).

ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله عز وجل، نحن بحاجة إلى فقهها، فلا بد أن تكون الرأـية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُبَتِّئُ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: 7). ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

26- استخراج العبودية في السراء والضراء :

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (391/2).

ومن الحكم والدروس استخراج الله عبودية أوليائه وحزبه في النساء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم فإذا ثبتو على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عباده حقا وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

27- حكمة تبدل الأحوال :

ومن الحكم والدروس أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا وأظفرهم بعدهم في كل موطن وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً لطغت نفوسهم، وشمتت، وارتقت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدير لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه بهم خبير بصير.

28- الخصوّع لجبروته تعالى :

ومن الحكم والدروس أن الله إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولایة الذل والانكسار قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَصَرْكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَهُ﴾ (آل عمران 123)، وقال:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَعْجَبْتُمْ كُثُرَكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ (التوبه 25)، فهو

- سبحانه - إذا أراد أن يعز عبده ويجره وينصره كسره أولاً ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

29- رفع منازلهم :

الله سبحانه وتعالى هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها⁽¹⁾.

(1) زاد المعاد لابن القيم.

30- تحريرهم على الجد في العبودية لله:

ومن الحكم والدروس أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً ورकوناً إلى العاجلة وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحهما كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه فيكون ذلك البلاء والمحنة .

31- تربية الأبناء على حب الجهاد:

ذكر الواقدي في المغازي في سياق رواية له " وعرض عليه غلمان عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامه بن زيد والنعمان بن بشير وزيد بن أرقم والبراء بن عازب ، وأسید بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وأبو سعيد الخدري ، وسمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، فردهم . قال رافع بن خديج ، فقال ظهير بن رافع يا رسول الله إله رام وجعلت أطاؤل وعلى خفان لي . فأجازني رسول الله ﷺ . فلما أجازني قال سمرة بن جندب لرببيه مري بن سنان الحارثي ، وهو زوج أمه يا أبتي أجاز رسول الله رافع بن خديج وردني ، وأنا أصرع رافع بن خديج . فقال مري بن سنان الحارثي : يا رسول الله ردت ابني وأجزت رافع بن خديج وأبني يصرعه . فقال رسول الله ﷺ : « تصارعا » فصرع سمرة رافعا فأجازه رسول الله ﷺ - وكانت أمه امرأة من بني أسد .

وقال ابن هشام : وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ سمرة بن جندب الفزارى ورافع بن خديج ، أخا بني حارثة وهما ابنا خمس عشرة سنة وكان قد ردهما ، فقيل له يا رسول الله إن رافعا راما ، فأجازه فلما أجاز رافعا ، قيل له يا رسول الله فإن سمرة يصرع رافعا ، فأجازه ورد رسول الله ﷺ أسامه بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت ، أحد بني مالك بن النجار والبراء بن عازب ، أحد بني حارثة ، وعمرو بن حزم ، أحد بني مالك بن النجار وأسید بن ظهير ، أحد بني حارثة ثم أجازهم يوم الخندق ، وهم أبناء خمس عشرة سنة . في هذا الخبر دليل كافٍ على حب الصحابة للجهاد وارتفاع مستوى اهتمام التربوي، حيث حببوا الجهاد لأبنائهم فأصبح غلمانهم يتتسابقون في ميادين الجهاد.

32- الحذر من اليهود :

قال ابن هشام : وذكر غير زياد عن محمد بن إسحاق عن الزهري : أن الأنصار يوم أحد ، قالوا لرسول الله ﷺ يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟ فقال: « لا حاجة لنا فيهم ». .

وفي هذا الموقف الحذر من النبي ﷺ من اليهود يدلنا على بعد نظره فهو يعلم من عداوة اليهود لل المسلمين ما لا يعلمه الأنصار الذين يظنون أن حلف اليهود لهم وهم في الجاهلية قد بقي على ما هو عليه بعد إسلامهم لكن الحال أن اليهود أشد عداوة من المشركين . ولكنهم يبطئون العداوة .

33- الجهاد يلزم بالشروع فيه ويتعين إذا طرق العدو ديار

ال المسلمين :

يقول ابن القيم في الزاد: "أن الجهاد يلزم بالشرع فيه حتى إن من ليس لامته وشرع في أسبابه وتأهب للخروج ليس له أن يرجع عن الخروج حتى يقاتل عدوه كما فعل النبي ﷺ ذلك وكذلك لا يجب على المسلمين إذا طرقوهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد .

34- يُدفن الشهداء في مصارعهم :

ومن الدروس أن السنة في الشهداء أن يُدفونوا في مصارعهم ولا ينقلوا إلى مكان آخر فإن قوماً من الصحابة نقلوا قتلامهم إلى المدينة فنادي منادي رسول الله ﷺ بالأمر برد القتل إلى مصارعهم قال جابر: بينما أنا في النظارة إذ جاءت عمتى بأبي وخالي عادلتهما على ناضج فدخلت بهما المدينة لندفعهما في مقابرنا وجاء رجل ينادي : "ألا إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفعوها في مصارعها حيث قتلت . قال فرجعنا بهما فدفناهما في القتل حيث قتلا فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال: يا جابر والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدأ فخر طائفه منه قال فأتيته فوجده على النحو الذي تركته لم يتغير منه شيء . قال فواريته فصارت سنة في الشهداء أن

يدفونوا في مصارعهم^(١).

35- يجوز دفن الثلاثة في القبر الواحد :

ومن الدروس جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد فإن رسول الله ﷺ كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر ويقول أيهم أكثر أخذًا لقرآن فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في القبر ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فقال ادفونا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد.

36- كرامات ومعجزات في أحد:

رد عين قتادة بن النعمان:

روى أبو يعلى وأبو نعيم من طريق عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه عن جده: أنه أصيبت عينه يوم أحد فسالت حدقة على وجنته، فأرادوا قطعها، فسألوا رسول الله ﷺ، فقال: «لا»، فدعوا به فغمز عينه براحته، فكان لا يدرى أي عينيه أصيبت، وله طرق تأتي في المعجزات.

ومنها إخباره عن رجل قاتل الكفار قتالاً شديداً إنه من أهل النار قتل نفسه.

وتقدم بيان ذلك.

انقلاب العصيّب سيفاً:

قال عبد الرزاق: أخبرنا عمر عن سعيد بن عبد الرحمن الجشي: أخبرنا أشياخنا أن عبد الله بن جحش جاء إلى النبي ﷺ، يوم أحد، وقد ذهب سيفه فأعطاه النبي ﷺ عصيّباً من نخل، فرجع في يد عبد الله سيفاً.

قال الزبير بن بكار في "الموقفيات": إن قائمة منه، وكان يسمى العرجون، ولم يزل يتناقل حتى بيع من بغاء التركي بمائتي دينار.

عدم استطاعة هند أكل شيء من كبد حمزة:

قال ابن سعد: أخبرنا هودة بن خليفة، حدثنا عوف بن محمد قال: بلغني أن هنداً بنت عتبة بن ربيعة جاءت يوم أحد، وكانت نذرت لئن

(١) زاد المعاد، باب ما جاء في الحكم والدروس من أحد.

قدرت على حمزة لتأكلن من كبده، فجاءوا بجزء من كبد حمزة أخذتها تمضغها لتأكلها، فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها فبلغ ذلك رسول الله ﷺ: فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تُذُوقَ مِنْ لَحْمِ حَمْزَةَ شَيْئًا أَبْدًا».

ومنها: أن رجلا قال: اللهم إن كان محمد على الحق فاخصف به، يعني نفسه، فخسف به، كما رواه البزار بسند حسن، عن بريدة. ومنها: وجدان أنس بن النضر وسعد بن الربيع رائحة الجنة، كما تقدم في القصة.

ومنها: تغسيل الملائكة لحمزة وحنظلة، كما تقدم. ومنها: تظليل الملائكة لعبد الله والد جابر، كما رواه الشيخان.

37- قول فداك أبي وأمي لسعد منه ﷺ:

قال علي عليه السلام: «ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد: فداك أبي وأمي إلا لسعد يوم أحد». رواه البخاري وغيره، وروى أيضا عنه: «ما جمع رسول الله ﷺ بين أبويه لأحد إلا لسعد»⁽¹⁾.

قال في الروض: والرواية الأولى أصح، والله أعلم، لأنه أخبر أنه لم يسمع، وقد قال الزبيير بن العوام: إنه ﷺ جمع له أيضا أبويه، كما رواه الزبيير بن بكار في كتاب النسب.

قال السهيلي: وفقه هذا الحديث أن هذا الكلام جائز لمن كان أبواه غير مؤمنين، وأما إذا كانوا مؤمنين فلا، لأنه كالعقوق لهم، كذلك سمعت شيخنا أبا بكر بن العربي يقول في هذه المسألة.

قلت: قال الإمام النووي في كتابه " حلية الأبرار": المذهب الصحيح المختار أنه لا يكره قول الإنسان لغيره: فداك أبي وأمي، أو جعلني الله فداك.

وقد تظاهرت على جواز ذلك الأحاديث المشهورة في الصحيحين وغيرهما، وسواء كان الأبوان مسلمين أو كافرين، وكراه ذلك بعض العلماء إذا كان مسلمين.

قال النحاس: وكره مالك بن أنس: «جعلني الله فداك»، وأجازه

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأدب (6184) (2) أخرجه البخاري في كتاب المغازي (4059).

بعضهم.

قال القاضي عياض رحمه الله: ذهب جمهور العلماء إلى جواز ذلك، سواء كان المفدى به مسلماً أو كافراً.

قال النووي: قد جاء من الأحاديث الصحيحة في جواز ذلك ما لا يحصى⁽¹⁾.

38- جواز التداوى:

في مداواته ﷺ جرّه إشارة إلى جواز التداوى، وأن الأنبياء ﷺ قد يصابون ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام، ليعظم لهم بذلك الأجر، وتزداد درجاتهم، وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين.

39- سنة الله في رسّله:

إنّ من عادة الرسّل أنهم يبتلون و تكون العاقبة لهم، تكون الحرب بينهم وبين أعدائهم سجالاً، ولا ينتصرون مرة واحدة، لأنّهم لو انتصروا مرة واحدة لدخل في الدين من لم يكن من أهله، وما عرف المؤمن من المنافق، يقول تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: 2-3)، فميّز الله بهذا بين المؤمن والمنافق، فلو كانت المسألة مسألة نصر وعافية ونعمّة لدخل في الدين من ليس من أهل الدين، ولكنه ﷺ ابْتَلَى مرتين وانتصر مرتين، ولو هزم الرسول ﷺ دائمًا لما تمت الرسالة الخالدة، ولما أخرج الله الناس من الظلمات إلى النور، ولما تم المقصود من الرسالة، ولو انتصر دائمًا لدخل في الدين غير أهل الدين، ولكن غُلب مرّة، وانتصر مرّة، ليميّز الله الخبيث من الطيب، والعاقبة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين والمتقين، وانتصر الإسلام، وارتَفَعَ مآذن الإسلام في كل مكان، وبقي صوت الحق مدوياً ودمغ الباطل وزهق إنه كان زهوقاً.

(1) انظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحي الشامي، طبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م دار الكتب

العلمية بيروت - لبنان .

40- في تأخير النصر عبرة:

إن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسرأً لشموخها وجمالها، لأن النفس إذا أنعم عليها جمنت وشمتت إلا من رحم الله، فلو أن الرسول ﷺ انتصر في كل معركة، وانتصر في كل موقف هو وأصحابه لدخل بعض الصحابة شيء من العجب والتهي، شيء من الزهو، لكن أراد الله أن يربّيهم بالمعارك، مرة نصر ومرة هزيمة، وفي الخاتمة نصر لا هزيمة بعده للإسلام، لذلك لما أتت في معركة حنين قال بعض الصحابة: لن نغلب اليوم من قلة، فانهزموا في أول المعركة ثم انتصروا بعد أن تلقوا تأديباً، وأنت إذا بقي جسمك معافٍ بلا أمراض ولا ابتلاءات دخلك من العجب ما الله به عليم، والله عز وجل يعرف النفوس فيداويها.

لعل عتبك محمودٌ عاقبه ربما صحت الأجسام بالعلل ربما يكون في صحة جسمك المرض، وفي صحة قلبك الفقر والابتلاء، فالله سبحانه وتعالى أعلم.

41- جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد :

ومن دروس هذه الغزوة جواز الغزو للنساء؛ فقد كانت غزوة أحد أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ في سقي المحاربين وتضميد الجرحى، وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ويداويين الجرحى، ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول ﷺ فإن النساء شاركن في معركة أحد ، وأفضل من شارك في المعركة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء فقد شاركت فاطمة وأنت إلى أبيها ﷺ فأعطته ماء، وغسلت الجراح عنه، وأحرقت بعض السعف ثم حشته في الجراح.

حضرت نسيبة الأنصارية وقاتلت حتى يقول عليه الصلاة والسلام:
«ما انتهت في جهة إلا وجدتها تقاتل عنِي»، فرضي الله عنها ، وممن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأم عمارة، ومحنة بنت جحش الأسدية، وأم سليمان، ونسوة

من الأنصار⁽¹⁾.

وكانت النساء يوم أحد يزفرن القرب، ويملأنها للمقاتلين؛ ولذلك حين أتي إلى عمر رضي الله عنه في خلافته بشيء من الذهب والفضة فأعطى أم سليم وترك نساءه، فقلن له رضي الله عنه : تعطى أم سليم وتركتنا؟ قال: إن أم سليم لا أنسى موقفها يوم أحد ، كانت تملأ القرب لل المسلمين، فانظر كيف قدمها رضي الله عنه بهذا وترك نساءه، فرحم الله تلك العظام، وأسكنها فسيح الجنان.

42- جواز الاستماتة:

قال أهل العلم ومنهم ابن القيم بجواز الاستماتة ، أي: الإقدام على الهلاك والاقتحام في القتل، كما فعل أنس بن النضر ، فإنه ألقى درعه وكسر غمد سيفه، واقتحم حتى لقي العدو حاسراً وفي بعض الآثار: «**إِنَّ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَضْحَكُ لِلْعَبْدِ يَلْقَى الْعُدُوَّ حَاسِرًا** » أي: لا درع عليه حتى يقاتل ويقتل، وليس ذلك من الهلكة.

ولذلك لما حضر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه بمعركة جهة القسطنطينية في بلاد الروم فألقى أحد المجاهدين بنفسه واستمات في المعركة، فقال بعض الناس المتأخرین في الإسلام: أما يقول الله عز وجل: **﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾** (القرآن: ١٩٥)، قال: لا.

إن التهلكة هي أن يمسك المال أو إلا يقاتل في سبيل الله . وطلب أبو أيوب رضي الله عنه من الصحابة أن يدفنوه في آخر بقعة من بقاع المسلمين وأول بقعة من بقاع الكفار، قال: حتى أبعث يوم القيمة من قبرى وأنا مسلم بين كفار.

43- صلاة الإمام إذا أصابته جراحة:

إن الإمام إذا أصابته جراحة صلى قاعداً وصلى الناس وراءه قعوداً، وهذه الفائدة أخذها ابن القيم ؛ لأن الرسول ص صح عنه أنه في أحد صلى الفريضة إما الظهر وإما العصر قاعداً من كثرة الجراح، وصلى الناس وراءه قعوداً، فإذا كان الإمام الراتب إمام الحي العالم يصلى قاعداً لعذر، فللناس أن يصلوا وراءه قعوداً، وفرق بعض أهل

(1) مسلم، كتاب الجهاد، باب غزو النساء، رقم 1779.

العلم فقالوا: إن ابتدأ قاعداً فيبتعدون معه قعوداً، وإن طرأ عليه القعود في أثناء الصلاة فيوافقون قياماً وبسط هذه المسألة في مجال آخر.

44- قاتل نفسه في النار:

إنَّ المسلم إذا قتل مسلماً أو قتل نفسه فهو من أهل النار، إذا قتل المسلم نفسه فهو من أهل النار؛ لأنَّ رجلاً اسمه قزمان حضر معركة أحد ، وقاتل فلما أصابته جراحة، لم يصبر ولم يحتسب، فأخذ سيفه وسله واتكأ عليه حتى خرج سيفه من ظهره، فأوحى الله عز وجل إلى رسوله أحاديث: «**بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة**»، فحرامٌ على المسلم أن يقتل نفسه مهما أصابته الابتلاءات.

45- الشهيد لا يغسل والجنب يُغسل:

إنَّ السنة ألا يغسل ولا يصلى على شهيد المعركة، أما التغسيل فمعروف، وأما الصلاة عليه فإنه ورد في آثار عند الطحاوي و النسائي أنَّ الرسول ﷺ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ على بعض الشهداء، وورد في حديث صحيح أنه ترك الصلاة على بعضهم، قال ابن القيم في تهذيب السنن: الإمام مخير إن شاء صلَّى وإن شاء ترك، وفي صحيح البخاري أنَّ الرسول ﷺ وقف على شهداء أحد يُصلِّي عليهم كالمودع لهم، قيل: هذا الدعاء، وإلا فإنه لم يصل عليهم في الحال، فالإمام مخير في شهداء المعركة؛ أن يُصلِّي أو يترك، وأكثر أحواله ﷺ أنه ما صلَّى على شهداء المعركة، لأنَّ الصلاة تركية والله قد زakahم.

والشهيد إذا كان جنباً غسل قاله ابن القيم ، لأن حنظلة بن أبي عامر ﷺ كان مع زوجته فلما سمع داعي الله خرج جنباً وباع نفسه، فقتل في المعركة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**سُلُّوا أَهْلَهُ مَا لَهُ؟** قالوا: **خَرَجَ جَنْبًا وَلَمْ يَغْسِلْ، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتَ** الملائكة تغسله بين السماء والأرض في صاحف من ذهب بماء المزن »، فاستدل بذلك بعض أهل العلم على أن الجنب إذا علم أنه مات جنباً وهو من الشهداء أنه يغسل وقد رجح ذلك ابن القيم.

46- النعاس في الخوف وال الحرب نعمة جليلة:

إنَّ النعاس في الخوف وال الحرب نعمة، وفي الصلاة ومجالس

الذكر غفلة، ففي معركة أحد لما أراد الله أن يمن على الرسول ﷺ وعلى الصحابة، أصحابهم نعاس حتى سقط سيف أبي طلحة من يده كما قال أنس قال تعالى: **﴿إِذْ يُغَشِّيْكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ﴾** (الأفال: 11) أي: سكينة وهدوءاً، وراحة لقلوبكم، فهو في الخوف وال الحرب أمنة وهدوء من الله، ولكنه في الصلاة وفي مجالس الذكر من الشيطان.

ومن تمام ثبات قلب المؤمن أن ينعش في المعركة، ومشاهير الشجعان في الإسلام كانوا ينعشون وسط المعركة علامات على قوة قلوبهم، وقد ذكر ابن كثير عن شبيب بن يزيد الخارجي البطل الكبير وهو من قوادهم ما سمع بأشجع منه بعد الصحابة، يقول ابن كثير في البداية والنهاية : كان في ستين رجلاً يلقى ثلاثة آلاف فيهزهم، وكان ينعش قبيل المعركة على بغلته، وهذا من شجاعة قلبه ومن حماسته ينعش والصفوف أمامه، حتى إن زوجته وأسمها غزالة ، دخلت الكوفة ، فأرببت الكوفة كلها، والحجاج كان أمير الكوفة في عهدها، فلما دخلت من باب الكوفة الشرقي خرج هو من الغربي، فدخلت بعمود في يديها تضرب بباب الإمارة وتقول للحجاج : اخرج يا عدو الله، ثم ارتفت المنبر منبر الجامع، فخطبت خطبة، فيقول أحد المسلمين للحجاج : يا ذليل تقتل علماء المسلمين وتقتل ضعفاء المسلمين، ولما أتت غزالة الخارجية هربت منها.

أَسْدٌ عَلَيْ وَفِي الْحَرُوبِ	فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ
نَعَامَ	الصَّافِرِ
هَلَا بَرَزَتِ إِلَى غَزَالَةِ فِي	أَمْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي
طَائِرِ	الْوَغْيِ

47- متابعة حركة العدو وكتمان الأخبار:

كان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجد في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة، التي تبلغ مساحتها خمسة مائة كيلومتر، في ثلاثة أيام وسلم

الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء⁽¹⁾.

كان النبي ﷺ يتبع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: "وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك في مكة خير"⁽²⁾.

كانت المعلومات التي قدمها العباس لرسول الله ﷺ دقيقة فقد جاء في رسالته: "أن قريشاً قد أجمعوا المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعوا، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة ذراع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا⁽³⁾ من السلاح"⁽⁴⁾.

لم يكتف النبي ﷺ بمعلومات المخبرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متعددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، ولذلك أرسل الحباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحرز عدده وردد ورجوع، فسأله رسول الله ﷺ: «ما رأيت؟» قال: رأيت أي رسول الله عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروغاً ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «هل رأيت شيئاً؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكباد⁽⁵⁾... فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرضن القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاعني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرف، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول»⁽⁶⁾.

كما أرسل ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة يتتصنان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم⁽⁷⁾.

(1) انظر: الرحيم المختوم للمباركفوري، ص 250.

(2) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (812/2).

(3) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(4) انظر: مغازي الواقدي (1/204).

(5) الأكباد: جمع كبد: والكبد هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارسي معرب.

(6) انظر: مغازي الواقدي (207/1)، (208).

(7) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (187/2).

وبعد أن تأكّد من المعلومات حرص ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي، خوفاً من أن يؤثّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أبي بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر، وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان ﷺ قد أطلع سيد الأنصار سعد بن أبي طالب على خبر رسالة العباس فقال: والله إنّي لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إيه، فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد، قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا ألم لك، أنت وذاك، فقالت: قد سمعت ما قال لك، فأخبرته بما أسر به الرسول ﷺ فاسترجع سعد، وقال: يا رسول الله، إنّي خفت أن يفشوا الخبر فترى أنّي أنا المفشي له وقد استكتمته إيه، فقال رسول الله ﷺ: «خل عنّها»¹.

وفي هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية، وخططهم وأوامرهم، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار لأنّ إفشاءها يهدّد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب في القديم والحديث يحذّرنا أن كثيراً من الهراء والمأساة والألام قد حلّت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق، أو قريب في الظاهر عدو في الحقيقة والواقع⁽²⁾.

48- دروس في الصبر تقدّمها الصحابيات للأمة:

أ- صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لما استشهد أخوها حمزة بن عبد المطلب ﷺ في أحد وجاءت لتنظر إليه وقد مثل به المشركون؛ فجذعوا أنفه وبقرروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فارجعها، لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

(2)

(1) انظر: السيرة الخلبية (489/2).

(2) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، ص 22.

فَلَمَّا جَاءَ الزَّبِيرَ بْنَ الْعَوَامَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: «خَلِ سَبِيلَهَا» فَأَتَاهُ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ، فَصَلَّتْ عَلَيْهِ وَاسْتَرْجَعَتْ⁽¹⁾، وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُ⁽²⁾.

بـ- حمنة بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنه، ركب فرسه وخرج المسلمين حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنة: «احتبسي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: أخوك عبد الله بن جحش» قالت: إنا لله وإننا إليه راجعون، غفر الله له، هنئًا له الشهادة، ثم قال لها: «احتبسي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطلب» قالت: إنا لله وإننا إليه راجعون، غفر الله له، هنئًا له الشهادة، ثم قال لها: «احتبسي» قالت: من يا رسول الله؟ قال: «زوجك مصعب بن عمير»، قالت: وأحزناه، وصاحت ولو لولت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لمكان» لمارأى من ثبتها على أخيها وخلالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: «ولم قلت هذا؟» قالت: يا رسول الله ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله عليه السلام، ولو لولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف⁽³⁾. فتزوجت طلحة بن عبيد الله فولدت منه محمدًا وعمران وكان محمد بن طلحة أوصى الناس لولدها⁽⁴⁾.

جـ- المرأة الدينارية رضى الله عنها:

قال سعد بن أبي وقاص : مر رسول الله ﷺ بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت : مما فعل رسول الله ﷺ ؟ قال : خيرًا يا أم فلان ، هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جل (5) ، تrepid صغيرة ، وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين .

د- أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت عبيد الخزرجية رضي الله عنها:

(١) استرجعت، قال: إنا لله وإننا إليه راجعون.

⁽²⁾ انظر: السيرة النبوية لابن هشام (108/3).

(3) انظر : البداية والنهاية (47/4)، غزوة أحد دراسة دعوية، ص 236.

⁴⁾ انظر: غزوة أحد لآبي فارس، ص 109.

⁵ انظر : البداية والنهاية (48/4).

خرجت أم سعد بن معاذ تعود نحو رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ واقف على فرسه، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله: «مرحباً بها» فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ فقالت: أما إذا رأيتاك سالماً، فقد أشوت⁽¹⁾ المصيبة، فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنتها، ثم قال: «يا أم سعد، أبشرني وبشر أهليهم أن قتلامن قد ترافقوا في الجنة جميعاً، وهم اثنا عشر رجلاً، وقد شفعوا في أهليهم» قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خلفوا. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، وأجير مصيبيتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا»⁽²⁾.

49- أهمية الشوري:

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه رضي الله عنهم وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لمقابلة المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، وقال: «إنا في جنة حصينة»⁽³⁾ فإن رأيتم أن نقيموا وتدعواهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرط مقام، وإن دخلوا علينا فاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول⁽⁴⁾ مع رأي رسول الله ﷺ إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

من الواضح أن الرسول ﷺ عوّد أصحابه على التصريح برأيهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويضاً لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترب بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشوري ملزم للإمام، فلابد أن يطبق الرسول ﷺ التوجيه القرآني: «فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطَّا غَلِظَ الْقَلْبَ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَأْوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

(1) أشوت: صارت صغيرة خفيفة.

(2) انظر: مجازي الواقدي (315/1).

(3) انظر: تاريخ الطبرى، (60/2).

(4) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، ص82.

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ^(آل عمران: 159)

ممارسة الشورى وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة رضوان الله عليهم، فرغم أن لهم إبداء الرأي، فإنهم ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبيّنوا رأيهم ويتركون القائد حرية اختيار ما يتوجه لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزم والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع.¹

50- تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة :

عند خروجه إلى الغزوة قال لأصحابه: «من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة رض استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرثة بنى حارثة وبين أمواهم، حتى سلك به في مال لربعي بن قيظي، وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قيظي وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فلما أحس برسول الله صل ومن معه من المسلمين، قام يحثو في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أنني لا أصيّب بها غيرك يا محمد، لضررت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: «لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخوبني الأشهل² قبل نهيي رسول الله عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه⁽³⁾.

ولا شك في أن مروره صل بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير؛ لأن الطرق العامة تكشف للأعداء على مقدار قوات المسلمين، وهذا أمر محظوظ، فالرسول صل علم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يستطيع الأعداء معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (2/380).

(2) بنو الأشهل: حي من الأنصار.

(3) انظر: السيرة النبوية لأبن هشام (3/73).

لما جابتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم لجيوشهم في مهب الرياح.

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصلحتان فالرسول ﷺ حينما مر بالجيش في أرض المنافق مربع بن قيظي، وترتب على ذلك إفساد المزرعة، لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أحد، فبين ﷺ أن ما يكون به مصلحة للدين مقدم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان مصلحة عامة ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة وهي مقدمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال⁽¹⁾. وقد رتب الشارع الحكيم مقاصد الشرع في تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسائهم وأموالهم طبق ترتيب معين فيما بينها⁽²⁾، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مقدم على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما به يكون حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء⁽³⁾.

٥١- سنة الابلاء:

من العبر والدروس في غزوة أحد ذلك الدرس الذي تجده ظاهراً في جميع فصول هذه الغزوة وأحداثها، إلا وهو الابلاء، فإن ابلاء الله تعالى للمؤمنين سنة ماضية وراسخة، فيه من الفوائد والحكم ما لا يحصل بالعافية والأمن، فعلى رغم أن البلاء في هذه الغزوة كان مريراً قاسياً، إلا أن الله عاتب بعض من استنكر ذلك فقال تعالى: **﴿أَمْ حَسِبُتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾** (آل عمران: 142)، فمن ظن أن الجنة تحصل له بأبخس الأثمان وأضعف الأعمال فقد أخطأ الحساب؛ إذ لا بد للجنة من مهر يقدمه العبد في هذه الدنيا، به يتميز الأولياء من الأدعية، فالبلاء يميز الصادق من

(1) انظر: غزوة أحد، دراسة دعوية، ص 168.

(2) انظر: ضوابط المصلحة، محمد رمضان البوطى، ص 23.

(3) انظر: المقاصد العامة للشرعية، يوسف حامد العالم، ص 166.

الكافر والمؤمن من المنافق، والباء يكشف عن معانٍ الرجال، كما قال الأول:

جزى الله الشدائـد كل خير
عرفت بها عدوـي من
صـدقـي

فإن الله لما ابتلى المسلمين بهذه النازلة أبدى المنافقون رؤوسهم، وتكلموا بما كانوا يكتمون، وظهرت مخبأـتهم، وعاد تلويـهم تصريـحاً، وانقسم الناس في هذه الغزوـة إلى كافـر ومؤـمن ومنـافق، وعرف المؤمنون أن لهم عدواً في أنفسـهم، فما زـالـه بذلكـ الخـيـثـ منـ الطـيـبـ، قال الله تعالى: ***مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ*** ﴿آل عمران: 179﴾.

فعرف المؤمنون في هذه الغزوـة ضعـفهم، وبـها عـرفـوا أعدـاءـهمـ، وهـذـبـهمـ بـهـاـ، ومـحـصـ قـلـوبـهـمـ، وجـعـلـهـاـ سـبـباـ لـبـلوـغـ منـازـلـ وـدـرـجـاتـ قـضـىـ فيـ سـابـقـ حـكـمـهـ آنـهـ لـهـمـ، قـصـرـتـ عـنـهـ أـعـمـالـهـ فـاتـخـذـ مـنـهـمـ شـهـادـهـ كـتـبـ لهمـ أعلىـ المـنـازـلـ وـرـفـعـهـمـ أعلىـ الـدـرـجـاتـ.

كـماـ أـنـ اللهـ سـبـحانـهـ وـتـعـالـىـ هـيـأـ بـماـ حدـثـ فـيـ هـذـهـ الغـزوـةـ منـ الـبـغـيـ والـعـدـوـانـ عـلـىـ أـولـيـائـهـ الـلـهـ تـعـالـىـ وـأـحـبـابـهـ وـأـصـفـيـائـهـ، هـيـأـ بـذـلـكـ أـسـبـابـ مـحـقـ أـعـدـائـهـ؛ فـإـنـ اللهـ إـذـ أـرـادـ أـعـدـاءـهـ قـيـضـ لـهـمـ الأـسـبـابـ التـيـ يـسـتـحقـونـ بـهـاـ الـهـلاـكـ وـالـمـحـقـ، وـمـنـ أـعـظـمـ هـذـهـ الأـسـبـابـ بـعـدـ الـكـفـرـ بـالـلـهـ بـغـيـهـ وـطـغـيـانـهـ وـمـبـالـغـتـهـمـ فـيـ أـذـىـ أـولـيـائـهـ، وـتـفـنـنـهـمـ فـيـ مـحـارـبـتـهـمـ وـقـتـالـهـمـ وـالـتـسـلـطـ عـلـيـهـمـ، كـمـاـ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـ الـحـدـيـثـ الـقـدـسـيـ: **«مـنـ أـذـىـ لـيـ وـلـيـاـ فـقـدـ آذـنـتـهـ بـالـحـرـبـ»**. فـإـذـاـ عـنـاـ أـعـدـاءـ اللهـ عـلـىـ أـولـيـائـهـ وـحـزـبـهـ فـإـنـ ذـلـكـ مـنـ أـمـارـاتـ وـعـلـامـاتـ قـرـبـ مـحـقـ اللهـ لـهـمـ، قـالـ اللهـ تـعـالـىـ: **«إـنـ يـمـسـنـكـمـ قـرـحـ فـقـدـ مـسـ الـقـوـمـ قـرـحـ مـثـلـهـ وـتـنـكـ الـأـيـامـ نـدـاـوـلـهـاـ بـيـنـ النـاسـ وـلـيـعـلـمـ اللهـ الـذـيـنـ آمـنـواـ وـيـتـخـذـ مـنـكـمـ شـهـادـهـ وـالـلـهـ لـاـ يـحـبـ الـظـالـمـينـ وـلـيـمـحـصـ اللهـ الـذـيـنـ آمـنـواـ وـيـمـحـقـ الـكـافـرـينـ»** ﴿آلـ عمرـانـ: 140ـ 141﴾.

وـمـاـ تـشـهـدـ الـأـمـةـ الـيـوـمـ مـنـ تـسـلـطـ الـكـفـارـ وـأـشـيـاعـهـ عـلـىـ حـزـبـ اللهـ وـأـولـيـائـهـ ماـ هوـ إـلـاـ إـحـدـيـ عـلـامـاتـ قـرـبـ مـحـقـ اللهـ لـهـؤـلـاءـ الـمـعـتـدـينـ. فالحمدـ للـهـ الـحـكـيمـ الـعـلـيمـ الـخـبـيرـ.

وـعـلـىـ وـرـثـةـ الـأـنـبـيـاءـ مـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ وـالـدـعـوـةـ وـأـهـلـ الـخـيـرـ وـالـصـحـوـةـ أـنـ يـتـقـواـ اللهـ وـيـصـبـرـواـ؛ فـإـنـ أـجـلـ اللهـ قـرـيبـ، وـعـلـيـهـمـ أـنـ لـاـ يـضـحـرـواـ إـذـ أـصـابـهـمـ أـذـىـ أـوـ نـزـلـ بـهـمـ مـكـرـوـهـ؛ فـإـنـ اللهـ قـدـ قـالـ: **«كـتـبـ اللهـ لـأـغـلـبـنـ أـنـاـ**

وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌ عَزِيزٌ (المجادلة: 21)، وقد صدق القائل:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام
بالعلم

والابتلاء مهما طالت مدته وامتد وقته واشتدت كربته وتوالت أحداثه
وكثرت ضحاياه فإن عاقبته أن يرتفع وينكشف فإنه
مهما دجى الليل فالنار ألا النهار بأحشاء الدجى يثبت
أخبرنا

وي ينبغي لأولياء الله أن لا يهنووا ولا يذلووا لما نزل بهم من كرب أو
حل بهم من ضيم؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا يرفعها انكسار
عسكري ولا يزيلها ضعفه، بل الأمر كما قال الله تعالى لأوليائه بعد
انقضاء هذه المعركة: **﴿وَلَا تَهُنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَإِنَّمَا الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** (آل عمران: 139)، فإن ما أصابهم إنما هو في ذات الله تعالى، فعليهم
أن يتجلدوا لأعدائهم والشامتين بهم، كما قيل:
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

وعلى أولياء الله أن يعلموا أنه إذا كان البلاء يصيب الرسل ومن
معهم مع صحة إيمانهم وصدق بذلهم وعظيم جاههم عند الله تعالى
فإصابته لمن دونهم أولى وأحرى.
والى هنا أكتفي وأسأل الله عز وجل بمنه وكرمه أن ينفعنا بما نقول
ونسمع ونكتب وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .



مجزوءة الأذباب دروس وعبر

الحمد لله قاصم الجبابرة قهراً, كاسر الأكاسرة مسراً, واعد من
نصره من لدنه نصراً, خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً شهدت
جميع الكائنات بربوبيته وهي على وحدانيته آيةٌ كبيرةٌ فسبحانه من الله
سميع لا يعزب عم سمعه دبيب النملة الصغرى ولا يخفى على بصره
جريان الغذاء في دقيق عروق البعوض إذا يُجرى .

احمد سبانه على نعم لم تزل تترى واشكره على من ترجع
الآلسن عن عدها حسرى وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له
شهادة يحط بها عن شاهدتها وزرها ونكون له عند الله نخرا .

واشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله الذي أعزَّ به بعد الذلة وأغنى
به بعد العيْلة وجمعَ به بعد الفرقة وكثُرَ به بعد الفلة إحساناً منه تعالى
وبيرا اللهم صل وسلِّمْ على عبْدك ورسولك محمد وعلى الله وأصحابه
الذين رفعَ الله لهم ذكراً وأعلى لهم قدرًا.

وَبَعْدٍ ..

ها نحن نستمر وإياك أخي القارئ ضمن هذه الموسوعة المباركة "غزوات النبي المصطفى دروسٌ وعبر"، وها نحن نحط رحالنا مع المحطة الثالثة من هذه الموسوعة "غزوة الأحزاب دروسٌ وعبر" وأقول وبالله التوفيق والسداد.

كلما رأينا استمراراً للكيد للإسلام وال المسلمين، و تجمع قوى الكفر بشتى الملل والنحل فالكفر كله ملةٌ واحدة، كلما رأينا ذلك نذكر غزوة الأحزاب يوم جمع الكفار و حشدوا أكبر قوة ممكنة، فتحالف اليهود مع قريش وأحبابي THEM، وبني كنانة ومنتبعهم من أهل تهامة، وقبائل غطفان ومنتبعهم من أهل نجد؛ للقضاء على الإسلام في مهدّه. لكن الله جل وعلا أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحدّه. ولنا في هذه الغزوة دروس وعبر . إنها دروس في الجهاد، و دروس في الصبر، و دروس في الإيمان، و دروس في السياسة، و دروس في الذكاء والحنكة.

إنها دروسٌ من أعظم الدروس فهى قبسٌ من سيرة نبينا ﷺ .



غزوة الأحزاب

غزوة الأحزاب :

التي سببها : خروج كُبراء اليهود بعد إجلاء النبي ﷺ لبني النضير بسبب ما كان منهم من غدر وتأمر خرج كبراؤهم كحُيّي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وغيرهما إلى قريش بمكة يُحرضونَهُم على عَزْوِ رَسُولِ الله ﷺ ووعدهم مِنْ أنفسهم النصر لهم. فأجابتهم قريش ، ثُمَّ حَرَجُوا إِلَى غَطَفَانَ : فاستجابوا لهم ثُمَّ طَافُوا في قَبَائلِ الْعَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى ذَلِكَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ .

فخرجت قريش - وقادهم أبو سفيان - فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، وَوَاقَفُهُمْ بُنُو سُلَيْمٍ بِمِرِ الظَّهْرَانَ ، وَبُنُو أَسَدٍ ، وَفَزَارَةٍ وَأَشْجَعٍ وَغَيْرَهُمْ ، وَكَانَ مِنْ وَافِي الْخَنْدَقِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَشْرَةُ آلَافٍ .

غزوة الأحزاب :

تلك الغزوة التي ذهب جمهور أهل السير والمعازي إلى أنها كانت في شهر شوال من السنة الخامسة⁽¹⁾، وقال الواقدي⁽²⁾: إنها وقعت في

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 443.

(2) انظر: المعاذ (440/2) بدون إسناد.

يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد⁽¹⁾: إن الله استجاب لدعاء الرسول فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من هجرته ﷺ، ونقل عن الزهري، ومالك بن أنس، وموسى بن عقبة، أنها وقعت سنة أربع هجرية⁽²⁾.

ورأى الجمهور هو الراجح، واليه مال ابن القيم حيث قال: وكانت سنة خمس من الهجرة في شوال على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أحداً كانت في شوال سنة ثلاط، وواعد المشركون رسول الله في العام الم قبل وهو سنة أربع، ثم أخلفوه من أجل جدب تلك السنة، فرجعوا فلما كانت سنة خمس جاءوا لحربه⁽³⁾.

✿ غزوة الأحزاب :

سورة كاملة نزلت باسمها ففي قلب الأحداث وعقبها تتراءُ الآيات بالمنهج الرباني الذي يُقوم المعموج ، ويُسدُّ الخلل ، ويُداوي العلل ، ويُطَبِّبُ القلوب ، ويُطَبِّبُ الخواطر ، ويُنْقِي الصفوف ، ويُزكِّي الفوس ، ويُحْفَرُ الهمم ، وينهض بالشخصية المسلمة ، ويصل بها إلى أعلى مراتب النضج ، ويرتفقى بها إلى مستوى المسؤولية في إدارة الأزمات ، ويربط ما بينها يحاضرها ، ويضع لها القواعد والأصول لاستشراف مستقبلها ، فيجعل من هذه الأحداث المنصرمة : رصيداً زاخراً ، وكتاباً مسطوراً ومشاهد حيةً وصوراً نابضةً⁽⁴⁾.

✿ غزوة الأحزاب :

إنها معركة ليست معركة خسائر، وإنما هي معركة عقيدة وإيمان، فقتل الفريقيين من المؤمنين والكافر يعدون على الأصابع، ومع هذه الحقيقة فهي من أهم المعارك في تاريخ الإسلام فقد كانت ابتلاءً كاماً وامتحاناً دقيقاً وتمييزاً بين المؤمنين والمنافقين، فلقد اشترك الجميع في الشعور بالكرb، ولم يختلف الشعور من قلب إلى قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله، وسلوكها في الشدة، وبيئتها بالنصر، واطمئنانها وقت الزلزال، فقد نافق أقوام وظنوا

(1) الطبقات (2/65، 73) بإسناد متصل.

(2) انظر: البداية والنهاية (4/105).

(3) انظر: زاد المعاد (2/288).

(4) أنظر التوثيق القرآني لغزوة الأحزاب - بحث من إعداد أحمد محمد الشرقاوي

بالله الظنونا وحاولوا في ثني المؤمنين عن الجهد والتسليم للكافرين
لكي يذلوهم ويخنقوه الإسلام معهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَاتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ
يَا أَهْلَ يَثْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوهُ﴾ [الأحزاب: 13].

غزوة الأحزاب :

أعلنت أن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر،
يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة . والموت
أو القتل قدر لا مفر من لقائه ، في موعده ، لا يستقدم لحظة ولا
يستأخر.

غزوة الأحزاب : تبرز أمامنا صفة من تاريخ اليهود وتكشف
عن أسلوبهم الدنيء في إثارة الأحقاد وتسخير قيمهم لخدمة مصالحهم
ومماربهم .

غزوة الأحزاب :

تكشف عن قوة الإسلام وكيف أن أصحاب العقيدة يصبرون على
البلاء والجوع .

غزوة الأحزاب :

تكشف لنا عن شخصية الرسول ﷺ في قيادته الحكيمة وفي
صموده أمام طواغيت الشر .

غزوة الأحزاب :

تحتاج هنا كمسلمين أن نحلل تفاصيلها وأحداثها وما جرى فيها
ليكون المسلم على بينة بان نبي الإسلام محمد ﷺ لم يكن يحب الحرب
 وإنما كان يضطر لخوضها دفاعاً عن نفسه وعن الكيان الإسلامي ، إنه
كان يحمل راية السلام بيمنيه وينادي على الناس في كل مكان أن
يدخلوا تحت راية السلام لأنها وسيلة التقدم والازدهار .

غزوة الأحزاب :

حيث : " الامتحان لهذه الجماعة الناشئة ، ولكل قيمها
وتصوراتها ، ومن تدبر النص القرآني (سورة الأحزاب) ، وطريقة
عرضه للحدث ، وأسلوبه في الوصف والتعليق ووقفه أمام بعض

المشاهد والحوادث ، والحركات والخواج ، وإبرازه للقيم والسنن : يدرك كيف كان الله يربى هذه الأمة بالأحداث القرآن في آن واحد .⁽¹⁾

غزوة الأحزاب :

غزوة عُلّق عليها القرآن أعظم تعليق، يصور نماذج البشر وأنماط الطياع، يصور القيم الثابتة والسنن الباقية التي لا تنتهي بانتهاء الحادث فهم أخي القارئ لأنأخذ شيئاً من الوقفات التي أشار إلى وصفها القرآن وذكرت بعضها السنة، نستلهم الدروس والعبر والفوائد .



1 - في ظلال القرآن 6 / 49 ، 50 يتصرف .

دروس وعبر من غزوة الأحزاب

دعونا نبحر وإياكم مع دروس وعبر هذه الغزوة المباركة وأسال الله
بمنه وكرمه أن يُعجل بالنصر القريب لأمة الإسلام إنه ولـي ذلك والقادر
عليه.

1- الأمل والثقة بالله تعالى:

تأمل! بالرغم من كل تلك الظروف العصيبة الشديدة التي أحاطت
بالمسلمين من حصار جماعي من مختلف قبائل العرب واليهود،
وبجيش يبلغ عشرة آلاف مقاتل، ومن جوع وخوف وهلع وشدة برد..،
لم ييأس المسلمون، ولم يفقدوا ثقتهم بالله تعالى، بل إن الرسول ﷺ كان
في ظل تلك الظروف يعدهم بفتح الشام، وفارس، واليمن، وهي الدول
العظمى في ذلك الوقت. وتأمل موقف المنافقين إزاء تلك الوعود،
وتزرع قلوبهم حينما رأوا كثرة جيوش الأحزاب: **﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾** [الأحزاب: 12]. ثم تأمل موقف المؤمنين لما رأوا الأحزاب: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾** [الأحزاب: 22].

وفي أحلال المواقف كان النبي ﷺ يربى أصحابه على الثقة بموعد
الله وعلى التفاؤل وعدم اليأس والاستكانة للكافرين، فيجتمع الكفر على
المؤمنين معادياً لهم ينوي استئصالهم، ومع ذلك والصحابة يعانون في
حفر الخندق تعرضاً لهم صخرة في الخندق، أعيتهم ، فجاء النبي ﷺ
وأخذ المعول فقال: بسم الله ثم ضرب ضربة، وقال: **«الله أكبر، أعطيت
مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعية»**، ثم ضرب
الثانية قطع آخر، فقال:

**«الله أكبر، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض
الآن»**، ثم ضرب الثالثة، فقال:
«بسم الله فقط بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن،

وَاللَّهُ إِنِّي لَأَبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءِ مِنْ مَكَانِي⁽¹⁾

يقول ذلك في هذه المرحلة الحرجة ليبشر المؤمنين ويعلمهم درساً في التفاؤل والثقة بنصر الله ، ثم يأتيه الخبر بنقضبني قريطة للعهد فيقول: «الله أكتر أبشروا يا معاشر المسلمين».

وفي قلب هذه المحنـة وشدة هذا الهول يقول: «إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وأخذ المفتاح، ولـيهـلـكـنـ اللهـ كـسـرـىـ وـقـيـصـرـ، ولـتـنـفـقـنـ أـمـوـالـهـمـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ» وصدق المؤمنون بهذه البشارات لإيمانـ في قلوبـهمـ.

والـيـوـمـ.. فـيـ ظـلـ تـحـزـبـ قـوـىـ الـكـفـرـ عـلـىـ الـأـمـةـ الإـسـلـامـيـةـ، وـتـضـيـيقـهاـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـ كـلـ مـكـانـ، وـتـنـكـيلـهـاـ بـدـعـاتـهـمـ، وـاغـتصـابـهـاـ أـرـاضـيـهـمـ، وـاستـنـزـافـهـاـ ثـرـوـاتـهـمـ..؛ كـمـ نـحـنـ بـحـاجـةـ إـلـىـ مـرـاجـعـةـ حـسـابـاتـنـاـ، وـتـقـويـةـ صـلـتـنـاـ بـدـيـنـنـاـ، وـأـنـ مـاـ يـحـصـلـ لـمـسـلـمـيـنـ مـنـ الـهـوـانـ وـتـسـلـيـطـ الـأـعـدـاءـ إـنـماـ هـوـ لـحـكـمـ عـدـيدـةـ، وـأـسـبـابـ كـثـيرـةـ.. كـمـ أـنـنـاـ بـحـاجـةـ مـاسـةـ إـلـىـ النـظـرـ إـلـىـ الـمـسـتـقـبـلـ، وـالـنـقـةـ بـالـلـهـ تـعـالـىـ، وـوـعـدـهـ لـلـأـمـةـ بـالـعـزـ وـالـتـمـكـينـ إـنـ هـيـ اـسـتـمـسـكـتـ بـالـإـسـلـامـ، وـمـاـ يـدـعـوـ إـلـيـهـ مـنـ وـجـوبـ إـعـدـادـ الـعـدـةـ، وـأـنـ الـأـمـةـ إـنـ بـكـتـ مـرـةـ فـقـدـ بـكـتـ قـبـلـ ذـلـكـ مـرـاتـ، وـكـانـتـ تـعـودـ فـيـ كـلـ مـرـةـ كـأـقـوىـ ماـ تـكـوـنـ، وـأـنـ مـاـ تـمـرـ بـهـ أـمـتـنـاـ الـيـوـمـ مـنـ الضـربـاتـ الـمـتـتـابـعـةـ وـالـصـفـعـاتـ الـمـوجـعـةـ مـاـ هـيـ إـلـاـ إـرـهـاـصـاتـ مـبـشـرـةـ لـنـهـضـةـ الـأـمـةـ، وـصـحـوـتـهـاـ مـنـ غـفـلـتـهـاـ، وـعـوـدـتـهـاـ مـرـةـ أـخـرـىـ إـلـىـ دـيـنـهـاـ، وـمـصـدـرـ عـزـهـاـ وـمـجـدـهـاـ؛ فـإـنـ الـظـلـامـ كـلـمـاـ أـحـلـوـلـكـ وـادـلـهـمـ إـنـ وـرـاءـ الـأـفـقـ نـورـاـ، وـفـيـ حـضـنـ الـكـوـنـ شـمـسـ سـاطـعـةـ، وـكـلـمـاـ اـشـتـدـ غـلـسـ اللـيـلـ اـقـرـبـ مـيـلـادـ النـهـارـ.

وـمـهـمـاـ كـانـ وـاقـعـ الـأـمـةـ مـؤـلـمـاـ يـفـرـضـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ أـقـسـىـ الـطـنـونـ، إـلـاـ أـنـهـاـ فـيـ طـرـيـقـ التـغـيـرـ الإـيجـابـيـ تـسـيرـ، وـهـيـ الـآنـ أـفـضـلـ بـكـثـيرـ مـنـ سـنـوـاتـ مضـتـ، فـلـاـ يـنـبـغـيـ اـسـتـبـطـاءـ الـنـصـرـ، وـاسـتـعـجـالـ الـظـفـرـ. وـلـنـتأـمـلـ كـيـفـ أـنـ الشـامـ، وـفـارـسـ، وـالـيـمـنـ الـتـيـ وـعـدـ الرـسـوـلـ ﷺـ بـفـتـهـاـ، لـمـ يـظـفـرـ بـهـ الـمـسـلـمـوـنـ إـلـاـ بـعـدـ وـفـاتـهـ ﷺـ بـسـنـيـنـ؛ وـفـيـ ذـلـكـ.

2- الكفر ملة واحدة:

نـرـىـ فـيـ هـذـهـ الغـزوـةـ بـوـضـوحـ تـكـالـبـ الـكـفـرـ عـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ، لـقـدـ تـمـالـأـ الـعـرـبـ وـالـيـهـودـ فـيـ الـجـزـيرـةـ، وـقـادـ أـبـوـ سـفـيـانـ أـضـخمـ جـيشـ شـهـدـتـهـ

(1) رواه أحمد والنسائي وحسنه ابن حجر.

جزيرة العرب الذي كان عشرة أضعافٍ جيش بدرٍ وقراة أربعة أضعافٍ جيش أحد، إضافةً إلى العدو الداخلي يهود بنى قريطة الذين نقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب.

لقد جاء الكفر جملة واحدة وكما وصفهم ﷺ: «لقد رأيت العرب

رمتكم عن قوس واحدة وكالبيوك من كل جانب» وإن فلا بد أن يقرّ في حس المسلمين أن الكفر كله قد يلتقي في مرحلة من المراحل على إبادة الإسلام والمسلمين ويتناسي ما بينه من عداوات؛ لأن الكفر ملة واحدة في الحقيقة؛ ولأنهم جميعاً حرب على الإسلام؛ لأنهم يشتركون في الخطر المحقق بهم من ظهور الدين الحق الذي يقطع مصالحهم في استعباد الناس وتسخيرهم لأهوائهم.

3- المنافقون وخاطرهم:

المنافقون أصحاب المصالح والأهواء ليس لهم قرار واضح ولا قاعدة ثابتة تراهم مع المؤمنين تارة ومع الكافرين تارات رسالت فساد وأصل كل بلية وهزيمة: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعْكُمْ وَإِنْ كَانَ لِكَافِرِنَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَخُوذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ أَكْفَارِنَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141].

ولاء المنافقين للكافرين، ولو عاشوا بين ظهراني المسلمين، وقلوبهم مع أعداء الدين، وإن كانوا بالستهم وأجسامهم وعدادهم في المسلمين، يخشون الدوائر فيسارعون للولاء والمودة للكافرين، ويسئلون الظن بأمتهم فيرتمون في أحضان أعدائهم ويزعمون إبقاء أياد عن الكافرين تحسباً لظفرهم بال المسلمين :

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِ عُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ تَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا ذَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عَنْدِهِ فَيُصِيبُهُمْ عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، المنافقون هم الأعداء الحقيقيون للمسلمين وهم الذين خططوا لأعظم نكبات المسلمين، هم رسول الفساد وعقارب النفاق، قال تعالى: ﴿هُمُ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ فَاتَّلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4].

لقد كان موقف المنافقين عندما تکالب الكافرون وتحزبوا على

ال المسلمين متسمًا بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل، ولكن القرآن الكريم تكفل بتصوير ذلك أدق التصوير فقد وجدهؤلاء في الكرب المزلزل ، والشدة الآخذه بالخناق فرصة للكشف عن خبيثة نفوسهم، وهم آمنون من أن يلومهم أحد ؛ وفرصةً للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]

ومثل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل عصر ومصر، و موقفهم في الشدة هو موقف إخوانهم المنافقين هؤلاء؛ فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان !

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ بَيْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوْا﴾ [الأحزاب: 13]، فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصدوق، والعودة إلى بيوتهم ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو . متروكة بلا حماية، وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة ، ويجردهم من العذر والحجة: ﴿وَمَا هِيَ عَوْرَةٌ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال والجبن والفرار: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

وهؤلاء المنافقون من أنشط الناس عند الفتنة وأكثرهم استعداداً لنقض العهود مما يوضح وهن العقيدة ، وحوَّر القلوب ، والاستعداد للانسلاخ من الإسلام بمجرد مصادفة غير مقيمين على شيء ، ولا متجلمين لشيء:

﴿وَلَوْ دُخِلْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَأَتُوا هَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: 14] ذلك كان شأنهم، والأعداء بعد خارج المدينة؛ ولم تقتحم عليهم بعد، فأما لو وقع واقتتحمت عليهم المدينة من أطرافها . . ثم سئلوا الفتنة وطلبت إليهم الردة عن دينهم لآتواها سراعاً غير متلبسين ، ولا متربدين إلا قليلاً من الوقت. ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْنُوا لَا﴾ [الأحزاب: 15].

ثم يبين لهم سبحانه أن الفرار لا يدفع أمر الله ولا يطيل العمر قال تعالى: ﴿فُلْ لَنِ يَنْفَعُكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَأَتْمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا فُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 16]

ويرسم القرآن للمنافقين صورة تثير الاحتقار لهم ، صورة للجبن والانزواء ، والفزع والهلع. (في ساعة الشدة) . والانتفاش وسلطة اللسان (عند الرخاء) . والشح على الخير والضن ببذل أي جهد فيه . والجزع والاضطراب (عند توهم الخطر من بعيد).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوَّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمَ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشَحَّهُ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتُهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدْوَرُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُعْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا دَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشَحَّهُ عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَدْهُبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَفَرَأُوهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيْكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18 - 20]

مثيرة للسخرية تلك الصورة المنافقين بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمان:

﴿فَإِذَا دَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ خرجوا من الجحور ، وارتتفعت أصواتهم بعد الارتفاع ، وانتفخت أوداجهم بالعظم ، وانتفشو بعد الانزواء ، وادعوا في غير حياء ، ماشاء لهم الادعاء ، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال ، والشجاعة والاستبسال .

﴿أَوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

لقد نافق أقوام بسبب إرجالهم وتخذيلهم ونعني القرآن عليهم ذلك فكيف لو ناصروا قريشاً وأحلافها . . . إنها الردة ولو كان صاحبها متعلقاً بأسثار الكعبة .

4- درس في الشوري:

في زحمة الأحداث، وعندما نقضت قريظة العهد، واشتد على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم الحال، رأى النبي ﷺ أن يخف عن أصحابه رحمة بهم، صلى الله عليك يا نبي الرحمة.

بعث إلى قائدِي غطفان يعرض عليهم صلحاً، وهو أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا بمن معهم من قومهم، وتم الصلح ثم استشار النبي ﷺ السعدين، سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فقالا له: يارسول الله أمراً تحبه فتصنعنيه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب. فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما**».

قال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرئ أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهداانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أمواناً؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله العظيم لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ : **«فأنت وذاك».**

و الحكمة في استشاراته ﷺ لبعض أصحابه في هذا الصلح لكي يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه على الرغم من ذلك الذي فوجئوا به من اجتماع أشخاص المشركين عليهم في كثرة ساحقة ، إلى جانب خذلانبني قريظة المسلمين ونقض مواثيقهم معهم.

وأما الدلالـة التشريعـية في هذه الاستشارـة ، فهي محصـورة في مجرد مشروـعـية مبدأ الشورـى في كل ما لا نصـ فيه . وهي بعد ذلك لا تحـمل أي دلـالة على جواز صـرف المسلمين أعداءـهم عن ديارـهم إذا ما اقـتحـموـها ، باقتـطـاع شيء من أرضـهم أو خـيرـاتـهم لـهم . إذ إنـ ما هو متفـقـ عليهـ في أصولـ الشـريـعة الإـسلامـية أنـ الذـي يـحـتجـ بهـ منـ تـصـرفـاته ﷺ إنـماـ هوـ أـقوـالـهـ ، وـأـفـعـالـهـ التـيـ قـامـ بـهـ ، ثـمـ لمـ يـرـدـ اـعـتـراـضـ علىـهاـ منـ اللهـ فيـ كـتابـةـ العـزيـزـ .

وفي قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدِي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعي فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة⁽¹⁾.

(1) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص 414

وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذ الجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم الترخيص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب.

5- الحكمة في اختيار غطفان بالذات للصلح:

ظهرت حنكته عليه السلام وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم عليه السلام أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول عليه السلام الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الريبع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفاً سياسياً وعقائدياً يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقيادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي عليه السلام (1)، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي عليه السلام وحضرما مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي عليه السلام واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد، وشرع رسول الله عليه السلام في مفاوضتهم.

ولقد أبرز عليه السلام في هذه المفاوضات جانبًا من جوانب منهج النبوة في التحرك لفك الأزمات عند استحکامها وتآزمها، لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء⁽²⁾.

6- رسالة للمسلمين عبر التاريخ:

في قوله عليه السلام : «إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة» دليل على أن رسول الله عليه السلام كان يستهدف من عمله إلا يجتمع الأعداء عليه صفاً واحداً، وهذا يرشد المسلمين إلى عدة أمور منها:

(1) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، ص 201.

(2) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (4/176).

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الإستراتيجي للقيادة المسلمة تحبيط من تستطيع تحبيده، ولا تنسى القيادة الفتوى والشورى والمصلحة الآنية والمستقبلية للإسلام (1).

7- في موقف الصحابة من الصلح دروس:

إن موقف الصحابة من الصلح مع غطفان يوم قال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأولئك لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرئ أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهداانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أمونا؟ والله ما لنا بهذا حاجة، والله العظيم لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال رسول الله ﷺ: «فَأَتَ وَذَاكَ» وهذا يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ- أنه يؤكّد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب- أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله وبالإسلام.

ت- أنه يبيّن ما تمثلّ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجية بالصبر، والرغبة القوية في قهر العدو، مهما كثر عدده وعنته أو تعدد حلفاؤه (2).

8- شدة التضرع سبب من أسباب النصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله، وخصوصاً في مغازييه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزاً شديداً، فما كان من المسلمين إلا أن توجّهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وأمن روعاتنا

(3) انظر: الأساس في السنّة (687/2).

(2) المصدر نفسه، ص 415، 416.

⁽¹⁾ وجاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزهم وزلزلهم»⁽²⁾، فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ، فأقبلت بشائر الفرج فقد صرفهم الله بحوله وقوته، وزلزل أبدانهم وقلوبهم، وشلت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح الباردة الشديدة، وألقى الربع في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجَنُودًا لَمْ تَرُوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

قال القرطبي -رحمه الله-: وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ وال المسلمين كانوا قريباً منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها ولا خبر عندهم بها... وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط⁽³⁾، وأطفأت النيران، وأكفلت القدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الربع، وكثير تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إلى فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الربع⁽⁴⁾.

وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤكد لصحابه ثم للمسلمين في الأرض، أن هذه الأحزاب التي تجاوزت عشرة آلاف مقاتل لم تهزم بالقتال من المسلمين، رغم تضحياتهم، ولم تهزم بعقرية المواجهة، إنما هزمت بالله وحده:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجَنُودًا لَمْ تَرُوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء

(1) مستند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (18/4).

(2) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (59/5) رقم 4114.

(3) الفساطيط: جمع فساطط نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.

(4) انظر: تفسير القرطبي (144/4).

ودعاء رسول الله ﷺ ربه، واعتماده عليه وحده، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشرية للنصر، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنة الأخذ بالأسباب، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصار، وغير ذلك من الأمور التي ذكرناها⁽²⁾

إن رسول الله ﷺ يعلمنا سنة الأخذ بالأسباب، وضرورة الالتجاء إلى الله وإخلاص العبودية له؛ لأنه لا تجدي وسائل القوة كلها إذا لم تتوافر وسيلة التضرع إلى الله والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، فقد كان الدعاء والتضرع إلى الله من الأعمال المتكررة الدائمة التي فزع إليها رسول الله ﷺ في حياته كلها⁽³⁾.

دروس وعبر من قصة حذيفة:

كان رسول الله ﷺ يتبع أمر الأحزاب، وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب فقال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معه يوم القيمة⁽⁴⁾. فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب، وكرره ثلاث مرات، وعندما لم يُجد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحداً بنفسه فقال: «قُمْ يَا حَذِيفَةَ فَإِنَّنَا بَخْرُ الْقَوْمِ، وَلَا تَذَعِرْهُمْ عَلَيْهِ»⁽⁵⁾.

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة.

قال حذيفة: فمضيت كأنما أمشي في حمام، فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: لا تذعرهم على، ولو رمته لأصبهته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ وألبستني فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها، فلم أبرح نائماً حتى أصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ:

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥٩-٥٧) رقم 4114.

(٢) انظر: فقه السيرة المبوبة للفضييان، ص 503.

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 222.

(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (١٤١٤/٣) رقم 1788.

(٥) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب رقم 1788.

«قم يا نومان»⁽¹⁾

ولنا من قصة حذيفة دروس و عبر:

9- معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرجال:

حيث اختار حذيفة ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب، وأن معدن حذيفة معدن ثمين فهو شجاع، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لقب ذكي خفيف الحركة، سريع التخلص من المأزق الحرجة.

10- الانضباط العسكري الذي يتحلى به حذيفة:

لقد مرت فرصة سانحة يقتل فيها قائد الأحزاب وهم بذلك، ولكنه ذكر أمر الرسول ﷺ ألا يذعن لهم، وأن مهمته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه⁽²⁾.

11- كرامات الأولياء:

إن ما حديث حذيفة بن اليمان ﷺ عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جو بارد ماطر شديد الريح، وإذا به لا يشعر بهذا الجو البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمام، وتلازمه هذه الحالة مدة بقائه بين الأحزاب وحتى عاد إلى معسكر المسلمين؛ لا شك هذه كرامة يمن الله بها على عباده المؤمنين⁽³⁾.

12- لطف النبي ﷺ مع حذيفة عند رجوعه:

فقد كان ﷺ يترقق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة الليل وحلوة المناجاة من التلطف بحذيفة الذي جاء بأحسن الأنباء وأصدق الأخبار وأهمها، فشمله بكسلائه الذي يصلّي فيه، ليدفعه، وتركه ملفوفاً به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة قائلاً: «قم يا نومان»، دعابة تقطير حلوة، وتفيض بالحنان، وتسلّل رقة، إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ، وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه

(1) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، (1414/3) رقم 1788.

(2) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، ص 505، السيرة النبوية لأبي فارس، ص 367.

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص 367.

الكرام⁽¹⁾، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

13- سرعة البديهة:

وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصحابي الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي على يميني قلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، قلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص⁽²⁾. وهكذا بدرهم بالمسألة حتى لا يتبع لهم فرصة ليسألوه، وبهذا تخلص من هذا المأزق الحرج الذي ربما كان أودى بحياته⁽³⁾.

14- الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها أنى وجدها:

ففي قوله ﷺ إشارة سلمان بحفر الخندق، وهو أمر لم تكن تعرفه العرب من قبل، دليل على أن الإسلام لا يضيق ذرعاً بالاستفادة مما عند الأمم الأخرى من تجارب تنفيذ الأمة وتنفع المجتمع فلا شك أن حفر الخندق أفاد إفاده كبرى في دفع خطر الأحزاب عن المدينة، وقبول رسول الله هذه المشورة، دليل على مرونته ﷺ، واستعداده لقبول ما يكون عند الأمم الأخرى من أمور حسنة، وقد فعل الرسول مثل ذلك أكثر من مرة، فلما أراد إنفاذ كتبه إلى الملوك والأمراء والرؤساء قيل له: إن من عادة الملوك ألا يقبلوا كتاباً إلا إذا كان مختوماً باسم مرسليه، فأمر على الفور ببنقل خاتم له كتب عليه: محمد رسول الله، وصار يختم به كتبه، ولما جاءته الوفود من أنحاء العرب بعد فتح مكة تعلن إسلامها، قيل له: يا رسول الله إن من عادة الملوك والرؤساء أن يستقبلوا الوفود بثياب جميلة فخمة، فأمر رسول الله ﷺ أن تشتري له حلة، قيل: إن ثمنها بلغ أربعين ألف درهم، وقيل: أربعين ألف بعير، وغداً يستقبل بها الوفود، وهذا هو صنيع الرسول الذي أرسل بأخر الأديان وأبقاها إلى أبد الدهر، فان مما تحتمه مصلحة أتباعه في كل زمان وفي

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، ص 246.

(2) انظر: شرح الزرقاني (120/2).

(3) انظر: من معين السيرة، ص 293.

كل بيئة أن يأخذوا بأحسن ما عند الأمم الأخرى، مما يفيدهم، ولا يتعارض مع أحكام شريعتهم وقواعدها العامة، والامتناع عن ذلك جمود لا تقبله طبيعة الإسلام الذي يقول في دستوره الحال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [ال Zimmerman: 17 و 18] ولا طبيعة رسوله الذي رأينا أمثلة عما أخذ من الأمم الأخرى، وهو القائل: «الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها أثني وجدتها» ويوم غفل المسلمين في العصور الأخيرة، وخاصة بعد عصر النهضة الأوروبية عن هذا المبدأ العظيم في الإسلام، وقاوموا كل إصلاح مأخوذ عن غيرهم مما هم في أشد الحاجة إليه، أصيروا بالانهيار، وتأخروا من حيث تقدم غيرهم ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

15- درسُ للحكام والحاكمين:

لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى للحكام والحاكمين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنبا إلى جنب مع أفراد جيشه ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقة التي تجلت في شخصية الرسول ﷺ.

والعدالة والمساواة ليستا في الإسلام مجرد شعارات يزين بها ظاهر المجتمع وإنما العدالة والمساواة هما الأساس الواقعي الذي تنبثق منه القيم والمبادئ الإسلامية عامة ظاهراً وباطناً.

16- الرؤوفُ الرَّحِيمُ :

أعطى الرسول ﷺ مثلاً آخر على رأفته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طعام جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله - تعالى - : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: 128].

وفي هذا الموقف أيضاً رسالة في أهمية الإيثار عند المسلم فمهما كان الفقر شديداً نتعلم ألا نأكل وغيرنا جائع.

17- واعدوا لهم:

إنَّ حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60] فينبغي على المسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها، لأن الحكم ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.

18- أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الإسلامية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي الحربي، وبذلك أصبحت أول مرضية عسكرية في الإسلام (1)، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام:... وكا قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتبس بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان قد قال لقومه حين أصاب سعد بن معاذ السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة، حتى أعوده من قريب» (2).

ويفهم من النص السابق أنَّ من أصيب من المسلمين إن كان له أهل اعتنى به أهله، وإن لم يكن له أهل، جيء به إلى المسجد حيث ضربت خيمة فيه لمن كانت به ضيعة من المسلمين، وسعد بن معاذ الأوسي، ليس به ضيعة، ولكن لما أراد الرسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرار، جعله في تلك الخيمة التي أعدت لمن به ضيعة وليس له أهل، ذلك أنَّ هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ وإنما فلم ضربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أي مكان آخر؟

إن سعد بن معاذ ﷺ يكرم لماتره وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التكريم أن يجعل في خيمة أعدت لمن به ضيعة، وهذا حينما يرتفع السادة يجعلون مع المغمورين الذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى فاستحقوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ (3)، وهذا منهج نبوي كريم أصبح دستوراً للMuslimين على مدى الزمن.

(1) انظر: المستشفيات الإسلامية، الدكتور عبد الله السعيد، ص 43.

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (3/263).

(3) انظر: من معين السيرة، ص 294.

19- النصر من عند الله وحده:

ظهرت معجزاتُ النبي ﷺ في حفر الخندق لتأكد أن الله تعالى هو الذي يهزم العدو وينصر حزبه ((إِلَّا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدْقَ وَعْدِهِ، وَنَصْرَ جَنْدِهِ، وَهَزْمَ الْأَحْزَابِ وَحْدَهُ)) وحرص الرسول ﷺ أن يؤكّد لصحابه ثم للمسلمين في الأرض أن الأحزاب التي تتجاوز عشرة آلاف مقاتل لم تهزم بالقتال من المسلمين رغم تصحياتهم ولم تهزم بعقرية المواجهة وإنما هزمت بالله وحده، وما يسرّه من أسباب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اذْ جَاءَتُكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِحَـاً وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:9].

إن النصر بيد الله، فإذا نصر المؤمنين فلا ضرر عليهم إذا خذلتهم الأقطار الإسلامية كلها، بل وحتى لو نصرت الكافرين، فلن يغلبوا من نصر الله يقيناً {إِن يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:160].

20- المسلم يقع في الإثم ولكنه يسارع في التوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر -وكانوا حلفاء- فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقة يعني الذبح، ثم ندم فتوجه إلى مسجد النبي ﷺ فارتبط به حتى تاب الله عليه، وقد ظل مرتبطاً بالجذع في المسجد ست ليالٍ تأتيه أمراته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع⁽¹⁾، وقد قال أبو لبابه: لا أبرح مكانني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت: قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك فقالت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك. قال: تيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهم الحجاب، فقالت: يا أبو لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده. فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه⁽²⁾. وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (286/2).

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (262/3).

موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرف أبي لبابة بعدهما وقعت منه هذه الزلة التي أفسى بها سرّاً حربياً خطيراً، فأبو لبابة لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح، وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر حيث لم يطلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكر رقابة الله عليه وعلمه بما يسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففرز لهذه الزلة فزعاً عظيماً⁽¹⁾، وأقر بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقع العقوبة الواجبة، إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيهِمْ حَكِيمًا﴾ [النساء: 17].

إنها صورة فريدة لتوقع العقوبة من الإنسان نفسه على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضي لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسق. وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة، وتسابقاً إلى تهنته حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنة بعد الإنذن فبشرته بقبول الله توبته⁽²⁾. وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]. ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: 102]⁽³⁾.

21- مشروعية قضاء الفائمة:

عندما شغل المشركون الرسول ﷺ وأصحابه عن صلاة، صلوها قباء بعد المغرب ، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائمة .

22- ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

(1) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدى (165/6).

(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، ص 261.

(3) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، (262/3).

روى عبد الرزاق في مصنفه بالسند إلى سعيد بن المسيب، فذكر بعض خبر الأحزاب وقريظة إلى أن قال: فلما فضَّ الله جموع الأحزاب انطلق -يعني حبي بن أخطب- حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً بعد، فقال حبي للنبي ﷺ أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل، فأمر به النبي ﷺ فضررت عنقه⁽¹⁾. ثم أنه أقبل على الناس قبل تنفيذ حكم الإعدام وقال لهم: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله علىبني إسرائيل، ثم جلس فضررت عنقه⁽²⁾.

23- جلد الكافر في مواطن الشدة:

لقد تجلَّ حبي بن أخطب وتقدم لتضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت، وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنَّه يعبد هواه، ولا يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

24- من يخذل الله يُخذل:

إن الله تعالى إذا خذل أحداً ليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه:

﴿إِنْ يُنْصَرُكُمُ اللَّهُ فَلَا خَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْصَرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

كما أن عداوة حبي بن أخطب للرسول ﷺ باعثها الحسد والحقد؛ ولذلك عبر حبي صراحة أن الله لم يكن معه يوماً من الأيام، بل كان حبي في شق الشيطان عدواً لأولياء الرحمن، يشافق الله، فالله خاذله ومُسلِّمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، ولا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تتصرَّه وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأن إرادة الله هي النافذة، وقدره هو

(1) انظر: مصنف عبد الرزاق (371/5) رقم 9727.

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (265/3).

الكائن، لا راد لقضائه، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء⁽¹⁾.
 قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسِكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسِكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17].

25- فضائل لسعد بن معاذ

منها:

1- استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللهم فإن بقي من حرب قريش شيء فأبقي له حتى أجاهدهم فيك)، وقد استجيب دعاؤه فتحجر جرمه، وتماثل للشفاء⁽²⁾ حتى كانت غزوةبني قريظة، وكان سعد قد دعا أيضًا: (ولا تمني حتى تقر عيني منبني قريظة)⁽³⁾، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحق ولم تأخذه في الله لومة لائم، وهذا دليل على تجرد قلبه لله تعالى⁽⁴⁾.

وعندما نفذ حكم الله في يهودبني قريظة رفع سعد يده يدعو الله ثانية يقول: اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (يعني قريشاً والمشركين)، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها واجعل موتي فيها⁽⁵⁾، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرمه تلك الليلة ومات رحمه الله⁽⁶⁾. ومن خلال دعائه الأول والثاني، لحظ هذا الدعاء العجيب، دعاء العظام الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلىلحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته⁽⁷⁾.

2- إكرام رسول الله له، ونجد ذلك في قوله ﷺ للأنصار عندما جاء

(1) انظر: الصراع مع اليهود (2/113، 114).

(2) انظر: فقه السيرة للموطى، ص 228.

(3) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود (3/1389) رقم 1769.

(4) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (6/170).

(5) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (3/275).

(6) انظر: فقه السيرة للموطى، ص 228.

(7) انظر: التربية القيادية (3/70).

سعد للحكم فيبني قريطة: «**قوموا إلى سيدكم**»⁽¹⁾. وهذا تكريم لسعد، وتقدير لشجاعته حيث سماه سيداً، وأمر بالقيام له⁽²⁾.

3- لو أقسم على الله لأبره :

ونرى ذلك في سيرته أنه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السموات والأرض، فقد شاءت إرادة المولى تعالى أن يعيد الأمر فيبني قريطة كله إليه، وأن يطلب بنو قريطة أن يكون الحكم فيهم لسعد بن معاذ.

4- زهذه في الحياة ورغبته في لقاء الله :

فهو لم يحرص كثيراً على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسئولية وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحروب ووضعت بين المسلمين وقريش، وشفى غيط قلبه في الحكم فيبني قريطة، وبذا قطف الثمار للإسلام فلا ثمرة أشهى من الشهادة (فافجر جرحى واجعل موتى فيه)⁽³⁾. وقد تحققت آماله، فقد أصدر حكمه فيبني قريطة وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر⁽⁴⁾.

5- الملائكة تشيع سعد بن معاذ: عندما انفجر جرحه نقله قومه فاحتلوا إلىبني عبد الأشهل إلى منازلهم.

وجاء رسول الله ﷺ فقيل: انطلقوا فخرج وخرج معه الصحابة، وأسرع حتى تقطعت شسوع نعالهم، وسقطت أرديتهم، فقال: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة، فانتهى إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وتقول:

ويل أم سعد سعداً حزامة وجداً

قال: **كل ناحية تكذب إلا أم سعد**، ثم خرج به، وقال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتاً أخف علينا منه قال: «**وما يمنعه أن يخف؟** وقد هبط من الملائكة **هذا وكذا** لم يهبطوا **قط قبل يومهم** قد حملوه

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (3/263).

(2) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص 265.

(3) انظر: التربية القيادية (4/71).

(4) المصدر نفسه (4/74).

معكم»⁽¹⁾.

وقد جاء في النسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عدد الملائكة الذين شاركوا في تشبيع جنازة سعد فقد قال ﷺ: «هذا العبد الصالح الذي تحرك له العرش، وفتحت أبواب السماء، وشهد سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضم ضمة ثم أفرج عنه»⁽²⁾ يعني سعداً.

وها هو رسول الله ﷺ يودع سعداً كما روى عبد الله بن شداد: دخل رسول الله ﷺ وهو ي Kidd نفسه فقال: «جزاك الله خيراً من سيد قوم، فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك»⁽³⁾.

6- يهتز لموته عرش الرحمن :

لقد أثنى النبي ﷺ على هذا العبد الصالح بعد موته كثيراً أمام الصحابة ليتعرف الناس على أعماله الصالحة فيتأسوا به⁽⁴⁾، فقد قال ﷺ: «اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»⁽⁵⁾ وفي حديث البراء بن عازب ﷺ قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير فجعل أصحابه يلمسوه ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمن اديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»⁽⁶⁾.

26- ضمة القبر نسأل الله العافية :

ومع المآثر والمحاسن والأعمال الجليلة التي قدمها سعد بن معاذ رضي الله عنه لخدمة دين الله، فقد تعرض لضمة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعد ﷺ نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلakan، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ وافق، فلما وضع في قبره، تغير وجه رسول الله ﷺ وسبح ثلثاً، فسبح المسلمون حتى ارتج البقيع ثم كَبَرَ ثلثاً، وكَبَرَ المسلمين، فسئل عن ذلك فقال: «تضائق على صاحبكم القبر، وضم ضمة لو نجا منها أحد

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (287/1) إسناده حسن.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (295/1) إسناد صحيح، أخرجه النسائي (100/4) في الجنائز.

(3) انظر: سير أعلام النبلاء (288/1) رجاله ثقات.

(4) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (171/6).

(5) مسلم، فضائل الصحابة رقم 2466.

(6) مسلم، فضائل الصحابة، رقم 2468.

نجا هو، ثم فرج الله عنه»⁽¹⁾.

27- الحرب خدعة:

نجد ذلك في طلبه الرسول ﷺ من نعيم بن مسعود، أن يخذل بين الأحزاب ما استطاع في "غزوة الأحزاب" دليلاً على أن الخديعة في حرب الأعداء مشروعة إذا كانت تؤدي إلى النصر، وأن كل طريق يؤدي إلى النصر وإلى الإقلال من سفك الدماء مقبول في نظر الإسلام، ما عدا الغدر والخيانة، وهذا من حكمته السياسية والعسكرية ﷺ، وهو لا ينافي مبادئ الأخلاق الإسلامية، فإن المصلحة في الإقلال من عدد ضحايا الحروب مصلحة إنسانية.

والمصلحة في انهزام الشر والكفر والفتنة مصلحة إنسانية وأخلاقية، فاللجوء إلى الخدعة في المعارك يلتقي مع الأخلاق الإنسانية التي ترى في الحروب شرًا كبيرًا، فإذا اقتضت الضرورة قيامها، كان من الواجب إنها عنها عن أي طريق كان، لأن الضرورة تقدر بقدرها، والله لم يشرع القتال إلا لحماية دين أو أمة أو أرض، فالخدعة مع الأعداء بما يؤدي إلى هزيمتهم، تعجيل بانتصار الحق الذي يحاربه أولئك المبطلون. ولذلك أثر عن الرسول ﷺ في "غزوة الأحزاب" قوله لعروة ابن مسعود: "الحرب خدعة" وهذا مبدأ مسلم به في جميع الشرائع والقوانين.

28- الإسلام يكرم المرأة :

كانت سلمى بنت قيس وكنيتها أم المنذر أخت سليمان بن قيس، وكانت إحدى حالات رسول الله ﷺ ، قد صلت معه قبلتين، وبأيعنته بيعة النساء، سأله رفاعة ابن سموال القرطي، وكان رجلاً قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلني ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها، فاستحيته⁽²⁾. وفي هذا الخبر دليل على أن الإسلام يكرم المرأة ويعتبر شفاعتها، هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها

(1) انظر: التربية القيادية (77/4)، نفلاً عن مسنده الإمام أحمد (141/6).

(2) انظر: الصراع مع اليهود (116/2).

ويشجعها على فعل الخير (1).

29- شجاعة المرأة المسلمة:

فمن ذلك ما حديث من صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها وأرضاها، لما رأت رجلاً من اليهود يطيف بالحسن، وفيه النساء والصبية، وقد حاربت بنو قريظة ونقضوا العهد، وقطعت ما بينها وبين النبي ﷺ، وليس بينهم أحد يدافع عنهم، فخشيت أن يدل اليهودي على عورات المسلمين، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، فاحتاجت ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتله، ثم رجعت إلى الحصن.

الله أكبر لیت في رجالنا كثير من مثل صفية بنت عبد المطلب. وكان لهذا الفعل من صفية، وهي عمة رسول الله ﷺ الأثر العظيم في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم، فظن اليهود أن الآطام والحسون ممنعة من الجيش، فلم يجرؤوا ثانية على القيام بمثل هذا العمل.

30- من أدب الخلاف:

في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ : «**لَا يَصْلِينَ أَحَدَ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةٍ**»(2)، فبعضهم فهم منه المراد الاستعمال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يصل إلا في بنى قريظة، ولم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم أو عاتبه، ففي ذلك دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المخالفين معذوراً ومثاباً، كما أن فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تتبع من دلالات ظنية أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم (3).

إن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتذمیر الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلاً

(1) انظر: فقه السيرة النبوية للوطني، ص 226.

(2) البخاري، كتاب المغازي، (60/5) رقم 4119.

(3) انظر: فقه السيرة النبوية للوطني، ص 226.

ظنّياً محتملاً؟... ولو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكن أولى الناس بـالـا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت؟⁽¹⁾ وفي الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصه، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطئ، فقد قال ﷺ: «إذا اجتهدَ
الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»⁽²⁾.

وحاصل ما وقع أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت وقت الصلاة توجيهًا لهذا النهي الخاص على النهي العام عن تأخير الصلاة عن وقتها⁽³⁾.

وقد علق الحافظ ابن حجر على هذه القصة فقال: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيره، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النص على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنهي الثاني على النهي الأول، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كنـاية على الحث والاستعمال والإسراع إلىبني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيره من اجتهـد؛ لأنـه لم يعنـف أحداً من الطائفـتين، فـلو كان هناك إثم لعنـفـ من إثم⁽⁴⁾.

31- عدم صحة ما يروى عن جبن حسان رضي الله عنه:

وفي قصة صفية عمة رسول الله ﷺ وقتلها لـليـهـودـي جاءـ في روـاـيـةـ سـنـدـهاـ ضـعـيفـ أنـ صـفـيـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهاـ. قـالـتـ لـحسـانـ بـنـ ثـابـتـ: إنـ هـذـاـ يـهـودـيـ يـطـيـفـ بـالـحـصـنـ كـمـاـ تـرـىـ، وـلـآـمـنـهـ أـنـ يـدـلـ عـلـىـ عـورـتـناـ مـنـ وـرـاـنـاـ مـنـ يـهـودـ، وـقـدـ شـغـلـ عـنـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـأـصـحـابـهـ فـاـنـزـلـ إـلـيـهـ

(1) سنن أبي داود (3557).

(2) المستفاد من قصص القرآن (286/2).

(3) اختصار من فتح الباري (473/7).

(4) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 365.

فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفيه: فلما قال ذلك، احتجزت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلتة، ثم رجعت الحصن، فقلت: يا حسان انزل فاستلبه، فإنه لم يمنعني أن استلبه إلا أنه رجل، فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب⁽¹⁾.

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

- 1- من حيث الإسناد فالخبر ليس مسندًا، وهو ساقط لا يصح ولا يجوز أن يروى، فيساء إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ كان ينافح عن الدعوة وعن رسول الله ﷺ عمره كله.
- 2- لو كان حسان بن ثابت رض معروفاً بالجبن الذي ذكر عنه لهجاه أعداؤه وبغضه بهذه الخصلة الذميمة، لا سيما الذين كان يهاجيمهم، فلم يسلم من هجائه أحد من زعماء الجاهلية، والرسول ﷺ كان يؤيده ويدعوه له، ويشجعه على هجاء زعماء المشركين⁽²⁾.

32- التوفيق في اختيار المواقع :

فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله ﷺ ركب فرساً له ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعاً خلف ظهره ويخندق من المذاد إلى ذباب⁽³⁾ إلى راتج⁽⁴⁾، وقد استقاد رض من مناعة جبل سلع⁽⁵⁾ في حماية ظهور الصحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفقاً؛ لأن شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدو والذي يستطيع منه دخول المدينة وتهديدها، أما الجوانب الأخرى فهي حصينة منيعة، تقف عقبة أمام أي هجوم يقوم به الأعداء، فكانت الدور من ناحية الجنوب متلاصقة عالية كالسور المنيع، وكانت حرقة واقم⁽⁶⁾ من جهة الشرق، وحرقة الوبرة من جهة الغرب،

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 365.

(2) نفس المصدر ،ص، 366.

(3) ذباب: أكمة صغيرة في المدينة يفصل بينها وبين جبل سلع ثيبة الوداع.

(4) راتج: حصن من حصون المدينة لأناس من اليهود.

(5) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان (3/236).

(6) هي حرة المدينة الشرقية: انظر: معجم معالم الحجاز(2/285، 283).

تقومان كحصن طبيعي، وكانت آطامبني قريطة في الجنوب الشرقي كفيلة بتتأمين ظهر المسلمين، وكان بين الرسول ﷺ وبني قريطة عهد ألا يمالئوا عليه أحداً، ولا يناصروا عدواً ضده (1).
ويستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لنزول الجندي أهمية الموقع الذي ينزل فيه الجندي، وأنه ينبغي أن يتوافر فيه شرط أساس وهو الحماية التامة للجندي؛ لأن ذلك له أثر واضح على سير المعركة ونتائجها (2).

33- إحكام الخطة في المعركة:

لقد كانت خطة الرسول ﷺ في الخندق متقدمة، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم، بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ هو أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مذهلة لأعداء الإسلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقان رفيع لسرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم.

34- الاهتمام بالجبهة الداخلية:

ونرى ذلك في الآتي:

1- تأمين النساء والذراري : لما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في حصنبني حارثة، حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء، وقد فعل ذلك ﷺ لأن حماية الذراري والنساء والصبيان لها أثر فعال على معنويات المقاتلين؛ لأن الجندي إذا اطمأن على زوجه وأبنائه يكون مرتاح الضمير هادئ الأعصاب، فلا يشغل تفكيره أمر من أمور الحياة، يسخر كل إمكاناته وقدراته العقلية والجسدية للإبداع في القتال، أما إذا كان الأمر بعكس ذلك فإن أمر الجندي يضطرب ومعنوياته

(1) انظر: العبرية العسكرية في غزوات الرسول، ص 442.

(2) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص 426.

تضعف ويستولي عليه القلق، مما يكون له أثر في تراجعه عن القتال؛ وبذلك تنزل الكارثة بالجميع⁽¹⁾.

2- مشاركة النبي جنده في الحفر:

ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر⁽²⁾.

عمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكل، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

3- مشاركة النبي ﷺ في الآلام والأمال:

فلقد كان ﷺ يشارك الصحابة -رضي الله عنهم- في آلامهم وأمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، ففي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشريف من شدة الجوع⁽³⁾، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثة أيام، يستأثر بذلك دونهم، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فالنبي ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة فهو الذي يرسم الخطط ويراقب تنفيذها فهو الذي:

أ- أمر بحفر الخندق بعد أن تمت المشاورات في ذلك، فاختار مكاناً مناسباً لذلك، وهي السهول الواقعة شمال المدينة، إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب- قسم أعمال حفر الخندق بين الصحابة، كل أربعين ذراعاً لعشرة من الصحابة، وكل بكل جانب جماعة يحفرون فيه.

(1) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص 98.

(2) انظر: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، (57/5) رقم 4106.

(3) انظر: غزوة الأحزاب، د. محمد أبو فارس، ص 116، 117.

- ج- سيطر على العمل، فلا يستطيع أحد ترك عمله إلا بإذن منه .
- د- قسم واجبات احتلال الموضع بنفسه، بحيث تستمر الحراسة على كل شبر من الخندق ليلاً ونهاراً، ثم إنَّه كان يقوم بمهمة الإشراف العام على الجندي تشجيعهم ورفع معنوياتهم.

4- رفع معنويات الجنود وإدخال السرور عليهم:

اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو بارداً، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، ويضاف إلى ذلك العمل المضني، حيث كان الصحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم، ولا شك في أن هذا الظرف بطبيعة الحال يحتاج إلى قدر كبير من الحزم، والجد، ولكن النبي ﷺ لم ينس في هذا الظرف أن هؤلاء الجندي إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، كما أنها بحاجة إلى من يدخل السرور حتى تنسى تلك الآلام التي تعانيها فوق معاناة العمل الرئيسي. وللهذا نجد أن النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب :

ولا تصدقنا ولا صلينا	اللهم لولا الله ما اهتدينا
وثبت الأقدام إن لاقينا	فأنزلن سكينة علينا
وإن أرادوا فتنة أبيينا	إن الأعدادي قد بغوا علينا

ثم يمد صوته بآخرها (١).

وعن أنس رض أن أصحابَ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يقولون يوم الخندق:

نحن الذين بايعوا محمداً

أو قال على الجهاد والنبي يقول:

فاغفر للأنصار	اللهم إنَّ الخير خير الآخرة
---------------	-----------------------------

لقد كان لهذا التبسيط والمرح في ذلك الوقت أثره في التخفيف عن الصحابة مما يعانونه نتيجة للظروف الصعبة التي يعيشونها، كما كان له أثره في بعث الهمة والنشاط وإنجاز العمل الذي كلفوا بإتمامه، قبل

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥/٥٧) رقم ٤١٠٦.

(٢) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب (٣/١٤٣٢) رقم ١٢٩.

وصول عدوهم (1).

5- تقدير ظروف الجندي والإذن بالانصراف عند الحاجة:

كان الصحابة رضي الله عنهم على قدر كبير من الأدب مع النبي ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورة، فيذهبون لقضاء حاجتهم، ثم يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبة في الخير واحتساباً له، فأنزل الله فيه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَاءُوكُمْ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكُمْ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنْ لَمَنْ شِئْتُمْ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 62].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمد الذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم التي تعرض لهم فأذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائهما، واستغفر لهم (2)، فكان النبي ﷺ بالخيار، إن شاء أذن له إذا رأى ذلك ضرورة للمستاذن، ولم ير فيه مضره على الجماعة، فكان يأذن أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ويقتضيه مقام الحال (3).

6- تقسيم الصحابة إلى دوريات الحراسة:

قسم النبي ﷺ أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم ﷺ، واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً وقيادة، حتى أنهم استمروا ذات يوم من السحر إلى جوف من الليل في اليوم الثاني، ويفوت المسلمين الصلوات الأربع، ويقضونها لعجزهم عن التوقف لحظة واحدة أثناء الاشتباك المباشر للقتال، واستطاع علي بن أبي طالب مع مجموعة من الصحابة أن يصدوا محاولة عكرمة ابن أبي جهل، بل تصدى علي بطل قريش عمرو بن عبد وقتلها (4)، وكانت هناك مجموعة من

(1) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص 482.

(2) انظر: صفة التفاسير للصابوني (2/ 351).

(3) أحكام القرآن لابن العربي (3/ 1410).

(4) انظر: فقه السيرة لمدير الفضبان، ص 504.

الأنصار تقوم بحراسة النبي ﷺ في كل ليلة على رأسهم عباد بن بشر

صحيحه

35- معجزات أيدِ الله بها نبيه ﷺ :

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزات للنبي ﷺ، منها تكثير الطعام الذي أعده جابر بن عبد الله، فعن جابر بن عبد الله قال: إننا يوم الخندق مُحَفَّر⁽¹⁾، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذوافاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية فعاد كثيراً أهيل⁽²⁾ أو أهيم⁽³⁾.

قال جابر: فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لأمرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقلت: عندي شعير وعناق⁽⁴⁾، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم بالبرمة⁽⁵⁾، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأنافي⁽⁶⁾. قد كادت أن تنضج، فقلت: طعم لى، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال «كثير طيب»، قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبر من التدور حتى آتي. فقال: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على أمراته قال: ويحك جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال «**ادخلوا ولا تضاغطوا**⁽⁷⁾» فجعل يكثر الخبر ويجعل عليه اللحم ويختمر البرمة والتدور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبر ويعرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «**كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة**⁽⁸⁾».

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعنتي أمي عمرة بنت رواحة

(1) مُحَفَّر: اسمٌ فاعلٌ مِنْ حَفَرَ.

(2) أهيل: رملاً سائلاً. انظر: النهاية في غريب الحديث (289/5).

(3) أهيم: الرمل الذي لا يعمالك، انظر: لسان العرب (3/858).

(4) العناق: الأنثى من أولاد الماعز، انظر: النهاية في غريب الحديث (310/3).

(5) البرمة: هي التقدّر مطلقاً، انظر: النهاية في غريب الحديث (1/121).

(6) الأنثى: الحجارة التي تنصب وتحصل القدر عليها، انظر: القاموس المحيط (3/120).

(7) ولا تضاغطوا: أي لا تراهموا. انظر: لسان العرب (2/537).

(8) البخاري، كتاب المغازي، باب بغرة الخندق (55/5) رقم 4101.

فأعطيتني حفنة من تمر في ثوبِي، ثم قالت: أي بنيَّة، اذهبِي إلى أبيك وحالك عبد الله بن رواحة بعدهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برَسُول الله ﷺ وأنا أتمس أبي وخالي، فقال: تعالى يا بنيَّة ما هذا معاك؟ فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتنِي به أمي إلى أبي بشير بن سعد، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذيانه، قال: هاتيه، قالت: فصبتِه في كفي رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب فبسط له ثم دعا بالتمر عليه فتبعد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: **اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغذاء**، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل بزياد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب⁽¹⁾.

ومن دلائل النبوة أثناء حفر الخندق إخباره ﷺ عمار بن ياسر - وهو يحفر معهم الخندق - بأن سقوطه الفئة الباغية، فقتل في صفين وكان في جيش علي⁽²⁾، وعندما اعترضت صخرة الصحابة لهم يحررون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتتت قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنِّي لا أبصر قصورها الحمراء الساعة»، ثم ضربها الثانية فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنِّي لا أبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنِّي لا أبصر أبواب صنعاء من مكانِي هذه الساعة»⁽³⁾. وقد تحققت هذه البشرة التي أخبرت عن اتساع الفتوحات الإسلامية والإخبار عنها في وقت كان المسلمون فيه محصورين في المدينة يواجهون المشاق والخوف والجوع والبرد القارس⁽⁴⁾.

36- بث الخذلان في صفوف الأعداء:

استخدام النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعائية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصديعاً خفيَا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويتوسيع شقته ويستغلها في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطfan ففكاك عزمها، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (3/241).

(2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 448.

(3) المصدر نفسه، ص 449.

(4) انظر: المرأة في العهد النبوي، ص 175.

مسعود الغطافي إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه، وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ : «إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذْلُ عَنَا إِنْ اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةً»⁽¹⁾.

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتتصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة⁽²⁾.

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيماناً نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب؛ مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزهم.

وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:
أ- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدّمه له من نصائح.

ب- أنه ذكربني قريظة بمصيربني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرونـ إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشل مهامه. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب⁽³⁾.

37- أهمية الصلاة الوسطى:

قال ﷺ : «مَلَأَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَيْوَتَهُمْ وَقَبُورَهُمْ نَارًا، كَمَا شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوَسْطَى حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسِ»⁽⁴⁾.

وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الحديث على كون الصلاة

(1) انظر: البداية والنهاية (113/4).

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (430/2).

(3) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص 477.

(4) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق رقم 4111.

الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوص عليه، وألزم القاضي الماوري مذهب الشافعى بهذا لصحة الحديث، وقد استدل طائفة من العلماء بهذا الصنف على جواز تأخير الصلاة لعذر القتال كما هو مذهب مكحول والأوزاعي⁽¹⁾.

قال الدكتور البوطى⁽²⁾: لقد فاتت النبي ﷺ صلاة العصر كما رأيت في هذه الموقعة، لشدة انشغاله، حتى صلاتها قضاء بعدها غربت الشمس. وفي روایات أخرى غير الصحيحين أن الذي فاته أكثر من صلاة واحدة، صلاتها تباعًا بعدما خرج وقتها وفرغ لأدائها، وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينفي هذه الدلالة ما ذهب إليه البعض من أن تأخير الصلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزًا إذ ذاك ثم نسخ حينما شرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً وركاباً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين، إذ النسخ على فرض صحته ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنما هو وارد على صحة تأخير الصلاة بسبب الانشغال، أي أن نسخ صحة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضًا، بل هي مسكونة عنها، فتبقى على مشروعيتها السابقة⁽³⁾.

38- بين التصور والواقع:

قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيت رسول الله وصحابته؟ قال: نعم، يا ابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: فقال: والله لو أدركتناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا، فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأينا مع رسول الله ﷺ، بالخندق ، ثم ذكر حديث تكليفه بمهمة الذهاب إلى معسكر المشركين.

هذا تابعي يلتقي بالصحابي حذيفة ويتخيل أنه لو وجد مع رسول الله ﷺ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصحابة الكرام، والخيال شيء والواقع شيء آخر ، الصحابة - رضي الله عنهم - بشر، لهم طاقات البشر، وقدراتهم، وقد قدموا كل من يستطيعون، فلم يخلوا بالأنفس فضلاً عن

(1) انظر: الأساس في السنة (2/682).
 (99) انظر: فقه السيرة للبوطي ص 240-241.
 (3) انظر: فقه السيرة المبوبة، ص 223.

المال والجهد، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله: «خير القرنين» فبين أن عملهم لا يعدله عمل.

إن الذين جاءوا من بعد، فوجدوا سلطان الإسلام متداً، وعاشوا في ظل الأمن والرخاء والعدل، بعيدين عن الفتنة والابتلاء، هم بحاجة إلى نقلة بعيدة يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكل ما فيه من جهالات وضلالات وكفر، وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصحابة حتى قام الإسلام في الأرض.

39- ولينصرن الله من ينصره:

إن المؤمنين إذا اجتهدوا في الدفاع عن دينهم وجهاد أعداء الله وأعداء رسوله وفعلوا قصارى طاقتهم في نصر الله ورسالته فإن الله - سبحانه و تعالى - يكرمهم بعون منه وتأييد فيصنع لهم وبهيهى لهم من أسباب الغلبة والنصر ويبعث لهم من جنود العز والتمكين ما لم يكن لهم على حساب وبيوبيدهم بجند من عنده وما يعلم جنود ربك إلا هو فإذا صدقنا إيماناً وتمسكتاً بديننا والتزمنا بنهج نبينا في كل أمورنا فلا يضرنا كيد الكائدين ولا مكر الماكرين..

فأ والله جل جلاله يدافع عن الذين آمنوا كما قال جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالله سبحانه نعم المولى ونعم النصير يبتلي أولياءه ليميز الخبيث من الطيب فإذا تبين أهل محبته وأهل دينه وتتميزت الصنوف جاءهم وعده ووقع خبره ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

40- شدة عداوة اليهود للإسلام وأهله:

إنهم قوم عادوا الإسلام وعادوا النبي الإسلام ووقفوا في طريق تبليغ دعوة الله حجر عثرة ومنع دون وصوله إلى الناس، ولم يجد معهم أي قانون ولم يحترموا أي عهد فكان ما كان من تعامل النبي الأكرم معهم، بحكمة السياسي المحنك، وقوة المسلم الأبي و توفيق الله لنبيه ﷺ، لا سيما مع قوم شيمتهم اللؤم وطبعهم الغدر ونعتهم الخيانة والجبن.. وفي هذه المعركة نرى بنو قريظة نقضوا العهد، جاء في الصحيحين "أن النبي ﷺ لما رجع من الخندق ووضع السلاح واغتنسل،

أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال: فإلى أين؟ قال: هنا، وأشار إلىبني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم.

ونادى ﷺ في المسلمين "الا لا يُصلين أحد العصر إلا فيبني قريظة"، فسار الناس، فأدرك بعضهم في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلى حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلى، ولم يرد منا بذلك، فذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فلم يعنف أحدا منهم.

ثم أنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فيهم، وقد كانت بنو قريظة حلفاء للأوس- فأحب رسول الله ﷺ أن يكلّ الحكم عليهم إلى واحدٍ من رؤساء الأوسين، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، وكان قد أصيب بسهم في الخندق في خيمة هناك، فلما حكمه رسول الله ﷺ فيبني قريظة وأرسل إليه بذلك، أتى على حمار، فلما دنا من المسجد، قال للأنصار "فَوْمُوا إِلَى سِيِّدِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ" ، ثم قال "إِنَّ هُؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمٍ" ، قال: "تقتل مقاتلهم وتسبّي ذريتهم" ، فقال: له النبي ﷺ :- "قضيت بحكم الله تعالى".

وحاصر رسول الله ﷺ بنو قريظة (وهم متحصنون في حصونهم) خمساً وعشرين ليلة وقيل خمسة عشر يوماً، حتى جهدهم الحصار وقدف الله في قلوبهم الرعب .

ودعونا نواصل الدروس وال عبر من هذه الغزوة ومن قصة بنى قريظة فقد استرتبط علماء الحديث والسير من قصة بنى قريظة هذه أحكاماً مهماً تجملها فيما يلي:

41- جواز قتال من نقض العهد :

وقد جعل الإمام مسلم - رحمة الله - هذا الحكم عنواناً لغزوة بنى قريظة، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم، كُلُّ ذلك ينبغي احترامه على المسلمين ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الأمان، وحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك.

42- جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم :

قال النووي - رحمه الله - فيه جواز التحكيم في أمور المسلمين وفي مهامهم العظام والرجوع في ذلك إلى حكم مسلم عادل صالح الحكم،

وقد أجمع العلماء عليه في شأن الخوارج، فإنهم أنكروا على عليٰ التحكيم، وأقام الحجة عليهم، وفيه جواز مصالحة أهل قرية أو حصنٍ على حكم حاكمٍ مسلمٍ عادلٍ صالحٍ للحكم أمينٍ على هذا الأمر، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين، وإذا حكم بشيء لزم حكمه، ولا يجوز الإمام ولا لهم الرجوع، ولهم الرجوع قبل الحكم.

43- مشروعية الاجتهاد في الفروع وضرورة وقوع

الخلاف فيها:

وفي اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول ﷺ «ألا لا يُصلِّي أحدُ العصرَ إِلَّا فِي بْنِي قَرِيظَةَ» على النحو الذي روينا، مع عدم تعنيف النبي ﷺ أحداً منهم أو معاذبته، دلالة مهمة على أصلٍ من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع واعتبار كل المخالفين معذوراً ومثاباً، سواء قلنا إنَّ المصيب واحد أو متعدد، كما أنَّ فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تتبع من دلالاتٍ ظنية، أمرٌ لا يمكن أن يتصور أو يتم، فالله سبحانه وتعالى تعبد عباده بنوعين من التكاليف:

أولهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك.

ثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتناء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلةها العامة المختلفة، وليس المطلوب من أدركته الصلاة في بادية التبست عليه جهة القبلة فيها، أكثر من أن تتجلى عبوديته لله تعالى في أن يبذل كل ما لديه من وسع لمعارفه جهة القبلة حسب فهمه وما يbedo له من أدلة، حتى إذا سكنت نفسه إلى جهةٍ ما، استقبلها فصلٌ إليها.

ثم إنَّ هنالك حِكْمَـا باهِرَـا لمجيءِ كثيرٍ من الأدلة والنصوص الشرعية الظنية الدلالة غير قطعية من أبرزها، أن تكون الاجتهدات المختلفة في مسألةٍ ما، كلها وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعاً، حتى يكون للMuslimين متسعٍ في الأخذ بأيتها شاعوا حسبيما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة، وتلك من أجلِّ مظاهر رحمة الله بعباده، في كل عصرٍ وزمان.

وإذا تأمِّلت هذا، وعلمت أنَّ السعي في محاولةِ القضاء على الخلافِ في مسائل الفروع، معاندةً للحكمة الربانية والتدبیر الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضربٌ من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع

الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنِّياً محتملاً، لو أمكن ذلك أن يتم في عصرنا، لكن أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم الصحابة، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما قد رأيت؟!

44- يعرفونه كما يعرفون أبناءهم :

جيء برئيسبني قريطة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عنقه جرى بينه وبين كعب الحوار التالي: قال رسول الله ﷺ: «**كعب بن أسد؟**». قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم. قال رسول الله ﷺ: «**ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقاً بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتمني تقرئوني منه السلام؟**». قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولو لا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكنني على دين يهود. فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضربت.

لقد رأيت من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود أنهم كانوا على يقينٍ من نبوة محمد ﷺ وعلى اطلاع تامٍ على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه وعن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا عبيداً لعصبيتهم وتكبرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثيرٍ من يتظاهر بعدم الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أنَّ الإسلام في عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية، ينسجم في عقيدته مع العقل وينسجم في تشريعاته وأحكامه مع حاجات الإنسان ومصالحه، فلن تجد من عاقلٍ سمع باسم الإسلام وألمَّ بحقيقة وجوهره ثم كفر به كفراً عقلياً صادقاً، إنما هو أحد شيئاً، إنما أنه لم يسمع بالإسلام على حقيقته وإنما قيل له عنه كلام زائفٍ باطل، وإما أنه وقف على حقيقته واطلع على جوهره، فهو يأبه إباءً نفسياً لحقدٍ على المسلمين أو غرضٍ أو هو يخشى فواته.

45- حكم القيام إكراماً للقادم :

أمر النبي ﷺ الأنصار حينما أقبل نحوهم سعد بن معاذ راكباً دابتة أن يقوموا إليه تكريماً له، ودلَّ على هذا التعليل قوله: لسيديكم أو خيركم، وقد استدلَّ عامة العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم في المناسبات الداعية إلى ذلك عرفاً. يقول الإمام النووي في تعليقه على هذا الحديث: "فيه إكرام أهل

الفضل وتلقاهم بالقيام لهم إذا أقبلوا.. هكذا احتاج به جماهير العلماء لاستحباب القيام، قال القاضي: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقرون إليه وهو جالس ويمثلون قياماً طول جلوسه.. قلت: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث ولم يصح في النهي عنه شيء صريح.

ومن الأحاديث الثابتة الدالة أيضاً على ذلك ما جاء في حديث كعب بن مالك المتفق عليه، وهو يقصُّ خبر تخلفه عن غزوة تبوك، قال: فانطلقتْ أتَأْمِمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَتَلَقَّنِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يَهْنَئُونِي بِالتَّوْبَةِ، ويقولون لي: لتهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله عليهما السلام يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره- فكان كعب لا ينساها لطلحة.

ومن ذلك أيضاً ما رواه الترمذى وأبو داود والبخارى فى الأدب المفرد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت "ما رأيت أحداً من الناس كان أشبه بالنبي ﷺ كلاماً ولا حديثاً ولا جلسةً من فاطمة، قالت: وكان النبي ﷺ إذا رأها أقبلت رحباً بها ثم قام فقبلها، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه، وكانت إذا أتتها النبي ﷺ رحبت به ثم قامت إليه فقبلته".

واعلم أنَّ هذا كله لا يتنافى مع ما صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلْ لِهِ النَّاسُ قِيَامًا فَلَيَتَبُوأْ مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ»، لأنَّ مشروعيَّة إكرام الفضلاء وتوفيرهم لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته؛ بل إنَّ من أبرز صفات الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم رُهاداً في طلبِ هذا الشيء، أرأيت إلى الفقير المحتاج؟ إنَّ الأدب الإسلامي يُوصيه ويعملمه الترفع عن المسألة وإظهار الفاقة وال الحاجة للناس، ولكن هذا الأدب الإسلامي نفسه يُوصي الأغنياء بالبحث عن هؤلاء الفقراء المتعففين ويأمرهم بإعطائهم من فضولِ أموالهم.

غير أنَّ من أهم ما ينبغي أن تعلم في هذا الصدد أنَّ لهذا الإكرام حدوداً إذا تجاوزها، انقلب الأمر محراً، واشترك في الإثم كلُّ من مقتره والساكت عليه.

فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقوف

المربيين عليهم وهم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسارٍ وذلٍّ مطربًا لا يطرف إلى أن يأذن له بالجلوس، ومنه ما يفعله بعضهم من السجود على رُكبةِ الشيخ أو يده عند قدمه أو ما يفعله من الحبو إليه عندما يغشى المجلس، ولا يخدعْكَ ما قد يُقال في تسويع ذلك من أنه أسلوب من التربية للمربي!

فإنما قد شرّع مناهج وأساليب للتربية وحظر على المسلمين الخروج عليها، وليس بعد الأسلوب النبوى في التربية أسلوبٌ.

46- البلاء والصبر:

ظهر في هذه المعركة حسن بلاء النبي ﷺ وأصحابه حيث إنهم صبروا على ما قدره الله - تعالى - عليهم بقلوب ثابتة وعزائم راسخة فلم تستفرزهم الكروب ولم تقعدهم الخطوب بل كانوا كلما اشتدت الكروب وادلهمت الخطوب زادتهم ذلك إيماناً وتسليماً وتصديق ذلك في هذه الغزوة قوله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22].

47- الحلال والحرام:

عرضت قريش فداء مقابل جثة عمرو بن ود، فقال ﷺ : «ادفعوا إليهم جيفته، فإنه خبيث الجيفة، خبيث الديمة فلم يقبل منهم شيئاً».

حدث هذا وال المسلمين في ذلك من العيش، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من الناس المحسوبين على المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟.

48- جزاء عادل:

إن الحكم الذي نزل ببني قريظة صدر لأنهم من الناحية القانونية خونة فقد أثبتت التجارب والأحداث منذ وصول النبي ﷺ المدينة أن اليهود عاشوا وهم يعملون بكل طاقاتهم لاستئصال الإسلام والقضاء عليه والكيد للنبي ﷺ ونشر الإشاعات ضده والغدر والخيانة كلما ساحت لهم الفرصة، فكان ما نزل بهم عين العدل ويتحقق مع نصوص القوانين

49- تخطيط محكم:

الفائد الحكيم دائمًا يتصرف حسبما تملية الحاجة ويطلب الموقف لذلك وجه النبي ﷺ على:

1- طول الخندق لأنّه كان يتوقع الهجوم في كل لحظة ويخشى أن يهاجمه المشركون على حين غرة، لذلك احتاط للأمر وأقام الحراسة الدائمة على طول الخندق، وقد علم أصحابه كلمة السرّ كي يتعارفون بها في ظلمات الليل ولا يقتل بعضهم بعضاً وهذه الكلمة هي "هم لا ينصرون" أرئيت الدقة والمهارة والتنظيم.

2- طائفة أخرى من المسلمين تحرس المدينة خوفاً من أن يقوم بني قريظة بفتح ثغرة للمسلمين فأرسل جند ليؤمنوا هذا الجانب وكانت كلمة سرّهم "الله أكبر".

3- فرقة أخرى تحرس النبي ﷺ مع العلم أنّ العرب كانت تنفر من القتل غيلة وغدراً وتعدّه دناءة وعاراً، لكن اليهود يعدون الغدر شرفاً وهو يتخوف منهم.

50- جنود الله تأتي بعد العمل بالأسباب:

ال المسلمين صبروا صبراً جميلاً ومع هذا الابتلاء الشديد كان الصبر لهم ضياءً، فما ضعفوا وما استكانوا لإيمانهم القوي أنَّ الله يحقق لعباده الصالحين ما وعدهم به من النصر والتمكين والرسول ص كان يلح في الدعاء ومن دعاءه كما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم⁽¹⁾ و من المسلمين إلا أن توجهوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: نعم. اللهم استر عوراتنا، وآمن رواعتنا⁽²⁾ فأرسل الله جنده:

1- الريح: وكانت هذه الريح معجزة للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منهم، ولم يكن بينهم إلا عرض الخندق، وكانوا في عافية منها ولا خبر عندهم بها... ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتُكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِحْلًا وَجَنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: 9].

2- الملائكة: وبعث الله عليهم الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط⁽³⁾، وأطافت النيران، وأكفت الدور، وجالت الخيول بعضها في بعض، وأرسل عليهم الرعب، وكثير تكبير الملائكة في جوانب المعسكر حتى كان سيد كل خباء يقول: يا بني فلان هلم إلى فإذا اجتمعوا قال لهم: النجاء النجاء، لما بعث الله عليهم الرعب⁽⁴⁾.

وفي الأخير أنسال الله جل وعلا منه وكرمه أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً.

اللهم إنا نسألك الشهادة في سبيلك بعد طول عمرٍ وحسن عمل يا أرحم الراحمين .

(1) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب (59/5) رقم 4114.

(2) مسنن الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (4/18).

(3) الفساطيط: جمع فساطط نوع من الأبنية في السفر وهو دون السرادق.

(4) انظر: تفسير القرطبي (4/144).



غزوة خيبر دروس وعبر

الحمد لله رب العالمين، نحمده تعالى ونستعفره ونستعينه ونستهديه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليناً كثيراً.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نُفُسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَّقِيبًا) [النساء: 1].

وبعد

ما أجمل أن نداوي الجراح المكلومة الغائرة بالسيرة العطرة المعطرة لرسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فسيرته باسم للجراح وملاذ للخائف وحصن للراجي ، والوعز عندما تدلهم المصائب والأزمات.

أن على الأمة اليوم أن تستنير بأنوار السيرة النبوية التي تضيء القلوب والآفونس والعقول ، كما تضيء العالم والمنهج والسير والمقصد

ومن هذا الباب لا زلتنا وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله :

(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر).

ومع : (غزوة خيبر دروس وعبر)

وأسأل الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه إنه ولني ذلك والقادر عليه .



غزوة خيبر

غزوة خيبر:

ومدينة خيبر هي مدينة مليئة بالحصون و بها ماء من تحت الأرض و طعام يكفيها سنوات و بها عشرة آلاف مقاتل من اليهود منهم ألف يجيدون الرمي، و كانت خيبر ممتلئة بالمال و كان اليهود يعملون بالربا مع جميع البلدان.

غزوة خيبر:

ذكر ابن إسحاق⁽¹⁾ أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي⁽²⁾ أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد⁽³⁾ إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمام الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة⁽⁴⁾، وقد رجح ابن حجر⁽⁵⁾ قول ابن إسحاق على قول الواقدي⁽⁶⁾.

غزوة خيبر:

كانت الغزوة بعد عشرون يوماً من صلح الحديبية، و كان عدد المقاتلين المسلمين وقتها ألف و ثمان مائة مقاتل فقط لأن الرسول قرر أن يقاتل معه في هذه المعركة كل من كان في صلح الحديبية فقط وهم الذين سوف يُقسم عليهم الغنائم أما من زاد عليهم فله ثواب الجهاد

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (455/3)، معلقاً.

(2) انظر: المغازي (634/2).

(3) انظر: الطبقات لابن سعد (106/2).

(4) انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (33/1).

(5) انظر: الفتح (41/16)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 500.

(6) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 500.

فقط و ليس له غائم.

غزوة خيبر:

التي فيها قال : ﴿لأعطين الرایة غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله عليه وليس بفار﴾ ، فلما كان من الغد دعا علياً وهو أرمد شديد الرمد فقال : "سر" ، فقال : يا رسول الله ما أبصر موضع قدمي ، فتغل عليه الصلاة والسلام في عينيه وعقد له اللواء ودفع إليه الرایة وقال : «خذ هذه الرایة فامض بها حتى يفتح الله عليك» ، فقال : على ما أقاتلهم يا رسول الله قال : «على أن يشهدوا أن لا إله إلا الله واني رسول الله فإذا فعلوا ذلك فقد حقروا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم عند الله تعالى».

غزوة خيبر:

التي تحوي كثيراً من العبر والحكم والدروس التي يمكن أن يستفيد منها المسلمون على مر التاريخ والعصور ، ومن ذلك أن اليهود كانوا على مر التاريخ ومنذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا ، بل قبل ذلك مصدر خطر داهم على العرب والمسلمين ، فهم قوم غدر وخيانة يحقدون على الإسلام والمسلمين ، وينقضون العهود والمواثيق ، وهم دائماً يخونون ولا يؤمنون ، وهم الذين بسبب كفرهم وحقد them قتلوا عدداً من الأنبياء وما زالوا إلى أيامنا هذه مصدر خطر كبير وشر مستطير.

غزوة خيبر:

إن هذه الغزوة توضح معلمًا عامًا لخطة المصطفى ﷺ لتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام ، وتحويلها إلى قاعدة لنشر الإسلام في العالمين ، فقد خطط عليه السلام لا يسير إلى مكة إلا بعد أن يكون قد مهد شمال الحجاز إلى حدود الشام ، وأن تكون الخطوة الأخيرة هي الاستيلاء على خيبر ووادي القرى؛ ليحرم القبائل المحيطة به من أي مركز يمكن أن يعتمدوا عليه في مهاجمة الدولة الإسلامية الناشئة .

غزوة خيبر :

كانت خيبر هي وكر الدس والتآمر ، ومركز الاستفزازات العسكرية ، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب ، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين ، وأثاروا بني قريظة على الغدر

والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين _ الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي _ وبغطfan وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، وقد عاش المسلمون بسببهم مهنا متواصلة، اضطرت المسلمين إلى الفتاك ببعض رؤوسهم أمثال سلام بن أبي الحقيق وأسير بن زارم، ولكن كان لابد من عمل أكبر من ذلك إزاء هؤلاء اليهود، وما كان يمنع النبي ﷺ من مجابتهم إلا وجود عدو أكبر وأقوى وألد إلا وهو قريش .

غزوة خيبر :

لقد كانت الغزوات السابقة كلها قائمة على أسباب دفاعية اقتضت المسلمين أن يدافعوا بها عن وجودهم وأن يردوا بها هجمات أعدائهم كما قد رأيت لدى بيان سبب كل غزوة منها .

أما هذه الغزوة وهي أول غزوة تأتي بعد وقعةبني قريظة وصلح الحديبية، فإن لها وضع آخر وإنها لختلف اختلافاً جوهرياً عن تلك التي كانت من قبلها وهي تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت مرحلة جديدة من بعد صلح الحديبية .

غزوة خيبر :

التي خاضها النبي ﷺ بنفسه والتي كان فيها عز ونصر للمؤمنين وذل وهوان لليهود الذين عاندوا واستكروا عن قبول دعوة الحق والدخول في دين الإسلام وغدرروا وخانوا، هؤلاء اليهود الذين لم يدخلوا في دين الإسلام بعدما بلغتهم أصل الدعوة الإسلامية التي دعا إليها النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت قلوبهم وصدورهم مليئة بأحقادهم ضد الإسلام والمسلمين منذ عهد النبي ﷺ وإلى أيامنا هذه.

غزوة خيبر :

التي سببها: لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تماماً بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمان والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه .

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة

غزوة خيبر :

والجديد فيها وما يختلف عن الغزوات السابقة، هي حصونهم وقلاعهم التي أقاموا بها، فمحاولة الهجوم عليهم تتطلب جهداً ضخماً وتعبئة مناسبة ومؤونة كافية للجيش لفترة طويلة، والمسلمون لا يملكون هذه الطاقات في مقابل اليهود الذي قيل عنهم: (وَهُمْ أَهْلُ الْحَصُونِ الَّتِي لَا تَرَامُ، وَسَلَاحٌ وَطَعَامٌ كَثِيرٌ، وَلَوْ حَصَرُوا لِسْنَيْنِ لِكَفَاهُمْ، وَمَاءٌ مَتَوْفَرٌ يَشْرَبُونَهُ فِي حَصُونِهِمْ، وَمَا أَرَى لِأَحَدٍ بَهْمَنَ طَاقَةً).
والمسلمون لم يسبق لهم من قبل خبرة في قتال أهل الحصون إلا ما كان من بنى قريظة يوم حربهم.



دروس وعبر من غزوة خيبر

1- النصر من عند الله :

إن من أهم ما ينبغي أن نعتبر به في غزوة خيبر أن النصر من عند الله عز وجل، ينصر من يشاء كما قال في الكتاب العزيز : **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** [آل عمران: 126]، فالله تبارك وتعالى ينصر عباده المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله وينصرون دينه ويطبقون شرعه بأداء الواجبات واجتناب المحرمات. قال الله تبارك وتعالى :

*** وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَنَّا هُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** [الحج: 41]

2- الإخلاص في الجهاد:

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ ، فآمن به، واتبعه، فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به للنبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**قسم قسمته لك**» قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي هاهنا، وأشار إلى حلقه، بسهم، فأممت فأدخل الجنة، فقال: إن تصدق الله يصدقك، ثم نهض إلى قتال العدو، فأتي به إلى النبي ﷺ، وهو مقتول، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم. قال: «**صدق الله فصدقه**». فكفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدمه، فصلى عليه، وكان من دعائه له: «**اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قُتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد**»⁽¹⁾.

3- دخل الجنة وما سجد لله سجدة:

جاء عبدًّا أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنهنبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بعنقه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعوا إليه؟ قال: «**أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله، وألا تبعد إلا الله**» قال العبد: فما لي إن شهدت وأمنت بالله عز وجل، قال: «**لك الجنة إن مت على ذلك**». فأسلم ثم قال: يانبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ: «**أخرجها من عندك وارمها بـ(الحصباء) فإن الله سيؤدي عنك أمانتك**» ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوزع لهم وحضرهم على الجهاد، فلما التقى المسلمين واليهود قتل فيمن قتل العبد الأسود واحتله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «**لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنين من الحور العين، ولم يصل لله**

(1) أخرجه النسائي (60/4)، والطحاوي في شرح معانٰ الآثار (291/1)، والحاكم (595/3)، والبيهقي (15/4)، وإسناده صحيح نقلًا عن زاد المعاذ (324/3).

4- بطل لكنه إلى النار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجل لا يدع للمشركين شاذة ولا فاذة⁽²⁾ إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال رسول الله ﷺ : «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فقلوا: أينا من أهل الجنة إن كان من أهل النار؟ فقال رجل: والله لا يموت على هذه الحال أبداً، فاتبعه حتى جرح، فاشتت جراحته واستجعل الموت، فوضع سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء رجل إلى رسول الله فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «وَمَا ذَاكَ» فأخبره، فقال النبي ﷺ : «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَإِنَّهُ لَمَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»⁽³⁾.

5- صفيه بنت حبي وزواجها من النبي ﷺ :

زواج رسول الله ﷺ من صفيه بنت حبي بن أخطب:

لما فتح المسلمون القموص - حصن بنى أبي الحقير- كانت صفيه في السبي فأعطيها دحية الكلبي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ : فقال يا رسول الله، أعطيت دحية صفيه بنت حبي سيدة قومها، وهي ما تصلح إلا لك، فاستحسن النبي ﷺ ما أشار به الرجل، وقال لدحية، «خذ جارية من النبي غيرها»⁽⁴⁾, ثم أخذها رسول الله ﷺ وأعتقها وجعل عتقها صداقها، ثم تزوجها بعد أن طهرت من حيضتها⁽⁵⁾, وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النبي ﷺ من خيبر حتى ظهرت صفيه من حيضها، فحملها وراءه فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها، فأبىت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصحاباء نزل بها هناك فمشطتها أم سليم، وعترتها، وزفتها إلى النبي ﷺ وبنى بها، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النزول أولاً» فقللت: خشيت عليك من قرب اليهود، فعظمت في نفسه، ومكت رسول الله بالصحاباء ثلاثة

(1) انظر: زاد المعاد (324/3)، (323/3)، السيرة الحلبية (39/3).

(2) الشاذ: الذي يفارق الجماعة، الفاذ: الذي لم يختلط بالجماعة.

(3) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر 4207.

(4)، (5) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (383/2).

(5) انظر: الصراع مع اليهود (101/3).

أيام، وأولم عليها دعا المسلمين، وما كان فيها من لحم وإنما التمر والأقط والسمن، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ له خلفه ومد عليها الحجاب، فأيقنوا أنها إحدى أمهات المؤمنين⁽¹⁾.

وقد كانت أم المؤمنين صفية بنت حبيبي قد رأت رؤية، فقد روى البيهقي -رحمه الله- بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديث طويل قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفية خضرة، فقال: «**يا صفية ما هذه الخضر؟**» فقالت: كان رأسي في حجر ابن حقيق، وأنا نائمة، فرأيت كأن قمراً وقع في حجري، فأخبرته بذلك فاطمني، وقال: تمنين ملك يثرب⁽²⁾.

وهكذا صدق الله رؤيا صفية رضي الله عنها، وأكرمتها بالزواج من رسول الله ﷺ، وأعتقها من النار، وجعلها أمّا للمؤمنين، وزوجاً في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين⁽³⁾، وقد أكرمتها رسول الله ﷺ غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبهما أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب⁽⁴⁾.

وهذه صفية رضي الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجر ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسى مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول: «يا هذه مهلاً»⁽⁵⁾. وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمّه، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأخبرته فقال: «**ألا قلتِ: وكيف تكونان خير مني وزوجي محمد وأبّي هارون، وعمي موسى؟**»⁽⁶⁾.

(1) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (384/2).

(2) انظر: السنن الكبرى (138/9) نقلًا عن الصراع مع اليهود (103/3).

(3) انظر: الصراع مع اليهود (122/3). (2)

(4) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (384/2).

(5) انظر: السيرة الحلبية (45/3).

(6) انظر: شرح المواهب اللدنية (233/2).

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله ﷺ، وأصبح ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تذيه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليمًا معافي، فقد أخرج ابن سعد رحمه الله بإسناد حسن عن زيد بن أسلم ﷺ قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبى الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ فقال: «مضمضن»، فقلن: من أي شيء قال: «من تغامزن بها، والله إنها صادقة»⁽¹⁾.

وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعاً لغريرة، كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، قد قتل أبوها من قبل، وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاورة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد ، وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب ﷺ فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعثت إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلتني الله به الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمة فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرّة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها⁽²⁾.

6- تحريم أكل لحوم الحمر الإنسيّة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن

(1) انظر: زاد المعاد (328/3).

(2) المصدر نفسه (385/2).

لحوم الحمر الأهلية⁽¹⁾). وصح عنه تعليل التحرير بأنها رجس وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة إنما حرمها لأنها كانت ظهر القوم وحملوهم فلما قيل له فني الظهر وأكلت الحمر حرمها وعلى قول من قال إنما حرمها لأنها لم تخمس وعلى قول من قال إنما حرمها لأنها كانت حول القرية وكانت تأكل العذرة وكل هذا في "الصحيح" لكن قول رسول الله ﷺ «إنها رجس» مقدم على هذا كله لأنه من ظن الراوي وقوله بخلاف التعليل بكونها رجساً.

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ حِنْزِيرٍ فِإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام : 145]، فإنه لم يكن قد حرم حين نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعية والتحرير كان يتعدد شيئاً فشيئاً فتحريم الحمر بعد ذلك تحرير مبتدأ لما سكت عنه النص لا أنه رافع لما أباحه القرآن ولا مخصوص لعمومه فضلاً عن أن يكون ناسخاً . والله أعلم .

7- حرمة وطء السبايا الحوامل:

ومن أقواله ﷺ في غزوة خيبر: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسوق ماءه زرع غيره»⁽²⁾.

8- حرمة وطء السبايا غير الحوامل قبل استبراء الرحم:

ومن دروس هذه الغزوة قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها»⁽³⁾.

والاستبراء إنما يكون بأن تطهر من حيضة واحدة فقط، ولا تجب عليها العدة وإن كانت متزوجة من كافر سواء مات أو بقي حياً؛ لأن العدة وفاء الزوج الميت وحداد عليه، ولا يحد على الكافر كما

(1) انظر: زاد المعاد (122/4)، (123) البخاري، كتاب المغازي رقم 4215.

(2) انظر: الطبقات (113/2).

(3) انظر: الروض الأنف (41/4).

٩- حُرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب ف قال رسول الله ﷺ: «**كل تمر خيبر هكذا؟**» فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة، فقال: «**لا تفعل بِعِجم بالدرارِم، ثم ابْتَع بالدرارِم جنِيَّبًا**»⁽²⁾. فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل، إذ اشتري صاعاً بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا، وهذا محرم، كمارأيت إذ نهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى الحل السليم بأن يبيع ما لديه من تمر ثم يشتري بما لديه من نقود ما يشتهي من تمر؛ لأن الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الربا⁽³⁾.

١٠- حُرمة بيع الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق

العين:

روى عن عبادة بن الصامت رحمه الله أنه قال: نهانا رسول الله يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال «**ابتَاعُوا تبر الذهب بالورق والعين، وتبر الفضة بالذهب والعين**»⁽⁴⁾. والمراد من الحديث: أن بيع الذهب بالذهب مثلًا بمثل الفضة بالفضة مثلًا بمثل، بلا زيادة ولا نقص، وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترط المماثلة، كما هو معلوم وثبتت في الصحاح⁽⁵⁾.

١١- مشروعية المسافة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعواها، ولهم شطر ما يخرج منها⁽⁶⁾.

(1) انظر: الصراع مع اليهود (134/3).

(2) البخاري كتاب المغازي رقم 4244.

(3) انظر: الصراع مع اليهود (134/3).

(4) انظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف (41/4).

(5) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص 321.

(6) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4248.

وهي أن يعامل مالك الأرض غيره على ما فيها من شجر ليتعهد بالسقاية و التربية على أن الثمار تكون بينهما وقد ذهب مالك و الشافعي وأحمد رضي الله عنهم إلى صحة هذا العقد مستدلين على ذلك بمعاملته أهالي خيبر وانفرد أبو حنيفة رض فلم يجوز ذلك قال : ولا دليل في الحديث لأن خيبر فتحت عنوة فكان أهلها عبيداً لرسول الله صل مما أخذه فهو له وما تركه فهو له وخالفه الصاحبان فاتفقا مع الجمهور على صحته، ثم اختلف العلماء : هل ينبغي أن يقال بصحة هذا العقد على كل أنواع الشجر أم هو خاص بالنخيل و العنب وقوفاً عند مورد الدليل إذا كانت عامة أشجار خيبر نخيلاً وعنباً والذي ذهب إليه كثير من الفقهاء هو التعميم في كل أنواع الشجر ، أما المزارعة فقد منعها قسم كبير من صحة عقد المساقاة ، منهم الشافعية ، وهي أن يعامل مالك الأرض شخصاً آخر على أن يعمل فيها بالزراعة واستنبات جزء مما ستخرجه الأرض ، قال جمهور الشافعية هو غير صحيح ، لما ثبت في صحيح مسلم أن النبي صل نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة ، قالوا : إلا أن يكون عقد المزارعة تبعاً للمساقاة أي بأن يكون بين الشجر بياضاً اتفق الطرفان على زراعته ضمن اتفاقهما على عقد المساقاة .

والراجح لدى التأمل في مجموع الأدلة صحة كل من عقد المساقاة والمزارعة فقد قالوا في بيانه أن النهي كان في أول الأمر لحاجة الناس وكون المهاجرين ليست لهم أرض ، فأمر النبي صل الأنصار بالتكريم بالمواساة ، ويدل له ما أخرجه مسلم من حديث جابر قال : كان لرجال من الأنصار فضول أرض وكانوا يكررونها بالثلث و الرابع فقال النبي صل : «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسكها» ، ثم بعد توسيع حال المسلمين زال الاحتياج فأبيح لهم المزارعة وأن يتصرف المالك في ملكه كما يشاء ، ويدل على ذلك ما وقع من المزارعة و المؤاجرة في عهده صل وعهد الخلفاء من بعده .

وقد تساءل بعض الباحثين: لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر وما الحكمة من ذلك؟ وأجاب الشيخ محمد أبو زهرة على هذا فقال: إن فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنسبة للعلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجري

12- حل أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله صلوات الله عليه وسلم يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر، ورخص في الخيل(2).

13- تحريم المتعة:

عن علي صلوات الله عليه وسلم قال: إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية(3).

وقد رجح ابن القيم أنه لم تحرم المتعة يوم خيبر وإنما كان تحريمهما عام الفتح بقوله في زاد المعاد "هذا هو الصواب وقد ظن طائفة من أهل العلم أنه حرمها يوم خيبر واحتلوا بما في "الصحيحين" من حديث علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وسلم "أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية . وفي "الصحيحين" أيضا : أن علياً صلوات الله عليه وسلم سمع ابن عباس يلين في متعة النساء فقال مهلا يا ابن عباس فإن رسول الله صلوات الله عليه وسلم نهى عنها يوم خيبر وعن لحوم الحمر الإنسية وفي لفظ للبخاري عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية . أبا حمها عام الفتح ثم حرمها قالوا : حرمت ثم أبيحت ثم حرمت . قال الشافعي : لا أعلم شيئاً حُرِّمَ ثُمَّ أُبِيحَ ثُمَّ حُرِّمَ إِلَّا المتعة قالوا : نسخت مرتين وخالفهم في ذلك آخرون وقالوا : لم تحرم إِلَّا عام الفتح وقبل ذلك كانت مباحة . قالوا : وإنما جمع علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وسلم بين الإخبار بتحريمهما وتحريم الحمر الأهلية لأن ابن عباس كان يبيحهما فروى له علي تحريمهما عن النبي صلوات الله عليه وسلم ردًا عليه وكان تحريم الحمر يوم خيبر بلا شك وقد ذكر يوم خيبر ظرفاً لتحريم الحمر وأطلق تحريم المتعة ولم يقيده بزمن كما جاء ذلك في "مسند الإمام أحمد" بإسناد صحيح أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم حرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر وحرم متعة النساء وفي لفظ حرم متعة النساء وحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر هكذا رواه سفيان بن عيينة مفصلاً مميزاً فظن

(1) انظر: خاتم النبيين (1104/2)، الصراع مع اليهود (3/136).

(2) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4219.

(3) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4216.

بعض الرواية أن يوم خيبر زمن للحريمين فقيدهما به ثم جاء بعضهم فاقتصر على أحد المحرمين وهو تحريم الحمر وقيده بالطرف فمنها هنا نشأ الوهم . وقصة خيبر لم يكن فيها الصحابة يتمتعون باليهوديات ولا استأندوا في ذلك رسول الله ﷺ ولا نقله أحد قط في هذه الغزوة ولا كان للمتعة فيها ذكر البتة لا فعلا ولا تحريما بخلاف غزاة الفتح فإن قصة المتعة كانت فيها فعلاً وتحريماً مشهوراً وهذه الطريقة أصح الطريقتين . وفيها طريقة ثالثة وهي أن رسول الله ﷺ لم يحرمها تحريماً عاماً البنت بل حرمتها عند الاستغناء عنها وأباحها عند الحاجة إليها وهذه كانت طريقة ابن عباس حتى كان يفتى بها ويقول هي كالميتة والدم ولحم الخنزير تباح عند الضرورة وخشيته العنت فلم يفهم عنه أكثر الناس ذلك وظنوا أنه أباحها إباحة مطلقة وشبيوا في ذلك بالأشعار فلما رأى ابن عباس ذلك رجع إلى القول بالتحريم .

14- مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أمية بنت أبي الصلت عن امرأة من بنى غفار قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوة من بنى غفار فقلن: يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا - وهو السير إلى خيبر - فنداوي الجرحي ونعين المسلمين بما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت: فخرجن معه، قالت: فوالله لننزل رسول الله ﷺ إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله، قالت: وإذا بها دم مني وكانت أول حيضة حضرتها، قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحببت، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بي ورأى الدم قال: «ما لك؟ لعك نفست؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نفسك ثم خذِي إماء من ماء فاطرحي فيه ملحًا ثم اغسلي ما أصاب الحقيقة من الدم، ثم عودي لمركبك» قالت: فلما فتح الله خيبر رضخ لنا من الفيء، وأخذ هذه القلادة التي ترين في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً⁽¹⁾، وكانت في عنقها حتى ماتت، ثم أوصت أن تدفن معها، قالت: وكانت لا تظهر من حيضها، إلا جعلت في طهرها ملحًا، وأوصت به أن يجعل في غسلها حين ماتت⁽²⁾. وهي صورة حية أمام كل فتاة مسلمة، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع

(1) انظر: البداية والنهاية (205/4).

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (373)، 372/3.

15- جواز القتال في الأشهر الحرم :

من دروس وحكم هذه الغزوة جواز محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم فإن رسول الله ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة فمكث بها أياما ثم سار إلى خيبر في المحرم كذلك قال الزهري عن عروة عن مروان والمسور بن مخرمة وكذلك قال الواقدي : خرج في أول سنة سبع من الهجرة ولكن في الاستدلال بذلك نظر فإن خروجه كان في أواخر المحرم لا في أوله وفتحها إنما كان في صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبي ﷺ أصحابه عند الشجرة بيعة الرضوان على القتال وألا يفروا وكانت في ذي القعدة ولكن لا دليل في ذلك لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قد قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله فحينئذ بايع الصحابة ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء فالجمهور جوزوه وقالوا : تحرير القتال فيه منسوخ وهو مذهب الأئمة الأربع رحمهم الله . وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ وكان عطاء يحلف بالله ما يحل القتال في الشهر الحرام ولا نسخ تحريرمه شيء . وأقوى من هذين الاستدلالين الاستدلال بحصار النبي ﷺ للطائف فإنه خرج إليها في أواخر شوال فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة فبعضها كان في ذي فتح مكة لعشر بقين من رمضان وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة ينصر الصلاة فخرج إلى هوازن وقد بقي من شوال عشرون يوما ففتح الله عليه هوازن وقسم غنائمها ثم ذهب منها إلى الطائف فحاصرها بضعا وعشرين ليلة وهذا يقتضي أن بعضها في ذي القعدة بلا شك .

16- عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض :

ومن الدروس أنه دفع ﷺ إلى اليهود الأرض على أن يعملوها من أموالهم ولم يدفع إليهم البذر ولا كان يحمل إليهم البذر من المدينة قطعا فدل على أن هديه عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض وأنه يجوز أن يكون من العامل وهذا كان هدي خلفائه الراشدين من بعده وكما أنه هو المنقول فهو الموافق لقياس فإن الأرض بمنزلة رأس المال في القراض والبذر يجري مجرى الماء ولهذا يموت في

(1) انظر: فقه السيرة لمثير الغضبان، ص 534.

الأرض ولا يرجع إلى صاحبه ولو كان بمنزلة رأس مال المضاربة لاشترط عوده إلى صاحبه وهذا يفسد المزارعة فعلم أن القياس الصحيح هو الموافق لهدي رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين في ذلك . والله أعلم .

17- إذا خالف أهل الذمة شيئاً مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة :

ومنها : أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئاً مما شرط عليهم لم يبق لهم ذمة وحلت دماؤهم وأموالهم لأن رسول الله ﷺ عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا فإن فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم فلما لم يفوا بالشرط استباح دماءهم وأموالهم وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الشروط التي اشترطها على أهل الذمة فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئاً منها فقد حل لهم ما يحل من أهل الشقاق والعداوة .

18- حب الصحابة للنبي ﷺ :

ومما له صلة بزواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حبي، حراسة أبي أيوب الأنباري لرسول الله ﷺ يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخير، أو ببعض الطريق.. فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخوبني النجار متتوشحاً سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: «**مالك يا أبا أيوب؟**» قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بکفر، فخفتها عليك (1)، فسر رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبئ على غاية الحب، والإيمان، وقال: «**اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني**». .

19- الغلو قبل القسم لا يملك وإن كان دون الحق:

ومنها : أن من أخذ من الغنيمة شيئاً قبل قسمتها لم يملكه وإن كان دون حقه وأنه إنما يملكه بالقسمة ولهذا قال في صاحب الشملة التي غلها : إنها تشتعل عليه ناراً و قال لصاحب الشراك الذي غله شراك من

(1) انظر: السيرة النبوية لأبي شيبة (2/385).

نار أرض العنوة بين قسمتها وتركها وقسم بعضها وترك بعضها .

20- استحباب التفاؤل :

ومنها : جواز التفاؤل بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه كما تفاعل النبي ﷺ برأوية المساحي والرؤوس والمكاثل مع أهل خيبر فإن ذلك فأل في خرابها .

21- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم :

ومن الدروس جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم كما قال النبي ﷺ نحركم ما أقركم الله وقال ل الكبيرهم كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوما ثم يوما وأجلاتهم عمر بعد موته ﷺ وهذا مذهب محمد بن جرير الطبراني وهو قول قوي يسوعغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة . ولا يقال أهل خيبر لم تكن لهم ذمة بل كانوا أهل هذنة فهذا كلام لا حاصل تحته فإنهم كانوا أهل ذمة قد أمنوا بها على دمائهم وأموالهم أمانا مستمرا نعم لم تكن الجزية قد شرعت ونزل فرضها وكانت أهل ذمة بغير جزية فلما نزل فرض الجزية استئنف ضربها على من يعقد له الذمة من أهل الكتاب والمجوس فلم يكن عدم أخذ الجزية منهم لكونهم ليسوا أهل ذمة بل لأنها لم تكن نزل فرضها بعد .

22- جواز جعل عتق الرجل أمه صادقا لها بغير إذنها وبلا شهود ولا ولية غيره :

ومنها : جواز عتق الرجل أمه وجعل عتقها صادقا لها ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولية غيره ولا لفظ إنكاف ولا تزويج كما فعل ﷺ بصفية ولم يقل فقط هذا خاص بي ولا أشار إلى ذلك مع علمه باقتداء أمه به ولم يقل أحد من الصحابة إن هذا لا يصلح لغيره بل رروا القصة ونقلوها إلى الأمة ولم يمنعوهم ولا رسول الله ﷺ من الاقتداء به في ذلك والله سبحانه لما خصه في النكاح بالموهبة قال: ﴿**خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأحزاب: 50] ، فلو كانت هذه خالصة له

من دون أمه لكان هذا التخصيص أولى بالذكر لكثره ذلك من السادات مع إمائهم بخلاف المرأة التي تهب نفسها للرجل لندرته وقلته أو مثله في الحاجة إلى البيان ولا سيما والأصل مشاركة الأمة له واقتداها به فكيف يسكت عن منع الاقتداء به في ذلك الموضع الذي لا يجوز مع قيام مقتضى الجواز هذا شبه المحال ولم تجتمع الأمة على عدم الاقتداء به في ذلك فيجب المصير إلى إجماعهم وبالله التوفيق .

23- تربية المجاهدين:

وحين يكون القتال منطلاقاً من شهوة القتال، بعيداً عن الهدف، فسيكون وبالاً على صاحبه، وما أحوج أبناء الدعوة والحركة أن يفهموا هذه المعاني، وأن يفهموا أن حمل السلاح وإلقاءه، ليس اندفاعاً ذاتياً، ليس حمله تهوراً وشجاعة فائقة، وليس القوّه جبناً أو ضعفاً أو تخاذلاً. إن حمل السلاح وإلقاءه مهمة شرعية تنفذ بقرار الأمير بالقناعة الشخصية: (وكان رسول الله - ﷺ - حين انتهى إلى حصن ناعم وصف أصحابه نهى عن القتال حتى يأذن لهم، فعمد رجل من أشجع فحمل على يهودي، وحمل عليه مرحباً فقتلته)، فقال الناس: يا رسول الله استشهد فلان! فقال رسول الله - ﷺ - : «أبعد ما نهيت عن القتال؟» فقالوا: نعم. فأمر رسول الله - ﷺ - منادياً ينادي: «لا تحل الجنة ل العاص». ثم أذن الرسول - ﷺ - في القتال وحث عليه).

فهذا قاتل في ظاهر الأمر وقتل اليهودي، ولكنه قاتل بعد النهي عن القتال فحرمت الجنة عليه وهو مسلم عريق في الإسلام.

إن التزام أمر القائد المسلم دين يلقى الله - تعالى - الجندي المسلم عليه: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى الأمير فقد عصاني».

24- التزام الأمر في كل شيء وليس في القتال فقط أو

الكف عنه:

روى الحارث بن أبي أسامة عن أبي أمامة والبيهقي عن ثوبان - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال في غزوة خيبر: «من كان ضعفاً [أي: كان جمله ضعيفاً] أو مصعباً [أي: من كان جمله صغيراً لم يدرِّب بعد] فليرجع) وأمر بلاً فنادى بذلك، فرجع الناس وفي القوم رجل على صعب فمر الناس وفي القوم رجل على صعب فمر من الليل

على سواد فنفر به فصرعه، فلما جاؤوا به رسول الله - ﷺ - قال: «**ما شأن صاحبكم؟**»، فأخبروه فقال: «**يا بلال ما كنت أذنت في الناس من كان مضعفاً أو مصعاً فليرجع**»، قال: نعم، فأبى أن يصلى عليه. زاد البيهقي: وأمر بلالاً فنادى في الناس: «**الجنة لا تحل ل العاص**» ثلاثة فالامر يطاع في الكف عن القتال أو في استعمال آلة. أو في الإذن فيه، أو في مواجهة العدو، وأي مخالفة شخصية هي معصية قد تحول بين الجنة وبين المجاهد.

واستجاب المسلمين لنداء رسول الله - ﷺ - رغم ما بهم من الجوع والفاقة، فهم لا يجدون ما يأكلونه، وعليهم أن يمضوا لحرب ضرورة، لا يعلم إلا الله مداها، وهم ماضون إلى موعد الله في أن يعطيهم غنائم خيبر، لكن متى؟ وكيف؟ فعلمها عند الله.

* وها هم يحاصرون، ويشتند جوعهم، ويشتند تعبهم وإرهافهم حتى ليضطروا إلى إعلام الرسول - ﷺ -، وكان الإعلام من أسلم، وأسلم على الجيش الإسلامي، وما يملك لهم رسول الله - ﷺ - إلا الدعاء: «**والله ما بيدي ما أقويه به، قد علمت حالهم وأنهم ليست لهم قوة**» ثم قال: «**اللهم افتح عليهم أعظم حصن فيها، أكثرها طعاماً، وأكثرها ودكاً**».

25- جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا كان

يتوصل بالكذب إلى حقه ما لم يتضمن ضرر ذلك الغير :

ومنها: جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه كما كذب الحاج بن علاط على المسلمين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن فمفيدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب ولا سيما تكمل الفرح والسرور وزيادة الإيمان الذي حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجحة ونظير هذا الإمام والحاكم يوهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعلام الحق كما أوهم سليمان بن داود إحدى المرأتين بشق الولد نصفين حتى توصل بذلك إلى معرفة عين الأم .

26- جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر

مكان القتال :

وذلك بعد استئذان أصحاب الحق فيها ، فقد أشرك النبي ﷺ جعفر ابن أبي طالب ومن معه في الغنائم ، بإذن من الصحابة حينما عادوا من الحبشة واليمن .

27- مشروعية تقبيل القادر والتزامه :

وهو مما لا نعلم فيه خلافاً معتقداً به إذا كان قداماً من سفر أو طال العهد به ، واستدل العلماء في ذلك بتقبيل رسول الله ﷺ جعفر ابن أبي طالب ﷺ بين عينيه والتزامه إياه عند قدمه من الحبشة ، والحديث رواه أبو داود بسند صحيح ، وروى الترمذى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد ابن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيته فأتاه فقرع الباب ، فقام إليه النبي ﷺ يجر ثوبه ، فاعتنقه وقبله .
ويشكل عليه في الظاهر ما رواه الترمذى أيضاً عن أنس بن مالك قال : قال رجل يا رسول الله ، الرجل منا يلقى أخيه أو صديقه أينحنى له ؟ قال : لا قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا قال : فياخذ بيده ويسافحه ؟ قال : **نعم** .

وجواب الإشكال أن سؤال الرجل في هذا الحديث عن اللقاءات العادية المتكررة بين الرجل وصاحبه ، والتقبيل والالتزام أمر غير مرغوب فيه في مثل هذه الحال ، أما ما فعله رسول الله ﷺ من ذلك بالنسبة إلى جعفر وزيد فإنما كان ذلك - كما قد علمت - أثر قدم من سفر فالحالتان مختلفتان .

28- معجزات النبي ﷺ في خيبر:

إن في هذه الغزوة حادثتين ، كل منها ثابت بالحديث الصحيح تعداد من الخوارق العظيمة التي أيدَ الله بها محمد ﷺ :
أولاًهما: أنه ﷺ تغل في عين على ابن أبي طالب ﷺ وقد كان يشتكي منها فبرأت في الوقت نفسه حتى كان لم يكن به وجع .
الثانية:- ما أوحى الله إليه من أمر الشاة المسمومة عندما أراد الأكل منها ، ولأمر ما سبق قضاء الله تعالى فابتلع بشر ابن البراء لقمه قبل أن ينطق رسول الله ﷺ بأنها مسمومة فكان قصاؤه في ذلك ، ولعل في ذلك مزيداً من بيان ما اختص الله تعالى به نبيه ﷺ من الحفظ والعصمة من أيدي الناس و كيدهم تنفيذاً لوعده جل جلاله : **﴿وَاللهُ**

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿المائدة: 67﴾ .

ولقد ذكرنا أن الرواة اختلفوا : هل أسلمت المرأة اليهودية أم لا ؟ ، و الذي يغلب - على ما جزم به الزهري - أنها أسلمت ، ولذلك لم يقتلها النبي ﷺ على ما ذكره مسلم .

لا يقال إن القصاص كان يقتضى قتلها ، لأن القاعدة المتفق عليها : أن الإسلام يجب ما قبله ، فالقتل الذي يستوجب القصاص هو ما كان واقعاً بعد إسلام القاتل أما ما قبله فالامر في ذلك راجع إلى الحرابة ومعلوم أن الحرابة تنتهي بالدخول في الإسلام .

29- فضل الدعوة إلى الله تعالى :

وهذا نأخذه من وصيته ﷺ لعليه ﷺ بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم ، وقال له: «فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ حَمْرَ النَّعْمٍ» وعندما سأله علي: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قَاتَلُوكُمْ هُنَّ حَتَّى يَشَهُدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوكُمْ ذَلِكَ مَنْعِمَةٌ مِنْكُمْ دَمَاءُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحْسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»⁽¹⁾ .

30- حادي القوم:

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً، فقد قال سلمة بن الأكوع رض: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خير فسرنا ليلاً⁽²⁾، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ويقول:

ولا تصدقنا ولا صلينا	اللهم لولا الله ما اهتدينا
وثبت الأقدام إن لاقينا	فاغفر فداء لك ⁽³⁾ ما اتقينا
إنما إذا صبح بنا أتينا	واللقيين سكينة علينا
وبالصياح عولوا علينا	

قال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

(1) مسلم (1872/2) رقم 2405

قال: «يرحمة الله».

قال رجل -وهو عمر بن الخطاب⁽¹⁾- من القوم: وجبت يا نبـي الله،
لولا متعـتنا به⁽²⁾.

31- الشورى في غزوة خيبر:

تقدـم رسول الله ﷺ حتى اختـار لمعـسـكـره منـزلـاً، فـأـتـاهـ حـبـابـ بنـ المـنـذـرـ، فـقـالـ: يـا رـسـولـ اللهـ، أـرـأـيـتـ هـذـاـ المـنـزـلـ أـنـزلـكـهـ اللهـ، أـمـ هـوـ الرـأـيـ فيـ الـحـرـبـ؟ قـالـ: «بـلـ هـوـ الرـأـيـ» فـقـالـ: يـا رـسـولـ اللهـ، إـنـ هـذـاـ المـنـزـلـ قـرـيبـ جـدـاًـ مـنـ حـصـنـ ظـاهـةـ، وـجـمـيعـ مـقـاتـلـيـ خـيـبرـ فـيـهـاـ، وـهـمـ يـدـرـونـ أـحـوـالـنـاـ، وـنـحـنـ لـاـ نـدـرـيـ أـحـوـالـهـمـ، وـسـهـامـهـمـ تـصـلـ إـلـيـنـاـ، وـسـهـامـنـاـ لـاـ تـصـلـ إـلـيـهـمـ، وـلـاـ نـأـمـنـ مـنـ بـيـاتـهـمـ، وـأـيـضـاـ هـذـاـ بـيـنـ النـخـلـاتـ، وـمـكـانـ غـائـرـ، وـأـرـضـ وـخـيـمةـ، لـوـ أـمـرـتـ بـمـكـانـ خـالـ عنـ هـذـهـ الـمـفـاسـدـ تـتـخـذـ مـعـسـكـرـاـ، قـالـ ﷺ: «الـرـأـيـ مـاـ أـشـرـتـ»، ثـمـ تـحـولـ إـلـىـ مـكـانـ آـخـرـ.

32- ومن الأحكام في هذه الغزوة :

* خـرـصـ الثـمـارـ عـلـىـ رـؤـوسـ النـخـيلـ وـقـسـمـتـهـ كـذـلـكـ ، وـأـنـ الـقـسـمـةـ لـيـسـ بـيـعـاـ ، وـالـاـكـتـفـاءـ بـخـارـصـ وـاحـدـ وـقـاسـمـ وـاحـدـ.

* جـواـزـ عـقـدـ الـمـهـادـنـةـ عـقـداـ جـائـزاـ لـلـإـلـمـ فـسـخـهـ مـتـىـ شـاءـ.

* جـواـزـ تـعـلـيقـ عـقـدـ الـصـلـحـ وـالـأـمـانـ بـالـشـرـطـ ، كـمـ عـقـدـ لـهـمـ رـسـولـ اللهـ بـشـرـطـ أـلـاـ يـغـيـبـواـ وـلـاـ يـكـتـمـواـ ، كـمـ فـيـ قـصـةـ مـسـكـ حـيـيـ.

* جـواـزـ كـذـبـ الـإـنـسـانـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـعـلـىـ غـيرـهـ ، إـذـاـ لـمـ يـتـضـمـنـ ضـرـرـ ذـلـكـ الـغـيـرـ ، إـذـاـ كـانـ يـتـوـصـلـ بـالـكـذـبـ إـلـىـ حـقـهـ ، كـمـ كـذـبـ الـحـاجـ بـنـ عـلـاطـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ وـالـمـشـرـكـينـ حـتـىـ أـخـذـ مـالـهـ مـنـ مـكـةـ مـنـ غـيرـ مـضـرـةـ لـحـقـتـ بـالـمـسـلـمـينـ مـنـ ذـلـكـ بـالـكـذـبـ.

* إـنـ مـنـ قـتـلـ غـيرـهـ بـسـمـ يـقـتـلـ مـثـلـهـ قـصـاصـاـ ، كـمـ قـتـلـتـ الـيـهـودـيـةـ بـبـشـرـ بـنـ الـبـراءـ.

* جـواـزـ الـأـكـلـ مـنـ ذـبـائحـ أـهـلـ الـكـتـابـ وـحلـ طـعـامـهـمـ وـقـبـولـ هـدـيـتـهـمـ ، كـمـ فـيـ حـادـثـةـ الشـاةـ الـمـسـمـوـةـ.

* الـإـلـمـ مـخـيـرـ فـيـ الـأـرـضـ الـتـيـ تـفـتـحـ عـنـوـةـ إـنـ شـاءـ قـسـمـهـاـ وـإـنـ شـاءـ وـقـفـهـاـ وـإـنـ شـاءـ قـسـمـ الـبـعـضـ وـوـقـفـ الـبـعـضـ الـآـخـرـ ، وـقـدـ فـعـلـ رـسـولـ اللهـ

(1) انظر: فتح الباري (466/7). (8) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4196

الأنواع الثلاثة ، فقسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة ، وقسم شطراً من خيبر وترك شطرها الآخر.

33- اللجوء إلى الله وتعظيم شعائر الإسلام:

وهذا نجده واضحاً عندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قدوا. ثم قال: «**اللهم رب السموات وما أطللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرلن، فإننا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها وخير ما فيها، ونوعذ بك من شرها وشر أهلها، وشر ما فيها»، اقدموا باسم الله، وكان يقولها لكل قرية دخلها⁽¹⁾.**

وكان النبي ﷺ إذا أتي قوماً بليل لم يقربهم حتى يصبح، فإن سمع إذاً أمسك وإن لم يسمع أغار وفي هذا تعظيم للصلاة، فبات رسول الله ولم يسمع إذاً، فلما أصبح صلي الفجر بغلس، وركب المسلمين، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكالاتهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا : محمد، والله محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى مدینتهم، فقال النبي ﷺ : «**الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنما إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**» .

فالرسول ﷺ مع ربه بيقينه وتوكله عليه، فيسأله عن نصره وتأييده جل جلاله.

34- موقف حزم وخبرة من عباد بن بشر:

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر ﷺ في سرية استطلاعية يتلقّط أخبار العدو، ويستطيع إن كان هناك كمائين، فلقي في الطريق عيناً لليهود من أشجع فقال: من أنت؟ قال: باع ابتنى أبعة ضلت لي، أنا على إثرها، قال عباد: ألم علم بخيبر؟ قال: عهدى بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا معدين مؤيدين بالكراع والسلاح يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير لو حصرها لسنين لكفاهم، وماء وأنى يشربون في

(1) انظر: المستدرك (2/100) قال الحاكم: حديث صحيح الإسناد وأقره النهي.

حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك. فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيئـ ربـ مـنـ إـلـيـهـ وـدـ، وـقـالـ لـيـ
كانـةـ: اذهبـ مـعـتـرـضـاـ لـلـطـرـيقـ فـإـنـهـ لـاـ يـسـتـنـكـرـوـنـ مـكـانـكـ وـاحـزـرـهـ لـنـاـ،
وـادـنـ مـنـهـ كـالـسـائـلـ لـهـ مـاـ تـقـوـىـ بـهـ، ثـمـ أـلـقـ إـلـيـهـ كـثـرـةـ عـدـدـنـاـ وـمـادـتـنـاـ،
فـإـنـهـ لـنـ يـدـعـواـ سـؤـلـكـ، وـعـجـلـ الرـجـعـةـ إـلـيـنـاـ بـخـرـهـ.

وهكذا استطاع عباد بحكمته وحزمته استخراج المعلومات الصحيحة من ذلك الجاسوس.

35- شجاعة على بن أبي طالب (رضي الله عنه):

رأى اليهود الجيش فروا إلى مدينتهم وتحصنوا في حصونهم،
وكان من الطبيعي أن يستعدوا للقتال .
وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم

وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحباً البطل اليهودي الذي كان يعد بالآلاف. خرج علي بن أبي طالب رض بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحباً، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة، قال سلمة بن الأكوع : فلما أتينا خير خرج ملكهم مرحباً يختر بسيفه يقول : قد علِمْتُ خير أنِّي مَرْحَبٌ ** شَاكِي السلاح بطل مَجَرَبٍ
إذا هرَوبُ أَقْبَلْتُ تَهَبْ

فبرز له عامر فقال : قد علمت خبير أني عامر ** شاكي السلاح بطل مُغامر فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحبا في ترس عمي عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرًا، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فيرجع ثُباب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبي ﷺ : « إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قَلَّ عَرَبٍ مَشَى بها مِثْلَه » .

ويبدو أن مرحباً دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز
بقوله :

قد علمت خيبر أني مرحبا . . . إلخ، فبرز له على بن أبي طالب رض . قال سلمة ابن الأكوع : فقال على :

أنا الذي سمعتني أمي حيدرَه ** كلّيْث غابات كريه المنظرَه
أو فيهم بالصاع كيل السندرَه

فضرب رأس مرحباً فقتله، ثم كان الفتح على يديه .

ولما دنا علي رض من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن، وقال: من أنت؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أنزل علي موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحباً، وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله، يقتل ابني، قال: (بل ابنك يقتله)، فقتله الزبير.

ودار القتال المريّر حول حصن ناعم، قُتل فيه عدّة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمين فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين، فسلّلوا من هذا الحصن إلى حصن الصّعب، واقتصر المسلمون على حصن ناعم.

36- نتائج خبر:

وهكذا كانت حياة الرسول ﷺ تعليماً وتربيّة للأمة في السلم وال الحرب على معاني العقيدة وحقيقة العبادة، وهذا غيض من فيض وجزء من كل.

هذا وقد أحدث فتح خير وفدى ووادي القرى وتيماء دويًا هائلاً في الجزيرة العربية بين مختلف القبائل، وقد أصيبت قريش بالغيظ والكآبة إذ لم تكن تتوقع ذلك، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خير، وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤنthem ومتاعهم⁽¹⁾، أما القبائل العربية الأخرى المناصرة لقريش فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خير وخذلها انتصار المسلمين الساحق؛ ولذلك فإنها جنحت إلى مسالمة المسلمين وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم، مما فتح الباب واسعًا لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية، بعد أن تعززت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقق له من خير

⁽¹⁾ انظر: نصرة النعيم، (353/1).

وتعزيز لوضعهم الاقتصادي (١).

واستمرت حركة السرايا بعد خيبر، وكانت كثيرة، وأمر عليها الله
كبار الصحابة، وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال (٢).
إلى هنا واكتفي بما جمعت من دروس وعبر هذه الغزوة المباركة،
وأتوجه إلى الله عز وجل بأن يقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً لوجهه
الكريم.

هذا وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم.



غزوة بنى المصطلق دروس وعبر

الحمد لله الذي يسمع ويرى، الحمد لله الذي يعلم السر وأخفى،
الحمد لله الذي يسمع دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في
الليلة الظلماء وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن

(١) المصدر نفسه، (٣٥٣/١).

(٢) انظر: السيرة النبوية للندوة، ص 221

محمدأً عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وзд وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وعلى كل من اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

وبعد

فلا تزال السيرة النبوية معيناً لا ينضب لكل باحث عن الحق ساع إلى معرفة هدي خير الورى - ﷺ - ، ومهما كثر على هذا المعين الواردون ونهل منه الناهلون فسوف يظل كما هو في صفائه وقوته وغزاره مادته .

ولما كان الجهاد في سبيل الله من أهم سمات حياته المباركة - ﷺ - ، فقد اعنى أهل العلم بدراسة غزواته وبعوته، ليس فقط لمعرفة هديه في حربه وسلمه، بل أيضاً لاستنباط كثير من الأحكام الفقهية التي لا تخلو من الإشارة إليها غزوة، ومحاولة استخلاص بعض الحكم العظيمة من تلك الغزوات، واستجلاء بعض أساليبه - ﷺ - في إعداد أصحابه وتربيتهم، وغير ذلك مما قد يفتح الله به على من يشاء من عباده.

ومن هذا الباب لا زلنا وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله :

(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر)، ومع (غزوةبني المصطلق دروس وعبر).

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل، و يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، و يجعله في ميزان حسناتي يوم القيمة إن له ولني ذلك والقادر عليه .



غزوة بنو المصطلق

غزوة بنو المصطلق:

ومن هم بنو المصطلق: هم بطن⁽¹⁾ من خزاعة، والمصطلق⁽²⁾ جدهم، وهو جذيمة بن سعد ابن عمرو بن ربيعة ابن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء⁽³⁾.

غزوة بنو المصطلق:

التي اختلف العلماء في تاريخها ، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوال، فمن قائل إنها في شعبان سنة ست، قال بذلك ابن إسحاق وخليفة بن خياط، وابن جرير الطبرى. ومن قال بأنها في شعبان من العام الرابع للهجرة، مثل المسعودي.

وذهب طائفة إلى أنها كانت في شعبان من السنة الخامسة، منهم موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذهبي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وابن كثير -رحمهم الله- ومن المحدثين الخضري بك، والغزالى، والبوطي.

(1) فرع.

(2) المصطلق: بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وكسر اللام.

(3) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول (311/1).

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بنى قريطة، وغزوة بنى قريطة كانت في ذي القعدة من السنة الخامسة على القول الراجح، فيتبعين أن تكون غزوة بنى المصطلق قبلها⁽¹⁾.

✿ غزوة بنى المصطلق :

التي من أهم أسبابها:

أ- تأييد هذه القبيلة لقريش واشتراكها معها في معركة أحد ضد المسلمين، ضمن كتلة الأحابيش التي اشتراك في المعركة تأييداً لقريش.

ب- سيطرة هذه القبيلة على الخط الرئيسي المؤدي إلى مكة، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكة⁽²⁾.

ج- أن الرسول ﷺ بلغه أن بنى المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسع من ناحية قديد إلى الساحل فهزّهم شر هزيمة⁽³⁾.

✿ غزوة بنى المصطلق :

التي فيها زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

✿ غزوة بنى المصطلق :

التي من أسماءها أيضاً المريسع فعندما بلغ الرسول ﷺ أن بنى المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسع من ناحية قديد إلى الساحل فهزّهم شر هزيمة⁽⁴⁾.

✿ غزوة بنى المصطلق :

تعتبر هذه الغزوة من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت

(1) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بنى المصطلق، ص 97.

(2) انظر: صحيح السيرة النبوية للعلي، ص 332.

(3) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (315/1).

(4) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (315/1).

غزوة بنى المصطلق :

التي كان شعار المسلمين فيها: يَا مَنْصُورٌ ، أَمْتَ أَمْتَ.

غزوة بنى المصطلق :

التي اعتق فيها المسلمين كل ما كان في أيديهم من بنى المصطلق، كرامة لمصاورة رسول الله ﷺ وزواجه من جويرية بنت الحارث.

قالت عائشة رضي الله عنها: أعتق مائة أهل بيته بتزوج رسول الله ﷺ إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها⁽¹⁾.

غزوة بنى المصطلق :

في مرجع الناس منها قال أهل الإفك ما قالوا، وأنزل الله تعالى في ذلك براءة عائشة أم المؤمنين رضوان الله عليها ما أنزل.

دروس وعبر من غزوة بنى المصطلق

1- المنافقين ومحاوله إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بنى المصطلق عدد كبير من المنافقين مع المسلمين، وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للMuslimين خرجوا طمعاً في الغزيمة⁽²⁾. وعند ماء المرسيع كشف المنافقون عن الحقد الذي يضمرونه للإسلام والمسلمين، فكلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازدادوا غيظاً على غيظهم، وقلوبهم تتطلع إلى اليوم الذي يهزم فيه المسلمين لتشفي من الغل، فلما انتصر المسلمون في المرسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنباري ما حدث عند ماء المرسيع، وأدى إلى كلام المنافقين لإثارة

(1) أخرجه أحمد في المسند 5 / 179 والبيهقي في السنن 9 / 75 والحاكم في المستدرك 4 / 26 وابن حبان (1547) وابن سعد في الطبقات 8 / 83 وذكره المنقى الهندي في كنز العمال (39708).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (318/1). (7) انظر: السيرة الصحيحة للعمري (408/2).

العصبية وتمزيق وحدة المسلمين، قال: (كنا في غزاة فكسع⁽¹⁾) رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟».

قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال: «دعوها فإنها منتهٌ» فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»⁽²⁾.

وفي رواية قال عمر بن الخطاب ﷺ: مُرْ به عباد بن بشر فليقتلته، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتاح الناس⁽³⁾.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياً.

وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، ونزلت السورة التي ذكر فيها المنافقون في ابن أبي ومن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسول الله بأذن زيد بن أرقم، ثم قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه⁽⁴⁾.

2- عبد الله بن أبي والإساءة إلى الرسول :

لما أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرسول ﷺ في نفسه وأهل بيته، فشنوا حرباً نفسية مريرة من خلال حادثة الإفك التي اختلفوا، ولترك الصاحبي زيد بن أرقم وهو شاهد عيان ومشارك في الحادث الأول

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (409/2).

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي هشام (319/3).

(4) انظر: السيرة النبوية لأبي هشام (320/3).

يحكى خبر ذلك، قال: (كنت في غزاة⁽¹⁾) فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تتفقوا على من عند رسول الله حتى ينفروا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنا الأعز منها الأدل، فذكرت ذلك لعمي⁽²⁾، فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، حلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبوني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: **﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ أَنَّكُمْ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكُمْ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾** [المنافقين: 1] بعث إلى رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إن الله قد صدّقك يا زيد»⁽³⁾.

وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوه في حديثه. فلما سار رسول الله ﷺ، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبي الله لقد رحت في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو بلغك ما قال أصحابكم؟». قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبي؟». قال: وما قال؟ قال: «زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأدل». قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارافق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجه، فإنه يرى أنك استتببت ملکه.

إن هذه الحادثة من السيرة النبوية العطرة مليئة بالدروس وال عبر، فمن أهم تلك الدروس:

3- أ) الحفاظ على السمعة السياسية ووحدة الصف

(1) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.

(2) يزيد بعمره سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمها حقيقة.

(3) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (408/2).

الداخلية:

وهذا الدرس يظهر في قوله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟⁽¹⁾

إنها المحافظة التامة على السمعة السياسية، والفرق كبير جدًا بين أن يتحدث الناس عن حب أصحاب محمدٍ محمدًا، ويؤكدون على ذلك بلسان قائدتهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمدًا⁽²⁾، وبين أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولا شك أن وراء ذلك محاولات ضخمة سترتم في محاولة الدخول إلى الصف الداخلي في المدينة من العدو، بينما هم يائسون الآن من قدرتهم على شيء أمام ذلك الحب وتلك التضحيات⁽³⁾.

ولم يقف النبي ﷺ موقفاً سلبياً حيال تلك المؤامرة التي تزعّمها ابن سلول لتصديع الصف المسلم، وإحياء نعرات الجاهلية في وسطه، بل اتخذ إزاءها الخطوة الإيجابية التالية:

أ- سار رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً⁽⁴⁾.

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة قضى على الفتنة قضاء مبرراً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابن أبي.

ب- لم يواجه النبي ﷺ ابن سلول ومؤامراته المدبرة بالقوة واستعمال السلاح حرصاً على وحدة الصف المسلم، وذلك لأن لابن أبي أتباعاً وشيعة مسلمين مغوررين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب له رجال متحمسون له، وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أي مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة في معالجة المواقف العصبية في حزم وقوة أعصاب

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (409/2).

(2) انظر: التربية القيادية (463/3).

(3) المصدر نفسه (463/3).

(4) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (255/2).

وبعد نظر⁽¹⁾. وهذه البراعة في الحكمة والسياسة وتدبير الأمور متفرعة عن كونه ﷺنبياً ورسولاً إلى الناس⁽²⁾ لكي تقتدي به الأمة في تصرفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرسول ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي ابن سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتلته على النبي ﷺ، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياساته الحكيمية، فقال: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتني يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم لقتلته» فقال عمر: قد -والله- علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري⁽³⁾.

4- (ب) (بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبي ابن سلول ولدٌ مؤمن مخلص يسمى عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول، فلما علم بالأحداث ونزلت السورة، أتى رسول الله ﷺ فقال له: (يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل أبي ابن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فهو الله لقد علمت الخررج ما كان بها من رجل أبُر بوالده مني، وإنني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتلته، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «**بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا**»⁽⁴⁾. ولما وصل المسلمين مشارف المدينة تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبي، وقال له: قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له⁽⁵⁾.

5- (ج) مثل أعلى في الإيمان:

(1) انظر: صور وعبر من المهاجر النبوى في المدينة، ص202.

(2) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي، ص409.

(3) انظر: السيرة النبوية لابن شهبة (257/2).

(4) انظر: المسيرة النبوية لابن هشام (321/3).

(5) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، ص209 للقطاطي.

جسده عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله ولرسوله، وتقديم محبتهما ومرضيهما على محبة ومراضي الأبوة⁽¹⁾. لقد ضرب الابن أروع مثل في الإيمان والتضحية بعاطفة الأبوة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير والخلق العظيم بمثل رفيع في العفو والرحمة وحسن الصحبة «**بِل تُنْرِقَ بِهِ، وَنَحْنُ صَحْبُهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**» يا لروعه العفو، ويا لجلال العظمة النبوية⁽²⁾، فقد تلطّف النبي ﷺ بهذا الصحابي الجليل، وهذا من روعه، وأذهب هو اجسه⁽³⁾.

6- (د) محاربة العصبية الجاهلية:

إن العصبية المقونة والتي نصفها بالجاهلية غير مقصورة على العصبية القبلية أي الاشتراك في النسب الواحد، نسب القبيلة التي ينتمون إليها، وإنما الاشتراك في معنى أو وصف معين يجعل المشتركين فيه يتعاونون ويتناصرون فيما بينهم بالحق وبالباطل، ويكون لاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى أو الوصف المشترك، فعندما كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، قال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «**مَا بِالْمُهَاجِرِيْنَ؟**» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «**دَعْوَاهُمْ فَإِنَّهَا مُنْتَهٰى**»⁽⁴⁾، ووجه الدلاله بهذا الخبر، أن النبي ﷺ أنكر هذه المناداة لما تشعره من معنى العصبية، مع أن المنادي استعمل اسمًا استعمله القرآن وهو (المهاجرين) (والأنصار). فالمهاجري استنصر بالمهاجرين مع أنه هو الذي كسع، فكانه بذلك ينداهه هذا يريد عونهم، لاشتراكه وإياهم بمعنى واحد وهو (المهاجرة)، وكذلك الأنصاري استنصر بالأنصار؛ لأنه منهم ويشارك وإياهم بوصف واحد ومعنى واحد وهو مدلول الكلمة (الأنصار)، وكان حق الاثنين -إذا كان لا بد من الاستنصر بالغير- أن يكون الاستنصر بال المسلمين جميعاً، وعلى هذا فالمطلوب من الدعاة التأكيد على نبذ العصبية بجميع أنواعها سواء كانت عصبية تقوم على أساس الاشتراك

(1) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (163/3).

(2) انظر: السيرة النبوية لابن شهبة (257/2).

(3) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (163/3).

(4) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (209/2).

بالقبيلة الواحدة، أو على أي أساس آخر، من بلد، أو مذهب، أو حزب، أو عرق، أو لون، أو دم، أو جنس، وأن يكون الولاء والتناصر على أساس الاشتراك بالأخوة الإسلامية التي أقامها وأثبتتها واعتبرها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10]. وأن يكون التناصر فيما بينهم تناصراً على الحق لا على الباطل بمعنى أن ينصروا الحق، وأن يكونوا معه، لا مع المعتمدي⁽¹⁾.

لقد أوضح الرسول ﷺ أن العصبيات هي من دعاءى الجاهلية، وقال: «لينصر الرجل أخيه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»⁽²⁾ فجعل التناصر في طلب الحق والإنصاف وأبطل المفهوم الجاهلي: انصر أخيك ظالماً أو مظلوماً⁽³⁾.

إن مهمة الدعاة وطلاب العلم والعلماء والفقهاء في التخلص من العصبية، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ مهمة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، ولا أهميتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا لقلعها من النفوس⁽⁴⁾.

7- توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب

غزوة بنى المصطاف:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بنى المصطاف، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام الترمذى (فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون)⁽⁵⁾. فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدنيا ومتاعها، وحثت على الإنفاق، ويمكن

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (301/2).

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (209/2).

(3)المصدر نفسه (209/2).

(4) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (302/2).

(5) انظر: سنن الترمذى، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المنافقون» (415/5).

لدارس هذه السورة أن يلاحظ عدة محاور مهمة منها:

1- تحدثت السورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت ذنوبهم في أقوالهم ووصفت حالهم⁽¹⁾؛ فابتدأت هذه السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها الكذب في ادعاء الإيمان، وخلف الإيمان الكاذبة، وجبنهم وضعفهم وتأمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وصدتهم الناس عن دين الله⁽²⁾، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهُدُ أَنَّكُمْ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهُدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ □ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَاحًا فَصَدُّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ سَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ □ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ □ وَإِذَا رَأَيْتُمْ ثُعْجُوكَ أَجْسَامَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَانُوهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلُهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 1-4].

2- ثم بينت الآيات عنادهم وتصميهم على الباطل، وعصيائهم لمن يدعوهם إلى الحق وبينت مقالاتهم الشنيعة بالتفصيل خاصة ما قالوه في غزوة بنى المصطلق من أنهم سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة، وأن العزة لهم، إلى غير ذلك من الأقوال العظيمة الفظيعة⁽³⁾.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْفًا رُؤُوسَهُمْ وَرَأْيَتُمْ يَصُدُّوْنَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلَهُ خَرَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرَجُنَّ إِلَيْهِمُ الْأَعْزَمُ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلَهُ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 5-8].

وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالإشراف على ذلك.

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوat الرسول (327/1).

(2) انظر: التفسير المنير، د. وهبة الرحيلي، (213/28).

(3) انظر: حديث القرآن الكريم (327/1).

حادثة الإفك والدروس وال عبر منها:

حات المناقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، فقد ألمت بالبيت النبوي هذه النازلة الشديدة والمحنة العظيمة التي كان القصد منها النيل من النبي ﷺ ومن أهل بيته الأطهار. هذا وقد أجمع أهل المغازي والسير⁽¹⁾ على أن حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بنى المصطلق، وتابعهم في ذلك المفسرون⁽²⁾، والمحدثون⁽³⁾.

وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحهما، وهذا سياق القصة من صحيح البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فلما تهن خرج سهتمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها⁽⁴⁾ فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي⁽⁵⁾ وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه تلك، وقل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شاني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جَرْع ظفار⁽⁶⁾ قد انقطع، فالمتسست عقدي وحبسي ابتغاوه، وأقبل الرهط⁽⁷⁾ الذين كانوا يرحلون لي، فاحتلوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبته، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن اللحم، إنما نأكل العلقة⁽⁸⁾ من الطعام، فلم يستترن القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل، وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش

(1) كالواقدي، والذهبي، والطبراني، وابن سعد، وابن حزم

(2) كابن كثير، والرازي، والطبراني وغيرهم.

(3) كابن حجر، والنبوبي.

(4) هي غزوة بنى المصطلق.

(5) الهودج: محمل له قبة تستر بالثياب يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.

(6) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن.

(7) الرهط: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة.

(8) العلقة: البلعنة من الطعام.

فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأقمت منزلتي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلىَّ، وبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي⁽¹⁾ ثم الذكوانى من وراء الجيش فأدلج⁽²⁾ فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتأنى فعرفني حين رأني وكان يرانى قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه⁽³⁾ حين عرفني، فخمرت⁽⁴⁾ وجهي بجلبى وجهى والله ما كلمنى كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرى⁽⁵⁾ في نحر الظهيرة⁽⁶⁾، فهلك من هلك، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلوى.

كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنبيه ﷺ وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة موافق المؤمنين من هذه الفريدة، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي موافق يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفريدة، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها⁽⁷⁾.

8- (أ) تبرئة السيدة عائشة لـ: من الإفك بقرآن يتلى إلى آخر الزمان، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ} [النور: 11]

9- (ب) الخير يبرغ في الشر:

(1) صحابي جليل كان صاحب ساقية رسول الله ﷺ في غزوه.

(2) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل.

(3) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(4) فخمرت: أي غطيت.

(5) موغرى: الوعرة: شدة الحر.

(6) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.

(7) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 440

حكمة الله تعالى اقتضت أن يبزع الخير من ثنايا الشر، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم، حيث كتب لهم الأجر العظيم على صبرهم وقوتهم إيمانهم، قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: 11].

10- (ج) الحفاظ على سمعة المؤمنين:

الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظن فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: 12].

11- (د) تكذيب القائلين بالإفك:

قال تعالى: ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: 13].

12- (هـ) بيان فضل الله على المؤمنين ورأفته بهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور: 14].

13- (و) التثبت من الأقوال قبل نشرها:

يجب التثبت من الأقوال قبل نشرها، والتأكد من صحتها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمْ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: 16].

14- (ز) النهي عن اقتراف مثل هذا الذنب العظيم أو العودة إليه:

قال تعالى: ﴿ يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ □ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: 17، 18].

15- (ح) النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجْزِيُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ [النور: 19].

16- (ط) بيان فضل الله سبحانه على عباده المؤمنين ورأفتة بهم وكرر ذلك تأكيداً له:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ تَوَابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: 20].

17- (ي) النهي عن تتبع خطوات الشيطان التي تؤدي للهلاك:

قال تعالى: ﴿ بِاَيْهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُو خُطُواتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ مَا زُكِّا مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ أَبَدَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرِكِي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 21].

18- (ك) الحث على النفقة على الأقارب وإن أساءوا⁽¹⁾:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفُحُوا أَلَا ثِجْبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: 22].

19- (ل) غيره الله تعالى على عباده المؤمنين⁽²⁾: الصادقين, ودفاعه عنهم، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللعنة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشَهَّدُ عَلَيْهِمْ أَسْنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: 23-25].

قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات:

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوat الرسول (386/1).

(2) إن اردت الاستزادة من الدروس والغير فقد أفردت لها بحثاً علمياً متاماً بعنوان(حادثة الإفك دروس وعبر) تجده على الشبكة العنکبوتية .

ولو قلبت القرآن كله وفتشت عما أو عد به العصاة لم تر الله قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع، المشحونة بالوعيد الشديد، والعقاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ارتكب من ذلك، واستفطاع ما أقدم عليه، ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مُفتنة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثلاث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: 23-25] لكتفى بها حديثاً جعل القدفة معلومن في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأنّ ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفکوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جراءهم الحق الذي هم أهله⁽¹⁾.

20- من سنن الله:

جاء في سياق الآيات بيان سنة من سنن الله الجارية في الكون وهي أن الطيبين يجعلهم الله من نصيب الطيبات، والطيبات يجعلهن من نصيب الطيبين، قال تعالى: ﴿الْخَيَثَاتُ لِلْخَيَثَيْنِ وَالْخَيَثَيْنُ لِلْخَيَثَاتِ وَلِئَكَ مُبَرَّوْنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفَرَةٌ وَرَزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: 26].

21- الناس مع الإفك أربعة أقسام:

والناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا على أربعة أقسام⁽²⁾:

قال فضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد - عند تعليقه على حديث يتعلّق بقصة الإفك:- إن الناس عندما رُميت الصديقة بنت الصديق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسم: وهو أكثر الناس، حموا أسماعهم وألسنتهم فسكتوا، ولم ينطقوا إلا بخير ولم يصدقوا ولم يكذبوا، وقسم: سارع إلى التكذيب، وهم أبو أيوب الأنباري وأم أيوب رضي الله عنهم، فقد وصفوه عند سماعه بأنه إفك وبرؤوا عائشة مما نسب إليها في الحال.

(1) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (1/386) نقلًّا عن تفسير الكشاف (3/223).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (1/387).

أما القسم الثالث: فكانوا جملة من المسلمين لم يصدقوا ولم يكنوا ولم ينفوه، ولكنهم يتحدثون بما يقول أهل الإلحاد، وهم يحسبون أن الكلام بذلك أمر هين لا يعرضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإلحاد ليس بقاذف، ومن هؤلاء حمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة.

أما القسم الرابع: فهم الذين جاءوا بالإلحاد وعلى رأس هؤلاء عدو الله عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين لعنه الله وهو الذي تولى كبره.

وقد أشار الله عز وجل إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام، وأنه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف، فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِلَهٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: 12].

أما القسم الثالث: فقد أشار الله عز وجل إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث حيث يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّنَهُ بِالسِّنَّتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هِيَنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ تَتَكَبَّرَنَّ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 15، 16].

وقد أثبتت الله عز وجل لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبتت لمسطح هجرته وإيمانه عندما حلف أبو بكر أنه لن ينفق على مسطح، ولن يتصدق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْنَفُوا أَلَا ثُجُّوبُنَّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 22].

أما القسم الرابع: وهو جماعة عبد الله بن أبي الذين جاءوا بالإلحاد واخترعوا هذا الكذب، فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر، وأنه لن يقبل منهم توبة، وأنه أنزل عليهم لعنته في الدنيا والآخرة⁽¹⁾، حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسَنَاتِ الْغَافِلُونَ الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنَاهُنَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ □ يَوْمَ تَشَهَّدُ عَلَيْهِمُ الْسِنَّتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا

(1) انظر: فقه الإسلام، شرح بلوغ المرام، لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد (9/5).

كَانُوا يَعْمَلُونَ □ يَوْمَنِذِ يُوقَّيْهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿النور: 23-25﴾.

22- الصالحون مستهدفوون:

من هذه الحادثة نأخذ أن الأنبياء وأتباعهم مستهدفوون من قبل أعداء الإسلام من الكافرين والمنافقين وأتباعهم؛ بتلقيق التهم ضدهم، ورميهم في أعراضهم وفي أنفسهم، ولكن الله يدافع عنهم، ويرد كيد الأعداء في نحورهم، ويزيد أنبياءه وأولياء الصالحين رفعة في الدنيا وثواباً في الآخرة، وأنه مهما لفق الملقون من التهم ورموا به أولياء الله؛ فإن الله تعالى كاشف ذلك، بل نCDF بالحق على الباطل فيدمجه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون (4).

سبحان ربنا عالم السر وأخفي! سبحانك ما أحلمك!

23- بشرية الرسول ﷺ:

جاءت محنـة الإلـفـاك منطـوية عـلـى حـكـمة إـلهـيـة استـهـدـفت إـبرـاز شخصـيـة النـبـي ﷺ وإـظـهـارـها صـافـيـة مـمـيـزة عـن كـلـ ما قـد يـلـتـيسـ بهاـ، فـلـوـ كانـ الـوـحـيـ أـمـرـاـ ذاتـيـاـ غـيـرـ مـنـفـصـلـ عـنـ سـخـصـيـةـ الرـسـوـلـ ﷺـ، لـمـ عـاـشـ الرـسـوـلـ ﷺـ تـلـكـ المـحـنـةـ بـكـلـ أـبعـادـهاـ شـهـراـ كـامـلاـ، وـلـكـنـ الـحـقـيقـةـ التـيـ تـجـلـتـ لـلـنـاسـ بـهـذـهـ المـحـنـةـ أـنـ ظـهـرـتـ بـشـرـيـةـ الرـسـوـلـ ﷺـ وـنـبـوـتـهـ، فـعـنـدـماـ حـسـمـ الـوـحـيـ الـلـغـطـ الـذـيـ دـارـ حـولـ أـمـ المؤـمـنـينـ عـائـشـةـ -رضـيـ اللـهـ عـنـهاـ-ـ عـادـتـ المـيـاهـ إـلـىـ مـجـارـيـهـ بـيـنـ الرـسـوـلـ ﷺـ، وـفـرـحـ الجـمـيعـ بـهـذـهـ النـتـيـجـةـ بـعـدـ تـلـكـ الـمـعـانـاةـ الـقـاسـيـةـ، فـدـلـ ذـلـكـ عـلـىـ حـقـيقـةـ الـوـحـيـ، وـأـنـ الـأـمـرـ لـوـ لـمـ يـكـنـ مـنـ عـنـدـ اللـهـ تـعـالـىـ لـبـقـيـتـ روـاـبـصـ المـحـنـةـ فـيـ نـفـسـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ بـصـفـةـ خـاصـةـ، وـلـأـنـكـسـ ذـلـكـ عـلـىـ تـصـرـفـاتـهـ مـعـ زـوـجـتـهـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهاـ، وـهـكـذاـ شـاءـ اللـهـ أـنـ تـكـوـنـ هـذـهـ المـحـنـةـ دـلـيـلـاـ كـبـيرـاـ عـلـىـ نـبـوـةـ (1).

24- منهج مواجهة الشائعات:

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 441.

قد رسم القرآن الكريم لنا منهجاً في مواجهة الشائعات - وما أكثرها في زماننا هذا - !!!

فأولى الخطوات: عرض الأمر على القلب، واستفتاء الضمير؛ فالمؤمن لا ينبغي أن يكون أذننا يمر الكلام عليه بلا ترو ولا تفهم، إنما بنقد واعتبار، فيتوقف حتى يتبيّن **{أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبوا**

على ما فعلتم نادمين} [الجراث: 6]

قال تعالى مبيناً للمؤمنين أهمية هذه الخطوة في قصة الإفك: **(لولا** **إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً}** [النور: 12]

نعم، كان هذا هو الأولى: أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في هذه الحمأة، وكذلك فعل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه حينما قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب؛ أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.

وهكذا إذا سمع المسلم شائعة أو تهمة ملقة رمي بها أحد عباد الله الصالحين أو الدعاة المخلصين؛ عليه أن يظن بأخيه خيراً، ويعلم أبعاد حرب الحق والباطل، ولابد أن رسول الله - ﷺ - قبله رمي في عرضه، لكن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولابد أن هذا هو دأب المنافقين والمأجورين والحاقدين مع عباد الله المؤمنين، الذين يدعون إلى صراط الله المستقيم، وأن هذا هو دأب الجبناء الذين يعملون من خلف الأستار بتلقيق أخس التهم الباطلة، ولكن؛ إن ربكم لبالمرصاد.

والخطوة الثانية من منهج مقابلة الشائعات: طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي:

قال تعالى مبيناً ذلك: **(لولا جاؤوا عليه بأربعة شهادة فإذا لم يأتوا بالشهادة فأولئك عند الله هم الكاذبون}** [النور: 13]؛ فعند طلب البينة تتضح الحقيقة، ولن يجد المبطل الأفلاك بینة.

ويبيّن سبحانه وتعالى خطورة الغفلة عن هاتين الخطوتين:

قال تعالى: **(ولو لا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لم скتم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم)** [النور: 15]

فقد احتسبها الله للجماعة المسلمة درساً قاسياً، فأدركهم بفضله ورحمته، ولم يمسهم بعقابه أو عذابه.

25- حد القذف وأهميته في المحافظة على أعراض المسلمين:

كان المجتمع الإسلامي يتربى من خلال الأحداث، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى -عز وجل- أن يشرع بعض الأحكام التي تساهم في المحافظة على أعراض المؤمنين، ولذلك نزلت سورة النور، التي تحدثت عن حكم الزاني والزانية وعن قبح فاحشة الزنا، وعما يجب على الحاكم أن يفعله إذا مارمى أحد الزوجين صاحبه، وعن العقوبة التي أوجبها الله على الذين يرمون المحسنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء إلى غير ذلك من الأحكام⁽¹⁾.

إن الإسلام حرم الزنا، وأوجب العقوبة على فاعله، فقد حرم أيضاً كل الأسباب المسببة له، وكل الطرق الموصلة إليه، ومنها إشاعة الفاحشة والقذف بها لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة والحديث عنها؛ لأن كثرة الحديث عن فاحشة الزنا وسهولة قولها في كل وقت يهون أمرها لدى سامعيها، ويجرئ ضعفاء النفوس على ارتكابها، لهذا حرمت الشريعة الإسلامية القذف بالزنا، وأوجبت على من قذف عفيفاً أو عفيفة، طاهراً أو طاهراً، بريئاً أو بريئة من الزنا حد القذف وهو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبة صادقة نصوحاً⁽²⁾.

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حد القذف على مسطح وحسن وحمنة، وروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأتين: مسطحة وحساناً وحمنة، وذكره الترمذى⁽³⁾ قال القرطبي: والمشهور من الأخبار المعروفة عند العلماء أن الذي حد حساناً ومسطح وحمنة، ولم يسمع بحد عبد الله بن أبي⁽⁴⁾. وقد وردت آثار ضعيفة تدل على أن عبد الله بن أبي أقيمت عليه الحد، ولكنها كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة⁽⁵⁾.

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (357/1).

(2) انظر: آثار تطبيق الشريعة، د. محمد الزاحم، ص 117.

(3) انظر: تفسير القرطبي (197/12).

(4) نفس المصدر (201/12).

(5) انظر: مرويات غزوة بنى المصطلق، ص 242.

26- الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي:

- وقد ذكر ابن القيم وجه الحكمة في عدم حد عبد الله بن أبي فقال:
- أ- قيل: لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفاره، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ويكفيه عن الحد.
- ب- وقيل: كان يستوشى الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوله من لا ينسب إليه.
- ج- وقيل: الحد لا يثبت إلا ببينة أو إقرار وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.
- د- وقيل: بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام.
- ثم قال في ختام كلامه ولعله ترك لهذه الوجوه كلها(1).

27- اعتذار حسان للسيدة عائشة حَمَلَهُ عَنْهَا:

قد بينت الروايات أن مَنْ خاض في الإفك قد تاب ما عدا ابن أبي، وقد اعتذر حسان صَاحِبُ الْمُؤْمَنَةِ عما كان منه، وقال يمدح عائشة بما هي أهل له (2):

· من المحسنات غير ذات	رأيتك وليرغفر لك الله حرّة
· ويصبح غرثي من لحوم	حسان رزان ما تزن بريّة
· بك الدهر بل قيل امرئ متاحل	وإن الذي قد قيل ليس بلاائق
· فلا رفعت سوطي إلى أنا ملي	فإن كنت أهجوكم كما
· لآل رسول الله زين المحافل	فكيف وودي ما حبيت

(1) انظر: زاد المعاد (3/263).

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي شيبة (2/263).

وإن لهم عزًا يرى الناس قصارًا، وطال العز كلٌّ

28- جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار:

ومن دروس هذه الغزوة جواز الإغارة على من بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذار، ومنها صحة جعل العنق صداقاً كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة.

29- مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر:

ومن الدروس مشروعية القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن.

30- كفر من سب عائشة :

وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سب عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءة قطعية بنص القرآن ورمها بما اتهمت به فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن⁽²⁾.

31- حكم العزل عن النساء:

ومن الأحكام التي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النساء حيث سأله الصحابة الرسول ﷺ عنه فأذن به وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيمة إلا وهي كائنة»⁽³⁾. فذهب

(1) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص 281.

(2) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (643/5).

(3) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (415/2).

الجمهور إلى جواز العزل عن الزوجة الحرة بإذنها⁽¹⁾، ونزلت آية التيم في هذه الغزوة، تنويعاً بشأن الصلاة، وتتبيناً على عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمان من إقامتها⁽²⁾.

واكتفي بهذا القدر من الدروس وال عبر من هذه الغزوة ، أسأل الله أن ينفع بها، ويكتب الأجر، ويرزقنا الاخلاص في القول والعمل . هذا وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .



فتح مكة دروس وعبر

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تُضاعف الحسنات، وبعفوه تُمحى السيئات، له الحمد جل وعلا يسمع من حمده، ويعطي من سأله، ويزيد من شكره، ويطمئن من ذكره، نحمده حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يليق بجلاله وعظمي سلطانه، حمداً يوافي فضله وإنعامه، وينيلنا رحمته ورضوانه، ويقيينا سخطه وعذابه، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين، خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى الله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم واقتدى أثراً لهم إلى يوم الدين، علينا

(1) انظر: نيل الأوطار للشوكاني (6/222-224).

(2) انظر: صور و عبر من الجهاد النبوى في المدينة، ص 210، 211.

وعلى عباد الله الصالحين.

وبعد

فإن الأمة اليوم بحاجة إلى العودة إلى السيرة النبوية تستجلي منها معالم الفتح والنصر؛ لأن هدي وسنة النبي ﷺ وسيرته هي المعلم الدائم الذي نستتير به في ظلمات حياتنا، والذي نرى فيه معالم الطريق إلى مرضاة ربنا، والذي نأخذ منه المنهج الصحيح لمواجهة الأخطار ومقارعة الأعداء في واقع حياتنا، فإن الله جل وعلا قد منَّ علينا بأن جعل القرآن والإسلام ممثلاً تمثيلاً كاملاً عظيماً في سيرة المصطفى ﷺ، وأرشدنا إلى ذلك ووجهنا إليه كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

ونحن اليوم في هذا الواقع الذي تعشه أمتنا محاطة بأعدائها مخذولة إلى حد كبير من قبل أبنائهما، وفيها من التقصير والتغريط إضافة إلى الضعف والهوان ما فيها نحتاج دائماً وأبداً إلى أن نرجع إلى معين السيرة العذب لننهل منه فنروي ظماً قلوبنا وفهمينا، ونوجه مسيرة حياتنا بإذن الله عز وجل.

ونحن وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله (غزوات النبي المصطفى دروس وعبر) نقف مع الفتح الأعظم للنبي ﷺ .
أسأل الله أن يجعلها ذخراً لنا يوم نلقاء وأن ينفع بها كل موحد إنه ولـي ذلك وال قادر عليه.



غزوَةٌ فَتْحُ مَكَّةَ

غزوَةٌ فَتْحُ مَكَّةَ :

هي الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنته وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدي للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين.

غزوَةٌ فَتْحُ مَكَّةَ :

هي الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضررت أطنان عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً.

غزوَةٌ فَتْحُ مَكَّةَ :

غزوَةٌ تتميَّز بطابع خاص في سجل التاريخ العسكري الإسلامي، فهي مثال كامل لأرقى مراتب الفكر العسكري والسياسي معاً، وأنبل الطرق للتوفيق بين الغاية والوسيلة، وظهرت فيها سماحة الإسلام بأجلى معاناتها.

غزوَةٌ فَتْحُ مَكَّةَ :

كانت في شهر الانتصارات شهر رمضان المبارك الشهر مليء بالمناسبات الطيبة التي يفتخر بها المسلمون على مر الأيام بالليل والنهار، فهو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن، وهو شهر ليلة القدر.

غزوَةٌ فَتْحُ مَكَّةَ :

كانت بداية فتح عظيم للمسلمين، وقد كان الناس تبعاً لقريش في جاهليتهم، كما أنهم تبع لقريش في إسلامهم، وكانت مكة عاصمة الشرك والوثنية، وكانت القبائل تنتظر ما يفعل رسول الله ﷺ - مع قومه وعشائرته، فإن نصره الله عليهم، دخلوا في دينه، وإن انتصرت قريش، يكونوا بذلك قد كفواه أمره، فقد روى البخاري عن عمرو بن سلمة، قال: كأنّا بما ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟، فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله، أو حَرَى إِلَيْهِ أو حَرَى الله بِكَذَا ، فكنت أحفظ ذلك فكأنّما يقر في صدري وكانت العرب

تَلَوْمَ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: أَتْرَكُوهُ وَقَوْمَهُ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ بَدَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ...”

❖ غزوة فتح مكة :

فيها نستطيع أن ندرك تماماً قيمة الجهاد والاستشهاد والمحن التي وقعت من قبله. إن شيئاً من هذا الجهاد والتعب والمحن لم يذهب بದداً، ولم ترق نقطة دم لمسلم هرداً، ولم يتحمل المسلمون كلَّ ما لا يقوه مما قد علمنا في هجرتهم وغزواتهم وأسفارهم، لأنَّ رياح المصادفة فاجأتهم بها، ولكن كل ذلك كان وفق قانون سماوي، وبحسب سنة الله في خلقه فكل التضحيات المتقدمة كانت تؤدي أقساطاً من ثمن الفتح والنصر وتلك هي سنة الله في عباده... لا نصر بدون إسلام صحيح ولا إسلام بدون عبودية الله، ولا عبودية بدون بذل وتضحية وضراعة على بابه وجهاد في سبيله.

❖ غزوة فتح مكة :

كان سببها يوم ارتكبت فيها قريش خطأ فادحاً عندما أعادت حلفاءها بني بكر على خزاعة حلية المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر وحلفاؤهم قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها⁽¹⁾، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن -ولم تكن متجهزة للقتال- لمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل، إننا قد دخلنا حرم إلهك! فقال نوفل: لا إله إلا اليوم، يا بني بكر أصيروا ثاركم⁽²⁾، عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، فقال النبي ﷺ: «ثُصِرْتَ يَا عُمَرَ بْنَ سَالِمَ!»⁽³⁾ لا نصرني الله إِنْ لَمْ أَنْصِرْ بْنَيْ كَعْبٍ» ولما عرض السحابة من السماء قال: إن هذه السحابة لتسهل بنصر بني كعب⁽⁴⁾.

❖ غزوة فتح مكة :

(1) انظر: الواقدي (2/781-784).

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي هاشم (4/39).

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي هاشم (4/44).

(4) المصدر نفسه (4/44)، البداية والنهاية (4/278).

أظهرت عاقبة نكث العهود وأنه وخيم للغاية، إذ نكثت قريش عهدها فحلت بها الهزيمة، وخسرت كيانها الذي كانت تدافع عنه وتحمييه.

❖ غزوة فتح مكة :

فيها تجلّى النبوة المحمدية والوحي الرباني في الإخبار بالمرأة حاملة خطاب حاطب بن أبي بلتعة، إذ أخبر عنها وعن المكان الذي انتهت إليه في سيرها وهو (رَوْضَة خاخ).

❖ غزوة فتح مكة :

ظهر فيها فضيلة إقالة عثرة الكرام، وفضل أهل بدر، وقد تجلّى ذلك واضحًا في العفو عن حاطب بعد عتابه، واعتذاره عن ذلك، بالتوبة منه.

❖ غزوة فتح مكة :

فيها بيان الكمال المحمدي في قيادة الجيوش، وتحقيق الانتصارات الباهرة.

❖ غزوة فتح مكة :

فيها بيان الكمال المحمدي في عدله ووفائه، تجلّى ذلك في رد مفتاح الكعبة لعثمان بن أبي طلحة، ولم يُعطِه من طلبه منه وهو "علي بن أبي طالب" -رضي الله عنه- وهو صهره الكريم وابن عمّه. وبعد هذا الإجمال إليك أخي القارئ الدروس وال عبر من هذا الفتح الأعظم مفصلة، والله بيده العون والتوفيق والسداد.



دروس وعبر من غزوة فتح مكة

1- على المسلمين أن يمتلكوا المبادأة:

إن المبادأة أو المبادرة تعني باختصار "حرية العمل"، والذي يملك المبادأة يحرم خصمه من حرية العمل، ويجعل أعماله محصورة في نطاق "رد الفعل"، وإحراز المبادأة من أهم عوامل النجاح والنصر في السياسة وال الحرب على حد سواء.

ولقد نقضت قريش العهد الذي أقرت بنوده في الحديبية في السنة السادسة من الهجرة وذلك عمل ينطوي - ولا شك - على "نوايا عدوانية" تتجاوز إطار عملية ثأر محدودة بينبني بكر حلفاء قريش وبيني خزاعة حلفاء المسلمين، ولا بد أن يفطن القارئ المحنك إلى ما في ذلك من خطر على الإسلام والمسلمين، فلا يقف مكتوف الأيدي أمام نوايا العداون الذي تأمل به قريش تحقيق هدفها الإستراتيجي الكبير وهو القضاء على الدين الجديد بالهجوم على قاعدته بالمدينة.

من أجل ذلك قرر الرسول الكريم - ﷺ - أن يأخذ بزمام المبادرة فيسير إلى قريش في عقر دارها.

2- تحقيق المفاجأة وخداع العدو:

إن المفهوم العلمي للمفاجأة أو المباغة هو "إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له". وهناك مستوىان للمفاجأة، فهي تكون "مفاجأة تكتيكية" إذا وقعت في نطاق محدود أو محلي وتم فيها إخفاء قوة الهجوم ومكانه ووقته واتجاهه عن المدافعين، فإذا تمكن المهاجم من إخفاء "نية الهجوم" نفسه تصبح المفاجأة "مفاجأة إستراتيجية"، وهذا المستوى من المفاجأة ليس أمراً يسيراً خاصة في العصر الحاضر الذي تقدمت فيه وسائل الحصول على المعلومات والتجسس تقدماً مذهلاً، لذلك فهو يتطلب تخطيطاً غاية في المهارة والصدق والسرية والخداع وليس من شك في أن تحقيق المفاجأة له آثاره النفسية التي تفعل فعلها في نفوس وعقول من يتعرضون لها وفي كفافتهم وإرادتهم القتالية وبالتالي.

وأهم هذه الآثار أن العدو "يفقد" مزية المبادأة وحرية العمل، فتنحصر أعماله وحركاته في نطاق رد الفعل في مواجهة الطرف الآخر الذي يحاربه من (موقع قوة) بتملكه للمبادأة وحرية العمل.

وقد اتخذ الرسول الكريم - ﷺ - لفتح مكة من تدابير التخطيط والتنفيذ ما يمكن معه أن نقول: إنه أحرز "المفاجأة الإستراتيجية" على أعدائه، وقد كان من آثار ذلك زعزعة إرادة قريش في المقاومة والقتال.

وقد قال كعب بن مالك ﷺ يصف عناية الرسول - ﷺ - بإجراء العمليات الخداعية: "ولم يكن الرسول - ﷺ - يريد غزوة إلا وارى بغيرها"⁽¹⁾. ، ولا غرابة في ذلك فهو عليه الصلاة والسلام القائل «الحرب خُدعة»⁽²⁾.

3- الكتمان:

ما أحوج المسلمين اليوم أن يتلعلموا الكتمان من هذه الغزوة، فأمورهم كلها مكشوفة، بل مكشفة، وأعداؤهم يعرفون عنهم كل شيء، لا تكاد تخفي عليهم، فلا سر لدى المسلمين يبقى مكتوماً.

لقد حرص النبي ﷺ أشد الحرص على إلا يكشف نياته لفتح مكة لأي إنسان، عندما اعتزم الحركة إلى مكة وكان سبيلاً إلى ذلك الكتمان الشديد من خلال ما يأتي:

1- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر ﷺ أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقة، ولا باتجاه حركته، ولا بال العدو الذي ينوي قتاله؛ بدليل أن أبو بكر الصديق ﷺ عندما سأله ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصود الرسول ﷺ قالت له: ما سمي لنا شيئاً. وكانت أحياناً تصمت، وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقصده ⁽³⁾.

ويستتبع من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهن ربما يذعنن شيئاً من هذه الأسرار - عن حسن نية - فتنقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة⁽⁴⁾.

2- أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

(1) [رواوه البخاري]

(2) [رواوه مسلم]

(3) انظر: البداية والنهاية (282/4)، الرسول القائد، شيت خطاب، ص333، 334.

(4) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص395، 396.

بعث النبي ﷺ قبل مسيرة مكة سريّة مكونة من ثمانية رجال؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقة، وفي ذلك يقول ابن سعد: (لما هم رسول الله ﷺ بعزو أهل مكة بعث أبو قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سريّة إلى بطن إضم⁽¹⁾) ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية؛ ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا ولم يلقو جمعاً، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشب⁽²⁾ فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (ببيين) حتى لقوا النبي ﷺ بالسقيا⁽³⁾⁽⁴⁾.

وهذا منهج نبوى حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها⁽⁵⁾.

3- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب⁽⁶⁾، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قياماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونـه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة⁽⁷⁾.

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول ﷺ من حده النافع لصالح المسلمين، وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرية واتخاذها أساساً لتحركاته واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة⁽⁸⁾.

والواجب على المسلم إذا أراد أمراً في مصلحة نفسه في الدنيا والآخرة لا إضرار على المسلمين أن يكتب هذا الأمر.

(1) بطن إضم: وادي المدينة الذي يجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان، وقناة، والعقيق.

(2) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة 35 ميلاً.

(3) السقيا: موضع يقع في وادي القرى، معجم البلدان (288/3).

(4) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (132/2).

(5) انظر: القيادة العسكرية، ص 498.

(6) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالغريف على القوم.

(7) التحفظ: هو الاحتياز واليقظ، مجازي الواقدي (796/2).

(8) انظر: القيادة العسكرية، ص 365.

وهناك أثر يرفعه بعض أهل العلم، يقول: {استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان} وقال عمر رضي الله عنه: [[من كتم أمره كان الخيار في يده]].

فأنت إذا كتمت أمرك فالخيار في يدك أن تمضي هذا الأمر أو تسحبه.

فواجب المسلم أن يكتم أمره إلا عن صديق محب يستشيره في ذات الله عز وجل.

4- دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلاً: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة» (1).

وهذا شأن النبي ﷺ في أمره؛ يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق.

فالله عز وجل خالق الخلق أجمعين، وببيده مقاليد الأمور ومفاتيح الفرج، ولا يقع شيء إلا بعلمه وحكمته وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشاً لم يكن، وإن ما يحل بالمسلم خاصة وبال المسلمين عامة هو بإرادة الله عز وجل، إما بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، وإما تمحيصاً لهم وابتلاء، فمن نزل به هم أو غم أو ابتلاء فليلجاً إلى الله عز وجل، وليرجع إلى ربه ومولاه، ولعلم أنه لا يرفع الضر والبلاء إلا الله سبحانه وتعالى وحده.

5- إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلترة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه بما تحرك النبي ﷺ إليهم، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى مكة، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدتها، فأرسل النبي ﷺ علياً والزبير والمقداد فامسکوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثنى عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعي حاطب رضي الله عنه للتحقيق، فقال: يا رسول الله، لا تجعل علي، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش - يقول: كنت حليناً - ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم،

(1) انظر: البداية والنهاية (4/282).

فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتى، ولم أفعله ارتداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : «أما إنما قد صدقكم».

إن تدابير النبي ﷺ في الكتمان أمنت له مباغتة كاملة لقريش، وأجبرتها على الرضوخ للأمر الواقع: الاستسلام. وهذا الكتمان لا مثيل له في سائر الحروب، ما أحرانا أن نتعلم منه ونقتدي به ونسير على منواله.

4- بعد النظر:

القائد المتميز هو الذي يتسم ببعد النظر، بالإضافة إلى مزاياه الأخرى، ويتخذ لكل أمر محتمل الوقع التدابير الضرورية لمعالجته، دون أن يترك مصائر قواته للاحتمالات بدون إعداد كامل.

إن النصر من عند الله، يؤتى به من يشاء، ولكن الله سبحانه وتعالى ينصر من أعدّ عذته واحتاط لكل احتمال كبير أو صغير قد يصادفه، لذلك يشدد العسكريون على إدخالأسوء الاحتمالات في حسابهم في أية عملية عسكرية.

لقد أمر النبي ﷺ أن يحبس أبو سفيان في مدخل الجبل إلى مكة، حتى تمر عليه جنود المسلمين، فيحدث قومه عن بينة ويقين، ولكي لا يتكون إسراعه في العودة إلى قريش قبل أن تنها معنوياته تماماً، سبباً لاحتمال وقوع أية مقاومة من قريش، مهما تكون نوعها ودرجة خطورتها. وفعلاً اقتنع أبو سفيان بعد أن رأى قوات المسلمين كلها، أن قريشاً لا قبل لها بالمقاومة.

وقد أدخل النبي ﷺ في حساباتهأسوء الاحتمالات أيضاً، عند تنظيمه خطة الفتح، فكانت تلك الخطة تؤمن تطويق البلد من جهاته الأربع بقوات مكتفية بذاتها، بإمكانها العمل مستقلة عن القوات الأخرى عند الحاجة، وبذلك تستطيع القضاء على أية مقاومة في أية جهة من جهات مكة، كما تؤمن توزيع قوات قريش إلى أقسام لمقاومة المسلمين، فتكون قوات قريش ضعيفة في كل مكان.

واتخذ النبي ﷺ هذه التدابير الفاعلة بالرغم من اعتقاده بأن احتمال مقاومة قريش للMuslimين ضعيف جداً، وذلك ليحول دون مباغتة قواته وإيقاع الخسائر لها، مهما تكون الظروف والأحوال. مما أحري أن يتعلم المسلمين هذا الدرس ويطبقوه في إعداد

خطتهم المصيرية!

5- العقيدة قوة عظمى:

كان جيش الفتح مؤلفاً من المهاجرين والأنصار ومسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة في حينه، لا يوحد بينه غير العقيدة الواحدة، التي يضحي الجميع من أجلها، وتشيع بينهم الانسجام الفكري الذي يجعل التعاون الوثيق بينهم سائداً.

لقد كانت انتصارات المسلمين الأولين انتصارات عقيدة بلا مراء، وكان النصر من أول ثمرات هذه العقيدة على النطاق الجماعي. أما على النطاق الفردي، فقد رأيت كيف طوت أم حبيبة زوج النبي ﷺ فراش النبي ﷺ عن أبيها أبي سفيان، وقد جاء من سفر قاصد بعد غياب طويل ذلك لأنها رغبت به عن مشرك نجس، ولو كان هذا المشرك أباها الحبيب.

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس ليواجه النبي ﷺ، رآه عمر بن الخطاب، فغادر خيمته واشتد نحو خيمة النبي ﷺ، فلما وصل إليها قال: يا رسول الله! دعني اضرب عنقه. قال العباس: يا رسول الله! إني قد أجرته، فلما أكثر عمر قال العباس: مهلاً يا عمر، ما تصنع هذا إلا لأنه منبني عبد مناف، ولو كان منبني عدي ما قلت هذه المقالة، فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله إسلامك يوم أسلمت كان أحب لي من إسلام الخطاب لو أسلم. لقد كان يمثل عقيدة المسلمين الأولين، بينما كان العباس حديث عهد بالإسلام.

وكيف نعلل إقدام المهاجرين على المشاركة في غزوة الفتح، التي لم يكن من المستبعد أن تصطرب فيها قوات المسلمين وقوات قريش؟ إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصالح الشخصية، بل هي رهن المصالح العامة وحدها، وقد انتصر المسلمون بالعقيدة الراسخة، وهي اليوم غائبة عنهم فذلوا وهزموا، فما أحراهم أن يعودوا إلى عقيدتهم ليستعيدوا مكانthem بين الأمم، ولينتصروا على أعدائهم، فقد غاب عنهم النصر منذ غاب عنهم الإسلام.

6- أهمية المعنويات في الجهاد:

لم تكن معنويات المسلمين في وقت من الأوقات أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة، البلد المقدس عند المسلمين الذين يتوجهون إليه في صلاتهم كل يوم، ويحجون بيته كل سنة. وكانت أهمية مكة

للمهاجرين أكثر من أنها بلد مقدس، فهي بلدتهم الذي هاجروا منه فراراً بدينهم وخلفوا فيها أموالهم وذويهم وكل عزيز عليهم. لذلك لم يختلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة إلا القليل من ذوي الأعذار القاهرة الصعبة.

أما معنويات قريش، فقد كانت متربدة للغاية، فقد أثرت فيهم عمرة القضاء، كما أثر فيهم انتشار الإسلام في كل بيت من بيوت مكة تقربياً، وبذلك فقدت مكة روح المقاومة وروح القتال. ومما زاد في انهيار معنويات قريش، ما اتخذه النبي ﷺ من إيقاد عشرة آلاف نار في ليلة الفتح، ومرور الجيش كله بأبي سفيان قائد قريش أو أكبر قادتها، ودخول جيوش المسلمين في كل جوانب مكة.

لقد كانت غزوة الفتح معركة معنويات بالدرجة الأولى، ما أحرانا أن نتعلمها لحاضرنا ومستقبلنا.

7- رسول السلم ﷺ:

حرص النبي ﷺ من خروجه لفتح مكة على نياته السلمية، ليؤلف بذلك قلوب المشركين، و يجعلها تقبل على الإسلام. وقد عهد عليه الصلاة والسلام إلى قادته حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلو إلا من قاتلهم. وبقي النبي ﷺ مصراً على نياته السلمية بعد الفتح أيضاً، فقد أصدر العفو العام عن قريش قائلاً: «**اذهبا فائتم الطلقاء**».

وكما حرص النبي ﷺ الجماعي، حرص كذلك على السلم الفردي، فمنع القتل حتى لفرد واحد من المشركين، مهما تكن الأسباب والأعذار.

فقد قتلت خزاعة حلفاء المسلمين رجلاً من هذيل غداة يوم الفتح لثأر سابق لها عنده، فغضب النبي ﷺ أشد الغضب، وقام في الناس خطيباً، وما قاله: «**يا معاشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر إن نفع، لقد قتلت قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهلة بخير النظرين، إن شاؤوا قدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله**»، أي ديته، ثم ودي بعد ذلك الرجل الذي قتلت خزاعة.

بل إن النبي ﷺ لم يقتل رجلاً من المشركين أراد اغتياله شخصياً وهو يطوف في البيت، بل تلطف معه. فقد اقترب فضالة بن عمير يريد أن يجد له فرصة ليقتلته، فنظر إليه النبي ﷺ نظرة عرف بها طويته،

فاستدعاه وسأله: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنْت أذكر الله! فضحك النبي ﷺ وتلطف معه ووضع يده على صدره، فانصرف الرجل وهو يقول: ما رفع يده عن صدرِي حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه.

ورأى علي بن أبي طالب ﷺ مفتاح الكعبة بيد النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أين عثمان بن طلحة؟** فلما جاء عثمان قال له: «**يا ابن طلحة، هاك مفتاحك، اليوم يوم بر ووفاء.**»

وقد رأى المسلمون النبي ﷺ يوم الفتح يتواضع لله، حتى رأوه يوم ذلك ورأسه قد انحني على رحله، وبدا عليه التواضع الجم، حتى كانت لحيته تمس واسطة راحلته خشوعاً، وترقرقت في عينيه الدموع تواضعًا لله وشكراً.

تلك هي سمات **الخلق الإسلامي الرفيع** في السلم والوفاء والتواضع، ولكنه سلم الأقوياء لا سلم الضعفاء، ووفاء القادرين لا وفاء العاجزين، وتواضع العزة لا تواضع الذلة.

إن سلم الأقوياء القادرين هو السلام الذي يأمر به الإسلام، أما سلم الضعفاء العاجزين فهو الاستسلام الذي ينهى عنه الإسلام. ذلك ما ينبغي أن نتعلم من فتح مكة، لحاضر المسلمين ومستقبلهم، لحاضر أفضل ومستقبل أحسن، وهي عبر لمن يعتبر.

8- حكم التحالف مع غير المسلمين فيما لا يتعارض مع

الإسلام:

ونجد من دروس هذا الفتح، وهي جواز التحالف مع غير المسلمين فيما لا يتعارض مع الإسلام وفيما يحقق مصلحة الإسلام، وفيما لا يقع به مضره على المسلمين ولا تنازل عن أحكام الإسلام، والنبي ﷺ في صلح الحديبية -وهو الذي كان سبباً لفتح مكة- كانت قد دخلت خزاعة في عهدها مع رسول الله ﷺ، وكانت حليفه له، وكان النبي ﷺ قد جعل خزاعة عيبة نصحة، أي: يثق بهم لما علم من صدقهم في جواب تعاملهم معه، فعااهدهم وحالفهم، وكانوا معه عليه الصلاة والسلام.

إلا أن ذلك لا ينبغي أن يكون عن ضعف أو ذل أو هوان للMuslimين، ولا ينبغي أن يكون فيه إعطاء دنية في الدين، ولا ينبغي أن

يكون ذلك على حساب مصالحهم وتحقيق أمور دينهم، فضلاً عن أن يكون ذلك تغييراً في أساسيات وثوابت من شرع الله عز وجل، سواء ثبتت في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ.

ونحن نرى اليوم من يتحجرون بالأيات القرآنية، لكنهم لا ينزلونها تنزيلها الحقيقى الصحيح، ولا يطبقونها التطبيق العملى الذى كان أنموذجه الأمثل فى سيرة النبي ﷺ: **{وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}** [الأنفال: 61] لكن الله جل وعلا يقول: **{وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** [آل عمران: 139] والنبي ﷺ قد بين في سيرته مثل ذلك، فهذه مواقف بين يدي الفتح، أي: قبل بلوغه.

9- أسباب مساعدة لفتح مكة وتأديب كفارها :

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وتأديب كفارها، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله- عدة أسباب منها:

أ- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها: فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وتم القضاء على يهودبني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب- ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركيـن لهم - وهو يهود المدينة-، فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

ج- اهتم رسول الله ﷺ بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح؛ وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصادياً، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.

هـ- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

وـ- قيام السبب الجوهرى والقانوني لغزو مكة، وهو نقض قريش للعهد والعقد⁽¹⁾. ونلحظ أن النبي ﷺ لم يضع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صلح الحديبية،

(1) انظر: السيرة لأبي فارس، ص 401

والآن تناح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد الله جيشاً لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل⁽¹⁾.

10- عزل العدو دولياً

ومن أهم وسائل إدارة الصراعات أن نفرض العزلة الدولية على عدونا حتى يتلفت حوله فلا يجد حلِيفاً أو نصيراً، وهذا هو الوضع الذي فرضه المسلمون على قريش فقد جردها الرسول الكريم -الله- من الحلفاء والمناصرين نتيجة لسياسة الحكمة التي اتبعها بعد الهجرة، والتي قامت على عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع مختلف القبائل العربية لكافلة حرية الدعوة وحسن الجوار والمعاملة، فكانت النتيجة المباشرة لتلك المعاهدات حرمان قريش من قوى كان يمكنها أن تتحالف معها أو تشد أزرها.

أضف إلى ذلك أن انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ومن ضمنها قريش، ينطوي على "تحييد" للقسم الآخر الذي بقي على الشرك، وخاصة بالنسبة للمعتدلين الذين يرون أنه لا جدوى من القتال، ويعتبرون الحرب كارثة تحقيق بهم.

11- الثقة واليقين بنصر الله عز وجل:

ومن الدروس التي تحتاج إلى أن نتدبر فيه ينقسم إلى قسمين، وكلاهما متعلق بعقيدة المؤمن ويقينه: الأول منها: الثقة بنصر الله عز وجل، والثانية بتحقيق وعده، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ تَنْصُرُوا اللَّهَ بِنَصْرِكُمْ﴾ [محمد:7] ، وقال جل وعلا: ﴿وَالْعَاقِبةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:128] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَلَّكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:83] كل هذه الوعود صادقة لا تختلف، إنما الذي يختلف فعل المسلمين، فلا تأتיהם حينئذ تلك الوعود؛ لأنهم لم يأتوا بالشروط.

ولقد ظل النبي الله يدعو في مكة عشرة أعوام، وظل بعد ذلك يجاهد ويکابد المشاق أعوااماً أخرى، وخرج من مكة مهاجراً ومطارداً، وخرج لا يملك شيئاً من الدنيا، وكل المؤشرات المادية كانت في غير صالح

(1) انظر: الكامل في التاريخ (244/2)، التاريخ السياسي والعسكري ص366.

ال المسلمين .

ولو قسنا ذلك بالزمن لرأينا أنه عليه الصلاة والسلام خرج من مكة مهاجراً طریداً وعاد إليها فاتحاً عزيزاً بعد ثمانية أعوام، فما هي في عمر الزمان؟ إنها مدة قصيرة، وخرج النبي ﷺ لا يملك مالاً ولا يملك سلاحاً، والمسلمون في ذلك الوقت قلة لا يؤبه لها، والأجواء المحيطة بهم والقبائل التي من حولهم كلها على الكفر والشرك.

ثم لم يكن النصر في هذا العنصر المادي بقوة المسلمين أو كثرة جيوشهم، بل ما فتحوا مكة إلا بعد أن فتحوا قلوباً كثيرة وعقولاً كثيرة، ودخل في الإسلام من القبائل ومن الناس أعداد هائلة عظيمة، وبعد العام الثامن في العام العاشر عندما حج النبي عليه الصلاة والسلام حجة الوداع كان معه ما يزيد على مائة ألف نفس من أصحابه الذين حجوا معه.

لقد فتح الله على رسوله ﷺ القلوب والعقول قبل أن يفتح البلد والدور والحسون، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَذْكُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أُفْوَاجًا * فَسَيِّخَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا} [النصر: 1-3].

فنحن -إذاً- لابد من أن نعظم اليقين بنصر الله عز وجل، خاصة في هذه الظروف، فبعض الناس اليوم يقول: كيف سينتصر المسلمون؟! أمريكا الدولة العظمى في العالم والأمم المتحدة ضدهم، والأسلحة عابرة للقارات! كأن بعض الناس نسوا أن هناك قرآنًا يتلى، ونسوا أن هناك سننًا، ونسوا أن هناك قوة عظمى وهي قوة الله عز وجل الفائل: {أَمْ حَسِبُوكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَاتُكُمْ مَثْلُ الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَرُلُزُلُوا حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَّ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214].

وفي يوم الأحزاب اجتمع على المسلمين شدة الجوع وشدة الخوف وشدة البرد، وجيش المشركين يحيط بهم من كل جانب، وقريظة نقضت العهد، وأصبح المسلمون محاطين من كل جانب، وليس عندهم حيلة ولا قوة، مما الذي جرى؟ يقين بنصر الله، فكبر النبي عليه الصلاة والسلام وبشر أصحابه بالنصر، ثم جاءت الريح فأطافت النيران، وأكفت القدر، وقلعت الخيام، وطردت أولئك الكفرة والمعتدين {وَرَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْنِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْفِتَالَ} [الأحزاب: 25] ، وبعدها قال النبي عليه الصلاة والسلام: «اليوم نغزوهم ولا يغزونا»، فلم يكن النبي عليه الصلاة والسلام

عندما خرج من مكة وهو مهاجر طريد عنده أدنى شك في أنه سينصر بإذن الله، وأن كلمته ستعلو، وأن دينه سينتشر، وأن رايته ستتحقق، وأن دولته ستعم بقاع الأرض كلها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ زَوِيَ لِي الْأَرْضَ مُشَارِقَهَا وَمُغَارِبَهَا، وَإِنَّ دِينِي سَيَلْغُ مَا زَوِيَ لِي مِنْهَا».

فنحن اليوم في حاجة إلى أن نزيل هذا الوهن الذي سرى إلى النفوس، واليأس الذي تسلل إلى القلوب، واستعظام قوة الخلق ونسيان قوة الخالق، ونقول للذين أصبحوا اليوم يفتون في العضد ويقولون لنا: كونوا واقعيين، فماذا تريدون أن تفعلوا؟ وماذا يفعل هؤلاء الفلسطينيون في فلسطين؟ إنهم يزهقون أرواحهم، ويسفكون دماءهم، ويخربون بيوتهم بأيديهم، ثم لم ينجزوا شيئاً.

نقول: سبحان الله! ننسى قوة الله عز وجل، وننسى قوله تعالى: ﴿كُمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبْتُمْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، وننسى كيف نصر الله رسوله في يوم بدر، وكيف نصر المسلمين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام! بل إلى قريب من عهدهنا هذا في حرب رمضان التي انتصر فيها المسلمون على اليهود في أول هذه المعارك.

فلماذا نغفل عن ذلك كله؟! درس الفتح يعلمنا أن الدائرة تدور وأن الأيام تتواتي، وأن الأعوام تكرر، وأن العاقبة للمتقين، وأن النصر للمؤمنين ولو بعد حين

وفيما فعله الرسول ﷺ مع أهل مكة حكمة أخرى، فقد علم الله أن العرب سيكونون حملة رسالته إلى العالم، فأبقي على حياة أهل مكة وهم زعماء العرب ليدخلوا في دين الله، ولينطلقوا بعد ذلك إلى حمل رسالة الهدى والنور إلى الشعوب، يبذلون من أرواحهم وراحاتهم ونفوسهم ما أنقذ تلك الشعوب من عمايتها، وأخرجوها من الظلمات إلى النور.

12- تجريد العدو من إرادة القتال:

إن الحرب في حقيقتها "صراع بين إرادتين": إرادتنا وإرادة عدونا، والطرف الذي يفقد الإرادة القتالية سوف يكون هو الخاسر المهزوم. ولقد كان من الأمور البارزة في غزوة فتح مكة حرص الرسول الكريم - ﷺ - على تجريد قريش من إرادة المقاومة والقتال بعدة وسائل:

- 1- غزو قلب وعقل ونفس زعيم قريش:

ومن الأساليب التي اتخذها الرسول - ﷺ - لذلك إفناع أبي سفيان عن طريق "إظهار القوة وتجسيدها" بأنه لا جدوى من المقاومة وقتل المسلمين، فقد أوصى عليه الصلاة والسلام عمه العباس حين جاء بأبي سفيان إلى معسكر المسلمين خارج مكة باحتجازه في مدخل الجبل إلى مكة حتى يمر به جيش المسلمين فيحدث قومه عما رأه عن بينة ويقين، فيقضي على أي أمل لديهم في المقاومة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: « يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها » قال العباس : فخررت حتى حبسه بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله - ﷺ - أن أحبسه ، ومرت القبائل على راياتها ، كلما مررت قبيلة قال : يا عباس ، من هذه فأقول سليم فيقول : مالي ولسليم ، ثم تمر القبيلة فيقول : مالي ولمزينة ، حتى نفت القبائل ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها فإذا أخبرته بهم قال : مالي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله - ﷺ - في كتيبة الخضراء (لكتبة الحديد) وظهر فيها المهاجرون والأنصار - ﷺ - لا يرى منهم إلا الحدق (العيون) من الحديد .

قال : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول - ﷺ - في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغدة عظيماً ، قلت يا أبا سفيان : إنها النبوة ، قال : فنعم إذن ؟ قلت : النجاء (السرعة) إلى قومك .

ومما يدل على حرص الرسول الكريم - ﷺ - على إيقاع أكبر قدر من التخويف والضغط النفسي على أبي سفيان اختياره لمضيق الوادي بالذات لوقف أبي سفيان ، فمرور الجيش في مضيق يختلف عن مروره في الأرض المكشوفة ، فالمضيق يجعل أبا سفيان يرى قوة الجيش بصورة مجسمة ، أما الأرض المكشوفة فسوف ينتشر فيها الجيش ويترافق فلا يقع التأثير المطلوب ، وقد أسرع أبو سفيان إلى قومه فقال " يا عشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به " وذلك أوضح دليل على تجریده من إرادة المقاومة والقتال .

2- تجريد قريش نفسها من إرادة القتال :

وفضلاً عما يحدهه قوله أبا سفيان لقومه السابق ذكره من دفع قريش إلى الاستسلام ، فقد كان تنظيم الرسول الكريم - ﷺ - لجيش المسلمين على نحو يضعف الدافع لدى المشركين إلى القتال و يجعلهم يتربدون في المقاومة ، فقد كان الجيش لا يتألف من المهاجرين والأنصار فحسب بل من مسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة يومئذ :

ألف رجل من بنى سليمان، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة، وأربعينات من بنى جهينة؛ وأربعينات من أسلم، وعدد من تميم وأسد وقيس وغيرها من القبائل العربية الأخرى.

هذا التنظيم أصاب المشركين بالتردد في الإقدام على القتال؛ لأن كل قبيلة لها في جيش المسلمين عدد كبير، بل إن كثيراً من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحاً لها على الرغم من اختلاف العقدين، والأكثر من ذلك فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخراً لقبيلة دون أخرى كما أن فشل أية قبيلة في التغلب عليه، لا يعتبر عاراً عليها؛ لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى بل لم يكن للعرب دون غيرهم بل كان للإسلام ولمعتنقي هذا الدين من العرب وغير العرب..

ثم جاءت الضربة النفسية القاضية على إرادة القتال حين أعطى الرسول - ﷺ - "الأمان" لقريش مقابل الاستسلام، فقد نصح العباس عم النبي - ﷺ - أبا سفيان بأن يلجم إلى الرسول الكريم - ﷺ - حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد فيتحقق به وبقومه العقاب، فقال العباس للرسول الكريم - ﷺ - إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً (وكان أبو سفيان قد أسلم ليتحقق دمه قبل لقائه بالرسول ﷺ)، فقال عليه الصلاة والسلام "نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"، فكان ذلك من أقوى أسباب استسلام قريش، فإنه لما قال أبو سفيان لقومه "يا معاشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن" قالت قريش: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

13- النصر ليس مداعاة للكبر:

إن النصر لا يؤدي إلى الكبر، وإن النصر لا يقود إلى الخياء، وإن النصر لا يؤدي إلى فتنة النفوس بالإعجاب، ولا إلى الطغيان الذي يكون مع المنتصرين من غير أهل الإيمان والإسلام.

لما دخل النصارى بيت المقدس عام اثنين وتسعين وأربعينات من الهجرة قتلوا في داخل المسجد وفي أنحائه نحواً من سبعين ألف نفس، حتى خاضت ركب الخيل في الدماء.

وفي يوم دخول التتار إلى بغداد قتلوا نحو ثمانمائة ألف نفس، وقيل:

ألف وثمانمائة ألف نفس.

كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، واستحر القتل بأهل بغداد أربعين يوماً حتى سالت ميازيب البيوت من دماء المسلمين، وحتى بلغ نتن الجيف من أرض بغداد إلى بلاد الشام، وذلك هو طغيان النصر.

لكن انظر إلى رسول الله ﷺ يوم دانت له مكة التي استعصى عليه أهلها، مكة التي كان أهلها أشد الناس إيذاءً له، مكة التي كانت مؤلبة ومحرضة عليه للقبائل، وكل الأعداء الذين سعت قريش إلى أن تجعلهم في صفها ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام، دخل عليه الصلاة والسلام مطأطاً رأسه تواضعاً لله عز وجل، وفي بعض الروايات: (حتى مست لحيته ظهر دابته) عليه الصلاة والسلام، دخل وهو المنتصر لا في نشوء المنتصر، بل في ذلة العابد الحامد لربه سبحانه وتعالى، ولذلك لم تطغ نفسه، فلم يأت الناس ليقص رقابهم ويسيّل دماءهم، بل عفا عنهم.

هلا... تواضعنا لله، وهلاً تواضعنا لخلق الله وزعننا رداء العجب والفخر، إذ المطلوب منك - أيها المؤمن - أن تعطف وترحم المساكين، وأن تصل رحمة والوالدين، وأن تغض الطرف عن إساءة المسيئين، وتسامح المذنبين، وتأتسي بسيد العالمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وجاءه ﷺ من هرب ك حكيم بن حزام وغيره، وجلسوا بين يديه يلتمسون عفوه فوجدوا نفسه سمحنة بذلك، إلا من كان عدوًّا لله ولرسوله، من اجترأ على دينه أو سب وأذى رسوله ﷺ، فأولئك بضعة نفر في أعلى روايات السيرة أنهم تسبعة أهدر النبي ﷺ دماءهم وأمر بقتلهم ولو كانوا معلقين بأستار الكعبة.

لكن جمهور أهل مكة ما أصاب أحداً منهم من رسول الله عليه الصلاة والسلام ضر، ومكة نفسها ما هدم فيها بيت، ولا قلعت فيها شجرة، ولا أضرمت فيها نار، تلك هي انتصارات الإسلام، ولعلنا نستحضر يوم السابع والعشرين من شهر رجب في العام السابع والثمانين بعد الخمسمائة من الهجرة يوم دخل صلاح الدين منتصراً إلى بيت المقدس في يوم الجمعة، ولعلنا نتذكر الخطبة التي خطبها القاضي الفاضل ، وكلها تذكير بفضل الله، وإقرار بنعمته الله، واعتراف بضرورة شكر الله، ولعلنا نعرف صنع صلاح الدين الذي قضى دهراً طويلاً من عمره مرابطًا في جهاده في سبيل الله.

14- الإسلام دين سلام ودين قوة:

كان قرار الرسول الكريم - ﷺ - أن يتم فتح مكة بلا "قتال" فعهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً على ذلك كل الحرص وهو ما ينطوي به أسلوبه في إدارة المعركة والسيطرة المحكمة على كل مرحلة من مراحلها، ولقد بلغ من حرصه - ﷺ - على تجنب القتال أنه بلغه أن سعد بن عبادة الذي كان يقود رتلاً من الأرتال الأربع التي يتتألف منها جيش المسلمين قال: "اليوم يوم الملحة اليوم تستحل الحرمة" فأخذ الرأية منه ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب.

ومن هذا الحرص على حقن الدماء أنه - ﷺ - لم يكتف بالتخفيط والقرار بأن يكون الفتح بغير قتال؛ لأنه يكون بذلك " عملاً من جانب واحد" لا بد أن يقابلها عمل من الجانب الآخر ينسجم معه ويحقق هدفه هو "عدم المقاومة"، أي أنه لابد من اتخاذ التدابير التي "تمنع" العدو من المقاومة والقتال، وهذا هو بالضبط ما فعله الرسول الكريم القائد - ﷺ - بحرصه على المفاجأة والخداع وتجريد قريش من إرادة القتال على نحو ما قدمنا..

وهكذا كان جمعه عليه الصلاة والسلام بين الأمرين) تجنب القتال من جانبه ومنع قريش من المقاومة والقتال) آية من آيات حسن القيادة، وإدارة الصراع على أعلى مستوى، وتأكيداً لمقاصد الإسلام النبيلة.

على أن الرسول الكريم - ﷺ - لم يكتف بهذه التدابير، بل أعد عدته للقتال" على أتم ما يمكن الإعداد:

1. فقد حشد لفتح مكة عشرة آلاف مقاتل وهو أكبر حشد منذ بدأ الصراع .

2. ووضع خطته لدخول مكة بحيث يؤمن تطويقها من جهاتها الأربع :

- من الشمال: الزبير بن العوام.

• من الجنوب: خالد بن الوليد .

• من الغرب: رتل سعد بن أبي عبادة (قوات الأنصار ومن الشمال

الغربي من اتجاه جبل هند رتل أبي عبيدة بن الجراح قوات الهاجرين.

1. وهذه الخطة المحكمة أدت إلى تحقيق هدفين في غاية الأهمية

من وجهة نظر الفن الحربي :

1. ضمان القضاء على أية مقاومة في أية جهة من مكة "في الحال" نظراً لوجود المسلمين في كل جهة من جهاتها .
2. تشتت قوات قريش إذا قررت المقاومة إلى أقسام لمواجهة جيش المسلمين على ؛ مما يحرمها من تركيز قواتها وحشدتها في جبهة واحدة و يجعلها ضعيفة في كل مكان

15- مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النقوس:

1- إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقطعت(1) بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل أن اطلب لي جواراً من محمد، وإنني لا آمن من أن أقتل، وجعلت أذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإنني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً وأحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، تؤمنه؟ فقال: «نعم»، هو آمن بأمان الله، فليظهر، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: كان والله براً، صغيراً وكبيراً. فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة(2).

لقد كان لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو، حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه وكان مكثراً من الأعمال الصالحة(3) يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعد كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كردوس(4)

(1) أي رمي بنفسه.

(2) انظر: مغازي الواقدي (846/2)، المستدرك للحاكم (381/3).

(3) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (216/7).

(4) كردوس: فرقه كبيرة.

يوم اليرموك (١).

2- إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه... وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشعيبة^(٢) وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: ويحك، انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمدا علىًّ. فلحوه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي، قال: أبا وهب جعلت فداك، جئتك من عند أب الناس وأوصل الناس. وقد كان عمير قال لرسول الله صلوات الله عليه: يا رسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تؤمنه فداك أبي وأمي، قال رسول الله صلوات الله عليه: «قد أمنتهم»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله صلوات الله عليه قد أمنك، فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله صلوات الله عليه فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنت به فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله صلوات الله عليه: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله صلوات الله عليه يومئذ متجرأ^(٣) به، بُرد حَبَرَة^(٤) فخرج عمير في طلبه الثانية، حتى جاء بالبرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أمك وأبيك، اذكر الله في نفسك، قال له: أخاف أن أقتل، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفي الناس وأبرهم، وقد بعث إليك ببرده الذي دخل فيه متجرأ، تعرفه؟ قال: نعم، فأخرجه، فقال: نعم، هو هو، فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله صلوات الله عليه يصلي بال المسلمين العصر بالمسجد، فوققا، فقال صفوان: كم تصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم، فلما سلم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القديم عليك، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين، قال: «انزل أبا وهب» قال: لا والله حتى

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٩٥/٢).

(٢) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأً مكة ومرسى سفنه قبيل جدة. معجم البلدان (٥/٢٧٦).

(٣) الاعتجاز بالعمامة: هو أن يبلغها على رأسه ويرد طرفيها على وجهه ولا يدخل منها شيئاً تحت ذقنه. (الذهبية ٣/٦٩).

(٤) الحيرة: ضرب من ثياب اليمين.

تبين لي، قال: «بل تُسِيرُ أربعة أشهر» فنزل صفوان. وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بآداتها، فقال: طوعاً أو كره؟ قال رسول الله ﷺ: «عارضه مودة» فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنيناً، والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، وبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية جعل صفوان ينظر إلى شعب مليء نعماً وشاء ورعاً فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟» قال: نعم، قال: «هو لك وما فيه»، فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس النبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. وأسلم مكانه⁽¹⁾.

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي ﷺ حاول أن يتآلف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخفيه في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطایا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة، ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم فقال: ما طابت نفس أحد بهذه إلا نفس النبي. ثم أسلم مكانه⁽²⁾، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلى⁽³⁾.

3- إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخف أن تقتله فأمهنه، فقال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حيٍّ من عاچ⁽⁴⁾ فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة، وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل ثوتي السفينة يقول له: أخلص، فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله، قال عكرمة: ما

(1) انظر: مغازي الواقدي (2-853).

(2) انظر: التاريخ الإسلامي (7/220).

(3) مسلم، كتاب الفضائل، رقم 2313، ص 1806.

(4) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية، معجم ما استعجم، ص 223.

هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتكم من عند أولى الناس، وأبر الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك. ووقف لها حتى أدركته فقالت: إني قد استأمنت لك محمدا رسول الله ﷺ. قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلّمته فأمنك فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذ لم يسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبو أباه، فإن سب الميت يؤذى الحي ولا يبلغ الميت».

قال: وجعل عكرمة يطلب أمراته يجامعها، فتابى عليه، وتقول: إنك كافر وأنا مسلمة، فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه -وما على النبي ﷺ رداء- فرحا بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوق بين يديه، وزوجته متقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، فأنت آمن» فقال عكرمة: فلما تدعوا يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتفعل وتفعل» حتى عد خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فيما قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً، ثم قال عكرمة: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فسرّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علمي خيراً شيفاً أقوله، قال: «تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله» قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تقول: أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد» فقال عكرمة ذلك.

قال رسول الله: «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتك» قال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتها، أو مسir وضعفت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له كل عداوة عاديتها، وكل مسir سار فيه إلى موضع يريده بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض، في وجهي أو وأنا غائب عنه» قال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الإسلام إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قُتل

(1) شهيداً

وبعد أن أسلم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول (2). كان سلوك النبي ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً يكفي وحده لاجتنابه إلى الإسلام، فقد أوجل نفسه عن ليس ردائه، وابتسم له ورحب به، وفي رواية قال له: «**مرحباً بالراكب المهاجر**» (3) فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعلت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم توج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقاً في إسلامه، فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا، وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية، ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يليلي في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد بر بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله (4).

4- مثل من تواضع النبي ﷺ: إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم: لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رأه رسول الله ﷺ قال: «**هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟**» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «**أسلم**» فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «**غيروا**».

(1) يعني يوم اليرموك.

(2) انظر: مغازي الواقدي (2/851-853).

(3) انظر: جمجم الروايات (9/385) مرسل ورجاله رجال الصحيح في إحدى سنديه، وأما الإسناد الآخر من رواية الطبراني فرجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

(4) انظر: التاريخ الإسلامي (7/223-225).

هذا من شعره⁽¹⁾ (ويروى أن رسول الله ﷺ هنا أبا بكر بإسلام أبيه⁽²⁾). وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنه النبي ﷺ في توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «لَيْسَ مَنْ مِنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا وَيُرْحِمْ صَغِيرَنَا»⁽³⁾ (وفي قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى إِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»⁽⁴⁾ كما أنه ﷺ سن إكرام أقارب ذوي البلاء والبذل والعطاء والسبق في الإسلام؛ تقديرًا لهم على ما بذلوه من الخدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى⁽⁵⁾).

5- مثل من عفو النبي ﷺ وحلمه: إسلام فضالة بن عمير:
 أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَالَةُ؟» قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: «مَاذَا كُنْتَ تَحْدِثُ بِهِ نَفْسَكَ؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: «اسْتَغْفِرُ اللَّهَ»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدره حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بأمرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلَمَ إِلَى يَأْبَى عَلَيْكَ اللَّهُ
لو مَا رَأَيْتَ مُحَمَّداً بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكْسِرَ
لَرَأَيْتَ دِينَ اللَّهِ وَالشَّرَكَ يَغْشِي وَجْهَهُ

16- العاقبة للمتقين:

ما نذكره من دروسها ودورات معاركه الحربية⁽¹⁾، هي العبرة البالغة بما انتهت إليه دعوة الله من نصر في أمد لا يتصوره العقل، وهذا من أكبر الأدلة على أن محمداً رسول الله ﷺ، وعلى أن الإسلام دعوة الله التي تكفل بنصرها ونصر دعاتها والمؤمنين بها والحاملين

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/55, 54).

(2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 577.

(3) انظر: سنن الترمذى، كتاب البر، باب رقم 1986.

(4) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب رقم 20، رقم 4843.

(6) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدى (7/195).

(5) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4304.

(6) التاريخ الإسلامي للحميدى (7/213).

للواهـا، وما كان الله أـن يتخـلـى عن دعـوـتـه وـهـيـ حـقـ وـرـحـمـةـ وـنـورـ، وـالـلـهـ هوـ الـحـقـ وـهـوـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ الـذـيـ وـسـعـتـ رـحـمـتـهـ كـلـ شـيـءـ، وـالـلـهـ نـورـ السـمـاـوـاتـ وـالـأـرـضـ، فـمـنـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـطـفـئـ نـورـ اللـهـ!ـ وـكـيـفـ يـرـضـيـ للـبـاطـلـ أـنـ يـنـتـصـرـ النـصـرـ الـأـخـيـرـ عـلـىـ الـحـقـ، وـلـهـمـجـيـةـ وـالـقـسـوـةـ وـالـفـسـادـ أـنـ تـكـوـنـ لـهـاـ الغـلـبـةـ الـنـهـائـيـةـ عـلـىـ الـرـحـمـةـ وـالـصـلـاحـ⁽¹⁾.

17- في الإسلام لا وللملوك

وـإـذـاـ كـانـ مـنـ شـأـنـ الـمـنـتـصـرـ أـنـ يـسـتـبـدـ وـيـمـلـيـ شـرـوـطـهـ بـدـافـعـ الغـيـظـ وـالـتـشـفـيـ وـالـأـنـتـقـامـ وـالـغـرـورـ بـالـقـوـةـ، فـإـنـ الرـسـوـلـ الـكـرـيـمـ - ﷺ - رـغـمـ ماـ فـعـلـتـ قـرـيـشـ ضـدـ إـلـيـسـمـ وـالـمـسـلـمـينـ.ـ لـمـ يـفـعـلـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ، بلـ كـانـ كـلـ هـمـهـ وـكـلـ قـصـدـهـ أـنـ يـؤـلـفـ قـلـوبـ الـمـشـرـكـينـ، وـيـجـعـلـهـاـ تـقـبـلـ عـلـىـ إـلـيـسـلـامـ الـذـيـ هـوـ دـيـنـ السـلـامـ.

لـقـدـ اـسـتـسـلـمـتـ قـرـيـشـ الـتـيـ يـعـرـفـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ فـيـهـاـ مـنـ تـأـمـرـوـاـ عـلـيـهـ لـيـقـتـلـوـهـ، وـمـنـ عـذـبـوـهـ وـأـصـحـابـهـ مـنـ قـبـلـ، وـمـنـ قـاتـلـوـهـ فـيـ بـدـرـ وـفـيـ أـحـدـ، وـمـنـ حـاـصـرـوـهـ فـيـ الـخـنـدقـ، وـمـنـ أـلـبـوـاـ عـلـيـهـ الـعـرـبـ جـمـيـعـاـ، وـمـنـ لـوـ اـسـتـطـاعـوـاـ قـتـلـهـ وـتـمـزـيقـهـ إـرـبـاـ إـرـبـاـ لـمـ تـوـانـوـاـ فـيـ ذـلـكـ لـحـظـةـ..ـ لـقـدـ أـصـبـحـتـ قـرـيـشـ فـيـ قـبـضـتـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ وـتـحـتـ قـدـمـيـهـ، أـمـرـهـ نـافـذـ فـيـ رـقـابـهـمـ، وـحـيـاتـهـمـ جـمـيـعـاـ مـعـلـقـةـ بـيـنـ شـفـقـيـهـ، وـفـيـ سـلـطـانـهـ، هـذـهـ الـأـلـوـفـ الـمـدـجـجـةـ بـالـسـلـاحـ تـسـتـطـعـ أـنـ تـبـيـدـ مـكـةـ وـأـهـلـهـاـ فـيـ لـمـ الـبـصـرـ.

لـكـنـ رـسـوـلـ اللـهـ - ﷺ - لـيـسـ بـالـرـجـلـ وـلـاـ بـالـقـاـنـدـ الـذـيـ يـعـرـفـ الـعـدـاوـةـ أـوـ يـرـيدـهـاـ أـنـ تـقـومـ بـيـنـ النـاسـ، وـلـيـسـ هـوـ بـالـجـبـارـ وـلـاـ بـالـمـتـكـبـرـ أـوـ بـالـذـيـ يـرـفعـ شـعـارـ "ـوـلـلـمـلـوـكـ"ـ لـقـدـ مـكـنـهـ اللـهـ مـنـ عـدـوـهـ، فـمـاـذـاـ فـعـلـ؟ـ لـقـدـ نـهـضـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ وـالـمـهـاجـرـونـ وـالـأـنـصـارـ بـيـنـ يـدـيـهـ وـخـلـفـهـ وـحـولـهـ، حـتـىـ دـخـلـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ، فـطـافـ بـالـبـيـتـ الـعـتـيقـ وـطـهـرـهـ مـنـ الـأـصـنـامـ وـالـصـورـ، ثـمـ وـقـفـ عـلـىـ بـابـ الـكـعـبـةـ وـقـرـيـشـ تـنـتـظـرـ مـاـذـاـ يـصـنـعـ وـقـالـ «ـيـاـ مـعـشـرـ قـرـيـشـ، مـاـ تـرـوـنـ أـنـيـ فـاعـلـ بـكـمـ؟ـ»ـ..ـ قـالـوـاـ خـيـرـاـ، أـخـ كـرـيمـ، وـابـنـ أـخـ كـرـيمـ..ـ قـالـ:ـ «ـفـإـنـيـ أـقـولـ كـمـاـ قـالـ يـوـسـفـ لـإـخـوـتـهـ، لـاـ تـشـرـبـ عـلـيـكـمـ الـيـوـمـ، اـذـهـبـوـاـ فـأـنـتـمـ الـطـلـقـاءـ»ـ.

وـكـانـتـ أـعـظـمـ الـأـثـارـ الـإـسـتـرـاتـيـجـيـةـ لـسـمـاـحةـ إـلـيـسـلـامـ الـتـيـ تـجـلـتـ بـأـجـلـىـ معـانـيـهـاـ أـنـ قـرـيـشـاـ لـمـ تـقـبـلـ عـلـىـ إـلـيـسـلـامـ فـحـسـبـ، بلـ حـمـلـتـ رـايـاتـ الـجـهـادـ

(1) السيرة النبوية دروس وعبر ، مصطفى السباعي.

في سبيل الله، وتحولت اتجاهاتها من أشد الناس عداوة للإسلام، إلى أحقرن الناس على رفع راية الجهاد في سبيله وتلك صورة رفيعة انفرد بها الإسلام.

18- لا شفاعة في حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: إن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففرز قومها إلى أسامة بن زيد يستشعرون، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوّن وجه رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «**أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»، ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت، قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووُجِدَت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير، عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم، من أجل تعطيل الحدود الإسلامية⁽¹⁾.

19- الوفاء الحمدي: المحيا محياكم والممات مماتكم:

قال أبو هريرة: ... أتى رسول الله ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضى، قال: فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: يا معاشر الأنصار قلت أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟

(1) انظر: معين السيرة، ص 402، التاريخ الإسلامي، (233/7).

قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: فما اسمي إذن؟ كلا، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحاجة محياتكم، والممات مماتكم، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويغدرانكم»⁽¹⁾.

20- السلام لا يعني الاسترخاء في الإعداد وبناء القوة:

كان جيش الإسلام في غزوة فتح مكة عشرة عشرة ألف مقاتل، ولكن بعد الفتح واستسلام العدو الرئيسي للإسلام (قرיש) ارتفعت قوة الجيش حتى بلغت ثلاثة ألف مقاتل في غزوة تبوك عام 9 هـ، ومعنى ذلك أنها خالل عام واحد وصلت إلى ثلاثة أمثالها يوم الفتح.

هذه الحقيقة التاريخية تستحق أن نتدبرها ونستخلص الدرس منها، وهو درس ينطوي على المبادئ التالية:

1. إن إعداد القوة التي ترعب العدو واجب مستمر في السلم وال الحرب على حد سواء.
2. إن فترات الهدنة أو السلام لا تعني الاسترخاء في الإعداد وبناء القوة.

3. إن الإسلام دين سلام ورحمة، لكنه في الوقت نفسه – دين قوة، فهو دين عملي، يأخذ الحياة من واقعها، وينظر إلى الناس من خلال فطرتهم التي فطروا عليها، فقد راعى طبائع الخلائق، وميلها إلى المشاحنات فأمر أهله بإعداد القوة لا ليعتدوا بها على الآخرين بل ليدافعوا بها عن أنفسهم ويرغموا أعداءهم أن يلزموا حدودهم.

4. وأخيراً، فإن السلام الذي يدعو إليه الإسلام هو: السلام الذي تحميه القوة؛ لأن القوة هي أكبر ضمان لتحقيق ذلك السلام والمحافظة عليه.

21- كشف خبر حاطب:

فإن الله أطلعه على بعض علم الغيب، والله هو الذي يطلع على علم الغيب - سبحان الله تعالى - من يريد، ولا يطلع على علم الغيب أحداً غير الأنبياء والأولياء الصالحين. وأما غيرهم من المشعوذين والكهنة، فقد يأتيهم من الجن، ومن

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 529.

خدامهم، والذين يتولونهم من الشياطين؛ فإن الكاهن يأتي إليه الشيطان، ويأتي إليه وليه، فيخبره، فيكذب معها مائة كذبة، كما قال عليه السلام.
وفي حديث في (سنن أبي داود) : قال: «**ويقرها في أذنه كما تقر الدجاجة، فياخذها فيزيد عليها مائة كذبة».**

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فيأتيه الخبر صافياً نقياً، لا شائبة فيه، من السماء.

22- قبول عذر المسلم:

فقد كاد حاطب رضي الله عنه وأرضاه أن يُودي بالإسلام والمسلمين في داهية، ولكن مع ذلك **قبل** عليه السلام معذره.
ومن حُسن إسلام المرء أن يقبل اعتذار من يعتذر إليه؛ فإنه ما اعتذر إليك إلا لجلالتك في قلبه، ومحبتك إليه، والله عز وجل سُتّير يحب الستر، وعذر العاذرين في الدنيا، ويسامح المسامحين، ويسير على الميسرين، والجزاء من جنس العمل.

إذا اعتذر إليك مسلم قد أخطأ، فقبل عذرها، واحمله على أتم المحامل فإن هذا من شيم الصالحين، بل إنه من شيم العرب من قبل ذلك.

ف النابغة الذبياني لما أساء مع النعمان بن المنذر ، قبل النعمان معذره، فيقول:

**لئن كنت قد بلغت عنِي وشایةً لمبلغك الواشي أغش وأكذب
فقبل النعمان عذرها، فيقول:**

**خلفت فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مذهبٌ
والرسول عليه الصلاة والسلام قبل أذعار الناس، حتى الذين كادوا
له، والذين دبروا اغتياله، وأخرجوه من دياره.**

وفي حديث في سنته نظر: أن كعب بن زهير قدم على الرسول عليه الصلاة والسلام وقد أساء، وأهدر دمه، فلما وصل إلى المدينة قال للصحابة: ماذا أفعل؟ والرسول عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمي، والله ما تهنيث بطعم ولا شراب، ولا اكتحلث بنوم؛ لأنه كان يمضى في الليل وينام في النهار، قالوا: أنت شاعر مجيد، اصنع لك أبياتاً وقدمها للرسول عليه الصلاة والسلام، فأتى في صلاة الفجر، فلما صلى عليه السلام ألقى عليه تلك المقطوعة الرائعة:

بانت سعاد فقلبياليوم متبوؤٌ مُتَّمِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

إلى أن يقول:

نبئُتُ أَن رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْوَعْدُ
مَهْلًاً هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً إِلَى قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيْظٌ وَتَفَصِيلٌ
لَا تَأْخُذنِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاءِ وَلَمْ أَذْنَبْ
فَعَفَا عَنْهُ ﷺ وَسَامَحَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ حَطَّ لَهُ جُبَّتَهُ مِنْ عَلَيْهِ، فَبَيْعَتْ بِأَرْبَعينَ
أَلْفًا فِي عَهْدِ مَعَاوِيَةَ، وَبَقِيَتْ يَتَداوِلُهَا خَلْفَاءُ الدُّولَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي الْأَنْزَارِ،
وَقِيلَ فِي بَعْضِ الرَّوَايَاتِ: إِنَّهَا لَا تَزَالُ فِي الْمَتْحَفِ فِي اسْطَنْبُولَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

23- غضب الصحابة لله:

الغضب لنفس ردى، والغضب للناس عليهاء، والغضب لله عز وجل عليهاء وأجر.

ولذلك يقول بعض أهل العلم: طابع أصحاب محمد ﷺ أنهم يغضبون الله، ويرضون الله؛ فلا يغضبون لأنفسهم.
فَعُمَرَ كَانَ يُسَبِّ أَمَّاَنَ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ، وَيُسَبِّ أَمَّاَنَ النَّاسِ، فَمَا يَغْضِبُ، فَإِذَا سَمِعَ أَنَّ دِينَ اللَّهِ أَوْ رِسَالَةَ اللَّهِ، أَوْ شَيْئًا مِنْ مَبَادِئِ الدِّينِ الْخَالِدِ يَنْهَا شَيْءٌ، غَضَبَ وَأَصْبَحَ كَالْأَسْدِ.
فَهَذَا هُوَ الغَضَبُ لِلَّهِ، وَالرِّضَا لِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم هناك حول الغضب لله مسائل:

ورد من الغضب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه طارد مجرماً كافراً مشركاً، فلما طارده وقع المجرم على ظهره، فأتى علي رضي الله عنه يطعنـه بالسيف، فبصقـ هذا المشرك في وجه أبي الحسن ، فكـ رضي الله عنه وأرضاه عن قتل المشرـك.

قال الصحابة: ما لك؟ قال: أولاً كنت أريد قتله لوجه الله، والآن أردت أن أقتله لنفسي، فترك ما لنفسه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيما لتلك القلوب! كيف بلغـت من التربية ومن الصدق؟!
وـ هـمـ كماـ قالـ ابنـ مـسـعـودـ [الـفـتـحـ: 18]ـ : [[أـخـلـصـ الـأـمـةـ إـيمـانـاـ، وـأـعـقـمـهاـ عـلـمـاـ، وـأـبـرـهاـ قـلـوـبـاـ، وـأـقـلـهاـ تـكـلـفـاـ]].

ولذلك يقول الله فيهم يوم الفتح: «فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَثْحًا قَرِيبًا» [الفتح: 18].

قال ابن القيم رحمه الله : "علم ما في قلوبهم من اليقين والإيمان، ومن

القوى والبر، فهم أتقى الناس، وأبر الناس، وأصدق الناس، وأخشنى الناس".

فسبحان الذي اختارهم لصحبة رسوله ﷺ.

24- الفطر في السفر وأنه أفضل من شق عليه الصوم:-

وذلك بدلالة هذا الحديث، الذي أفتر فيه ﷺ وهو مسافر إلى مكة لما شق على الناس، ولما خالفه بعض الناس، قال: « أولئك العصاة، أولئك العصاة ».»

فمن شق عليه الصيام في السفر، فالأفضل في حقه أن يفطر؛ لهذا الحديث ولغيره.

25- إرهاب العدو بالقوة:

وفيها معلم من معالم الإسلام وهو أن الواجب على المسلمين أن يظهروا التكافف والتعاون، وأن يظهروا المراسيم الإسلامية بقوّة، حتى يرهبوا أعداء الله، خاصة في الأعياد، وفي الجمع، ومناسبات الخير. فمن إرهاب العدو:-

حمل ذلك بعض الصحابة رضوان الله عليهم على لبس الحرير في المعركة؛ ليرهبوا أعداء الله: فإذا رأى المسلم أن من اللباس ما يغيط به الكافر والمنافق فله أن يلبسه.

وبعدهم مشى مشية الخيلاء: ك أبي دجانية ، الفارس المشهور؛ فإنه أخذ يتختار يوم أحد ، فقال عليه الصلاة والسلام: « إن هذه مشية يبغضها الله؛ إلا في مثل هذا الموطن » حيث أراد أن يغطي بها الكفار.

وإذا كان من القوة والمجتمع ومن الشيء أن يغطي به أعداء الله فإن الدين - كما يقول ابن القيم - يكون على المراغمة: أي: أن تراغم أعداء الله، فما أحسن المراغمة! وأعظم ما يُراغم الشيطان، فإنك كلما عصيته أرغمت أنفه في التراب.

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام متعمداً لهذا العدو، فإنه دخل بعشر كتائب، وزعها على أربعة جيوش، وأشعل كل جندي ناراً، حتى أخذت جبال مكة تلتهب، فأدخل الله الرعب في قلوب الكفار.

26- قراءة القرآن على الدابة:

فهذا جائز، ولا يأس به، فالرسول عليه الصلاة والسلام في قصة الفتح،قرأ: « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » [الفتح:1] وأخذت ثهوجل به

الدابة، فأخذ صوته يتردد ﴿، قال أحد الصحابة: { والله لو لا أن يجتمع على الناس لرجعتكم بصوتي كما رجع رسول الله ﷺ بصوته } . فإذا ركبت السيارة، أو الطائرة، أو أي دابة فلك أن تقرأ كتاب الله عز وجل، فإنه نعم الأنبياء؛ لأن بعض الناس يتخرج؛ لأنه راكب أو ليس مستقرًا في مكان.

وورد عنه عليه الصلاة والسلام: «**أن داود عليه السلام سهل الله عليه الزيور** » وفي لفظ آخر: (القرآن) لكن حمله بعض المحدثين على أنه الزيور: { فكان يقرأه قبل أن تُسْرَج له الدابة } . فهذا دليل على أنهم كانوا يقراءون في أسفارهم، فلا بأس من القراءة على الدابة، ولا بأس أن تقرأ وأنت تمشي، إذا كان هذا أصلح لقلبك وأفيد وأحفظ لوقتك.

كان بعض الصالحين إذا رأى الشباب يتوجهون إلى المساجد قال: تفرقوا من طريقكم إلى المسجد وفي رجوعكم. قالوا: لماذا؟ قال: لأنكم إذا سرتם سوياً تحدثتم، وإذا تفرقتم قرأتם القرآن وذكرتم الله.

27- طمس الصور:

فالرسول عليه الصلاة والسلام لما دخل البيت، طمس صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهذا واجب المسلم ألا يبقى في بيته صورة، خاصة تلك التي تعلق، فإن الرسول ﷺ قال: «**لَا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة** » وفي لفظ: (ولا جنub) أو كما قال

ص

فعلى المسلم أن يكون بيته نظيفاً من هذه الصور، خاصة الخليعة منها، أو التي تتعلق للذكرى وللتعظيم، وهذه محرمة. أما الضرورية التي في الحفاظ والمستندات فلا بأس بها للضرورة.

28- عدم موالة المشرك ولو كان قريباً:

فإن أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان لما دخل عليها أبوها، سَخَبَتْ عنه فراش رسول الهدى ﷺ . فعلى المسلم أن ينتبه لهذه، وألا يوالى مشركاً ولو كان ابنًا أو أباً أو أخاً إذا كان يحد الله عز وجل ويعارض كتابه وسنة رسوله ﷺ بل يعاديه، فإن هذا هو الإيمان.

29- رعي النبي ﷺ للغنم:

فقد كان سيد المتواضعين، وكان يعلن حالات الفقر والذكريات الأولى التي مرت به في أول حياته؛ فإن بعض الناس إذا رفعه الله في الدنيا وتولى منصباً أو تصدر في الناس أو توجه، لا يذكر ذاك الماضي، كأنه نشأ في هذا النعيم منذ نعومة أظفاره، وكأنه ما عرف البؤس ولا الجوع؛ لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقول: «**رعيت الغنم على قراريط لأهل مكة لـ ابن أبي مُعَيْط**».

و عمر بن الخطاب خطب في الناس، فلما خطب فيهم قال: [] من أنا؟ قالوا: أنت أمير المؤمنين، قال: أنا عمر بن الخطاب ، كنت أدعى في الجاهلية عميراً ، كنت أرعى على قراريط لآل أبي مُعَيْط الغنم، فلما انصرف قال ابنه عبد الله : ما حملك على ما فعلت؟ قال: لما رأيت الجموع أمامي أعجبتني نفسي، فأردت أن أكسرها []. وفي فتح مكة أتت بنت قيلة إلى الرسول ﷺ ، فرأته الرسول عليه الصلاة والسلام فأرعدت فرائصها، وخافت من هيبيته، فقال: «**هَوْنٌ عَلَيْكِ** » وعند أحمد : أنه رجل، قال له: «**هَوْنٌ عَلَيْكَ** ، فإني ابن امرأة **كانت تأكل القَدِيدَ بِمَكَةَ** » عليه الصلاة والسلام.

نعم، كانت تأكل القديد بـ مكة ؛ لكن أصلاح الله على يديك البشرية، ورفع على يديك معلم الإنسانية، وزعزع بفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُم بإرسالك معلم الوثنية ذكروا عن الإمام أحمد : أنه خرج إلى السوق، فأراد الناس أن يحملوا الحطب عنه، وكان على ظهره، فقال: نحن قوم مساكين، لو لا ستر الله لافتضنا.

30- قبول الهدية ولو كانت يسيرة:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو قائد الجيش ومعلم البشرية أرسلت له فخذ أربن طُبْخَت، فَقَبِّلَهَا ﷺ ودعا لـ أبي طلحة . فالمسلم يقبل الهدية، ويقبل ما عرض له سواء كان كثيراً أو قليلاً، لأنه لا قيمة للمسلم عند نفسه، لأن الذي يرفع ويكرم ويُسدد ويُوفّق هو الحي القيوم، أما الناس فليس لأحد عندهم قدر إلا ما قدروه لأسباب دنيوية.

قال ابن تيمية في المجلد الأول وهو يتحدث عن العقيدة: إن الناس إذا أكرموا الإنسان فإنما يكرمونه لأسباب أكثرها دنيوية.

حتى أنه قيل: من استغنىت عنه فأنت نظيره، ومن احتجت إليه فأنت أسيره، ومن احتاج إليك فأنت أميره فأنت بين أمير أو أسير أو نظير.

31- الأمان للمشرك:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ما باهت المشركين وما عاجلهم حتى أسمعهم داعي الله وكلامه، كما فعل بـ أبي سفيان يوم أتاه في الخيمة.

32- صلاة الضحى:

وهي من أعظم النوافل التي يتقرب بها المقربون إلى الله، وهي صلاة الأوابين، صلاها ﷺ ثمانية ركعات يوم الفتح، وقيل: صلاها ستًا، في بعض الأوقات، وقيل: صلاها أربعاً، وأكثر ما أوصى ﷺ أن تصلى ركعتين اثنتين، فإنه أوصى أبا هريرة كما في (الصحيح) قال: «أوصاتي خليلي ﷺ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت: بركتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام، وبصيام ثلاثة أيام من كل شهر» وعند أحمد في (المسندي) في رواية أخرى: «وبغسل يوم الجمعة».

فعلى المسلم أن يفرغ من وقته دقائق في النهار، ليصلِّي ركعتي الضحى؛ فإنها تعادل أجر ثلاثة وستين صدقة، فالتسبيحة بصدقة، والتحميد، والتکبیرة، والتہليلة، وإصلاح بين الناس، وأمر بمعرف ونهي عن منكر صدقة، على كل مفصل وكل سلامي، وفي الإنسان ثلاثة وستون مفصلاً، فيغني عن ذلك كله ركعتان من الضحى.

ووقت صلاة الضحى: بعد طلوع الشمس، من ارتفاعها إلى قريب الظهر، سباحاً طويلاً، فمن أراد أن يتقرب فليتقرب.

وقل لـ بلال العزم من قلب صادق أرْحَنَا بها إن كنت حقاً مُصَلِّياً
توضاً بما التوبة اليوم مخلصاً به ترق أبواب الجنان
الثماني

33- الصلاة داخل الكعبة:

وذلك خلافاً لما ذهب إليه بعض أهل العلم، حيث قالوا: لا يُصلَّى داخل الكعبة، وال الصحيح أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلَّى داخل الكعبة، وأنه لا بأس به.

وأما الأمر المنوع: فهو الصلاة على ظهر الكعبة، فوق السطح؛

ل الحديث الترمذى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: {سبع مواطن نهى الله عن الصلاة فيها: ظهر الكعبة، ومعاطن الإبل، والمقبرة، والمجازرة، وقارعة الطريق } إلى آخر تلك السبعة؛ لكن هذا الحديث في سنته زيد بن جبيرة الأنصاري ، وهو ضعيف عند أهل العلم.

34- قبول إجارة المرأة:

فإن الرسول ﷺ قبل إجارة أم هانئ لـ ابن هبيرة لماً أجرت ابن هبيرة من علي بن أبي طالب .

35- الكلام في المغتسل للحاجة:

فيجوز لك للحاجة وأنت تغتسل أن تتكلم، إلا إذا كان في مكان تُقضى فيه الحاجة فكره أهل العلم ذلك، لكن المكان الذي يُغتسل فيه، فلك أن تتكلم ولا بأس؛ لأنه لم يردد مانع من ذلك.
فالرسول عليه الصلاة والسلام وفاطمة تستره، قال: {من هذه؟
قالت: أم هانئ ، قال: مرحباً بـ أم هانئ } فتكلم معها عليه الصلاة والسلام وهو في المغتسل.

36- عودة حرمة مكة:

فإنه لما خطب ﷺ الجموع يوم مكة ، خاف أن يتوهم أنه يجوز استحلال مكة دائمًا ، والدخول بالجيوش والمقاتلة، فقال: « يا أيها الناس! إنما أحبت لي مكة ساعة من نهار، ثم عادت حُرمتها كما كانت يوم خلق الله السموات والأرض، لا يُغضّد شوكتها، ولا يُخْتَل خلاها، ولا ينفر صيدها، فمن فعل ذلك - في بعض الروايات - فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ». .

ولذلك في صحيح البخاري : عن أبي شريح قال: لما حَرَبَ عمرو بن سعيد الأشدق - وهو أموي ، وهو أول من رأَفَ على منبر الرسول عليه الصلاة والسلام حيث يقول ﷺ في أثر فيه ضعف: « كَانَى بِنْيَ أَمِيَةَ يَتَازُونَ عَنْ مَنْبِرِي كَمَا تَتَازَرُ الْقَرْدَةُ، يَرْعُفُونَ » أي: يَرْعُفُونَ بالدم، فأتى عمرو بن سعيد ، وكان جباراً بائساً ظلوماً غشوماً، دخل المدينة وخطب على المنبر، ثم سَعَلَ، ثم رَأَفَ، نزل الدم من أنفه، فعرف الصحابة أن هذا منهم.

فأتى عمرو بن سعيد هذا فحرَبَ الجيوش، يريد بها مهاجمة ابن الزبير في مكة ، فأتى أحد الصحابة وهو أبو شريح ، فقال: يا أيها

الأمير! اسمع مني كلاماً، قال: ما هو؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ غداة الفتح، سمعته أذناني، ورأته عيني، وواعاه قلبي، يقول: «إن مكة أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها كما كانت يوم خلق الله السماوات والأرض، لا يختلى خلاها، ولا يغضى شوئها، ولا ينفر صيدها، فبَسَرَ الأمير في وجهه، وكَلَحَ، وقال: نعم أعلم بهذا منك، يا أبا شريح! والله ليس بأعلم ولا أدرى، لكن هكذا ثم قال: الحرم لا يُعيَّد فاراً بِخَرْبَةٍ» هذه رواية، بمعنى أنه لا يعيَّد هذا.

فليعلم هذا.

37- لا يرث المسلم الكافر:

وهذا هو الصحيح؛ إلا ما خالف معاذ رضي الله عنه وأرضاه جمهور أهل العلم في المسألة، وقال: المسلم يرث من الكافر؛ لكن الكافر لا يرث من المسلم، واستدل معاذ أبو عبد الرحمن ، وهو سيد العلماء بقوله ﷺ: «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه» فيقول: المسلم يرث من الكافر، والكافر لا يرث من المسلم.

لكن جماهير أهل العلم، وهذا هو الصحيح، يقولون: لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم.

فالرسول عليه الصلاة والسلام ترك أملاكه وتركته لما دخل؛ لأن الكفار أخذوها، ولأن الذي ورث طالب بن أبي طالب ، وميراث الرسول ﷺ كان عند عمه أبي طالب ، فأخذها طالب ، فأصبحت ميراث مشترك.

38- تغيير الشيب بغير السواد:

وقد مررت قصة، لكنني صدفت عنها، وهي: أن أبا قحافة والد أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه أبو بكر اسمه: عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة ، فأبو قحافة هو أبوه- كان يوم الفتح موجوداً، أتدرون أين كان؟ كان يرعى الغنم في جبل من جبال مكة ، ولم يسلم حتى ذلك اليوم، وقيل: أسلم، فقال لابنته، أخت أبي بكر : ماذا ترين؟ قالت: يا أباها! إبني أرى سواداً يُقاد، قال: المَحِي، هل هو ثابت أو لا؟ قالت: لا.

ثبت بالأرض، قال: هذا الخيل.

أترين شيئاً؟ قالت: أرى رجلاً يصعد وينزل أمام الخيل، قال: هذا الخيال يَرُدُّ الخيل ويصفها أي: خيل الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام من تواضعه ﷺ ومن معرفته لمكان

أبي بكر ولقامه في الإسلام، قام ﷺ وذهب ليزور أبا قحافة هذا، فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه: نحن نأتي به يا رسول الله، أي: لمكانة الرسول عليه الصلاة والسلام فأتوا به وهو شيخ كبير، ولحيته كالثغامة البيضاء، أي: أنها بيضاء كلها ليست مُغَيَّرة، لا بأسود ولا بأحمر ولا أصفر، فقال ﷺ: «**غيروا هذا وجنبوه السواد**» وجنبوه السواد: ليست ضعيفة، بل هي صحيحة، وليس مُدرَجة بل هي متصلة في المتن.

فال صحيح أن السواد لا يصح به، وأنه منهي عنه؛ ولكن يغير الشيب إما بأحمر أو بحناء، أو بكتم، أو بشيء من الأصفر.

وعند أبي داود في سننه حديث فيه كلام: يقول ﷺ: «**ليكونن أقوام من أمتي في آخر الزمان لحاصن حواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة يوم القيمة**» أو كما قال ﷺ، قيل: هؤلاء الذين يغيرون بالسواد؛ لأن فيه خديعة.

واستثنى بعض العلماء -كما يقول ابن حجر- استثنوا ذا السلطان؛ فإن ذا السلطان يغير بالسواد؛ لكن هذا الاستثناء ينبغي أن يتوقف إلى الدليل، وقالوا: إن الحسن و الحسين غيرا بالسواد. لكن الأولى للمسلم أن يجتنب هذه الأمور التي فيها مخالفة؛ لأنها ظهرت النصوص فيها.

39- أداء الأمانة إلى أهلها:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ مفاتيح الكعبة، فأتى علي بن أبي طالب فقال: { سلم لنا المفاتيح يا رسول الله! } فقال: لا، اليوم وفاء وبر، ثم دعا عثمان بن طلحة ، وقال: «**خذها تالدة ووالدة في يديك، لا ينزعها منكم إلا ظالم**» أي: مفاتيح الكعبة، فأخذها، وهي ما زالت في أيديهم إلى اليوم.

40- لبس السواد للحاجة:

فإن بعض أهل العلم كره السواد؛ لكن لا بأس به، فالرسول عليه الصلاة والسلام لبس ثوباً مُرَحَّلاً من شعر أسود، ولبس عمامة يوم الفتح سوداء.

ولذلك لما أتى أبو مسلم الخراساني ، الطاغية الظالم، الذي قاد حملة دولة بنى العباس ودخل إلى بغداد ، وهو الذي أسقط دولة بنى أمية، وقتل مليوناً من المسلمين، أي: ألف ألف - كما يقول الذهبي - وهو مسلم في الظاهر، وأظنه مسلماً، لما أتى ووقف على المنبر يوم الجمعة

وعليه عمامة سوداء، وقف أحد المسلمين وقال: ما لي أراك تلبس السواد؟ قال أبو مسلم الخراساني : حدثني فلان عن فلان عن أبي الزبير عن جابر { أن الرسول عليه الصلاة والسلام دخل يوم الفتح عليه عمامة سوداء } يا غلام! تناوله فاضرب عنقه، فضرب عنقه وسط الصف .
هذا أبو مسلم .

فالرسول ﷺ لبس السواد صراحةً؛ ولكن أحسن اللباس هو البياض: «**البسوأ البياض وكفروا فيه موتاكم**» .

41- لبس أدوات السلاح داخل الحرم:

فلا كراهة في ذلك، وإنما كره أهل العلم ذلك لغير الحاجة، أما للحاجة فيجوز لبس السلاح داخل الحرم؛ وهي مسألة عالجها البخاري في (صحيحه) وتطرق إليها.

تأملات في قصة حاطب بن أبي بلتعة:

ومن القصص التي ينبغي لقادة الصحوة أن يتأملوها قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حينما بعث كتاباً لقريش يخبرهم فيه بعزم النبي ﷺ - مع هذا الموقف والقصة موجودة في (صحيح البخاري).

42- الموازنة بين المصالح والمفاسد : (التخرجن الكتاب أو لنجردك).

هذا الموقف يدل على أنه ينبغي مراعاة الموازنة بين المصالح والمفاسد المترتبة على أمر ما ، فهنا نجد أن مفسدة تجريد المرأة أخف من أن ينتشر خبر عزم النبي ﷺ - على فتح مكة .
ومثل هذا المفهوم جدير أن يربى عليه أبناء الحركة الإسلامية حتى لا يقف

الجمود حجر عثرة أمام كثير من الأعمال بحجية حرفيّة النص وعدم القدرة على استيعاب مفهوم الموازنة ؛ ولا بد من إدراك أن هناك فرقاً بين الحكم وبين إنزاله على أرض الواقع ؛ وهناك الكثير من الأحداث من سيرة الرسول ﷺ - وسلف الأمة الدالة على مراعاة هذا المفهوم .

43- عدم التسرع في إصدار الأحكام :

قال عمر ﷺ للرسول ﷺ : (إن حاطباً خان الله ورسوله والمؤمنين) ؛ لكن الرسول ﷺ - لم يسمع منه رغم مكانة عمر - رضي الله عنه-

وسائل حاطباً ليثبت منه ويعرف عذرها .

44- المصارحة والوضوح : (ما حملك على ما صنعت ؟)

أخطأ حاطب رضي الله عنه بإرساله كتاباً إلى قريش ، والرسول - ﷺ - لما علم بهذا صارحه وأراد أن يعرف ما هي دوافعه لذلك .
ويستفاد منه أيضاً حسن الظن بالمسلم ، والمصارحة بين القائد وأتباعه في جو من الصدق والوضوح .

45- الاستماع إلى الرأي المخالف :

لم يقتتنع عمر رضي الله عنه براجع الرسول - ﷺ - مراراً : (إنه خان الله ورسوله والمؤمنين) والرسول كان يكرر : «**صدق ؛ لا تقولوا له إلا خيراً** » ولم يعنف عمر ؛ لأنه خالفه مع أنه رسول مؤيد بالوحي .
ومن المؤسف أنه في بعض التجمعات إذا أراد مصلح أن يزيل القذى لثرى الحقيقة اتهم بأنه عضو فاسد مريض يجب اقتلاعه ، وأصبحنا نتوارث الأخطاء ونشئ أجيالاً تربت على الخنوع ، تفكير عقل غيرها .

46- تحريم نكاح المتعة:

حرّم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام⁽²⁾. ويرى الإمام النووي⁽³⁾ أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خير، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد. ويرى ابن القيم⁽⁴⁾ أن المتعة لم تحرم يوم خير، وإنما كان تحريمهما فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خير وغزوة الفتح، والمتافق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح⁽⁵⁾.

47- الولد للفراش والعاهر الحجر :

قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر كما جاء ذلك

1) الموار : أصوله المنهجية وآدابه السلوكية لأحمد الصاويان ، ص 29 ، طبعة دار الوطن

2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 575.

3) النووي على شرح مسلم (181/9)، اعتمد على فقه الأحكام على ما استخرجه الدكتور العمري في المجتمع المدني، والدكتور مهدي رزق الله في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.

4) انظر: زاد المعاد (3:343-459-464).

5) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 575.

في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنّه ولد على فراش أبيه⁽¹⁾.

48- إنزال الناس منازلهم :

وقد تجلّى هذا في إعطاء الرسول - ﷺ - أبا سفيان كلماتٍ يقولهن، فيكون ذلك فخرًا له واعتزازًا، وهي: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن" ينادي بها بأعلى صوته.

49- وجوب كسر الأصنام :

في هذه الغزوة نجد وجوب كسر الأصنام والصور ، والتماثيل، وإبعادها من المساجد ببيوت الله تعالى -.

50- جواز صلح أهل الحرب :

من دروس الفتح جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين وهل يجوز فوق ذلك ؟ الصواب أنه يجوز للحاجة والمصلحة الراجحة كما إذا كان بال المسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم وفي العقد لما زاد عن العشر مصلحة للإسلام .

51- رسول الكفار لا يقتل :

وفيها أي الغزوة أن رسول الكفار لا يقتل فإن أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ولم يقتله رسول الله - ﷺ - إذ كان رسول قومه إليه .

52- جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً :

جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً لأن عمر رضي الله عنه سأله رسول الله - ﷺ - قتل حاطب بن أبي بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ولم يقل - ﷺ - لا يحل قتله إنه مسلم بل قال وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال أعملوا ما شئتم بدر ، فقال أعملوا ما شئتم

(1) البخاري، كتاب المغازي رقم 4303

فأجاب بأن فيه مانعاً من قتلها وهو شهوده بدرأ ، وفي الجواب بهذا كالتبني على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين في مذهب أحمد ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يقتل وهو ظاهر مذهب أحمد والفريقان يحتجون بقصة حاطب والصحيح أن قتله راجع إلى رأي الإمام فإن رأى في قتله مصلحة المسلمين قتله وإن كان استباقه أصلح استبقاء . والله أعلم .

53- جواز تجريد المرأة للمصلحة العامة :

وفي الغزوة جواز تجريد المرأة كلها وتكثيفها للحاجة والمصلحة العامة فإن عليها والمقداد قالا للظعينة لتخزن الكتاب أو لنكشفنك ، وإذا جاز تجريدها حاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها ، فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى .

54- الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تکفر بالحسنة

الكبيرة الماحية :

وفي الغزوة يقول بن القيم في زاد المعاد⁽¹⁾ أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تکفر بالحسنة الكبيرة الماحية كما وقع الجس من حاطب مكفراً بشهوده بدرأ ، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها ، وفرجه بها ، ومباهاته للملائكة بفاعلها ، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة وتضمنته من بغض الله لها ، فغلب الأقوى على الأضعف فاز الله وأبطل مقتضاه وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات الموجبين لصحة القلب ومرضه وهي نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاحقين للبدن فإن الأقوى منها يقهر المغلوب ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف فهذه حكمته في خلقه وقضائه وتلك حكمته في شرعيه وأمره . وهذا كما أنه ثابت في حمو السيئات بالحسنات لقوله تعالى : { إِنَّ الْحُسْنَاتِ يَذْهَبُنَّ السَّيْئَاتِ } [هود : 14] ، قوله تعالى : { إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } [النساء : 31] ، قوله ﷺ وأتبع السيئة الحسنة تمها فهو ثابت في عكسه لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ

(1) انظر: زاد المعاد (3) 343 - 459 .

وَالْأَذْى [البقرة 264] ، قوله **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتُكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرٍ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَخْبَطُ أَعْمَالَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾** [الحجرات 2]. وقول عائشة ، عن زيد بن أرقم أنه لما باع بالعينة إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري في " صحيحه " « **مِنْ تَرْكِ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَبْطَ عَمَلَهُ** » إلى غير ذلك من النصوص والآثار الدالة على تداعع الحسنات والسيئات وإبطال بعضها ببعضها ، وذهب أثر القوي منها بما دونه وعلى هذا مبني الموازنة والإحباط . وبالجملة فقوة الإحسان ومرض العصيان متتصاولان ومتحاربان ولهذا المرض مع هذه القوة حالة تزايد وتراكم إلى الهلاك وحالة انتظام وتناقص وهي خير حالات المريض وحالة وقوف وتقابل إلى أن يقهر أحدهما الآخر وإذا دخل وقت البحاران وهو ساعة المناجزة فحظ القلب أحد الخطتين إما السلامه وإما العطاب وهذا البحاران يكون وقت فعل الواجبات التي توجب رضى رب تعالى ومغفرته أو توجب سخطه وعقوبته وفي الدعاء النبوى أسألك موجبات رحمتك وقال عن طلحة يومئذ أوجب طلحة ورفع إلى النبي ﷺ رجل وقالوا : يا رسول الله إنه قد أوجب فقال اعتقوا عنه وفي الحديث الصحيح أتدرون ما الموجبات ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : **« مَنْ ماتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ ماتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ الْمَنْجِي قُطْعًا »** . وكما أن البدن قد تعرض له أسباب ردئه لازمة توهن قوته وتضعفها ، فلا ينتفع معها بالأسباب الصالحة والأغذية النافعة بل تحيلها تلك المواد الفاسدة إلى طبعها وقوتها ، فلا يزداد بها إلا مرضًا ، وقد تقوم به مواد صالحة وأسباب موافقة توجب قوته وتمكنه من الصحة وأسبابها ، فلا تقاد تضره الأسباب الفاسدة بل تحيلها تلك المواد الفاضلة إلى طبعها ، فهكذا مواد صحة القلب وفساده .

55- قوة إيمان حاطب في شهود بدر محت ما صنع :

فتتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر ، وبذلك نفسه مع رسول الله ﷺ وإثارة الله ورسوله على قومه وعشائره وقرباته وهم بين ظهراني العدو وفي بلدتهم ولم يثن ذلك عنان عزمه ولا قل من حد إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهله وعشائره وأقاربه عندهم فلما جاء مرض الجس برزت إليه هذه القوة وكان البحاران

صالحاً فاندفع المرض وقام المريض كأن لم يكن به قلبة ولما رأى الطبيب قوة إيمانه قد استعملت على مرض جسه وقهرته قال لمن أراد فصده لا يحتاج هذا العارض إلى فصاد وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم وعكس هذا ذو الخويسرة التميمي وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم في الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه كيف قال فيهم " لئن أدركتم لأقتلنهم قتل عاد وقال أقتلواهم فإن في قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم . وقال شر قاتل تحت أديم السماء فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة الممهلة واستحالـت فاسدة . حال إبليس لما كانت المادة الممهلة كامنة في نفسه لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به وكذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله فالمعول على السرائر والمقاصد والنیات والهم فهي الإكسير الذي يقلب نحاس الأعمال ذهبا ، أو يردها خبثا ، وبالله التوفيق . ومن له لب وعقل يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها ، وانتفاعه بها ، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وأحكام الموازنة وإيصال اللذة والألم إلى الروح والبدن في المعاش والمعاد وتفاوت المراتب في ذلك بأسباب مقتضية بالغة ومن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

56- دروس من خطبه العظيمة ﷺ ثاني يوم الفتح :

1- تحريم سفك الدم في المكّة:

في قوله ﷺ: «**فَلَا يَحِلُّ لَأَحَدٍ أَنْ يَسْفُكَ بَهَا دَمًا**» هذا التحريم لسفك الدم المختص بها ، وهو الذي يباح في غيرها ، ويحرم فيها لكونها حرما ، كما أن تحريم عضد الشجر بها ، واحتلاء خلائها ، والتقاط لقطتها ، هو أمر مختص بها ، وهو مباح في غيرها ، إذ الجميع في كلام واحد ونظام واحد وإلا بطلت فائدة التخصيص وهذا أنواع.

2- لا يقلع حشيش مكة ما دام رطبا:

وقوله ﷺ: «**وَلَا يَخْتَلِي خَلَاهَا**» لا خلاف أن المراد من ذلك ما ينبت بنفسه دون ما أنبته الآدميون ولا يدخل اليابس في الحديث بل هو للرطب خاصة فإن الخلا بالقصر الحشيش الرطب ما دام رطبا ، فإذا يبس فهو حشيش وأخلت الأرض كثر خلاها ، واحتلاء الخل : قطعه

ومنه الحديث كان ابن عمر يختلي لفرسه أي يقطع لها الخل ، ومنه سميّت المخلاة وهي وعاء الخل ، والإذخر مستثنى بالنص وفي تخصيصه بالاستثناء دليل على إرادة .

3- لا ينفر صيدها :

وقوله ﷺ : «**ولا ينفر صيدها**» صريح في تحريم التسبب إلى قتل الصيد وأصطياده بكل سبب حتى إنه لا ينفره عن مكانه لأنه حيوان محترم في هذا المكان قد سبق إلى مكان فهو أحق به ففي هذا أن الحيوان المحترم إذا سبق إلى مكان لم يزعجه عنه .

4- لا تملك لقطة الحرم :

وقوله ﷺ ولا يلقط ساقطتها إلا من عرفها وفي لفظ ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد فيه دليل على أن لقطة الحرم لا تملك بحال وأنها لا تلقط إلا للتعریف لا للتملیک وإلا لم يكن لتخصيص مكة بذلك فائدة أصلا ، وهذا من خصائص مكة ، والفرق بينها وبين سائر الآفاق في ذلك أن الناس يتفرقون عنها إلى الأقطار المختلفة فلا يمكن صاحب الضالة من طلبها والسؤال عنها ، بخلاف غيرها من البلاد .

5- لا يتعين في قتل العمد القصاص:

قال ﷺ في الخطبة ومن قتل له قتيل فهو بخير الناظرين ، إما أن يقتل وإما أن يأخذ الديمة فيه دليل على أن الواجب بقتل العمد لا يتعين في القصاص بل هو أحد شيتين إما القصاص وإما الديمة .

57- جواز إجارة المرأة وأمانها للرجلين:

وفي قصة الفتح من الفقه جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجاز النبي ﷺ أمان أم هانئ لحمويها .

58- جواز قتل المرتد الذي تغلوظ ردهه من غير استتابة :

وفي هذه الغزوة من الفقه جواز قتل المرتد الذي تغلوظ ردهه من غير استتابة فإن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهواجر ، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ لي Bai'uh فأنمسك عنه طويلا ، ثم باييعه وقال إنما أنمسكت عنه ليقوم إليه بغضكم ، فيضرب عنقه فقال له رجل هلأ أو مات إلى يا رسول الله ؟ فقال ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين فهذا كان قد تغلوظ كفره بردته بعد إيمانه وهجرته وكتابة الوحي ثم ارتد ولحق بالمرشكين يطعن على الإسلام

ويعييه وكان رسول الله ﷺ يريد قتله فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة لم يأمر النبي ﷺ بقتله حياءً من عثمان ولم يبأيه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتلته فهابوا رسول الله ﷺ أن يقدموا على قتله بغير إذنه واستحى رسول الله ﷺ من عثمان وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح فبأيه وكان من استثنى الله بقوله ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخْفَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران 86 - 89] ، وقوله ﴿مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَانَةُ الْأَعْيُنِ﴾ أي أن النبي ﷺ لا يخالف ظاهره باطنه ولا سره علانيته وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يومر به بل صرح به وأعلنه وأظهره .

59- مثل لعزّة الإسلام والمسلمين (أذان بلال في الكعبة) :

قال ابن هشام وحدثني 1: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أبي سعيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أبي سعيد لقد أكرم الله أسيداً لا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغضبه . فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه لحق لاتبعته ، فقال أبو سفيان لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال قد علمت الذي قلت ، ثم ذكر ذلك لهم ؟ فقال الحارث وعتاب نشهد أنك رسول الله والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك .

في هذا الخبر دليل على اهتمام النبي بإظهار عزة الإسلام وإغاظة المشركين وإكرام المسلمين ، وهي أيضاً رسالة إلى سادات القرىش الذين لا زالوا يعتزون بسيادتهم وعصبيتهم الجاهلية .

وفي الأخير أسأل الله جل وعلا بمنه وكرمه أن ينفع بهذا العمل ويجعله لوجهه خالصاً .

اللهم إنا نسائلك الشهادة في سبيلك بعد طول عمرٍ وحسن عملٍ يا

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/43).

غزوة حنين دروس وعبر

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، وننعود بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصر الأمة، وجاحد في سبيل ربه حقَّ الجهاد، ولم يترك شيئاً مما أمر به إلَّا بلَّغه، فتح الله به أعيناً عُميَاً، وأذاناً صُمَاً، وقلوبًا غُلْفاً، وهدى الناس من الضلال، ونَجَاهُمْ من الجهلة، وبصَرُّهم مِن العمى، وأخرجهم مِن الظلمات إلى النور، وهداهم بإذن ربِّه إلى صراط مستقيم. اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبْدك ونبيِّك محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفي أثره واهتدى بهداه.

وبعد.

ما أجمل أن نداوي الجراح المكلومة الغائرة بالسيرة العطرة المعطرة لرسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فسيرته بسلم للجراح وملاذ للخائف وحصن للراجي ، والوعود عندما تدلهم المصائب والأزمات.

و هذه الأمة أمة منصورة من ربها، موعودة بالتمكين والاستخلاف

في الأرض بوعد الحق الذي لا يخلف، في آيات كثيرة من القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]. وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقْتُ كَلْمَثًا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ﴾ [الصفات: 171 – 173]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَصْرُ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلَفُهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمْكُنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

ومهما تکالب أعداؤها، وأحكموا كيدهم، وأجمعوا أمرهم؛ لإطفاء نور الحق والهدى فلن يحظوا بذلك، وهيهات وقد قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَ عَلَى الَّذِينَ كُلَّهُ وَلَوْ كَرِهُ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبه: 32 – 33].

وقد بشرَنا نبينا - ﷺ - أن هذا الدين سينتشر في أنحاء الأرض قاطبة حتى يدخل كل بيت في المعمورة كما في حديث تميم الداري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لَيُبَلَّغُنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ، وَلَا يَتَرَكَ اللَّهُ بَيْتًا مَدْرَ وَلَا وَبِرًا إِلَّا دَخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينُ بَعْزٌ عَزِيزٌ أَوْ بَذْلٌ ذَلِيلٌ، عَزًا يَعْزُ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامُ، وَذَلًا يَذْلِلُ اللَّهُ بِهِ الْكُفَرُ» .

إن هذه النصوص المبشرة جزء من عقيدتنا التي يجب أن نؤمن بها إيمانا تماما لا تختالله الشكوك ولا تساوره الظنون مهما طال ليل المحن؛ فإن وعد الله آت عما قريب ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [آل عمران: 214] .

بل إن هذا اليقين الكامل بنصر الله هو أحد عوامل النصر المهمة، ولذا ترى النبي - ﷺ - حينما تشتد الكروب وتلزم الخطوب يُذكَر بهذه الحقيقة؛ فذلك يبعث الأمل ويحيي الهم، ويجدد العزم على العمل، كما فعل في غزوة الأحزاب وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فقد بشر أصحابه بفتح بلاد فارس والروم، كما بشر في حادثة الهجرة وهو مطارد خائف بفتح بلاد فارس، وكما طمأن صاحبه الصديق - رضي الله عنه - وهم في الغار بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبه: 40] .

إن المؤمنين حينما تحيط بهم الملمات لا تزيدهم إلا ثباتاً ويقيناً
وتسليناً: **﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾**
[الأحزاب: 22].

أما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فما أسرع ما يتزلزلون
ويشكرون بصدق وعد الله عند أدنى محنـة أو نازلة: **﴿وَإِذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾**
[الأحزاب: 12].

غير أن النصر الذي وعدت به هذه الأمة لا يناله إلا من أدى ثمنه
وقام بأعبائه؛ فإذا وجدت أسبابه وانتفت موانعه تحقق النصر بإذن الله،
وإن تخلف منها شيء فربما تخلف النصر، والله عاقبة الأمور.

فالتمام في غزوته ﷺ يجد أنها مصباحاً يضيء للأمة لتعرف
عوامل النصر وعوامل الهزيمة، وتتعلم الدروس وال عبر التي تملاً أفراد
الأمة ثقة بنصر الله وحباً لنبيها ﷺ.

وها نحن ضمن الموسوعة المباركة: **(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر)**

(نستشف هذه الدروس وال عبر ونتأمل موافقه ﷺ ومواقف صحابته
الكرام، نقف مع ((غزوة حنين))
أسأل الله أن ينفع بها كل موحد، إنه ولـي ذلك القادر عليه.



غزوة حنين

غزوة حنين :

هي الغزوة التي تبين فيها أن القوة من عند الله تبارك وتعالى، وأنه هو الذي يهدي وينصر، ويُسدد فلا قوّة تأتي من غيره جل جلاله.

غزوة حنين :

فيها الدرس العظيم، في الرضا عن الله، والاستبشار بنصر الله، وإعلاء جنده وحزبه، فيها الفأل الحسن مقوّيًا بفعل السبب وبذل الوعس.

غزوة حنين :

فيها الدرس العظيم في صدق التوكل على الله، والإيمان بموعده وفتحه.

غزوة حنين :

إذا كانت غزوة بدر الكبرى هي أولى معارك الإسلام مع مشركي العرب، وبها كسرت حدتهم وقلت هيبتهم، فقد كانت غزوة حنين وما تلاها من غزو أهل الطائف هي آخر تلك المعارك، وبها استقرّت قوى أولئك المشركين، واستنفدت سهامهم، وأُذل جمعهم حتى لم يجدوا بدًا من الدخول في دين الله، كما يقول الإمام ابن القيم -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

غزوة حنين :

كانت غزوة حنين في العاشر من شوال من العام الثامن للهجرة منصرف النبي - ﷺ - من مكة بعد أن منَّ الله عليه بفتحها، وقد انصرف رسول الله من مكة لست خلت من شوال، وكان وصوله إلى حنين في العاشر منه. ⁽²⁾

غزوة حنين :

(1) زاد المعاد: 479/3

(2) فتح الباري: (27/8)

دارت هذه الغزوة في موضع يقال له حنين، وهو وادٌ إلى جنوب ذي المجاز بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات (1).

غزوة حنين :

كان سبب هذه الغزوة أن مالكاً بن عوف النضرى جمع القبائل من هوازن ووافقه على ذلك التقييون، واجتمعت إليه مصر وجسم كلها وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وقصدوا محاربة المسلمين، فبلغ ذلك النبي - ﷺ - فخرج إليهم (2).

غزوة حنين :

إذا كانت وقعة بدر قررت للمسلمين أن القلة لا تضرهم شيئاً في جنوب كثرة أعدائهم إذا كانوا صابرين متقيين، فإن غزوة حنين قد قررت للمسلمين أن الكثرة أيضاً لا تفدهم إذا لم يكونوا صابرين ومتقيين (3).



1- القوة لله جميا:

لا عبرة بالكثرة فالنصر من عند الله عز وجل، أكبر جيش جمعه الرسول ﷺ جيش حنين كانوا اثنى عشر ألفاً، فلما رأهم أبو بكر الكتبية تتدقق بعد الكتبية، قال: "لا نهزم اليوم من قلة" وال المسلمين بشر أتاهم ضعف واتكلوا على قوتهم المادية، فأراد الله أن يلقنهم درس عقيدة لا ينسونه، وهو أن القوة من عند الله، وأن النصر من عند الواحد الأحد، فيقول الله عز وجل:

1) المصدر السابق: (27/8)

2) فتح الباري (27/8)، وزاد المعاد (465/3).

3) فقه السيرة للبوطي (ص: 424)

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ [التوبه: 25] يقول: اذكروا كم

نصركم الله في مواطن كثيرة.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكرها من كان يألفهم في الموطن الخشن

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حَنْيَنٍ إِذْ أَغْبَثْتُمْ﴾ [التوبه: 25]

فهنا درس لكل إنسان ألا يغتر بقوته وألا يعتمد على حوله وذكائه وفطنته.

قال ابن القيم في كلام معناه: فوض الأمر إلى الله عز وجل، وأعلن عجزك، فإن أقرب العباد من الله الذين يعلون الانكسار بين يديه.

فأقرب العباد إلى الله أشدتهم انكساراً إليه، وأقربهم إلى النصر أشدتهم تواضعه، وكلما ذل العبد وتواضع لله رفعه الله، وكلما تكبر،

قال الله: (اخْسأ فلن تدعو قدرك، وعزتي وجلاي لا أرفعك أبدا).

فكان هذا الدرس في العقيدة: أن القوة من عنده تبارك وتعالى، وأنه هو الذي يهدي وينصر، ويحدد فلا قوة تأتي من غيره مهما أجلبوا بخلي ورجل وقوى واتصلوا بأمور فإنها كبيت العنکبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنکبوت: 41].

2- إرسال العيون لطلب أخبار العدو:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أرسل ابن أبي حدرد وقال: «اجلس بينهم وخذ أخبارهم وانتني بـأعلامهم» -هذا قبل المعركة- فجلس بينهم في الليل، فسمع مالك بن عوف النصري يقول: إذا أتينا غداً فصبوههم واضربوهم ضربة رجل واحد، فأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك ، فإرسال العين لصالح المسلمين لا بالإضرار بال المسلمين، لكن لتقسي الحقائق ولنصرة الإسلام، ولتأييد كتاب الله ولرفعه لا إله إلا الله لا بأس به.

أخذ السلاح من المشرك :

فالرسول عليه الصلاة السلام لما أراد حنيناً قال له صفوان بن أمية وقد كان طلب مهلة أربعة أشهر حتى يفكر في دخول الإسلام. قال: «يا أبا وهب : أتعينا مائة درع وسلاحها؟ قال: غصباً يا محمد، قال: بل عارية مضمونة» فأخذها عليه السلام عارية مضمونة، فلا بأس باستعارة السلاح من المشرك، ولو قاتل المسلمين كافر فلا بأس أن يأخذوا من كافر آخر سلاحاً آخر يقاتلون به هذا الكافر، فإن الرسول عليه الصلاة

والسلام فعله سواءً بشراء، أو عارية، أو على مصالح مشتركة يتبادلها الفريقان فلا يأس بذلك.

هذا وقد وجدت للشيخ ناصر الدين الألباني - رحمه الله - كلاماً يفيد أنه لا يرى شراء السلاح من دول الكفر الآن؛ فإنه يقول في معرض دعوته للاهتمام بالتصفيية والتربية وإنكاره على دعاة الجهاد في هذه الأيام: "لو أن هناك جهاداً قام بين المسلمين وبين الكفار، فهو لاء المسلمين سوف لا يستطيعون أن يتابعوا إمداد جيوشهم بالأسلحة الالزمة لهم إلا بالشراء من أعدائهم، وهل يكون نصر وجهاد بشراء الأسلحة من أعداء المسلمين؟"(1)

، وكأنه - رحمه الله - يقول بأنه لا يجوز شراء السلاح من الكفار إلا بشروط لا تتوافق في عصرنا فقد سئل بعد ذلك عن الفرق بين شراء السلاح من الكفار الآن وبين استعارة النبي - ﷺ - السلاح من صفوان فقال: "الفرق كبير.. أولاً هو فرد، وثانياً هو مطمئن إليه، ثم رسول الله - ﷺ - حينما طلب كان هو أقوى منه، اليوم الأمر معكوس تماماً؛ فالMuslimون حكام، فضلاً عنهم هم دونهم هم أضعف من أعدائهم الذين يستورون الأسلحة منهم، فشتان ما بين هذا وذاك"(2).

غير أن من الشروط المهمة في هذا المجال أن لا يؤدي شراء السلاح من الكفار إلى تنازل المسلمين عن شيء من عقيدتهم ودينهم، فأمر العقيدة أعلى من كل اعتبار، وبكل حال فهذا الأمر هو من أمور السياسة الشرعية التي تخضع لقياس المصالح والمفاسد، ومعرفة الأنسب في كل حين، ونحن اليوم نرى أن أمم الكفر ليست بدرجة واحدة في عدائها للمسلمين فمنهم من يعلن الحرب على المسلمين ومنهم من ليس كذلك، فلا يأس بالشراء من غير المحاربين لقتال المحاربين، ويمكن للمسلمين أن يستغلوا بعض التناقضات بين دول الكفر في شراء السلاح من بعضها لمحاربة البعض الآخر، بل على المسلمين أن يستغلوا ما قد يحدث في بعض بلاد الكفر من الأزمات المالية لمحاولة شراء السلاح بل وتقنيات تصنيعه منهم، كما هو حادث في روسيا الآن، وقد كان المجاهدون في الشيشان - وربما لا يزالون -

(1) 23 - فتاوى الشيخ الألباني ومقارنتها بفتاوى العلماء لعكاشه عبد المنان (ص: 300).

(2) المصدر السابق

يشترون السلاح من الجنود الروس بأسعار زهيدة ثم يقاتلونهم به . وهذا كله لا يعني رضانا بحال المسلمين وتخلفهم وعدم قدرتهم على صنع ما يحتاجونه من السلاح، بل الواجب عليهم السعي الحثيث في امتلاك أدوات التصنيع والعمل على الاكتفاء الذاتي، وإلى أن يتحقق ذلك فليس هناك مانع من شرائهم السلاح من الكافرين والله - تعالى - أعلم .

3- ضمان العارية إذا تلفت:

فإن صفوان عندما طلب منه النبي ﷺ سلاحاً قال : غصباً يا محمد؟ قال: «**بِلْ عَارِيَةً مَضْمُونَةً**» أي إذا تلفت هذه الدروع والسلاح نضمنها لك، فلما تلفت بعض السيوف وتكسرت في أيدي الأنصار ،فالصحابة تثلمت سيفهم وتلموا سيف صفوان بن أمية ، فأتأتى يقلب السيوف وهي متلمرة فيقول: للرسول ﷺ: أهذا سلاحي؟ فيقول ﷺ: نضمنها لك، قال: لا لقد أسلمت والإسلام خير لي لا آخذ منها شيئاً، فرزقه الله الإسلام، وهو خير من الدروع والسيوف، وقبل المعركة كان صفوان وراء الزبير بن العوام .

4- مشابهة هذه الأمة للأمم السابقة:

هذا الحديث علق عليه ابن تيمية في الرسائل والمسائل يقول: لما نزل رسول الله ﷺ في حنين نزل الناس في الظهيرة ومعهم سيفهم وسلاحيهم - وهذا الحديث عند أبي داود من حديث أبي واقد الليثي - قالوا: يا رسول الله! إن للمشركين ذات أنواع - أي: ذات معاليق يعلقون فيها سلاحيهم- فاجعل لنا ذات أنواع كما لهم ذات أنواع؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**الله أكتر! إنها السنن، قلتكم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إليها كما لهم آلها**».

فيقول ابن تيمية : "سوف يقع في هذه الأمة ما وقع في اليهود والنصارى؛ فإن علماءنا إذا فسدوا كان فيهم شبه من اليهود -نعود بالله من ذلك-. فإن اليهود تعلموا العلم ولم يتعلموا به؛ فختم الله على قلوبهم ولعنهم وغضب عليهم، قال جل ذكره: **{فِيمَا نَقْضِهِمْ مِيَّاثَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلَنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}** [المائدة: 13] ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من

النصارى؛ فإنهم يعبدون الله بلا علم، لا يتقهرون في الدين؛ فلهم صلاة وصيام وذكر لكن على ضلاله: **{وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا هَا}**

عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رَضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقٌّ رَعَايَتِهَا ﴿الحديد: 27﴾.

يقول ابن تيمية : وسوف يقع في هذه الأمة ما وقع بين اليهود والنصارى لهذا الحديث؛ ولقوله تعالى: **﴿وَقَالَتُ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتُ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾** [البقرة: 113].

قال ابن تيمية : "سوف تأتي طوائف وأحزاب في هذه الأمة تقول: ليست الطائفة الأخرى على شيء ونحن على الحق، وتقول الأخرى: لستم على شيء ونحن على الحق فهي السنن".

5- التكبير عند التعجب والاستغراب :

فالرسول ﷺ لما قالوا: أجعل لنا ذات أنواع قال: الله أكبر! وهذه من أحسن الكلمات التي تقال في النوادي والمحافل، فنحن لا نعرف التصفيق وليس في ديننا تصفيق، ولا يصفق إلا اللاهون اللاعون إذا أعجبوا بمقولة أو كلمة.

فعلى المسلمين أن يكروا، فإن التصفيق والمكاء والتصدية من علامات الجاهلية ومن شعائر الوثنية ، والله ذكر المشركين وطوافهم بالبيت فقال: **﴿وَمَا كَانَ صَلَاثُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾** [الأنفال: 35]، أي: صفيراً وتصفيقاً، فذم التصفيق سبحانه وتعالى، وقال

ابن مسعود رض: "كان أصحاب الرسول ﷺ إذا أعجبهم شيء كبروا" وربما كبر عليه الصلاة والسلام فكبروا خلفه، ولذلك يقول ﷺ: «أترضون أن تكونوا ثلث الجنة؟ قالوا: بلى، قال: ألا ترضون أن تكونوا نصف الجنة؟ قالوا: بلى، قال: فإنكم ثلثا أهل الجنة، فكبروا جميعاً».

فالتكبير مطلوب عند التعجب والاستغراب، أو من حدث أو كلمة حماسية، أو من بيت أو قصة، فسننتنا أن نكبر وألا نتشبه بأهل الكتاب الذين أضلهم الله على علم وطبع على قلوبهم.

6- لا رجعة للوثنية:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية، وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة حضراء يقال لها ذات أنواع يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع

بصراهم على الشجرة، فتحابت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا (ذات أنواع) كما لهم (ذات أنواع)، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم -والذي نفوسكم بيده- كما قال قوم موسى لموسى: {اجعل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ إِلَهٌ} قال إِنْكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» لتركين سنن من كان قبلكم»⁽¹⁾.

وهذا يعبر عن عدم وضوح تصورهم للتوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النبي ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معانٍ الشرك، وحذرهم من ذلك، ولم يعاقبهم أو يعنفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام⁽²⁾، وقد سمح لهم الرسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد؛ لأنّه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صاح اعتماده تماماً من غبش الجاهلية، وإنما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله، وإن قصر في بعض أمور الدين الأخرى، بل الجهاد مدرسة تربوية تعليمية يتعلم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد والأحكام والأخلاق؛ وذلك لما يتضمنه من السفر وكثرة اللقاءات التي يحصل فيها تجادب الأحاديث وتلاقي الأفكار⁽³⁾.

7- الحراسة في الغزو:

إنّ الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كان في الأسفار أو الغزو جعل حارساً يحرس الناس، وما كان يعطيه راتباً عليه الصلاة والسلام، بل كان يعدهم بالجنة، جنة عرضها السماوات والأرض، فكانوا يتشارعون إلى هذا، كما فعل حذيفة في الليلة الظلماء عند أهل الأحزاب، وضمن له ﷺ الجنة.

وكما حرس بلال بن رباح المسلمين في غزوة من الغزوات فقال له ﷺ: «يا بلال ! ارمق لنا فجر هذه الليلة»، فقام بلال فرمق من أول الليل، فلما قرب الفجر صلى الليل ما شاء الله، ثم جلس برمته عند الناقة، فاعتمد عليها فنام، فلما نام جاء الفجر، ثم طلعت الشمس حتى أصاب الناس حر الشمس، فاستيقظ عمر رضي الله عنه أول الناس، فاستحياناً عمر

(1) انظر: السيرة النبوية للندوي ص349، سنن الترمذى، الفتن (475/4) رقم 2180.

(2) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (497/2).

(3) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (62/8).

أن يذهب إلى رسول الله ﷺ ويقول: قم صل، ومن عمر حتى يوقظ رسول الله ﷺ؟! وله ذلك فإنها من المصالح والفوائد لكنه استحبنا. فأتى بجانب أذن الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال: الله أكبر، الله أكبر، فاستيقظ عليه الصلاة والسلام وقد استيقظ أكثر الناس وأصابهم من الخوف ما الله به عليم، تذكروا أنهم ما صلوا، وأن الشمس قد طلعت وارتفعت، فقال ﷺ لا علیکم، ثم أمرهم أن يقوموا، وقال يا بلال: أين رمك الفجر هذه الليلة، فقال بلال: أخذ بنفسي يا رسول الله ما أخذ بأنفسكم، فتبسم عليه الصلاة والسلام.

يقول: أنتم وقعتم فيما وقعت أنا فيه، فلماذا تعاتبونني على هذا؟ فصلى عليه الصلاة والسلام فصلوا، والشاهد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يجعل حارساً من الصحابة في الغزو وفي الأسفار لفوائد: 1- أن يوقظ المصلي والموتر في الليل.

2- أن يخبر الناس بهجوم طارئ على جيشهم وعلى متابعهم وعلى أهلهم.

3- تدريب الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه على هذا العمل الجهادي الشاق.

4- أن يجعل أجوراً لأهل هذه الأعمال ليتباروا في عمل الآخرة وليتقدموا عند الله.

قال عمار بن ياسر : خرجنـا مع رسول الله ﷺ، قال: فلما أمسينا ذات ليلة، قال: من يحرسنا هذه الليلة؟ فسكتـا، فقال: ليقم رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، قال: فقمـت، وقام عبـاد بن بشـر ﷺ وعن عمار ، الشاب الصادق الذي قـتل يوم صفين ضرب على وجهـه حتى سقط لـحم وجهـه من كثـرة السـيف، ولـما رأـه الصحـابة قالـوا: نـشهد أنـك عند الله من الشـهداء.

فبدأ عبـاد بالحراسـة ثم قـام يصـلي، فبدأ يقرأـ في سـورة الكـهـف، فأـخذ الأـعدـاء يـنظـرون إـلـيـه وـهـوـ حـارـسـ يـقـرـأـ فـيـ اللـيـلـ، وـهـمـ لاـ يـعـرـفـونـ الصـلاـةـ وـلـاـ الـقـرـاءـةـ فـأـخـذـواـ يـرـمـونـهـ بـالـسـهـامـ، وـمـاـ أـرـادـ أـنـ يـقـطـعـ الـقـرـاءـةـ، فـأـخـذـ كلـمـاـ انـغـمـسـ السـهـمـ فـيـ جـسـمـهـ يـخـرـجـهـ وـيـنـزلـهـ فـيـ الـأـرـضـ، وـيـسـتـمرـ فـيـ الـقـرـاءـةـ، وـكـلـمـاـ أـتـىـ السـهـمـ الـآـخـرـ أـخـرـجـهـ وـدـمـاؤـهـ تـنـصبـ مـنـ جـسـمـهـ، وـأـتـىـ السـهـمـ الـآـخـرـ وـيـخـرـجـهـ، فـلـمـاـ غـلـبـتـهـ الدـمـاءـ خـفـفـ فـيـ الصـلاـةـ، وـقـامـ وـزـحـفـ إـلـىـ عـمـارـ ، وـقـالـ: وـالـلـهـ الـذـيـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ هـوـ لـوـلـاـ أـنـ أـقـتـلـ فـفـتـحـ ثـغـرـةـ عـلـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـعـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ مـاـ خـتـمـتـ هـذـهـ الصـلاـةـ حـتـىـ أـتـمـ

سورة الكهف، فقال عمار : رحمك الله، ألا كنت أيقظتني؟! فأخبره، فقام عمار رضي الله عنه وأدركوا هذا، فأيقظوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا يوضح لنا كيفية حراسة الصحابة للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين.

وكان حارسه عليه الصلاة والسلام ربما حرسه عند باب بيته قبل أن ينزل الله تعالى: **﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾** [المائدة: 67] يقول أنس رضي الله عنه:

رجعنا مع رسول الله صلوات الله عليه وسلم من خيبر فلما افترتنا من المدينة دخل باب بيته بيتهً أي خيمة- قال: فسمعته بالليل يقول: «**لَيْتْ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسْنَا هَذِهِ الْلَّيْلَةَ**» قال: فأتى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فسمع من بعض الناس أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**لَيْتْ رَجُلًا صَالِحًا يَحْرُسْنَا هَذِهِ الْلَّيْلَةَ**» فتوطأ سعد بن أبي وقاص ولبس سلاحه وأخذ سيفه ووقف عند باب الخيمة من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر، فلما علم باب سعد قال: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ مَا تَقْدِمْ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأْخُرْ**» فكان من الحراس الصادقين.

8- التوكل لا ينافي العمل بالأسباب:

من دروس هذه الغزوة المباركة أن التوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب؛ فقد كان رسول الله صلوات الله عليه وسلم - أعظمخلق توكلًا على الله - تعالى -، ومع ذلك لم يكن يلقى عدوه إلا وقد جهز جيشه بكل ما يستطيع من آلية الحرب وعدة السلاح، حتى إنه استعار أدراعًا من صفوان بن أمية كما ذكرنا آنفاً، وكان يومئذ كافراً، وقد كان السلف رضوان الله عليهم يعون تلك الحقيقة جيداً، فكانوا لا يألون جهداً في الأخذ بالأسباب ثم يتوكلون بعد ذلك على مسبب الأسباب، ولكن تطاول الإعصار، وغلبة الجهل بحقيقة الدين قد أدخل في أذهان كثير من مدعى الدين أن أخذهم بالأسباب ينافي حقيقة التوحيد لأنه يقدح في تمام توكلهم على الله، ولذا ذكر القرطبي رحمه عند حديثه عن قصة موسى مع الخضر أن من فوائدتها اتخاذ الزاد في الأسفار، قال: "وهو رد على الصوفية الجهلة الأغمار، الذين يقتلون المهامه والقفار، زعمًا منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار، هذا موسى نبوي الله وكلمه من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه وتوكله على رب العباد، وفي صحيح البخاري: أن ناساً من أهل اليمن كانوا، يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سأלו الناس، فأنزل الله

تعالى : ﴿وَتَرَوَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]

ومما يروي في سيرة الشيخ محمد مصطفى المراغي - شيخ الأزهر السابق- أنه رأى حين كان في السودان رجلاً يهم بدخول غابة مليئة بالوحوش المفترسة لقطع شجر أو نحوه، فلما سأله عن ما أعده من سلاح يواجه به وحوش الغاب، قال له: إن معي حزاماً فيه سورة ياسين، وهنا ضربه الشيخ بعصا كانت معه وقال له: إن الذي أنزلت عليه سورة ياسين لم يكن يدخل حرباً إلا وقد جهز نفسه بما يستطيع من أنواع السلاح، وأنت تريد أن تدخل على الوحش بحرز فيه سورة ياسين؟!.

9- الالتفات في الصلاة للحاجة:

فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما أرسل ابن أبي حدرد وقيل أنيس بن أبي مرثد أخذ ﷺ يصلي الفجر وهو يلتفت هكذا في الشعب لينظر هل يأتيه الخبر أو لا ويخفف الصلاة.

قال أهل العلم: للمسلم إذا كانت حاجة أن يلتفت ولكن لا يجعلها عادة، فالرسول عليه الصلاة والسلام فتح الباب وهو في الصلاة، وحمل أمامة بنت زينب في الصلاة، وتناول بعض الأمور وهو في الصلاة، والتفت هنا إلى طليعة القوم للحاجة، وهذا الحديث في سنن أبي داود بسندي حسن عن سهل بن الحنظلية ، قال: أرسل ﷺ يوم حنين طليعة القوم، فأخذ يلتفت إليه في الصلاة وينظر إليه بين شقق الشعب.

10- الإعجاب بالكثرة يحب نصر الله:

الإعجاب بالكثرة حجب عن المسلمين النصر في بداية المعركة، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: **﴿لَقَدْ نَصَرْتُكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنٍ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَعْجَبْتُكُمْ كَثُرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْئَمُ مُذَبِّرِينَ﴾** [التوبة: 25].

وقد نبه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح أنه لا حول ولا قوة إلا بالله فيقول: «**اللَّهُمَّ بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أَقْاتَلُ**»⁽¹⁾. وهذا أخذ الرسول ﷺ يراقب المسلمين ويقوم ما يظهر من انحرافات في التصور والسلوك، حتى في أخطر ظروف المواجهة مع

(1) سنن الدارمي (135/2)، المسند لإمام أحمد (333/4).

خصوصه العناة(1).

وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بال المسلمين في بداية غزوة حنين وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنهم فوجئوا بما لم يتوقعوه، فإن رسول الله ﷺ لم يعنف أحداً ممن فرّ عنه، حتى حينما طالبه بعض المسلمين بأن يقتل الطلقاء لأنهم فروا، لم يوافق على هذا(2).

11- الغنائم وسيلة لتأليف القلوب:

رأى ﷺ أن يتالف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام، فأعطى لزعماء قريش وغطفان وتميم عطاء عظيماً، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حرام، وصفوان بن أمية، وعبيدة بن حسن الفزاري، والأقرع بن حabis، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس ابن عدي⁽³⁾. وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها⁽⁴⁾. وعبر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلىٰ فما برح يعطيوني حتى إنه لأحب الناس إلىٰ⁽⁵⁾.

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت بينهم مقالة، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر، وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجداً، ما يملك القاري المسلم على مر الدهور وكر العصور وتواتي الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي

(1) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة للعمري، ص 199.

(2) المصدر نفسه، ص 204، 205.

(3) انظر: معين السيرة، ص 421.

(4) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئاً فقط (1806/4) رقم 2312.

(5) المصدر نفسه (1806/4) رقم 2313.

من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فَأَيْنَ أَنْتُ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «فَاجْمِعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ؟» قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فرَدُّهُمْ، فلما اجتمعوا أتى سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يَا مَعْشِرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةُ بِلْغَتِي عَنْكُمْ، وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلْمَ أَتَكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي، وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟» قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، ثم قال: «أَلَا تَجِيَّبُونِي يَا مَعْشِرَ الْأَنْصَارِ؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، الله ولرسوله المن والفضل. قال: «أَمَا وَاللَّهُ لَوْ شِئْتُ لَقَلْتُمْ فَلَاصْدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَا مَكْذِبَا فَصَدَقْنَاكُمْ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكُمْ، وَطَرِيدًا فَأَوْيَنَاكُمْ، وَعَانِلًا فَأَسْيَنَاكُمْ. أَوْجَدْتُمْ عَلَيَّ يَا مَعْشِرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لِعَائِةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأْلَفُتُ بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا مُسْلِمًا، وَوَكَلْتُمُ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرْضُونِ يَا مَعْشِرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ⁽¹⁾ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رَحَالِكُمْ؟ فَوَالذِّي نَفْسُ مُحَمَّدٌ بِيدهِ لَمَّا تَنَقَّلُوكُمْ بِهِ خَيْرًا مَا يَنَقَّلُونَ بِهِ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرِئًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شَعْبًا وَوَادِيًا، وَسَلَكْتُ الْأَنْصَارَ شَعْبًا وَوَادِيًا لَسَلَكْتُ شَعْبَ الْأَنْصَارَ وَوَادِيهَا، الْأَنْصَارَ شَعَارُ النَّاسِ دَثَارُ اللَّهِمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»، قال: فبكى القوم حتى أخذلوا لحاظهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا⁽²⁾، وفي رواية: «إِنَّكُمْ سَتَّاقُونَ بَعْدِي أَثْرَهُ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»⁽³⁾.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلهم، وإنما قالها حديث السن منهم؛ بدليل ما ورد في الصحيحين، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين:

(1) بالشاء: أي الشياء وهي الأغnam. (2) دثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشعار.

(2) انظر: زاد المعاد (474/3).

(3) مسلم، كتاب الركاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (738/2) رقم 1061.

أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس بن مالك: فحُدثَ رسول الله ﷺ من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما حديث بلغني عنكم؟**» فقال له فقهاء الأنصار: أما ذرو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حدثنا أسانفهم قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ : «**فإنني أعطي رجالاً حديثي عهد بکفر أتالفهم**»⁽¹⁾.

ويرى الإمام ابن القيم -استدلاً بهذه الحادثة- أنه قد يتبعن على الإمام أن يتآلف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الإمام نائب عن المسلمين يتصرف لمصالحهم وقيام الدين، فإن تعين ذلك -أي التأليف- للدفع عن الإسلام والذب عن حوزته واستجلاب رعوس أعدائه إليه ليأمن المسلمون شرهم، ساغ له ذلك، بل تعين عليه، فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالمفادة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبني الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدنيا والدين على هذين الأصلين⁽²⁾.

والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في أول الأمر حتى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتنوّق حلاوته. ويوضح الشيخ محمد الغزالى حقيقة هذا الأمر في مثال محسوس فيقول:.... إن في الدنيا أقواماً كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم، فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظل تمد إليه فمهما، حتى تدخل حظيرتها آمنة، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له⁽³⁾.

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يبشرون بالجمال، وقوم يصاحبهم رسول الله يقابلهم قوم

(1) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (734/2) رقم 1509.

(2) انظر: زاد المعاد (486/3).

(3) انظر: فقه المسيرة، ص 427.

يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فانطلقوا حناجرهم بالبكاء وما قاومهم بالدموع، وألسنتهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمية في مخاطبة الأنصار⁽¹⁾.

12- الصبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصهم على المكافئات، فكان مثالاً للمربي الذي يدرك أحوالهم، وما جعلتهم عليه بيتهما وطبيعة حياتهم من القساوة والفتاظة والروح الفردية، فكان يبين لهم ويطمئنهم على مصالحهم ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيمًا ولهم مربىًّا ومصلحًا، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم الذين كانوا ينحدرون أمامهم أو يسجدون، وكانت دونهم محظوظين، وإذا خاطبوا التزموا بعبارات التعظيم والإجلال، كما يفعل العبد مع ربِّه، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فكان كأحد هم؛ يخاطبونه ويعاتبونه، ولا يتحجب عنهم قط، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدب بحضرته ويخاطبونه بصوت خفيض، ويكتون له في أنفسهم المحبة العظيمة، وأما جفاة الأعراب فقد عنفهم القرآن على سوء أدبهم وجفائهم، وارتفاع أصواتهم وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ، وهذه مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

مواقف تدل على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب

1- الأعرابي الذي رفض البشري:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النبي ﷺ وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي ﷺ أعرابي فقال: لا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال له: «أبشر» فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر، فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رد البشري»، فاقبلا أنتما» قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه، ومج فيه ثم قال: «اشربا منه»، وأفرغا على وجههما ونحوهما وأبشرا» فأخذوا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر أن أفضلا لأمكما، فأفضلا

(1) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة، ص 219.

لها منه طائفة (١)

2- مقولة الأعرابي: ما أريد بهذه القسمة وجه الله:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ... فلما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عبيدة مثل ذلك، وأعطى أنساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله، قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: «**فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!**» قال: ثم قال: «**يرحم الله موسى؛ قد أودي بأكثر من هذا فصبر**» قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حدثنا(2).

13- تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا من الله عليك. وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحطائر من السبيايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفانك، ولو أنا ملحتنا لابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر⁽³⁾ ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائذتكم وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثم أنشأ يقول:

امننا علينا رسول الله في
كـ الـ أـنـ قـالـ .
فـ إـنـكـ الـ مـرـءـ نـرـجـوـهـ وـنـنـتـظـرـ (4)

ام نزد علی نسیمه قدر گذشت از فرازی که نداشت و می خوا

امن على نسوة قد كنت
وإذ يزink ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب اعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السلام

(1) البخاري، كتاب المغازي رقم 4328

(2) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث 1062.

³ انظر : البداية والنهاية (352/4).

(4) نفسه (352/4) المصد

عليهم قدّيماً وحديثاً وخصوصاً وعموماً⁽¹⁾.

فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَفَدِ قَالَ لَهُمْ: «نَسَاوْكُمْ وَأَبْنَاوْكُمْ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالَكُمْ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ خَيْرٌ تَنَا بَيْنَ أَحْسَابِنَا وَأَمْوَالِنَا؟ بَلْ أَبْنَاوْنَا وَنَسَاوْنَا أَحَبَّ إِلَيْنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمَطْلَبِ فَهُوَ لَكُمْ، وَإِذَا أَنَا صَلَّيْتُ بِالنَّاسِ فَقَوْمُوا فَقَوْلُوا: إِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَبِالْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَبْنائِنَا وَنَسَائِنَا، فَإِنِّي سَأَعْطِيكُمْ عَنْ ذَلِكَ وَآسَالُ لَكُمْ» فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ الظَّهَرَ قَامُوا فَقَالُوا مَا أَمْرُهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَمَا مَا كَانَ لِي وَلِبْنِي عَبْدُ الْمَطْلَبِ فَهُوَ لَكُمْ» فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: أَمَا أَنَا وَبْنُو تَمِيمٍ فَلَا، وَقَالَ عَيْنَةُ: أَمَا أَنَا وَبْنُو فَزَارَةٍ فَلَا، وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسِ السَّلْمِيِّ: أَمَا أَنَا وَبْنُو سَلِيمٍ فَلَا، فَقَالَتْ بَنُو سَلِيمٍ: بَلْ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ عَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسِ لَبْنِي سَلِيمٍ: وَهَنْتَمُونِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَمْسَكَ مِنْكُمْ بِحَقِّهِ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سَتَةُ فَرَائِضٍ مِّنْ أُولَئِكَ الْمُنْصَبِينَ، فَرَدُوا إِلَى النَّاسِ نَسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ»⁽²⁾، وَفِي رَوْيَةٍ... فَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ هُؤُلَاءِ جَاءُوكُمْ تَائِبِينَ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَرْدِدَ إِلَيْهِمْ سَبِيلَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيبَ ذَلِكَ فَلِيَفْعُلْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيهِ إِيَاهُ مِنْ أُولَئِكَ الْمُنْصَبِينَ فَلَمَّا قَدِمَ النَّاسُ قَدْ طَبِّيَنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَا لَا نَدْرِي مِنْ أَذْنِكُمْ فِي ذَلِكَ مَمْنَ لَمْ يَأْذِنَ، فَارْجِعُوهُمْ حَتَّى يَرْفَعُوكُمْ إِلَيْنَا عِرْفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَمُهُمْ عِرْفَاؤُهُمْ ثُمَّ رَجَعُوهُمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ طَبَّيُوا وَأَذْنُوا⁽³⁾ وَقَدْ سَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ زَوْجُهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفَ النَّصْرِيِّ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ فِي الطَّائِفِ مَعْ ثَقِيفٍ، فَوَعَدُوهُمْ بِرَدِّ أَهْلِهِ وَأَمْوَالِهِ عَلَيْهِ، وَإِكْرَامِهِ بِمِائَةِ مِنِ الإِبْلِ إِنْ قَدِمَ عَلَيْهِ مُسْلِمًا، فَجَاءَ مَالِكَ مُسْلِمًا فَأَكْرَمَهُ وَأَمْرَرَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَبَعْضِ الْقَبَائِلِ الْمُجاوِرَةِ. لَقِدْ تَأْثَرَ مَالِكَ بْنَ عَوْفَ وَجَادَتْ قَرِيْحَتَهُ لِمَدْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

(1) انظر: البداية والنهاية (363/4).

(2) المصدر نفسه (353/4).

(3) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4319.

ما إن رأيت ولا سمعت
أوفى وأعطي للجزيل إذا
وإذا الكتبة عردت⁽¹⁾ أنيابها
فكانه ليث على أشباله

في الناس كلهم بمثل محمد
ومتى تشاء يخبر بما في غد
بالسميري وضرب كل مهند
وسط الهباء⁽²⁾ خادر⁽³⁾ في

لقد كانت سياسته مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود؛ وبهذه
السياسة الحكيمة استطاع أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف
الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حرابة يضرب بها قوى
الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفاً في
الطائف حتى ضيق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من
المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطائف من كل مكان فلا تستطيع تحرّكاً
ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام مثل عروة بن مسعود
الثقفي الذي سارع إلى اللحاق برسول الله^ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة
بعد أن قسم غنائم حنين واعتبر من الجعرانة، فالتحق به قبل أن يصل
إلى المدينة، وأعلن إسلامه وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف
محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإسلام وأذن في أعلى منزله فرماه بعضهم
بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفونه مع شهداء المسلمين في
حصار الطائف⁽⁵⁾.

إن الإنسان ليعجب من فقه النبي^ﷺ في معاملة النفوس، ومن سعيه
الحيث لتمكين دين الله تعالى، لقد استطاع أن يزيل معالم الوثنية،
وببيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب الأمور التنظيمية
للأراضي التي أضيفت للدولة الإسلامية، فعين عتاب بن أبي أمير ا
على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشدًا وموجهاً ومعلماً ومربياً⁽⁶⁾، وعين

(1) عردت: اشتتدت وضربت، القاموس المحيط (1/313).

(2) الهباء: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص 689.

(3) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر ستر يمد للحجارة من ناحية البيت.

(4) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/144).

(5) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/192).

(6) المصدر نفسه (4/153).

على هوازن مالك بن عوف قائداً ومجاهداً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة



14- تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهَ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْسَ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرُوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: 25-27]

إن غزوة حنين سُجلت في القرآن الكريم لكي تبقى درساً للأمة في كل زمان ومكان، ولقد عرضت في القرآن الكريم على منهجية ربانية كان من أهم معالمها الآتي(1):

أ- بين القرآن الكريم أن المسلمين أصحابهم الإعجاب بكثرة عددهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ثُمَّ بين القرآن أن هذه الكثرة لا تفيدهم ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾.

ب- بين القرآن الكريم أن المسلمين انهزموا وهرروا ما عدا النبي ﷺ ونفر يسير من أصحابه، قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْسَ مُدْبِرِينَ﴾.

ج- بين القرآن الكريم أن الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة وأكرمه بإنزال السكينة عليه وعلى المؤمنين فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

د- بين القرآن الكريم أن الله أمد نبيه محمداً ﷺ بالملائكة في حنين قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرُوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وأكده سبحانه- على أنه يقبل التوبة من عباده ويوقف من شاء إليها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.



15- أسباب الهزيمة:

(1) انظر: حديث القرآن (602/2).

وَقَعَتْ الْهُزِيمَةُ فِي الْجُولَةِ الْأُولَى لِعَدَّةِ أَسْبَابٍ مِنْهَا:

- 1- أن شبيئاً من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين، لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.
- 2- خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كافٍ، وإنما عندهم حماس وتسرع.
- 3- أن عدد المشركين كان كثيراً بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.
- 4- أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين فتهيأ هنالك ووضع الكمان والرماة في مضائق الوادي وعلى جوانبه، وفاجأوا المسلمين، برميهم بالنابل وبالهجوم المباغت.
- 5- كان العدو مهياً ومنظماً ومستعداً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صنوف رُؤيت: صف الخيول ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم.
- 6- وجود ضعاف بالإيمان الذين أسلموا حديثاً في مكة، ففروا فانقلبوا أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم⁽¹⁾.

16- عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين عدة أسباب منها:

- 1- ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.
- 2- شجاعة القائد، فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب، بل تقدم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يركض ببغلته قبل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها ألا تسرع.
- 3- ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر.
- 4- سرعة استجابة الفارّين والتحاقهم بالقتال.
- 5- وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (409/2). (2) مسلم بشرح النووي (12/116، 117).

- 6- رمية الحصى، فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد»⁽¹⁾.
- 7- الاستعانة والاستغاثة بالله عز وجل، فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.
- 8- إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتهم فيها، وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التوبة⁽²⁾: «وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرُوهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ».

17- نزول الآية الكريمة: «وَالْمُحْسَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَأْكُتَ أَيْمَانُكُمْ» [النساء: 24]

وقد نزلت في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق النبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالنبي وتنتهي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل⁽³⁾.

18- منع المختين خلقة من الدخول على النساء الأجنبية:

كان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخت بالنساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل على النبي ﷺ وعندى مخت فسمعته يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله، أرأيت إن فتح الله عليك الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتثير ثمان، فقال النبي ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكم»⁽⁴⁾. وفي هذا المنع حرص النبي ﷺ على سلامه أخلاق المجتمع الإسلامي.

19- النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء من لا يشتركون في القتال ضد المسلمين:

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (520/2).

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس، ص 423.

3 انظر: السيرة النبوية الصحيحة (520/2).

(4) البخاري، كتاب المغازي، (120/5) رقم 4324.

وقد ذكر ابن كثير أن رسول الله مريوم حنين بأمرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متخصصون⁽¹⁾ عليها، فقال رسول الله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفاً»⁽²⁾, وفي رواية: «فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً»⁽³⁾.

20- تشريع العمرة من الجعرانة:

أحرم النبي ﷺ بعمره من الجعرانة، وكان داخلاً إلى مكة وهذه هي السنة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمره ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها.⁽⁴⁾

21- إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما

صنع في الحج:

قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق⁽⁵⁾ - أو قال: أثر صفرة - فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأنزل على النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أنني أرى النبي ﷺ وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه فنظرت إليه، فإذا له خطيط (قال) فلما سري عنه قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة - أو قال: أثر الخلوق - واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في

(1) متخصصون: مجتمعون.

(2) انظر: البداية والنهاية (336/4).

(3) المصدر نفسه (335/4).

(4) انظر: زاد المعاد (504/3).

(5) خلوق: طيب.

22- من قتل قتيلاً فله سببه:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتلته، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًا شديداً حتى تخوفت، ثم ترك فتحل ودفعته ثم قتلتة، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من أقام بينة على قتيل قتله، فله سببه»، فقمت لأنتمس بينة قتيلي فلم أر أحداً يشهد لي فجلست، ثم بدا لي فذكرت أمره لرسول الله ﷺ، فقال رجل من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطيه⁽²⁾ أصيبح من قريش ويدع⁽³⁾ أسدًا من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله، قال: فقام رسول الله ﷺ فأداه إلى فاشترىت منه خرافاً⁽⁴⁾، فكان أول مال تأثرت به في الإسلام⁽⁵⁾.

ونلحظ في هذا الخبر أن أبو قتادة الأنصاري رض حرص على سلامه أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهد عظيم، كما أن موقف الصديق رض فيه دلالة على حرصه على إحقاق الحق، والدفاع عنه، ودليل على رسوخ إيمانه وعمق يقينه وتقديره لرابطة الأخوة الإسلامية وأنها بمنزلة رفيعة بالنسبة له⁽⁶⁾.

23- النهي عن الغلول:

أخذ النبي ﷺ يوم حنين وبرة من سنام بغير من الغنائم، فجعلها

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 578.

(2) لا يعطي: أي لا يعطي رسول الله ﷺ، قوله أصيبح: نوع من الطيور شبه له لعجه وضعفه.

(3) يدع: يتزك.

(4) خرافاً: أي بستانًا أقام الشمر مقام الأصل.

(5) البخاري، كتاب المغازي (119/5) رقم 4322.

(6) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي، (26/8).

بين إصبعيه ثم قال: «أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأندوا الخياط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن الغلول عار، ونار، وشمار على أهله في الدنيا والآخرة»⁽¹⁾.

ولما سمع الناس هذا الزجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ أشقووا على أنفسهم وخافوا خوفاً شديداً فجاء أنصاري بكبة خيط من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الوبرة لأخيتك بها برذعة بغير لي دبر، فقال له ﷺ: «أما حقي منها، وما كان لبني عبد المطلب فهو لك»⁽²⁾، فقال الأنصاري: أما إذا بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها من يده⁽²⁾.

وأما عقيل بن أبي طالب فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطخ دمًا، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، دفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليرده، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم⁽³⁾.

وهذا التشديد في النهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصورة الشائهة المرعبة، ولو كان في شيء تافه لا يلتفت إليه، يمثل معلماً من أهم معالم المنهج النبوي في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العملية، إيماناً وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتظهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة، لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم⁽⁴⁾.

24- وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأله عمر النبي ﷺ عن نذر كان نذره في الجاهلية اعتكافاً فأمره النبي ﷺ

(1) انظر: البداية والنهاية (353/4).

(3) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (145/4).

(4) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (387/4).

25- أنس بن أبي مرثد الغنوبي وحراسة المسلمين:

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا الليلة؟» فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب» فركب ابن أبي مرثد فرساله، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلىه ونُغَرِّنَّ من قبلك الليلة».

قال سهيل بن الحنظلي: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسست فارسكم؟» قالوا: ما أحسسته، فتوب بالصلاه، فجعل يصلي، وهو يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم»، فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشعب حيث أمرني ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعيبين كليهما فنظرت فلم أر أحدا، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟» فقال: لا، إلا مصليا أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها»⁽²⁾ وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوى الكريم فى الاهتمام بالأفراد، فقد ظهر اهتمام النبي ﷺ بطبيعة القوم حتى جعل يلتفت فى صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر مهم، ثم إنه ﷺ قال: «أبشروا فقد جاء فارسكم»، إنها الكلمة التي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة، تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي، إنه ليس كما مهملًا، ولا رقمًا في سجل ولا بزالًا في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة ليؤتى بغيره، إنها بعض القصيرة للمنهج الإلهي⁽³⁾ في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرِمَنَا بْنَي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيَّابَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

كما أن في هذه القصة معلمًا من معالم المنهج النبوى الكريم في وجوب اليقظة وتعرف أحوال العدو، ومراقبة حركته، ومعرفة ما عنده

(1) البخاري، كتاب المغازي (118/5)، رقم 4320

(2) أبو داود في الجهاد رقم 2501، صحيح السيرة البوفية، ص 550.

(3) انظر: معين السيرة، ص 429

من القوة عدداً وعدة، وما رسمه من خطط حربية، وهي سياسة مهمة بالنسبة للقادة الذين يسعون لإعلاء كلمة الله في الأرض⁽¹⁾.

وأما قول الرسول ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن تعمل بعدها» فهذا محمول على النواقل التي يكره الله بها السيئات، ويرفع بها الدرجات، والمقصود أنه عمل عملاً صالحًا كبيرًا يكفي لتفادي ما قد يقع منه من سيئات في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنة، وليس المقصود أن هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات⁽²⁾.

26- شجاعة أم سليم يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا فكان معها، فرأها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقررت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، أقتل من بعدي⁽⁴⁾ من الظفقاء⁽⁵⁾ انهزموا بك⁽⁶⁾، فقال رسول الله: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن»⁽⁷⁾.

27- الشيماء بنت الحارث أخت النبي ﷺ من الرضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله الشيماء بنت الحارث، وبنت حلية السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدركون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله أني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقواها حتى أتوا بها رسول الله، ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني

(1) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (4/366).

(2) انظر: التاريخ الإسلامي (14/8).

(3) خنجرًا: سكين كبير ذو حدين.

(4) من بعدي: من سوانا.

(5) الظفقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الهزيمة في المرة الأولى.

(6) انهزموا بك: اخْرَمُوكُمْ عَنْكَ.

(7) مسلم، رقم 1809، صحيح السيرة النبوية، 563

أختك من الرضاعة، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عضة عضضتها في ظهري، وأنا متوركتك⁽¹⁾، وعرف رسول الله العلامة، وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، وخَيَّرَها، وقال: «إن أحببت فعندِي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت» فقالت: بل تمنعني وتردني إلى قومي⁽²⁾. ومتعبها رسول الله فأسلمت، وأعطها رسول الله ثلاثة أبْعَدْ وجارية ونعماء وشاء⁽³⁾.

28- إسلام كعب بن زهير - الشاعر - والهيمنة

الاعلامية على الجزيرة:

لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير -
الشاعر ابن الشاعر - وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض،
وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه (بجير) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً
مسلمًا، وحضره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك، فقال قصيده التي
يمدح فيها رسول الله ﷺ والتي اشتهرت به (قصيدة بانت سعاد)، فقدم
المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، ثم جلس إليه،
ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ :
إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه؟ فوثب
عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله، أضرب
عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعه عنك فقد جاء تائباً نازعاً**»، وأنشد
كعب قصيده اللامية التي قال فيها:

(١) متوركتك: يعني حاملتك على وركي.

⁽²⁾ انظر : الدابة والنهابة (363/4) السيدة النبوة الصحيحة (2/506).

⁽³⁾ انظر : *السيدة النبوية للنحو*، ص 358.

(4) مکیول: مغم، مکیول: مقید.

مهند من سيف الله مسلول

إن الرسول لنور يستضاء به

بيطن مكة لما أسلموا: زولوا

في عصبة من قريش قال

من نسج داود في الهيجا

شم العرانيين أبطال لبوسهم

ويقال إنه لما أنسد رسول الله قسيده أعطاه بردته، وهي التي
صارت إلى الخلفاء (2). قال ابن كثير: هذا من الأمور المشهورة جداً،
ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتبته، فالله
أعلم (3).

ويقال: إن الرسول ﷺ قال له بعد ذلك: «لولا ذكرت الانتصار بخير
فإن الانتصار لذلك أهل!» (4)، فقال:

في مقنبل من صالحٍ
إن الخيار هم بنو الأخيار
كسوالف الهندي غير
كالجمر غير كليلة الأبصار
للموت يوم تعانق وكرار
بالمشرفي وبالقنا الخطار (7)
بدماء من علقوا من الكفار

من سره كرم الحياة فلا يزال
ورثوا المكارم كابراً عن
المكرهين السمهريي بأذرع
والناظرين بأعين حمراء
والبائعين نفوسهم لنبائهم
والقائدين (8) الناس عن
يتظهرون يرون نسقاً لهم
إلى أن قال:

(1) انظر: البداية والنهاية (369/4 - 371).

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (487/2).

(3) انظر: البداية والنهاية (374).

(4) المصدر نفسه (373/4).

(5) المقنب: الجماعة من الخيل، يريد به القوم على ظهور جادهم.

(6) السمهري: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السيف.

(7) المشرفي: السيف، والقنا، الرماح جمع قنا، والخطار: المهرز.

(8) القائدين: المانعين الناس.

فيهم لصدقني الذين أماري⁽¹⁾

لو يعلم الأقوام علمي كله

للطارقين⁽²⁾ النازلين

قوم إذا خوت النجوم فإنهم

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول إن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبيري، وأبو سفيان بن الحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي، واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام، بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة⁽⁴⁾.

29- رفع الصوت للحاجة:

الرسول عليه الصلاة والسلام ذم رفع الصوت لغير الحاجة؛

لأن الله عز وجل يقول: **﴿وَاقْصُذْ فِي مَسْنِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتِ الْخَمِيرِ﴾** [لقمان: 19] فلما رفع الصوت للحاجة

فلا بأس به.

قال البخاري في كتاب العلم: باب من رفع صوته بالعلم، ثم أتى بحديث ابن عمرو : « أن الرسول عليه الصلاة والسلام رفع صوته وقال: ويل للأعاقب من النار » فهنا رفع صوته ينادي في الناس، وقال للعباس : ارفع صوتك وناد في الناس، فأخذ يقول: « يا أهل سورة البقرة، يا من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة» حتى يأتون.

30- تأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء:

من الأسلحة المادية التي أيد الله بها رسوله ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب فصار كل واحد يجد لها في

(1) أماري: أجادل.

(2) خوت النجوم: أي سقطت، الطارقين: الذين يأتون بالليل.

(3) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (167/4)، (168).

(4) انظر: معين السيرة، ص 431-433.

عينيه أثراً، فكان من أسباب هزيمتهم⁽¹⁾، قال العباس ﷺ: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا وربّ محمد» قال: فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كلياً وأمرهم مدبراً⁽²⁾.

31- فضل أبي سفيان بن الحارث :

وهو أبو سفيان بن الحارث ليس أبي سفيان بن حرب ، فـ أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ، والرسول عليه الصلاة والسلام كان له أعمام عشرة منهم الحارث ابنه أبو سفيان هذا، وما أسلم إلا قبل الفتح بأيام، سمع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سوف يقدم فاتحاً لـ مكة ، وعلم أنه أساء مع الرسول عليه الصلاة والسلام في المقاتلة وأساء في المهاجنة؛ لأن أبي سفيان كان شاعراً يرسل القصائد يهجو بها رسول الله ﷺ والمسلمين، فلما علم أن الرسول عليه الصلاة والسلام سوف يقدم مكة فاتحاً أخذ أطفاله، و كانوا صغاراً كأنهم فراخ الطير من البنات ومن الأبناء، وخرج بهم من مكة ولقيهم علي بن أبي طالب دون مكة بين عسفان و مكة في طريق رحب في شعب من الشعب.

فقال علي ابن عمه: إلى أين يا أبي سفيان ؟ قال: يا علي قاتلنا محدداً وأذيناه وشتمناه وطردناه وأخر جناه؛ سوف أخرج بأطفالي هؤلاء وأموت جوعاً وعرضاً وعطشاً في الصحراء، والله لئن قدر علي ليقطعني بالسيف إرباً إرباً.

فقال علي بن أبي طالب : أخطأت يا أبي سفيان ! إنك لا تعرف رسول الله ﷺ، فهو أحلم الناس وأكرمهم وأرحمهم، فعد إليه وسلم عليه بالنبوة، وقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف:

﴿قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ آتَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]

لأنهم إخوان وأبناء عم، فأتى أبو سفيان بأطفاله يقودهم بأيديهم، فلما وقف عند خيمة أم سلمة وكان الرسول ﷺ داخل الخيمة، قال: ائذنا لي أدخل على رسول الله ﷺ، قال الرسول ﷺ: من في الباب؟ قالوا: يا

(1) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله، ص 259.

(2) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (3/1399) رقم 1775.

رسول الله أبو سفيان بن الحارث ، قال: لا يدخل علي، لأنه أساء كل الإساءة ما ترك أمرا إلا وقاد به رسول الله ﷺ ، فأخذت أم سلمة تبكي ونقول: يا رسول الله! لا يكون ابن عمك و قريبك أشقي الناس بك، وأخذت تناشد الله عز وجل ، قال: أدخلوه علي، فدخل.

قال: السلام عليك يا رسول الله، أما بعد: ﴿لَقَدْ أَثْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنَّ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] قاتلناك يا رسول الله وآذيناك وأخرجناك

والله لا أدع موقفا قاتلت فيه إلا قاتلت فيه معك، ولا نفقة أنفقتها في حربك إلا أنفقتها معك، ثم أخذ يعدد، فرفع طرفه وعيناه تنزل الدموع، قال: ﴿قَالَ لَا تَشْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] فقال: يا رسول الله! اسمع مني، قال: قل، قال:

لعمرك إني يوم أحمل راية لتعلب خيل اللات خيل محمد لك المدلج الحيران أظلم ليه فهذا أواني يوم أهدى وأهتدى هداني إلى الرحمن ربى وقادنى إلى الله من طردت كل مطرد فقام عليه الصلاة والسلام فعاقه وضرب على صدره وقال: أنت طردمي كل مطرد، فأخذ يخدم محمدا ﷺ، لا يرتحل مرتحلا إلا قام وحزم له متابعه وشد له رحله، وأخذ ببلغته يقودها، فهو قائد البلجة يوم حنين اليوم الأكبر من أيام الله، يوم ثبت رسول الهدى ﷺ ونزل يقارع الأبطال وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

32- بيان خطورة الشرك بالله :

وفي قصة ذات أنواط بيان خطورة أمر الشرك، ووجوب سد ذرائعه؛ فقد بين النبي ﷺ - أن طلبهم العكوف عند الشجرة للتبرك بها هو كطلببني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلهًا، قال الشيخ سليمان آل الشيخ تعليقاً على هذا الحديث: " وفي هذه الجملة من الفوائد أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار، من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطعام، ولا يستبعد كون هذا شركاً ويقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً، وطلبوه من النبي ﷺ - فكيف بغيرهم مع غلبة الجهل وبعد العهد بآثار النبوة؟⁽¹⁾

(1) (تيسير العزيز الحميد (ص: 184).

قال أحد الصالحين "فانظروا رحمة الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها، ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق، فهي ذات أنواع فاقطعوها". وفيها أيضاً إثبات العذر بالجهل في مسائل التوحيد وغيره؛ فإن النبي - ﷺ - مع إنكاره عليهم، وبيانه أن ما طلبوه هو نوع من الشرك، إلا أنه لم يكفرهم، لكونهم لا يعلمون ذلك.

وذلك أن الله - تعالى - من رحمته بعباده لا يؤاخذهم إلا بما بلغتهم من العلم، فإن الفعل أو القول قد يكون كفراً كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "فيطلق القول بتكفير صاحبه، فيقال من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا نحكم بكافره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها" (١).

وقال أيضاً: "فإنا بعد معرفة ما جاء به الرسول - ﷺ - نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعوا أحداً من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين، ولا غيرهم لا بل لفظ الاستغاثة، ولا بغيرها ولا بل لفظ الاستعاذه ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرمه الله - تعالى - ورسوله، لكن لغبنة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرین لم يمكن تكفارهم بذلك، حتى يبين لهم ما جاء به الرسول - ﷺ - مما يخالفه".

33- ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تمثل في مbagatة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باقت المشركون المسلمين وأمطرهم الأداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاۃ لنفسه، وبقي الرسول ﷺ ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، وترك العباس عم الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن

الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمين والكفار ولّى المسلمين مدبرين، فطفق رسول الله يركض بغلته قبّل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله أكفها إراده ألا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، ناد أصحاب السمرة» (1) فقال العباس - وكان رجلا صيّتاً - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا ليبيك يا ليبيك! قال: فاقتلووا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معاشر الأنصار، يا معاشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة علىبني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمى الوطيس» (2).

وفي ثباته - ﷺ - عند انهزام القوم عنه بيان ما كان يتحلى به - ﷺ - من الشجاعة، وقوة الباس في القتال، قال ابن كثير بعد أن ذكر ثبات النبي يوم حنين: "وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة، وليس سريعة الجري ولا تصلح لفر، ولا لكر، ولا لهرب، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه، وعلماً منه بأنه سينصره، ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه علىسائر الأديان" (3).

34- جواز مقاتلة النساء عند أمر الفتنة:

وفي هذه الغزوة جواز مقاتلة النساء عند أمر الفتنة مع الرجال في صف المسلمين، وقد أورد ابن كثير بأسانيد صحيحة: أن أم سليم قاتلت مع الرسول ﷺ يوم حنين .

وأم سليم هي أم أنس بن مالك التي أهدت ابنها إلى رسول الله ﷺ ، وقالت: أنس يخدمك يا رسول الله فادع الله له، فدعاه .

وأم سليم هي التي يقول عنها ﷺ: «دخلت الجنة البارحة فرأيت

(1) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (3) رقم 1398/3، رقم 1775.

(2) المصدر نفسه (3) رقم 1399/3، رقم 1772.

(3) تفسير القرآن العظيم: (2) 346.

الرميصاء في الجنة ».

حضرت المعركة وكانت عندها خنجر في وسطها، فأخذ زوجها أبو طحة يداعبها ويمازحها ويقول: ماذا تفعلين بهذا الخنجر؟ قالت: إذا تقدم مني كافر بعثت بطنه بهذا الخنجر، فسمع مقالتها فتبسم ثم دعا لها.

فأقر عليه السلام المرأة على أن تشارك في الحرب عند الحاجة، أما إذا كان هناك فتن أو مغبة احتلال، فلا ينبغي أن تشارك المرأة إلا إذا احتاج إليها، وشأن المرأة في القتال مداواة الجرحى والقيام على الأسرى وتقريب الماء والخدمات للمقاتلين.

35- ما كان النبي أن تكون له خائنة الأعين :

يقول أحد المسلمين: لما التقينا يوم حنين رأيت كافرا من هوازن يفتاك المسلمين فتكا ويقتل فيهم قتلا، قلت: الله على نذر إن أمكنني الله منه أن أقتله، قال: فلما انهزموا وأصبحوا في ذمة رسول الله عليه السلام تقدموا ببايعونه على الإسلام، فتقدمت لأسبق هذا الرجل قبل أن يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام لأقتله، فسبقني حتى وقف أمام الرسول عليه الصلاة والسلام، وعلم عليه السلام أنني نذرت، فأراد أن يترك لي الفرصة حتى أقتله.

قال: فانتظر مما فعلت، قال: فأسلم الرجل فولي. قلت: يا رسول الله أريد قتله فإني نذرت، قال: أما رأيتي تأخرت عن قبول إسلامه؟ فلماذا لم تومئ لي يا رسول الله بعينك، قال: «**ما كان النبي أن تكون له خائنة أعين**» لأن خائنة الأعين أو الغمض من شيم أهل الخيانة والخداع والمكر والنفاق، أما الرسول عليه الصلاة والسلام فإنه صادق واضح مخلص لا يريد التواء في عقيدته ولا في سيرته ولا في معاملته للناس عليه الصلاة والسلام.

36- معجزتان حسيتان للنبي عليه السلام :

وفي رميه - عليه السلام - المشركين بالحسنى، وإخباره عن هزيمتهم معجزتان حسيتان من معجزاته - عليه السلام -، قال الإمام النووي: "هذا فيه معجزتان ظاهرتان لرسول الله - عليه السلام -: إحداهما فعلية والأخرى خبرية؛ فإنه - عليه السلام - أخبر بهزيمتهم، ورماهم بالحصيات فولوا مدربين" ⁽¹⁾

وما ذكرناه من وقوع معجزات حسية للرسول - ﷺ - هو أمر ثابت بالأدلة القطعية التي لا يمكن تأويلاً لها بحال، غير أن بعض من يدعون العقلانية يحاولون نفي تلك المعجزات، زاعمين أنهم حين يفعلون ذلك يقدمون الإسلام للغرباء على أنه دين العقل والمنطق، لا دين الجهل والخرافة، ومن أشهر من سار على هذا النهج الدكتور محمد حسين هيكل، حيث حاول في كتابه (حياة محمد) نفي كل ما ثبت له - ﷺ - من معجزات حسية، زاعماً أن القرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة له - ﷺ - حتى إنه يصور معجزة الإسراء والمعراج على أنها نوع من الكشف الذي تجلت فيه للرسول - ﷺ - تلك المشاهد التي وردت في قصة الإسراء.⁽¹⁾

وهو يورد في تبرير طريقة تلك أن "حياة محمد - ﷺ - حياة إنسانية بلغت أسمى ما يستطيع إنسان أن يبلغ، ولقد كان - ﷺ - حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضي أن تتسب إليه معجزة غير القرآن وبصارة أصحابه بذلك".⁽²⁾

ولست أدرى على أي شيء استند الدكتور هيكل في قوله إن الرسول - ﷺ - كان لا يرضى أن تتسب إليه معجزة غير القرآن، وهو الذي كان يخبر أصحابه بما لم يشهدوه من دلائل نبوته؛ كما في حديث الراعي الذي عدا الذئب على شاة من غنمه، فلما استنقذها منه، قال له الذئب: ألا تتقى الله، تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي، فلما تعجب الرجل من أن ذئباً يكلمه كلام الإنس، قال له الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك: محمد - ﷺ - بيثير بخبر الناس بأنباء ما قد سبق، (فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزوها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله - ﷺ - فأخبره، فأمر رسول الله - ﷺ - ، فنودي الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فأخبرهم فقال رسول الله - ﷺ - : صدق...)⁽³⁾ وفي الصحيح قوله - ﷺ - لأصحابه: «أني لأعرف حبراً بمكة كان

1) انظر: حياة محمد (ص: 165).

2) (المصدر السابق (ص: 51).

3) (أخرجه أحمد (83/3)، وصححه الحاكم (514/4)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (150/6) وقال: هذا

إسناد صحيح على شرط الصحيح، وقد صححه البهقي.

يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»⁽¹⁾ ، وغير ذلك كثير .

إننا نقول إنه إن كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول - ﷺ -، فإن ذلك لا يمنع من ورود الكثير من المعجزات الحسية إقامة للحجَّة على المعاندين، وتبينًا لقلوب المؤمنين في عصره وإلى يوم الدين، وقد جاءت عشرات النصوص الدالة على وقوع تلك المعجزات فلا مجال لإنكارها أو تأويلها بأي وجه من الوجوه .

37- ذكر الرجل نفسه عند اللقاء ببعض مناقبه:

عندما يذكر الرجل نفسه ببعض مناقبه عند اللقاء فإن هذا لا ينقص من أجره ولا من مثوبته شيئاً، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما رأى الكتائب تتتدفق عليه مثل الجبال، قال: «**أنا ابن العواتك**» وقال: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

وانتسب لجده لشهرته في العرب، فهذا لا يلهم في الأجر ولا ينقص في المثوبة، ولذلك يقول أحد الصحابة: التقينا مع الكفار فخرج غلام من الأنصار فرمى كافراً وقال: خذها وأنا الغلام الأنصاري، فأخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: وما عليه أن يؤجر ويحمد أي: فهو مأجور ومحمود، ولذلك كان كبار الصحابة إذا بارزوا الأبطال أنسدوا فخرًا ورفعوا للمعنوية وحماساً وإبداء للشجاعة.

قال أهل السير ومنهم ابن كثير وابن هشام ، التقى مرحباً على فنزل مرحباً يقول:

قد علمت خيراً أني مرحباً شاكِي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

فنزل له عليٌّ وقال:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره
أكيلكم بالسيف كيل السندره

وخرج سعد بن معاذ رضي الله عنه وأرضاه وهو لا يلبس سلاحه في غزوة من الغزوات وهو يقول:

لبيث قليلاً يشهد الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل
وهكذا ابن رواحة أنسد في المعركة رضوان الله عليهم جميعاً، فكان شعارهم أن يتقدموا بهذا، وهي سنة عند العرب، يقول الأحنف بن قيس

(1) أخرجه مسلم (2277) والترمذى (3624) من حديث جابر بن سمرة.

وقد كان يقاتل في سجستان وهو الذي فتح الطريق إلى كابل قبل الجراح
بن عبد الله الحكمي ، يقول:
عهد أبي حفص الذي تبقى أن يخضب الصعدة أو تدقها

وقفات تربوية مع حديث تقسيم الغنائم في حنين⁽¹⁾.

38- الوقفة الأولى: كرم بلا حدود :

إنه كرم النبي - ﷺ - وجوده المنقطع النظير، بل السهل الممتنع، ذلك الكرم الذي يصل إلى حد أن يعطي الرسول - ﷺ - الرحيم بأمته مئات من الإبل لأفراد لم يقادوا بعد مشقات الطريق، ولم تُخبر بعدُ موافقهم، بل إنّ منهم من سقط في أول اختبار له في حنين، ولكنها الحكمة النبوية الرائعة؛ فالمال عند القائد الرباني لا يعني شيئاً؛ لأنّه ليس من أرباب الأموال الذين تتمايل نفوسهم وراء الدينار والدرهم، وترحل معها حيث رحلت؛ فهذا القائد يعطي متى ما كان معه شيء، ولو كان ثوبه الذي يلبسه؛ فعن سهل بن سعد - ؓ - قال: جاءت امرأة إلى النبي - ﷺ - ببردة، فقالت: يا رسول الله! أكسوك هذه؛ فأخذها النبي - ﷺ - فلبسها، فرأها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله! ما أحسن هذه! فاكتسحها، فقال: «نعم!»⁽²⁾.

ويَعِدُ - ﷺ - ويبشر بالخير ولا يقتطّ أحداً؛ فعن جبير بن مطعم - ؓ - قال: بينما أسيير مع رسول الله - ﷺ - ومعه الناس مقلة من حنين، فعلقت الناس يسألونه، حتى اضطروه إلى سمرة، فخطفت رداءه فوقف النبي - ﷺ - فقال: «أعطوني ردائي! لو كان عدد هذه العضة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»⁽³⁾.

وكان يبشر أصحابه فيقول: «... فأبشروا وأملوا ما يسركم؛ فوالله لا الفقر أخشى عليكم! ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهاكم كما

1) (طه بن حسين بافضل) مجلة البيان العدد 211 لعام 1426هـ.

2) (البخاري، الفتح 10) (6036)

3) (البخاري، كتاب الجهاد، رقم 2609)

أهلتهم»⁽¹⁾.

القائد أياً كان وضعه عالماً، أو موجهاً، أو معلماً، أو قائداً عسكرياً لا يحبس شيئاً عن أتباعه، أو يدخل عنهم بشيء، كما أنه يعطي رجالاً ويترك آخرين لحكم يراها مثل قوة إيمانهم، وإخلاصهم، ويقينهم، واستقامتهم، وثباتهم؛ فهو حكيم بنفوس الرجال، يقدر قدرها، ويعرف كيف يمكن قيادها، وما هي الطريقة المثلثة لعلاج ما اعوج من سلوكها، فالقيادة والترؤس ليس تصدراً وظهوراً فحسب، فهذا يسير حتى على الأغمار وصغار الشباب، ولكن الأمر شيء آخر أبعد من ذلك.

لقد كان كرم النبي - ﷺ - لا لأجل استمالة قلوبهم إلى الباطل، وتزيينه في قلوبهم، وليس لأجل كسب ودهم وتعاطفهم مع شخصه - ﷺ - بعيداً عن وظيفته التي كلفه الله بها، وهي الرسالة السماوية الخالدة، وإنما كان لهدف سامي ومقصد غائية في النبل والنقاء؛ وهو تأليفهم على الحق وتقريبهم له حتى يثبتوا وتخالط بشاشته قلوبهم .

39- المصلحة الشرعية ميران العطاء والمنع :

ينبغي للقائد في مسألة العطاء والمنع أن يقوم بأمر غاية في الأهمية، حتى لا يهتز مشوار تربيته لتلاميذه وأتباعه: وهو أن يعلمهم بميزان العطاء والمنع الذي يستند إليه، بل وفي كل مسائل تأليف الفوس من تقريب فلان على غيره، والإهتمام بمجموعة على أخرى وهكذا؛ لأن ذلك مدعوة إلى ترسيخ قواعد الثقة بينه وبين الأتباع، ودحض لكل الأقوایل والترهات التي تلوکها الألسن؛ بغية التفريق، وزعزعة الصفة، وتوهين لحمته وسداده .

فهذه السياسة البعيدة الأفق للنبي - ﷺ - لم تفهم أول الأمر، بل أطلقت السنة شتى الاعتراض؛ فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضرباً من الإعراض عنهم، والإهمال لأسرهم .

روى البخاري عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله - ﷺ - قوماً ومنع آخرين؛ فكانهم عتبوا عليه، فقال: «إني أعطي قوماً أخاف هلعهم وجزعهم، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب» قال عمرو: فما أحب أن لي بكلمة

1. (البخاري، كتاب الجوية، رقم 2924)، ومسلم كتاب الزهد، رقم (5261)

رسول الله - ﷺ - حمر النعم؛ فكانت هذه التزكية تطيباً لخاطر الرجل، أرجح لديه من أثمن الأموال» - . فالرسول - ﷺ - يستخدم هذه السياسة، ويثبت تلك القاعدة العتيدة في ميزان العطاء والمنع؛ «أعطي قوماً أخاف هلעם وجز عهم، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى»، بل يبين مقاصدها وأهدافها؛ فها هو يقول للأنصار: «أوجدتكم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا، ووكلتم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلًا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشأة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟»

إن الدعوة إلى تمثل هذا الميزان من قبل الموجهين، والمربيين، والقادة في الحقل الدعوي ليس معناه أن يبقى القائد رهيناً لأهواء تلامذته، وانتقاداتهم، وأمزاجتهم، بل إن المسألة لا تعود أن تكون تربية بالمواقف؛ فهو يستغل كل موقف وحدث استغلالاً رائعاً حتى يجعله لبنة في بنيان النفوس، وحبلأً يشدّ ويمدّ إلى رب العالمين؛ فترتبط بحالتها وبارئها، فلا ترتبط بهذه الدنيا وحطامها وشهواتها؛ ولذا كان لزاماً على القائد أن يكون قريباً من رجاله وتلامذته، يتحسّس أخبارهم ولا يتجمّس، ويشعر بآلامهم، ويقيّم مواقفهم ببراءة نفس، وصفاء سريرة دون أي مقدمات مسبقة، أو تراكمات سابقة، بل المعيار عنده كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -، ثم الخبرة الكبيرة التي اكتسبها من مشواره الطويل في خدمة هذا الدين وما أصابه و تعرض له من ابتلاءات ومشكلات.

40- المبادرة إلى حل الإشكالات :

عدم تأخر النبي - ﷺ - في حل الإشكال الحادث؛ فما أن سمع بالخبر حتى ذهب مسرعاً إلى القوم، بعد أن استدعاهم، وأنهى بحكمته وحنكته هذا الأمر الطاري؛ فلو أنه تأخر أو استهان به وتركه، مع أنه سيكون حينئذ معذوراً؛ فهو النبي، وهو القائد الأعلى الذي على عاته من المهام والأعمال الشيء الكثير - ولو أنه تأخر - لكان هذا الموقف من الانصار - رضي الله عنهم - قنبلة موقوتة، ربما ستتفجر يوماً من الأيام، وتعلق في أفءدة الرجال استفهامات وتقديرات خاطئة، تساعدها مواقف أخرى، والشيطان لا يترك مثل هذه الفرص، بل يؤججها و يجعلها فتيلًا قابلاً للاشتعال فهو قد: «**أليس أن يعبده المصلون**

في جزيرة العرب، ولكن في التحرير بينهم⁽¹⁾

«وتلك سنة حميدة يجب أن يتبعها القادة والزعماء مع أنصارهم ومحبيهم؛ فإن الأعداء متربصون لاستغلال كل حادثة أو قول يضعف تعلق المحبين بقادتهم، والشيطان خبيث الدسّ، سريع المكر؛ فلا يهمل القادة استرضاء أنصارهم مهما وثقوا بهم»⁽²⁾.

تحدث المشاكل بين العاملين في الحقل الدعوي، وتصل قضایاهم إلى قيادة العمل، ولكن للأسف تجد خمولاً إزاءها ولا مبالاة، وكأن هذه القيادة ليس لها إلا التصدر والترؤس، واستصدار الأحكام والفتاوی، أما حل تلك المشكلات وتقریب النفوس وتهذیبها فهذا ليس من اهتماماتها؛ لأن بعضهم يزعم أنها ستشغلهم عن مهمات كبيرة جداً، ولا أدری: هل هذه المهمات أعظم من التفكّر والانشقاقات والتصدعات، وهشاشة العمل وتأخّر ثمرته؟ فهل هؤلاء القادة يحملون أثقالاً أكثر وأعظم مما حمله - ﷺ -؟ ولكن المشكلة الحقيقة عند بعض قيادات العمل الدعوي: هي عدم تقدیر المواقف بشكل صحيح، وعدم القدرة على استيعاب مواطن الخلاف بين العاملين أو التلامذة، ومن ثم عدم قدرة القائد تحمل أن يرى عماله أو تلامذته يختلفون أمامه، بل بعض القادة يتمنى أن لو كانت الأمور تسير دائمًا على ما يرام لا يشوبها كدر ولا خلاف أو شقاق ويهيات. لقد نسي هؤلاء - وفهم الله - أن الله تعالى قال: **{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمْبَيِّرُ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلَعَكُمْ عَلَىٰ الغَيْبِ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَحْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَنْقُوا فَأَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}** [آل عمران: 179].

إن هذه الخلافات التي تبدو لأول وهلة صغيرة فإن فيها من مغذيات النمو ما هو كفيل بأن يجعلها مفاصلات مع المربّي نفسه، ودماراً وخراباً لكل ما بناه في سنّيه التي خلت؛ فليس معه إلا أن يوجه أصابع الاتهام ليس إلى ذاته، وتفكيره، وعدم حنكته، وضعف بديهته، وإنما بالدرجة الأولى يوجهها إلى هذا الجيل المتأخر غير المربّي، والذي لا يحترم الكبير فضلاً عن القائد والمربّي، ولعمري! إنها لمصيبة

1) رواه مسلم (2812) من حديث جابر

2) (السيرة النبوية، دروس وعبر، لمصطفى السباعي، ص 92).

عظيمة أن نلقي التبعة على غيرنا، ونخرج نحن خارج الدائرة .

41- الحلم مع القدرة :

سعة صدر النبي - ﷺ - وتحمّله للنقد الموجّه له؛ «يغفر الله لرسول الله - ﷺ -؛ يعطي فريشاً ويدعنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟»⁽¹⁾ .. فلم يرتفع صوته أو يحرّ وجهه ويُسوّد، ولم يرتب أحكاماً وموافق على هؤلاء المتكلمين؛ فيتعامل معهم معاملة جديدة وفق هذه المعطيات، فيهجرهم ويقاطع العمل معهم؛ بحجة أنهم لا يحترمون القيادة، ولا يوقرون الكبار، ولا يقدرون فضائل من ضَحَى من أجلهم. كلا، لم يفعل - ﷺ - شيئاً من ذلك؛ بل ذهب إليهم، وطرح عليهم أسئلة حكيمَة، ثم مدحهم، وأثنى عليهم ثناءً ومدحًا فوق مستوى الحديث، لم يكن أحد منهم يتوقع هذا المدح والثناء؛ فلم يستطعوا أن يوقفوا تدفق الدموع على خدودهم .

إن بعض القادة والمربيين يستطيع أن يستميل قلوب تلامذته ورجاله لو رأهم أخطأوا بموعظة بلية توجّل منها القلوب، وتذرف منها الدموع، إلا أنه تغلبه الطبيعة التي تربى عليها منذ صغره؛ فيرى أن كبرياً قد جرحت وخدشت، ولا يعيدها إلا اعتذار على مستوى رفيع، كأن يعتذر هؤلاء الذين تكلموا ليس في اجتماع مغلق: كالحظيرة أو القبة التي اجتمع فيها الأنصار بل اعتذار على الملا، حتى يجرح كبرياً هم ويخدشه مثلما فعلوا .

إن الرفق بالمتلقي إذا أخطأ أمر مهم جداً؛ إذ إن القسوة عليه في غير محلها، وهو يحب مربيه ومعلمه يوغر في صدره أموراً، ويطرح أمام ناظريه عدة تساؤلات، لا يجيب عليها إلا واقع سيء يعيشه هذا المتربي في تعامل قادته مع أتباعهم .

كما أن على القائد أن يضع في عين الاعتبار والاهتمام أن أتباعه ذنو عقول تزداد خبرةً وعلماً ومعرفةً يوماً بعد يوم، وفكراً ينضح ساعةً بعد ساعةٍ. فلو أهملت هذه العقول وتلك الأفكار المتراكمة ل كانت العاقبة وخيمة، ويسقط البنيان من القواعد .

يجب ألا نتعامل مع المنتقد على أنه ذلك الشاب الصغير الذي كان يوماً من الأيام لا يستطيع أن يثبت النظر في عيني شيخه ومعلمه، أو

(1) هذا من رواية أنس كما عند البخاري (251/6) رقم (3147)

ذلك الطالب الذي كان يتلعثم في كلامه . فعجلة الزمن لا تتوقف؛ فهي تدور ويتتطور معها الكائن البشري، ويرتقى في سلم الكمال؛ فيصبح المتربي أو الجندي قائداً بين لحظة وأخرى، وربما ندأً لقائه ومعلمه ومربيه .

42- الصراحة، والوضوح :

لقد كان سعد بن عبادة - ﷺ - صريحاً واضحاً في خطابه مع النبي - ﷺ - قائده ومعمله؛ فها هو يقول له: «يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك وأعطيت عطايا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء .

إن هذه الصفات والخصال الحميدة لا يجدها إلا النادر من التلاميذ والأتباع، ولا يتقبلها إلا القليل من القادة أو الموجهين الذين لا يضعون على أنفسهم هالة من التجبيل، ولا تصيبهم غضاضة لو لم يناد بلقبه أو مركزه العلمي .

الصراحة، والوضوح أسماء ومعانٍ قلماً تجد من يتمثلها فتصبح واقعاً وسلوكاً ومنهجاً في تعامله مع الآخرين صغاراً أم كباراً، ولذا فإنك ترى من يفعل ذلك قد أصبح لكلامه وقعٌ في النفوس، ولو عظه تأثيرٌ في القلوب، وأعماله منهجه يسير عليه ويقتدي به الآخرون، وما ذلك إلا لأن هؤلاء قد عظّموا الله - جل جلاله - تعظيمًا فاق كل التصورات، واقتفو أثر نبيهم، فكان نبراساً لهم في هذه الحياة. وما أجمل وضوح سعد بن عبادة - ﷺ - وشفافية رده للنبي - ﷺ - عندما سأله: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْد؟**» فقال - ﷺ -: «يا رسول الله! إنما أنا رجل من قومي»؛ أي: أن قولهم ورأيهم هو قولهي ورأيي. لم يكن سعد - ﷺ - متكتلاً أو مجاملًا أو متلونًا، وهذه صفات تكثر في الأتباع تجاه قادتهم؛ مما يورث الجماعة انقساماً، وتحزباً، ونجوى مفسدة وموهنة لحبل الاجتماع. وقد يقول قائل: إن سعداً كان إمّعة في قوله ذاك، أو أنه خاطب النبي - ﷺ - بالمنطق الجاهلي :

وما أنا إلا من غزية إن غوت *** غويت وإن ترشد غزية أرشد
كلاً! إنها مسألة بدهية أن يجد الإنسان في نفسه عندما يرى العطايا تقسم ولا يصل له منها شيء، مع أنه جزء من الجماعة؛ فما بالك إذا كان هو مرتكز التغيير والتحول، وصاحب السابقة، والتأييد، والإعزاز،

والنصرة؟ فكيف سيكون الحال؟

إن المسألة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعطرة الإنسان في محبته للمال والعطاء؛ فلا أحد يرضى أن يكون فقيراً أو معذوماً، والله قد أحل الغنائم لأمة محمد - ﷺ -؛ فأي غضاضة أن يطلب الإنسان حظه منها؟!

وهنا يأتي دور الإيمان واليقين والتسليم والاحتساب، يأتي دور المربى كي يبني بنيان الإسلام في قلب المتربي بكل ما يحمله من قيم ومبادئ ومعان سامية، حتى لا يبقى في قلبه سوى حب الله وحب الرسول - ﷺ - وما أعده الله للصابرين الذين باعوا الدنيا وما فيها، واشتروا بها جنة عرضها السموات والأرض، وهذا الذي فعله - ﷺ -؛ فقد أعلنها واضحة جلية: أن قضيتهم ليست مرتبطة بلغاية الدنيا وحقارتها، وإنما مرتبطة باتباع هديه، ونصرة دينه، وإعلاء كلمة الله؛ فليذهب الناس بالشأة والبعير، فليس هناك مشكلة؛ بل أعظم المصيبة والبلاء أن يذهب المرء ومعه حظوظ الدنيا، وهو خالي الوفاض من دينه، وتمسكه بما أمر ربه، والتزام ما نهى؛ فالتخليط دينه، والتلؤن طريقته، والترخص عادته .

43- الموعظة وليس الغلظة والفظاظة :

المتأمل لردة فعل النبي - ﷺ -، وبما خاطب الأنصار في الحظيرة يجد أنه استخدم بذكائه العظيم، وحسن سياسته للأمور، أسلوب الموعظة. لقد عرف - ﷺ - من هم الأنصار، وما هي نفسياتهم، وفيما يفكرون، وكيف يتعاملون؟! عرفهم في البأساء والضراء، عرف فيهم دماثة الأخلاق، والكرم الجم، والحب الكبير له - ﷺ -؛ فلماذا إذا يعنفهم ويقسوا عليهم؟ وهو القائل: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه»⁽¹⁾ . وهو الذي قال عنه المولى - تبارك وتعالى - : **﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظًا الْقَلْبَ لَانْفَضُوا مِنْ حُولِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَأْوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ إِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** [آل عمران: 159].

وما أحوج قادة العمل الدعوي إلى استخدام هذا الأسلوب الدعوي العظيم إذا أوج سلوك النخبة من تلامذتهم وأتباعهم! ماذا يضريرهم لو سلكوا هذا المنحى؟ قد يظن بعضهم أنه ربما ينقص من قدره ومكانته،

بل العكس إنما هو رفعة له في قلوبهم، وازدياد معدل المحبة فيها. لقد عاتب - ﷺ - أنصار دعوته ومحبيه ليدلل على محبته لهم، واهتمامه بحالهم وأوضاعهم، يعيش آلامهم، ويحس بجرائمهم لتبقى المودة على الدوام.

أعاتب ذا المودة من صديق *** إذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس ود *** ويبقى الود ما باقى العتاب
«فما ظمَّ شيء أحسن من معاشرة الأحباب، ولا أذ من مخاطبة ذوي الأbab»⁽¹⁾.

ومن هنا كان لزاماً على من تولى قيادة النفوس أن يتقن فن الوعظ وطريقه؛ لأنَّه سيحتاج إليه حتماً في مسيرته التربوية والدعوية؛ فالسلامة والملل وتكرار صور الحياة أمور يجب الخوف منها، ومدافعتها عن قلوب الأتباع؛ فها هو ابن مسعود يقول: «كان النبي - ﷺ - يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا»⁽²⁾.

ويحتاج بعضهم أن القيادة مشغولة بمهام عده، وربما ليس عندها وقت لتجلس مع أتباعها، وتصلاح ما فسد بينهم بسبب الشحنة والاختلاف. وهذا غير صحيح ومجائب لواقع النبي - ﷺ -؛ ألم يكن بمقدور النبي أن يغض الطرف عن ما يذر من الانصار ويذهب لمهامه العظام؟ أليس شغل النبي - ﷺ - في تلك الفترة أعظم من انشغالات قيادات اليوم؟ بلـ! ولكن القضية هي لا مبالاة قاتلة بواقع الأتباع، يرتكبها القادة بقصد أو بغير قصد. والنتيجة سيئة للغاية ومعاليمها بادية للعيان: وهـُنْ في الواقع الأتباع، ضعف لهم، ركون لمنع الدنيا الزائلة؛ ويأس وقنوط من تغيير وعدم تغيير الأوضاع.

لقد كان - ﷺ - يتخذ من الوعظ بشتى صوره وأساليبه سلاحاً نافعاً لتلك المعلم آنفة الذكر، حتى استطاع أن يخرج جيلاً يقوم بواجب تبليغ الرسالة للأمم حق القيام، وكذلك كان الخلفاء الراشدون والأئمة من بعده. أما اليوم فالامر بخلاف ذلك، والله أعلم.

44- التذكير بالفضائل لأجل المتابعة :

إن من الغرم الكبير الذي يقع على القائد، والموجه، والمربى من

1) المستظرف في كل فن مستظرف، 284

2) (البخاري، الفتح 101/1 واللفظ له، ومسلم)

تلامذته، وأتباعه نسيانهم لفضائله وأعماله ومناقبه؛ فكم بذل وضحي وقادسٍ! وكم سهر وتعب وأسى! وربما مرض لأجل تربيتهم والحفظ عليهم من الأداء والمتربصين بهم؛ فكم كان يخطط وينسق وينظم جداول الأعمال والأعمال لأجل صنع مستقبل مشرق، وتاريخ مجيد لهم في خدمة أمة الإسلام، ورفع رأية التوحيد!

تنسى الفضائل والأعمال والمناقب، بمجرد أن يصبح الطويل بطالب علم، أو شيخاً، أو علماً دعوياً.
وتنسى عندما يصبح طالب حلقة التحفيظ حافظاً لكتاب الله وقارئاً للقرآن يحمل الإجازات والقراءات.

وتنسى أيضاً عندما يخطئ القائد خطأً ما، ويُفحش في خطأ ما؛ بأن يصر عليه، ويتعنت فيه لرؤيه رآها، واجتهد وصل إليه والتلمذة والاتباع يرون خلاف ذلك، وأن قائدتهم قد جانب الصواب.

ولوازم هذا النسيان متعددة؛ فـإما أن يوصم القائد بالتشدد أو الحزبية أو ضعف الرؤية، ثم تأتي معاول الهمم لتضرب على جدار تاريخه: ماذا فعل؟ لقد أخر العمل، وميّع القضية، وركن إلى الدنيا وشهواتها الدنيا، ثم ينقب في أخطائه وزلاته حتى تصبح في نظرهم كالجبال، والنتيجة على أحسن الأحوال مقاطعة لمحاضراته ودورسه، ويبقى السلام والزيارة في الأعياد والمناسبات. أما على أسوئها فهو مبتدع، ضال، منحرف، أشد على الإسلام من اليهود والنصارى، لو استطاعوا أن يقتلوه لقتلوه ورموه في عرض الطريق.

لقد كبرت عقول الصغار حتى نسوا الماضي التلذيد، وانشغل الكبار حتى نسوا أنهم في عجلة الزمن التي لا تتوقف لمتباطئٍ، أو غافلٍ، أو بلدي.

فمن حق القائد أن يوضح أعماله وفضائله ومناقبه، حتى يكون له الغُنم وليس عليه الغرم، أو تعتدل كفة الميزان على الأقل.

ولعلنا نتذكر يوم دخلت الأحزاب على عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وأرادوا قتل أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين المهديين.

قال لزعيمائهم: «أنشدكم الله! أتعلمان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهله، فقال: «من يشتري هذه البقعة من خالص ماله فيكون فيها كال المسلمين، وله خير منها في الجنة؟» فاشترتها من مالي، فجعلتها بين المسلمين، وأنتم تمنعوني أن أصلِي فيه ركعتين، ثم قال: أنشدكم الله أتعلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة لم يكن

فيها بئر يستذهب منه إلا بئر رومة، فقال رسول الله - ﷺ - : «من يشتريها من خالص ماله فيكون دلوه فيها كداء المسلمين وله خير منها في الجنة؟» فاشترىتها من خالص مالي وأنتم تمنعوني أن أشرب منها، ثم قال: هل تعلمون أنني صاحب جيش العسرة؟ قالوا: اللهم نعم ^(١).

لم يكن تصرف عثمان - رضي الله عنه - يخدش مقام الإخلاص في قلبه، وإنما كان مجرد وسيلة لاستمالة قلوب أولئك الأجلاف الأخلاط من الناس، لكنها لم تتفع؛ ولذا فإن استمالة القلوب تكون أحياناً لا فائدة فيها عندما تقابل قلوباً أقسى من الحجارة، ناكرة للجميل، ومتناسية للأيام الخوالي، والزمن الطويل، فلم تترتب التربية الإيمانية، ولم تصنف سريرتها وأعمالها فتصبح نقية روحانية، ولذا فقد نفعت مع الأنصار حينما خطبهم رسول الله - ﷺ - بخطاب رائع ومحظوظ، لكنه غني: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكُم الله بي؟ وكُنتم متفرقين فالْفَكِمُ الله بي؟ وعالَةٌ فاغناكم الله بي؟» ^(٢)

ولعلنا نتساءل: هل كان رسول الله - ﷺ - بحاجة إلى أن يوضح للأنصار ما عمل لهم؟ أو يخبرهم بحالهم، وكيف انتقلوا من حال الضعف إلى حال القوة بمجيئه - ﷺ - إليهم؟ هل كان بحاجة إلى كل هذا؟ وقد قضى معهم ثمان سنوات، كانت كفيلة بأن ترسخ تلك الحقائق في أذهان الأنصار؟

يجب عن هذه التساؤلات بأن الإنسان ما سُمي إنساناً إلا لنسيه، كما روی عن ابن عباس - رضي الله عنه - ^(٣) .

وقد قال القائل :

وما سُمي بالإنسان إلا لنسيه *** وما القلب إلا أنه يتقلب فالأنصار بشر يعرض لهم ما يعرض للبشر من النسيان، والجهل والغفلة، وهُم من المؤمنين الذين أمر الله نبيهم أن يذكّرهم **﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الناريات: 55] ؛ فلما ذكرهم نفعتهم الذكري، واعترفوا بصدق ما قال؛ لأنهم يحملون قلوبًا أرق من النسيم، ما أن

(١) رواه الترمذى والنمسائى، وقال الترمذى: حسن صحيح. وانظر البداية والنهاية لابن كثير، (١٩١/٧)

(٢) (البخارى، الفتح 7 / 4330، ومسلم 1061) من رواية عبد الله بن زيد بن عاصم - رضي الله عنه

(٣) لسان العرب: مادة (أنس)، 1/232

تسمع الحق حتى وتبشره بالخشوع والبكاء؛ فليت لنا قلوباً مثل قلوبهم أو حتى نصفها .

أما الجانب الآخر من الاعتراف بالفضل: فهو اعتراف القائد بفضل أهل السبق ومكانتهم، وهذه قضية غفل عنها كثيرون من قيادات العمل الدعوي اليوم، فترى أحدهم تمر عليه السنون ولم يظهر ثناؤه لرجاله الذين ساندوه، ووقفوا إلى جانبه في الملمات والمهمات، وفي المصائب والنكبات؛ ألم يكن النبي - ﷺ - يقول عن أبي بكر: «**لَوْ كُنْتَ مُتَخَذِّلاً غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتَ أَبَا بَكْرَ**»⁽¹⁾

وعن أبي عبيدة: «**أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»⁽²⁾

والزبير: «**إِنْ كُلَّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيٌّ الزَّبِيرُ**»⁽³⁾! وهو يقول للأنصار: «**وَاللَّهُ أَلَوْ شَئْتُمْ لِقْلَمَتْ - فَصَدَقْتُمْ وَصَدَقْتُمْ : جَئْتَنَا طَرِيدًا فَأَوْيَنَاكُمْ، وَعَانِلًا فَأَسْيَنَاكُمْ، وَخَائِفًا فَأَمْنَاكُمْ وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكُمْ**»، وقال عنهم في آخر عمره: «**أَوْصَيْكُمْ بِالْأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ كَرْشَيْ وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا ذَيْ عَلِيهِمْ، وَبَقِيَ الذَّيْ لَهُمْ؛ فَاقْبَلُو مِنْ مَحْسِنِهِمْ، وَتَجَازُوا عَنْ مَسِيئِهِمْ**»⁽⁴⁾؛ فهل قيادات العمل الدعوي - يا ترى - قلبـت صفحات سيرة المصطفى - ﷺ - وتأملت هذا الجانب؟

إن هذا التصرف من القائد له نتائج جميلة في نفوس النخبة الخُلُص من الأتباع: فهو يبني بنيان الثقة في نفوسهم، ويكبر هو في عيونهم، ويرون أن كل ما قدموه لم يذهب هباءً منثوراً؛ فهو محفوظ في قلب قائدـهم، ومرفوع - إن شاء الله - عند خالقهم وبارئـهم. فلا يضرـهم إن لم يحصلـوا ذهباً ولا فضة أو ديناراً أو درهماً؛ فكلمات القائد يخطـها الأتباع بماء الذهب؛ فتصبح أوسمة ونياشين تعلـق في صدورـهم، يتذكـرونها في ذهابـهم وإيابـهم، وقبلـ منامـهم، تشـحـذـ فيـهم هـمة الاستـمرـار علىـ العمل، وتشـتعلـ فيـ نفـوسـهـمـ حـمـاسـاً بالـغاً لـتحـقيقـ الـأـمـلـ .

فـالـإـنـسانـ مـجـبـولـ عـلـىـ حـبـ الثـنـاءـ مـنـ الـآخـرـينـ؛ وـذـلـكـ لـضـعـفـهـ الفـطـريـ، حتـىـ إـذـاـ تـدـرـجـ فـيـ سـلـمـ الـكـمالـ، وـارـتـقـىـ فـيـ درـجـاتـ الـقـربـ مـنـ

1) البخاري، الفتح 7 (3654) من حديث أبي سعيد الخدري - .

2) البخاري، الفتح 13 (7255) ومسلم (2419) من حديث أنس بن مالك - .

3) البخاري، الفتح 6 (2997) واللفظ له، مسلم (2415) من حديث جابر بن عبد الله - .

4) البخاري، الفتح 7 (3799)، مسلم (2510) واللفظ له

الله الكبير المتعال، استوى عنده مدح الصديق المنوال، وذم العدو الحقد الغال .

٤٥- لا شاعة أخبار المشاكل :

جاء في رواية أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : «فخرج سعد، فصرخ فيهم، فجمعهم في تلك الحظيرة، فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، حتى لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه، فقال: يا رسول الله! قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار؛ حيث أمرتني أن أجمعهم، فخرج رسول الله فقام فيهم ... هذا المقطع من الرواية يبين لنا دلالات مهمة، ينبغي التفطن والاهتمام بها :

منها: أنه إذا حدث إشكال معين في صفوف الأتباع؛ فمن الحكمة ضرورة محاصرة خبره؛ لكيلا يصل خبره بين الأتباع الآخرين الذين ليس لهم علاقة به، ولم يشاركا فيه؛ إذ إن وصول الخبر إليهم مدعاة لتضييع الأوقات وهدر الأوقات؛ فينفسى فيهم ما نهى عنه رسول الله - ﷺ - من القيل والقال، وكثرة السؤال، وربما يعد عاملاً مساعداً في تفريق الجماعة، وبعث النعرات الخامدة في النفوس. ولسائل أن يسأل: ألم يدخل أحد من المهاجرين حظيرة الاجتماع؟ الجواب: نعم! ولكن قد بيّنت الرواية الأخرى عند الإمام أحمد من حديث أنس قال: «فجمعهم في قبة له، حتى فاضت فقال: فيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أختنا قال: «ابن أخت القويم منهم»⁽¹⁾.

ومنها: على القائد أن لا يحمل بقية الأتباع تبعية أخطاء مجموعة معينة من الأفراد؛ **(ولَا تَزِرْ وَازِرَةً وَزَرْ أُخْرَى)** [الأعراف: 164]، فما ذنب من لم يعلم، ولم يكن مشاركاً، أو مؤيداً أن يتحمل تبعات ونتائج أخطاء الآخرين؟ أليس الجهل بالأمر عذراً كافياً لاستثنائهم؟ بلى! ولذا فقد دلت الروايات أن النبي - ﷺ - قد جمع حيّاً واحداً من الأنصار، ولم يجمع الأنصار كلام .

ومنها: أن مشاركة الآخرين مدعوة أيضاً إلى أن تأخذ نفوس المخطئين العزة بالإثم والإصرار على الخطأ، ومحاولة تسويغ أخطائهم؛ بذكر مثالب القائد، سواء كان في نفسه وإدارته، أو حتى في

(1) انظر البداية والنهاية لابن كثير، 7 / 191

أسرته؛ فيسمع الصغير والكبير بذلك، فتحث له فتنة جديدة ستكون عوناً على انحرافه وخروجه من دائرة الطيبين .

ومنها: أن تصرف النبي - ﷺ - كان غاية في الحكمة، وقمة في الذكاء والحنكة، فلم يجلس مع أبي بكر وعمر، أو المهاجرين ليحكى لهم ما بدأ من الأنصار، حتى يؤكّد صحة مذهبة وطريقته؛ فيقوى بذلك جانبه، ويحقق مآربه، كلاماً! فهو القائد والمعلم، وأولئك تلاميذ فحسب، والتلميذ مهما بلغ فهو تلميذ يجب أن يحترم قائد وموجهه، ويصبر على تعنيفه وإساءاته؛ ففي معارضته حرمان نفسه لخيرة وفضائله وصدق القائل :

اصبر على مر الجفا من معلم *** فإن رسوب العلم في نفراته لقد انفرد - ﷺ - بهذا الحي من الأنصار ليصلحهم ويربيهم على انفرادٍ تام؛ ليؤكد لنا على أهمية النصح للمخصوص دون استماع غيره، سواء كان هذا المخصوص فرداً أو جماعة وصدق الشافعي حين قال : تعهذني بنصحك في انفرد *** وجنبني النصيحة في الجماعة فإن النصح بين الناس نوع *** من التوبيخ لا أرضى استماعه فإن خالفتني وعصيت أمري *** فلا تغضب إذا لم تُعط طاعه وقال مسعود بن كدام - - رحمه الله - : «رحم الله من أهدى إلى عيوبه في سر بيبي وبينه؛ فإن النصيحة في الملا تقريب»⁽¹⁾.

46- التعميم لا التعين :

لقد استخدم - ﷺ - لفظاً عاماً في مخاطبة الحضور، ولم يعين شخصاً بعينه، أو اثنين أو ثلاثة بأسمائهم مع أنه - والله أعلم - كان يعلم بالذين تكلموا؛ فالوحى لم يكن ليترك النبي - ﷺ - دون أن يخبره بمثل ذلك .

والمتأمل لسيرة النبي - ﷺ - وخطابه عند حلول المشكلات، أو حدوث الأخطاء من الصحابة يرى استخدامه لكلمات عامة: «ما بال أقوام، وما بال رجال»، وإليك نماذج من ذلك : «ما بال أقوام يتزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله! إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»⁽²⁾.

(1) الآداب الشرعية، لابن مفلح (1/290).

(2) (البخاري، الفتح 13/7301) ومسلم (2356) من حديث عائشة.

«ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكنني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»⁽¹⁾.

«ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق؟ والله! ما علمت عليهم إلا خيراً. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، ولا يدخل بيتي إلا وهو معى»⁽²⁾.

«يا معاشر الأنصار!» خطاب له مدلواته ومعانيه وقوة حضوره، وهو نداء يشعل في قلوب السامعين ذكرى اللحظات الحاسمة في بيعة العقبة الثانية، يوم بايعوه على أن يضحوا بكل شيء؛ لأجل حمايته والذود عن دعوته.

إن استخدام القائد لأسلوب التعميم عند حل المشكلات له فوائد مهمة، ونتائج طيبة :

منها: أن الخطاب سيكون عاماً وليس معيناً ومحدداً، وهذا سيؤدي إلى جعل الحضور كلهم في محل المسؤولية؛ فغير المذنب سيمقت هذا التصرف، ويعتقد أنه ربما يقصد بذلك فيرباً بنفسه عنه، وأما المذنب فسيستهجن ما قاله وفعله، فيبدأ بإصلاح نفسه دون التعرض لأمور تجرح قائد وموجهه .

ومنها: أن أسلوب التعميم وعدم ذكر أسماء الأشخاص يحفظ للمذنب كرامته، ويصون عرضه وشخصيته، فلا تجرح، وأعظم الجرح عندما يذكر شخصه، أما إخوانه فيأتي الشيطان ليهمس في أذنه أن هذه إهانة لا يمكن السكوت عليها ولا غض الطرف عنها، وقد يؤدي به آخر المطاف إلى الخروج من دائرة الطيبين ليكون مع الأعداء والمتربيين .

إن ما وقع من الأنصار بعد قسمة غنائم هوازن، وتصرف النبي - ﷺ - تجاه ما قالوا يعدّ - في نظري - منهجاً ينبغي أن يتخذه القادة، والمربون، وال媢جهون، يسيرون وفق معطياته عندما تعترضهم المشاكل والخلافات في أوساط أتباعهم، وتلامذتهم. وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه .

1) البخاري، الفتح 9/5063، ومسلم (1401) من حديث أنس.

2) هذه قطعة من حديث عائشة قال الألباني - رحمه الله - : «أخرجها ابن هشام في السيرة 2/220، 222، وهي

عند البخاري (35. 447/7)، ومسلم (8/113. 117) بنحو ما هنا». عن فقه السيرة، للغزالى، ص 316 .

47- فضيلة الأنصار:

وقد ظهرت في تلك الغزوة فضيلة الأنصار، وأن الرسول - ﷺ - لم يمنعهم مما أعطاه غيرهم إلا لمزيد حبه لهم، ويفيهم فخرًا أنه - ﷺ - اعتبرهم منه بمثابة شعاره وجعل غيرهم دثاره، والشعار هو ما يلي الجلد من الثياب والدثار الذي فوقه، قال ابن حجر: "وهي استعارة طفيفة لفرط قربهم منه، وأراد أيضًا أنهم بطانته وخاسته، وأنهم أصدق به وأقرب إليه من غيرهم" .⁽¹⁾

بل جعل ﷺ حبهم من الإيمان وبغضهم من علامات النفاق فقال: «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار»⁽²⁾ . ، وقال ﷺ : «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»⁽³⁾ .

48- استخدامه ﷺ أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النبي ﷺ في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق لها أن استعملها من قبل، وهذه الأسلحة هي:
* **المنجنيق**: فقد ثبت أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف، فعن مكحول **رضي الله عنه** أن النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف⁽⁴⁾.

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه، فبحجارته تهدم الحصون والأبراج، وبقتابله تحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال⁽⁵⁾.

* **الدبابة**: ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول ﷺ لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة؛ والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد نقض

1) فتح الباري: (53/8)

2) أخرجه البخاري (17)، (3784) من حديث أنس (13)

3) أخرجه البخاري (3783) ومسلم (75) والترمذى (3900) من حديث البراء بن عازب .

4) أبو داود، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح(35) موسوعة أبي داود، ص183.

5) انظر: المدرسة العسكرية الإسلامية، المؤلف محمد فرج، ص407

جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرمي⁽¹⁾.

* الحنك الشائك: من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف: الحنك الشائك؛ وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبين تسمران على هيئة الصليب، حتى تتآلف منها أربع شعب مدببة، وإذا رمى في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال⁽²⁾.

وقد ذكر أصحاب المغازي والسير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحنك الشائك حول حصن ثقيف⁽³⁾، وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصاً، وال المسلمين عموماً، إلا يعطوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

49- اختيار رسول الله ﷺ مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجنديون يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام؛ فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون، وحينئذ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة وكلف الحباب -لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال- بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجنديين، فذهب ^{عليه السلام} ثم حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر النبي ^{عليه السلام} حينه بالتحول إلى المكان الجديد، وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى؛ قال عمرو بن أمية الضمري ^{رض}: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيئاً الله به عليم كأنه رجل جراد، وترسنا لهم حتى أصيّب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله ^ﷺ الحباب فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستاخراً عن القوم» فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع

(1) انظر: القيادة في عهد الرسول، ص 405.

(2) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، اللواء عبد الرءوف عون، ص 195.

(3) انظر: الطبقات الكبرى (2) 214.

مسجد الطائف⁽¹⁾ خارج من القرية، ف جاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فأمر النبي ﷺ أن يتحولوا⁽²⁾.

50- استخدام الحرب النفسية والدعائية :

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، ووجه النبي ﷺ نداءً لعبد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة التقي فأسلموا، فأعتقدوا ولم يعودهم إلى ثقيف بعد إسلامهم⁽³⁾.

51- مناداة الناس بمناقبهم شرف لهم :

يقول أهل السير: إذا خطبت قوماً فاذكر مناقبهم ومحامدهم، وذكرهم بأيام الله، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «**يا بنى عبد الله - قبيلة من قبائل العرب - إن الله أحسن اسم أبيكم فأحسناوا سيرتكم**».

فالرسول عليه الصلاة والسلام أمر العباس أن يقول: يا معشر الأنصار، ثم قال: **يا أصحاب الشجرة**، يناديهم بذلك اليوم المشهود، يا من أنزلت عليهم سورة البقرة، يناديهم بهذه المنقبة، فللمسلم أن يتحف إخوانه والقوم الذين يدعوه من مناقبهم وما تأثر هم ليكون أشد إقبالاً لهم، وهذا من ذكر المناقب في مجال الدعوة إلى الله عز وجل.

52- في أمور الحرب وسياسة القتال :

إنَّ على القائد أن لا يألو جهداً في معرفة قدرات العدو وخططه، وإمكاناته عن طريق بعث العيون ومن يستطلع له أخبار الأعداء، كما فعل رسول الله - ﷺ - لما بعث ابن أبي حדרد ليأتيه بخبر هوازن، قال الإمام ابن القيم عند حديث عن غزوة حنين: "و فيها من الفقه أن الإمام ينبغي عليه أن يبعث العيون، ومن يدخل بين عدوه ليأتيه

(1) مسجد الطائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس.

(2) انظر: مغازي الواقدي (416/1).

(3) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (510/2).

خبرهم".⁽¹⁾

والحق أن الرسول - ﷺ - كان يسعى في كل غزواته لجمع أكبر قدر من المعلومات عن العدو قبل الاشتباك معه في القتال، كما فعل في هذه الغزوة، وكما في بعثه حذيفة بن اليمان يوم الخندق ليأتيه بخبر المشركين.⁽²⁾ وكذلك استجوب ﷺ يوم بدر غلاماً لعقبة بن أبي معيط كان المسلمين قد أمسكوا به قبل غزوة بدر، وكان مما سأله عنه عدد ما ينحرون من الجزر، فلما أخبره أنهم يذبحون في كل يوم عشرأً، قال: "القوم ألف، كل جزور لمئة وتبعها".⁽³⁾

وفي هذه الغزوة أيضاً أن الإمام كما يقول ابن القيم: "إذا سمع بقصد عدو له وفي جيشه قوة ومنعة، لا يقدر ينتظركم بل يسير إليهم، كما سار رسول الله - ﷺ - إلى هوازن حتى لقيهم بحنين".⁽⁴⁾

وفي هذا بيان أهمية الأخذ بزمام المبادرة، وأن أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم كما يقول المعاصرون، وقد رأينا في حرب عام 1967، أن من أسباب هزيمة العرب التزام قادتهم بأن لا يكونوا البادئين بالقتال، مع علمهم بأن اليهود سيهاجمونهم.

53- ضرب الأمثال:

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يضرب الأمثال للناس ومثله قوله ﷺ: «الآن حمي الوطيس» وهو أول من تمثل به كما قال أهل السير، وكان عليه الصلاة والسلام يضرب الأمثال للناس كما ذكر سبحانه وتعالى أمثala في القرآن يضربها في العقيدة والعبادة والسلوك. { جاء رجل أعرابي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: أعطني من مال الله الذي عندك لا من مال أبيك ولا من مال أمك، فقام الصحابة عليه، فأسكنتهم ثم أعطاه، فلما انتهى من إعطائه، قال: هل أحسنت إليك؟ قال: نعم أحسنت وأجملت جراحك الله من أهل وعشيرة

1) زاد المعاد: (479/3)

2) أخرجه مسلم (1788) من حديث حذيفة 16.

3) أخرجه أحمد: (117/1) من حديث علي بن أبي طالب، وسنده صحيح كما في تعليق الألباني على فقه السيرة ص:

(237)

4) زاد المعاد: (479/3)

خيرا، فذهب أمم الصحابة، فقال: هل أحسنت إليك؟ قال: لا، فأرادوا أن يهموا به فعاد ﷺ فزاده فدعا له الأعرابي، فقال: أخبر أصحابي بهذا ليزول ما في نفوسهم، فقال هذا أمّا ممّهم.

قال عليه الصلاة والسلام: أتدرؤن ما مثلي ومثلكم ومثل هذا الإعرابي؟

قالوا: لا، قال: مثلكما كرجل كانت عنده دابة فرت منه فأخذ الناس يلاحقونها فما زادوها إلا فرارا.

قال: «**يا أيها الناس دعوني ودابتني، فأخذ شيئاً من خشاش الأرض - أي: من خضرة الأرض - فلوح لها به فاقتربت إليه حتى قادها، فلو تركتموه وهذا الإعرابي لفر ثم ارتد ثم دخل النار**».

54- لله حكم:

اقتضت حكمته - سبحانه - أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة، مع كثرة عددهم وعددهم وقوتهم شوكتهم، ليطمأن رؤوساً رفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله واضعاً رأسه منحنياً على فرسه، حتى إن ذقنه تقاد تمس سرجه تواضعاً لربه وخضوعاً لعظمته واستكانة لعزته، أن أحلى له حرمه وببلده ولم يحل لأحد قبله، ولا لأحد بعده... فلما انكسرت قلوبهم أرسلت إليها خلُجُ الجبر، مع بريد النصر، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، وقد اقتضت حكمته أن خلع النصر وجوانذه إنما تفيض على أهل الانكسار **(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يخزرون)**...

55- عدم جواز قتل النساء والصبيان وغيرهم من

الضعفاء:

فقد مر أن رسول الله ﷺ ، لما رأى امرأة مقتولة استنكر ذلك، وقال: ما كانت هذه لتقاتل ثم بعث من يطلب من خالد بن الوليد أن لا يقتل امرأة ولا عسيفاً، والعسيف: الأجير، وهذا مما يبين عظمة هذا الدين وسمو تشريعاته في أمور الحرب وغيرها، وأن مشروعية القتال في الإسلام، إنما جاءت لغایات سامية، غير ما تعارف عليه الناس في

حروبهم القديمة والحديثة، فلما كان الأصل في النساء الضعف، وأنهن لسن من أهل القتال، فقد نهى ﷺ عن قتلهن، وفي الحديث بيان أن عدم كون المرأة من أهل القتال هو علة النهي عن قتلها؛ لأنَّه - ﷺ - وصف المرأة بأنها ليست من أهل القتال ثم رتب على ذلك النهي عن قتل النساء، "وترتيب الحكم على الوصف يدل على عِلْيَةِ ذلك الوصف وعدم عِلْيَةِ غيره"⁽¹⁾.

ومعنى ذلك أنها إذا شاركت في القتال قوتلت وقتلت، سواء كانت مشاركتها حقيقةً بالقتال الفعلي، أو حكماً كتحريضها قومها على القتال، أو مشاركتهم الرأي، ونحو ذلك.

قال الخطابي: "فيه دليل على أن المرأة إذا قاتلت قتلت؛ إلا ترى أنه جعل العلة في تحريم قتلها أنها لا تقاتل، فإذا قاتلت دل على جواز قتلها"⁽²⁾.

وفي قتل دريد بن الصمة، وعدم إنكار النبي - ﷺ - ذلك دليل على جواز قتل شيوخ المشركين، إذا كان فيهم منفعة للكفار كرأي أو مشورة ونحوه، فإن دريد ابن الصمة كان حين قتل ابن عشرين ومئة سنة، وقيل ابن ستين ومئة سنة⁽³⁾.

وقد جاء في الحديث أن رسول الله - ﷺ - كان إذا بعث جيشاً قال «انطلقوا باسم الله، لا تقتلواشيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً...»⁽⁴⁾. لكن جاء في حديث سمرة بن جندب مرفوعاً: "قتلوا شيوخ المشركين واستبقو شر خهم"⁽⁵⁾.

وفي كلام الحديثين كلام، غير أنهما إن صحا فيمكن الجمع بينهما كما قال الشوكاني: "بأن الشيخ المنهي عن قتيله في الحديث الأول هو الفاني الذي لم يبق فيه نفع للكفار، ولا مضره على المسلمين، وقد وقع التصريح بهذا الوصف بقوله شيخاً فانياً، والشيخ المأمور بقتله في الحديث الثاني هو ما بقي فيه نفع للكفار ولو بالرأي كما في دريد بن

1) الذخيرة للقرافي: (387/3)

2) المصدر السابق

3) فتح الباري: (42/8)

4) أخرجه أبو داود (2614) من حديث أنس.

5) أخرجه أبو داود (2670) والترمذى (1538)

56- الإلحاح في الدعاء وقت الأزمات:

يقول جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا أَقِيمَتْ فِتْنَةٌ فَابْثُوْا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: 45]، قال ابن القيم : "سئل

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمة الله لماذا ذكر الله الدعاء والذكر وقت الأزمات وقت التحام الصحف؟

قال ابن تيمية : من عادات العرب والناس ذكر محبوبهم وقت الأزمات؛ فأراد الله أن يخبرهم أن أحب محبوب عندهم هو الله، فليذكروه في تلك الأزمة أو الضائقة، ثم قال ابن تيمية أما سمعت قول عنترة :

ولقد ذكرتكم والرماح نواهل مني وببيض الهند تقطر من دمي
فذكرها في تلك اللحظة، فالمؤمنون ذكرهم الله أن يذكروه وقت الأزمات، وأحسن الدعاء ما سر صاحبه إليه، وهو وقت الضائقة التي تحل به لأنه يخلص في الدعاء ويلتجئ إلى الحي القيوم، فالرسول عليه الصلاة والسلام لما رأى الكتائب قال: «**اللهم إني أشذك عهدي ووعدي الذي وعدتني**».

57- جواز العارية :

وهي إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال، وقد وقع الإجماع على جوازها، بل على استحبابها بين المسلمين، ويجب رد العارية إن كانت باقية بلا خلاف، أما إذا تلفت فهل يجب على المستعير ضمان قيمتها وإن لم يتعد؟ وقع الخلاف في ذلك فذهب أحمد والشافعي إلى وجوب الضمان سواء تعدى المستعير أم لا، وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها أمانة لا يجب ضمانها إلا بالتعدي فإن ثبت إهمال من المستعير ضئن، وإلا فلا شيء عليه.⁽²⁾

ومأخذ المسألة أن قوله - ﷺ - لصفوان: "**بل عارية مضمونة**"، هل قصد به أنها مضمونة بالرد أي أنه ضامن ردها إلا إذا تلفت عن غير تقدير منه، أو قصد به أنها مضمونة بالتلف أي أنه ضامن إياها وإن

1) نيل الأوطار: 262/7

2) انظر المغني لابن قادمة (354/5)

تلفت بتقسير أو بغير تقسير؟، والنص يتحمل الأمرين، وقد رجح ابن القيم أنه أظهر في ضمان الرد أي كقول أبي حنيفة ومالك.⁽¹⁾

58- مشروعية الدعاء للكافرين بالهدية:

وقد استدل لذلك بما في سيرة ابن هشام أنه قد قال رجل للرسول

- ص يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله ادع عليهم، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً، وائت بهم»⁽²⁾

غير أن في ثبوت هذا الحديث نظراً، وقد حكم الشيخ الألباني بضعفه لأنَّه من روایة أبي الزبير عن جابر، والزبير مدلس وقد عنعنه، وقد تابعه عبد الرحمن بن سابط كما في روایة أحمد، ولكنه لم يسمع من جابر، كما قال يحيى بن معين.⁽³⁾

لكن مشروعية الدعاء للمشركين بالهدية والصلاح ثابتة بالسنة الصحيحة؛ فقد صح أنه لما قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي - ص - ، قالوا: يا رسول الله إن دوساً عصت وأبْتَ، فادع الله عليها، فقيل هلكت دوس، فقال: «اللهم اهد دوساً وائت بهم»⁽⁴⁾.

والذي ينبغي التتبّيه عليه أنه مع جواز الدعاء للمشركين يجوز الدعاء عليهم أيضاً، بحسب الحال وما يقتضيه المقام، وقد صح أنه - ص -

- قد دعا يوم الخندق على المشركين فقال: «ملا الله بيوتهم وقلوبهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى، حتى غابت الشمس»⁽⁵⁾، وفي الصحيح أيضاً: «اللهم اشدد وطأتك على مصر، اللهم سنين كستني يوسف»⁽⁶⁾.

1) (راجع زاد المعاد: 482/3)

2) الحديث في سيرة ابن هشام (130/3) بدون إسناد، وأخرجه أحمد (343/3) والترمذى (3942) من حديث جابر بن عبد الله.

3) (انظر تعليق الألباني على فقه السيرة للغزالى (ص: 432)، وانظر أيضاً كتابه دفاع عن الحديث النبوى والسيرة والرد على جهالات الدكتور البولى (ص: 7)

4) أخرجه البخارى (2937) ومسلم (2524) من حديث أبي هريرة

5) أخرجه البخارى (2931) ومسلم (627) من حديث علي.

6) (أخرجه البخارى (2932) من حديث أبي هريرة مرفوعاً).

59- استشهاد أبي عامر الأشعري:

استشهاد أبي عامر الأشعري في أوطاس فإنه حضر المعركة عليه السلام وأرضاه وضربه مشرك في ركبته بعد أن قتل تسعة من أبطال المشركين، ووقف له العاشر فضربه في ركبته فخرج منها الماء فمات، فقال لابن أخيه أبي موسى : اذهب إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم وبلغه مني السلام وقل له: يدعوني.

قال أبو موسى : فأتيت إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم فوجده في غرفة ضيقة قد أثر الحصير في جنبه، فقلت: يا رسول الله! قتل عمي أبو عامر الأشعري وهو يبلغك السلام ويقول: ادع له.

فقام عليه الصلاة والسلام إلى ماء فتوضاً ثم استقبل القبلة، فقال: «**اللهم اغفر لعبدك أبي عامر ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم اجعله من ساكني الجنة، وارفعه على كثير من خلقك وفضلة عليهم تفضيلا**»، قال أبو موسى : فلما سمعت هذا الدعاء وقفت بجانبه صلوات الله عليه وسلم فقلت: وأنا يا رسول الله، لأنها فرصة لا تتعرض.

قال صلوات الله عليه وسلم وهو يتسم رافعا يديه إلى القبلة: «**واغفر لـ أبي موسى وأكرم نزله ووسع مدخله**».

فكان الرسول والمرسل ظافرين بداعي الرسول عليه الصلاة والسلام.

60- جواز عقر مركوب العدو إذا كان عوناً على قتله :

وفي الغزوة جواز عقر فرس العدو ومركوبه إذا كان ذلك عوناً على قتله كما عقر علي صلوات الله عليه وسلم - جمل حامل راية الكفار وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهي عنه .
فوائد تربوية:

61- البناء العقدي والتربوي:

من الفوائد التربوية التي نتعلمها من غزوة حنين، ويحتاج العاملون لدين الله إلى تدبرها والوقوف عنده طويلاً: قضية الاهتمام بالبناء العقدي والتربوي لمن يهبيون كي يكونوا جنداً لهذا الدين، وأنه لا يصح الاهتمام بالكم على حساب الكيف، وأن الذين تنصر بهم الدعوات هم الصفة العارفون بما ينبغي عليهم فعله، وأن الكثرة " تكون أحياناً سبباً في الهزيمة لأن بعض الداخلين فيها التائبين في غمارها.. تنزلزل

أقدامهم وترجف في ساعة الشدة فيشيرون الاضطراب والهزيمة في الصفوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله.. لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح⁽¹⁾.

62- معاملة كل فرد بما يصلحه:

في إجزاله - ﷺ - العطاء للمؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وعدم إعطائه الأنصار، بيان ما كان عليه النبي - ﷺ - من الحكمة والقدرة على معاملة كل فرد بما يصلحه، وهو ما يعرف عند التربويين المعاصرین بمراعاة الفروق الفردية، فلئن كان نصيب الأنصار أن يرجعوا إلى ديارهم برسول الله - ﷺ - فإن ذلك كان نعمة من نعم الله عليهم، بينما أرضى - من لم يعرف قدر هذه النعمة بالشاة والبعير، كما يعطى الصغير ما يناسب عقله ومعرفته، ويعطي العاقل الليب ما يناسبه؛ وقد كان ذلك من منهجه في تغيير النفوس واستعمالتها إلى الحق، فإنه كان يعلم أن من الناس ناساً لا يحملهم على الإيمان إلا أن يشعروا بأنهم يحقّقون من ورائه بعض المغانم، فكان يعطيهم تاليفاً لقلوبهم على الإيمان، وهذا ما حدث بالفعل فلقد كان الرجل - كما قال أنس بن مالك - "ليس مال ما يريد إلا الدنيا فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها"⁽²⁾. وقال صفوان بن أمية: "والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلىي، مما برح يعطيوني حتى إنه لأحب الناس إلىي"⁽³⁾.

وإن هذه السياسة النبوية الحكيمية قد أثمرت ثمارها الطيبة؛ فإنه لم يمض إلا وقت يسير حتى "رحب غالبية هؤلاء المؤلفة قلوبهم في الإسلام وحسن إسلامهم وانخرطوا في الجهاد إلا القليل جداً منهم"⁽⁴⁾.

63- المال لله يضعه حيث يشاء:

1) في ظلال القرآن: (1618/3)

2) .أخرجه مسلم (2312)، هذا وقد وهم الدكتور مهدي رزق الله في كتابه السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص: 598، فنسب هذا القول للإمام مالك - رحمه الله.

3) أخرجه مسلم (2313) والترمذى (666)

4) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص: 598)

ومن المعاني التربوية التي أراد النبي - ﷺ - أن يرسخها في أذهان أصحابه وفي أذهاننا من بعدهم، أن المال كلّه لله يضعه حيث يشاء، وأنه ليس معنى أن يحرز المسلمون غنيمة أنه لا يجوز للرسول - ﷺ - أن يتصرف فيها بحسب ما يوحى إليه ربه، قال الإمام ابن القيم: "ولله - سبحانه - أن يقسم الغنائم كما يحب، وله أن يمنعها الغانمين جملة كما منعهم غنائم مكة، وقد أوجفوا عليها بخيالهم وركابهم، وله أن يسلط عليها ناراً من السماء تأكلها، وهو في ذلك كلّه أعدل العادلين وأحلك الحاكمين... وليس هو - سبحانه - تحت حجر أحد من خلقه"⁽¹⁾.

بل ذكر الإمام ابن القيم أن ذلك ليس خاصاً بالنبي - ﷺ - ، وأنه إذا اقتضت مصلحة المسلمين أن يدفع الإمام الغنائم أو بعضها إلى قوم من الكافرين ليتألفهم، فلا بأس بذلك "فإنه وإن كان في الحرمان مفسدة، فالفسدة المتوقعة من فوات تأليف هذا العدو أعظم، ومبني الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما"⁽²⁾.

والى هنا أكتفي وأسأل الله عز وجل منه وكرمه أن ينفعنا بما نكتب ونقرأ، و يجعله خالصاً لوجهه الكريم .



1) زاد المعاد: (485/3)

2) المصدر السابق: (486/3)

غزوة تبوك دروس وعبر

الحمد لله القوي الجبار، المتين القهار، والصلة والسلام على سيد الأنبياء الآخيار، وعلى الله وصحابه الأطهار، ومن تبعهم من الصالحين الأبرار،

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسْأَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1]

وبعد ..

فإن الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ حديث تحبه النفوس المؤمنة، وتأنس به قلوب بالإيمان مطمئنة، فحبه في شعاف الأفداء مغروض، وتوفيقه مشربة به النفوس، بأبى هو وأمي ﷺ .

إن سيرة النبي قبل أن تكون علمًا يُدرس هي موضوع شيق محبب إلى النفوس، وما ذلك إلا لأنّ النبي ﷺ هو أحب الخلق إلى قلوب المؤمنين، فكلما قرأ المؤمن شيئاً من سيرته ازداد له حبًا وشوقاً إلى رؤيته ولقائه، فهو أجود الناس وأشجعهم وأحلّهم وأجملهم، ولا شك أن في مجازي النبي ﷺ من الفوائد وال عبر وترقيق القلوب وربطها بالله تعالى ما لا يوجد إلا في القرآن الكريم. إلا أن الملاحظ أن أكثر الناس أعرضوا عن دراسة سيرته ومجازيه، كما أعرضوا عن القرآن وهجروه، ولهذا السبب زادت الغفلة بين المسلمين وقللت محبة الله ومحبة رسوله في قلوب الناس، حتى ظهر ذلك جلياً في ترك الانصياع لأوامر الله وفي الإعراض عن سنة المصطفى .

ونحن اليوم في أمس الحاجة إلى تعلم ابنائنا ونسائنا بل وأنفسنا سيرة النبي ﷺ ، عوضاً عما يُخشى في أدمغتنا من تقدير للكرة وتقدير لفن الهاابط وكل ما يُسخط الله ولا يرضيه، ولو أن أحدنا سُئل عن مقدار محبته للنبي ﷺ لعجز عن وصف مشاعره، ولكن تهافتة على

الدنيا وتعامله بالربا وأكله أموال الناس بالباطل وتهاونه في الصلاة وعدم اهتمامه بدين أبنائه وبناته وتهاونه في حدود الله كل ذلك يكذب زعمه محبة النبي ، وإنه من المؤسف أن ترى جهل الناس بسيرة نبيهم وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم إلا من رحم الله .

يوم يُقْلِبُ المرء صفحات الماضي المجيد، ويتدبر القرآن الكريم، ثم ينظر لواقعنا ويقارنه بذلك الماضي، يتحسر يوم يجد البوئ شاسعاً والفرق عظيماً، يتৎسر يوم يرى تلك الأمة التي كانت قائدة، وقد أصبحت تابعة حينما ابتعدت عن شرع ربها ونهاج نبيها، فعوداً والعود أَحَمَّدُ، عوداً سريعاً إلى الماضي المجيد، لنستلهم منه الدروس وال عبر في هذا الحاضر العاثر، عوداً لسيرة من لم يطرق العالم دعوه كدعوته، ولم يؤرخ التاريخ عن مصلح أعظم منه، ولم تسمع أذن عن داعية أكرم منه، وما أحراانا ونحن في الأيام العصيبة أن تتجاوز المدة الزمنية كي نعيش يوماً من أيام محمد ، لأنأخذ العبر والدروس .

ومن هذا الباب لا زلنا وإياكم في هذه الموسوعة المباركة بإذن الله :

(غزوات النبي المصطفى دروس وعبر). ومع (غزوة تبوك دروس وعبر)

وأسال الله الكريم الوهاب العزيز التواب أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيمة إنه ولني ذلك القادر عليه .



غزوة تبوك

✿ غزوة تبوك ✿

التي كان سببها هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد؛ ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: **﴿بِمَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتَلُوا الَّذِينَ يُتُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيهِمْ غِنَظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** [التوبه: 123]. (1)

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان وارداً.

✿ غزوة تبوك ✿

هي الغزوة التي خرج رسول الله ﷺ لها في رجب من العام التاسع الهجري(2) بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر(3).

✿ غزوة تبوك ✿

اشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في

(1) انظر: البداية والنهاية (3/5).

(2) انظر: تفسير الطبرى (540/14 - 542)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 614.

(3) انظر: فتح الباري (237/16).

صحيح مسلم، فقد روي بسنته إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتواها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائتها شيئاً حتى آتى»⁽¹⁾.

✿ غزوة تبوك :

لقد سُميت أيضاً غزوة العسرة لشدة ما لاقى المسلمين فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقاً لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه⁽²⁾.

✿ غزوة تبوك :

لها اسم ثالث هو: الفاضحة، ذكره الزرقاني –رحمه الله– في كتابه «شرح المواهب اللدنية»⁽³⁾ وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكَت أستارهم، وفضحت أسلاليهم العدائية الماكنة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين⁽⁴⁾.

✿ غزوة تبوك :

نقف مع هذه الغزوة في مثل هذا الزمن الذي تشابكت بأمة الإسلام حلقات من المحن، وتقاذفتها أمواج من الفتنة، وصيغ بهم من كل جانب وتداعى عليهم الأكلة، يحملُ الحديث عن هذه الغزوة في مثل هذه الأوضاع العالمية المتلاحقة التي تكرّس لدى المسلمين جميعاً كل يوم أن رزق هذه الأمة وعزها تحت ظل رمحها وجهادها، وذلتها وصغارها في تركها لجهاد أعدائها وإخلادها لشهواتها ودنياها.

✿ غزوة تبوك :

التي من رسائلها أنَّ الله كتب العزة والقوة لهذه الأمة، متى ما صدقَت وأخلصَت، فها هي دولة الإسلام الناشئة تقف في وجه الكفر كله

(1) صحيح مسلم (4/1784) رقم 706.

(2) انظر: الصراع مع الصليبيين لأبي فارس، ص 83.

(3) انظر: شرح المواهب اللدنية (3/62).

(4) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 84.

بقواه المادية فتهاجم وتنصره عليه ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه﴾ [الحج: 40].

غزوة تبوك :

التي من دروسها العظيمة أن تمكّن العقيدة في قلوب رجال الإسلام أقوى من كل سلاح وعتاد، وقضى الله أن الأمة متى ما حدث عن عقيدتها وتعلقت بغيرها، إلا تقلبت في ثنايا الإهانات والنكبات والنكسات، حتى ترجع إلى كتاب ربها وسنة نبيها.

غزوة تبوك :

من دروسها أن العدو ما تسلل إلا من خلل صفوف المنافقين والمرجفين، ولم يكن الضعف والتفرقة في هذه الأمة إلا من قبل أصحاب المسالك الملتوية والقلوب السوداء، **﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وَضَعُوا خِلَائِكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيهِمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ﴾** [التوبة: 47].

غزوة تبوك :

إنها الغزوة التي متى ذكرت ذكر معها ذلك الحدث العظيم، الذي عاشته المدينة وتقلبت مع أحداهه خمسين ليلة، إنه خبر الثلاثة الذين خلفوا، كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، ولا يصف الحادثة كمن رأها وشاهدها وسمع أحداها بل عاشها، وتجرع آلامها وأحزانها.



دروس وعبر من غزوة تبوك

1- ليميز الله الخبيث من الطيب:

لقد كانت دعوة الرسول ﷺ للتأهّب في وقت عسر وحرّ وموسم جنّي الثمار، فأمّا المؤمنون الصادقون، فقد سارعوا إلى تلبيةهم للرسول غير عابئين بمشقة ولا حرمان، وأمّا المنافقون، فقد تخلّفوا، وأخذوا يعتذرون بشتى الأعذار، وهكذا يتبيّن المخلصون من المنافقين في أيام الشدائـد ، وينكشف أمر الأدعـياء في أيام الشدائـد ، وينكشف أمر الأدعـياء في أيام المحن ، وقد قال الله تعالى : ﴿ آمِ . أَحَسَّ النَّاسُ أَنْ يُرَكُّوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفَتَّشُونَ ، وَلَقَدْ فَتَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَّقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: 21]

وإنما تقوم الدعوات ، وتنهض الأمم بتطوير صفوتها من المنافقين والمخادعين ولا يثبت للشدة إلا كل صادقة العزيمة ، مخلص النية ، ثابت المبدأ ، كثيراً ما عوق الضعف والمخدعون سير دعوات الإصلاح في الأمة ، وحالوا بينها وبين النصر ، أو أخرواها ولو إلى حين ، ولقد تخلص جيش العسراة في غزوة تبوك من أمثال هؤلاء بفضل افتضاح أمرهم ، وانكشف ضعف إيمانهم ، وخور عزائمهم ، وإن جيشاً مترافقاً الصـف ، متحـدـ الكلـمة ، قـويـ الإيمـان ، صـادـقـ العـهـد ، أـجـدـىـ لـلـأـمـةـ - ولو كان قـلـيلـ العـدـدـ - وـأـدـعـىـ لـاـكتـسـابـ النـصـرـ منـ جـيشـ كـثـيرـ العـدـدـ ، مـتـقـاوـتـ الـفـكـرـةـ وـالـقـوـةـ وـالـثـبـاتـ ﴿ كـمـ مـنـ فـتـةـ قـلـيـلـةـ خـلـبـتـ فـتـةـ كـثـيرـةـ بـإـذـنـ اللـهـ ، وـالـلـهـ مـعـ الصـابـرـينـ ﴾ [البقرة: 249]

2- الإيمان يصنع العجائب:

إن في مسارعة المؤمنين من الصحابة إلى البذل والإتفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير، ومقاومة لأهواء النفس وغرائزها، مما تحتاج إليه كل أمة لضمان النصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون وزعماء النهضات هو

وهذا ما نجد أمتنا اليوم أشد الحاجة إليه ، فالأعداء كثُر ، والأعباء ثقيلة ، والمعركة رهيبة ، والعدو قوي ماكر ، فلا يستطيع التغلب عليه إلا بمزيد من التضحيات في الأموال والأنفس والأهواء والشهوات ولا يحق ذلك إلا الدين الصحيح المفهوم على حقيقته الذي يربّي النفوس على احتساب الإنفاق والتعب في سبيل الأمة جهاداً يثبّت الله عليه كما يثبت المجاهدين في ميادين النضال.

وفي قصة الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون أن يأخذهم معه إلى الجهاد ، فردهم لأنّه لم يجد ما يحملهم عليه ، فولوا وأعينهم تفريضاً من الدمع حزناً على حرمانهم من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ ، في هذه القصة التي حكها الله في كتابه أروع الأمثلة على صنع الإيمان للمعجزات ، فطبيعة الإنسان أن يفرح لنجاته من الإخطار ، وابتعاده عن الحروب ، ولكن هؤلاء المؤمنين الصادقين بكوا رغبة في الجهاد .

3- أمة الجهاد:

من دروس هذه الغزوّة أن هذه الأمة أمة جهاد ومجاهدة وصبر ومصابر، وحتى ما تركت الجهاد ضربت عليها الذلة والمسكنة، ولذلك فقد رأينا حياة النبي ﷺ جهاداً في جهاد، فإذا فرغ من جهاد المشركين رجع إلى جهاد ومقاومة المنافقين ثم جهاد الروم.

3. الإنفاق في هذه الغزوّة وحرص المؤمنين على الجهاد:

حث رسول الله ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوّة لبعدها، وكثرة المشركين فيها، ووعد المنافقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان رض صاحب القدر المعلى في الإنفاق في هذه الغزوّة⁽²⁾، فهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي ﷺ وهو يحيث على جيش العسرا، فقام عثمان بن

(1) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، للسباعي، ص161.

(2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص615.

عفان قال: يا رسول الله، على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله، على مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله، على ثلاثة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه (1) وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يقبلها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم -يرددها مراراً-» (2).

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قلت: مثله، قال: وأتي أبو بكر ﷺ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيت لأهلك؟**» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً (3).

وروى أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنفق ألفي درهم وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة (4).

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة، كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعااصم بن عدي رضي الله عنهم (5).

وهكذا يفهم المسلمون أن المال وسيلة، واستطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنو أن مالهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طوعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف؛ لأن تاريخ المال في يد الرجال لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو

(1) سنن الترمذى، مناقب 625/5، 626 (626) رقم 3700.

(2) مسنـد أـحمد (63/5).

(3) سنن أبي داود، الزكاة 312/2 (313) رقم 1678.

(4) انظر: السيرة في ضوء المصادر الأصلية، ص 616.

(5) انظر: معين السيرة، ص 449.

بالمال، وإن الذين ربوا على أن يقدموا أنفسهم، تهون عليهم أموالهم في سبيل الله تعالى .

رضي الله عن صحابة رسول الله وجزاهم الله خيراً عن الأمة، وهم كما قال ابن القيم رحمه الله:

أولئك أتباع النبي وحزبه *** ولو لاهم ما كان في الأرض مسلم ولو لاهم كادت تميد بأهلها *** ولكن رواسيها وأوتادها هم ولو لاهم كانت ظلاماً بأهلها *** ولكنهم فيها بدور وأنجم موقف مؤثرة وصور معبرة من البذل والعطاء والجهاد والدفاع، كل هذا استجابة لنداء ربهم: **﴿انفِرُوا حَفَافاً وَثَقَالاً وَجَاهُدوْا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [التوبه:41]، وطمعاً في موعد نبيهم: «من جهز جيش العسرة فله الجنة».

والذي لا إله حق غيره، إن لفي ذلك عبرة أي عبرة، إنه متى صدق المسلمون مع ربهم ووحدوا صفتهم وبذلوا وسعهم غنيهم وفقيرهم فإن الله ناصرهم وبالحق مؤيدهم.

وأين البخلاء بأموالهم والشحِيون بيسير أرزاقهم عن محبة رسول الله ﷺ؟ ولكن: **﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنَّمِّ الْفُقَرَاءُ﴾** [محمد:38].

4- الإخلاص وحب الجهاد:

قدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء؛ ولذلك تعرضاً لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عقيل بنصف صاع تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوها قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رباء، فنزلت الآية: **﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهَدَهُمْ﴾** (1) [التوبه:79].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رباء، فكانوا يتهمون الأغنياء بالربا ويسخرون من صدقة الفقراء (2).

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 616.

(2) المصدر نفسه، ص 617.

لقد حزن القراء من المؤمنين؛ لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد، فهذا عُلبة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكي، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أنتوبي به مع رسولك، وإنني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض، فأخبره النبي ﷺ أنه قد غفر له⁽¹⁾.

وفي هذه القصة وما جرى فيها آيات من الإخلاص وحب الجهاد لنصرة دين الله وبث دعوته في الآفاق، وفيها من لطف الله بضعف المؤمنين الذين يعيشون في حياتهم عملية⁽²⁾.

وهذا واثلة بن الأسعق نتركه يحدثنا عن قصته:.... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله فلطفقت في المدينة أنادي: ألا من يحمل رجلاً له سمه؟ فإذا شيخ من الأنصار، فقال: لنا سمه على أن نحمله⁽³⁾ عقبة، وطعامه معنا؟ فقلت: نعم، قال فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحب حتى أفاء الله علينا⁽⁴⁾، فأصابني قلائق⁽⁵⁾، فسقطهن حتى أتيته فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقطهن مدبرات، ثم قال: سقطهن مقبلات، فقال: ما أرى قلائقك إلا كراماً، إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائقك يا ابن أخي فغير سهمك أردا⁽⁶⁾.

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخرىية، أجرًا وثوابًا يجده عند الله يوم لقائه، وتنازل الأنصاري عن قسم كبير من راحته ليعاقب وواثلة على راحته ويقدم له الطعام مقابل سهم آخر هو الأجر والثواب.

إنها مفاهيم تتبع من المجتمع الذي تربى على كتاب الله وسنة رسوله، لها نفس الخاصية في الإضاءة وتحمل نفس البريق، متم ببعضها لبعضها الآخر⁽⁷⁾.

(1) وردت من طرق ضعيفة ولها شاهد صحيح وهي بالجملة تصلح للشاهد التاريخي، انظر: المجتمع المدني للعمري، ص235.

(2) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (443/4).

(3) عقبة: أي بالتعاقب.

(4) كان واثلة بن الأسعق أحد أفراد سرية خالد بن الوليد في دومة الجندل.

(5) قلائق: إبل.

(6) انظر: جامع الأصول رقم 6188، معين السيرة، ص453.

(7) انظر: معين السيرة، ص453.

وجاء الأشعريون يتقدمهم أبو موسى الأشعري يطلبون من النبي ﷺ أن يحملهم على إبل ليتمكنوا من الخروج للجهاد، فلم يجد ما يحملهم عليه حتى مضى بعض الوقت فحصل لهم على ثلاثة من الإبل⁽¹⁾.

وبلغ الأمر بالضعفاء والعجزة ممن أقعدهم المرض أو النفقه عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد وتحرجاً من القعود حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الْضُّعِفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُمْ لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتُ لَا أَجُدُّ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُّوا وَأَغْيِثُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا لَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91-92].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد رسول الله، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباتهم، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيرهما يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين⁽²⁾ وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سرتم مسيرةً وَلَا قطعتم وادِيًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبْسُهُمُ الْعَذْرِ»⁽³⁾.

5- جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضي المصلحة

ستة:

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل⁽⁴⁾ من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، ولقد أعلن رسول الله ﷺ -على غير عادته في غزواته- هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتالبني الأصفر (الروم)، علماً بأن هدفيه في معظم غزواته أن يوري فيها⁽⁵⁾، ولا يصرح بهدفه وجهته وقصده، حفاظاً على سرية الحركة ومباغطة العدو.

(1) انظر: المجتمع المدني، ص 236.

(2) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 618.

(3) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4423.

(1), 2, 3 انظر: الصرع مع الصليبيين، ص 97.

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضي المصلحة ستره، وقد صرَّح ﷺ في هذه الغزوة -على غير العادة- بالجهة التي يريد غزوها وجلَّى هذا الأمر لل المسلمين لأسباب، منها:

1. بعد المسافة، فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن السير إلى بلاد الروم يعد أمراً صعباً؛ لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة قليلة الماء والنبات، ولا بد - حينئذ - من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة؛ حتى لا يؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

2. كثرة عدد الروم، بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعداداً خاصاً، فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي ﷺ من قبل، فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهما بالحرب كبيرة، وقدرتهم القتالية فائقة⁽¹⁾.

3. شدة الزمان، وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه، ويعد النفقة الازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه⁽²⁾.

4. أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندي والعقبة⁽³⁾.

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال⁽⁴⁾.

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها، وحثَّ الرسول ﷺ على النفقة قائلاً: «**من جهز جيش العسرة فله الجنة**»⁽⁵⁾.

(1) انظر: الرسول القائد، ص 398.

(2) انظر: البداية والنهاية (4/5).

(3) انظر: غزوة تبوك، محمد أحمد باشيل ص 57.

(4) انظر: القيادة في عهد الرسول ﷺ، ص 510.

(5) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان (4/243).

٦- قصة أبي ذر الغفارى والعبر منها:

صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، فنزل قوله بنفسه حتى دفنه(4).

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

١٠. ما تعرض له أبو ذر الغفارى رض من الصعوبات والمخاطر التي نجاه الله منها وقواه بالصبر عليها، لقد بذل أبو ذر جهداً كبيراً في المشي على قدميه وهو يحمل متعاه على ظهره حتى لحق

(1) تلوم على بغيره: تمهل.

(2) كن أبا ذر: لفظه الأمر ومعناه الدعاء؛ أي أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(3) انظر : السيرة النبوة لابن هشام (١٧٨/٤).

⁽⁴⁾ انظر : السيرة النبوية لابن هشام (178/4).

بالنبي ﷺ وال المسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله (1).

2. وفي قوله ﷺ: «**رحم الله أبي ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**»، دلالة واضحة -وضوح الشمس في رابعة النهار - على صدق نبوة الرسول ﷺ؛ إذ الإخبار بأمور لا نقع ثم تقع بعد الإخبار يدل على معجزة وتكريم من الله لهذا الرسول ﷺ، وهذه الوسيلة من إثبات النبوة كثيرة في السيرة النبوية الشريفة (2).

3. كما أُن في القصة دلالة على علم ابن مسعود ﷺ وقوته ذاكرته وسرعة استحضاره لما حفظ، حيث تذكر بعد سنوات عديدة حديث رسول الله ﷺ عما سينقول إليه أمر أبي ذر في آخر حياته (3).

7- قصة أبي خيثمة والدروس منها:

قال ابن إسحاق:... ثم إن أبي خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه (4) قد رشت كل واحدة منها عريشها، وبردت له فيه ماء، وهياكل له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأته، وما صنعت له، فقال: رسول الله ﷺ في الصبح (5) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعم مهياً، وامرأة حسناء في مalle مقيم؟! ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى الحق برسول الله ﷺ، فهيا لها زادًا، ففعلتا ثم قدم ناضحه (6) فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبي خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عنِّي حتى آتي رسول الله ﷺ، فعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على

(1) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 129، التاريخ الإسلامي للحميدى (8/114).

(2) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 129.

(3) انظر: التاريخ الإسلامي (8/114).

(4) حائط: أي بستانه.

(5) الصبح: أي في الشمس.

(6) ناضحه: أي جمله.

الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كُنْ أَبَا خِيَثَمَةً**»، فقالوا: يا رسول الله، هو واللهـ أبو خيثمة، فلما أنماخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**أَوْلَى لَكَ (١) بِأَبَا خِيَثَمَةً**»، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير⁽²⁾.

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً، واسمه مالك بن قيس:

لما رأيت الناس في أتيت التي كانت أفع

فلم أكتسب إثما ولم أغش وبأيعت باليمني يدي

صفايا كراماً يسرها قد تركت خضيباً(3) في

إلى الدين نفسي شطّره وكنت إذا شك المناافق

وفي هذه القصة دروس وعبر منها:

1- المسلم صاحب ضمير حي:

فقد رأى أبو خيثمة ﷺ ما أعدت له زوجاته من الماء البارد والطعام مع الظل المبرد والإقامة، فتذكر رسول الله ﷺ وما هو فيه من التعرض للشمس والريح والحر، فأبصر وتنظر وتبين ضميره وحاسب نفسه، ثم عزم على الخروج، وخرج وحده يقطع الفيافي والقفار حتى التقى بعمير بن وهب الجمحي، ولعله كان قادماً من مكة، فهذه الصورة تبين لنا مثلاً من سلوك المتقين الذين تمر عليهم لحظات ضعف يعودون بعدها أقوى إيماناً مما كانوا عليه إذا تذكروا ورجعوا أنفسهم، وفي بيان ذلك يقول الله تبارك وتعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُنْصَرُونَ**» [الأعراف: 201].

وقد تذكر سريعاً وخرج لعله يدرك ما فاته، وظل يشعر بالذنب حتى وصل إلى النبي ﷺ في تبوك وحصل على رضاه وسروره .

(1) أجر بك.

(2) انظر: البداية والنهاية (8/5).

(3) خضيباً: مخصوصة وهي المرأة.

2- معرفة الرسول بأصحابه وبمعانיהם:

إن قول الرسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكب على الطريق مقبل: «**كن أبي خيثمة**»، فلما اقترب وعرفوه قالوا: يا رسول الله، هو - والله- أبو خيثمة، يدل على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه وأنه أعرفهم بمعانٍ رجاليه، يعرف المستجيب من غيره، ويعرف التائب المنيب إلى ربِّه إذ زلت قدمه بسرعة رجوعه، ومعرفة خصال الرجال ومعانٍ لهم تدل على معرفة واسعة، وخبرة مستوعبة فاحصة نتيجة التعامل والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة، فقد كان يخالط الجميع، يسمع منهم ويسمعهم ويسيرون معه، ويجهدون تحت رايته⁽¹⁾.

3- حزم أبي خيثمة وصبره ونفاد عزيمته:

تأمل هذا القرار الذي اتخذه أبو خيثمة ﷺ أن يلحق برسول الله ﷺ وحده، في هذه الرحلة المضنية، في هذه الصحراء القليلة الماء ذات الحر اللافح، لقد اتخذ هذا القرار الحازم ونفذه بدقة، فدل على قوة عزيمته وعنفوان إرادته وعلى جلده وصبره⁽²⁾.

4- عتاب القائد للجندي له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه، يطرح السلاح على رسول الله ﷺ فعاتبه، ﷺ معاذبة تحمل في طياتها اللوم والتائب والتهديد، إذ قال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبي خيثمة» فهي كلمة فيها معنى التهديد، ومعناها: دنوت من الهاكة.

إنه مما لا شك فيه أن هذا الكلام كان له وقوعه في نفس الجندي، إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذنب.

وهذا منهج نبوى كريم في تعليم القادة عدم السكوت على أخطاء الجنود؛ لأن ذلك يضرهم ويلحق الضرر بغيرهم، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ومحاسبة مرتكبه وتقويمه، وبذلك يكونون معلمين ومرشدين ومربيين⁽³⁾.

(1) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص133.

(2) المصدر نفسه، ص133، 134.

(3) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص134.

8- الحق لا بد له من قوة :

ومن دروس هذه المعركة أن الحق لا بد له من قوة تحرسه وترهب أعداءه، لا يكفي حق بلا قوة.
دعا المصطفى دهرًا إمكأة لم يُجَبْ... وقد لان منه جانب وخطاب فلما دعا والسيف بالكاف مسلط... لـه أسلموا واستسلموا وأنابوا

9- العقيدة أقوى سلاح :

ومن الدروس العظيمة من هذه الغزوة: أن تمكن العقيدة في قلوب رجال الإسلام أقوى من كل سلاح وعتاد، وقضى الله أن الأمة متى ما غفلت عن عقيدتها وتعلقت بغيرها تقلب في ثوابها الإهانات والنكبات والنكبات، حتى ترجع إلى كتاب ربها وسنة نبيها. والأمة اليوم بعيدة كل البعد عن العقيدة الصحيحة إلا من رحم الله.

فعلى الدعاء والمصلحين والمربيين أن يركزوا في دعوتهم على مسألة التوحيد درساً وشرحًا وعملاً وتطبيقاً، وأن لا يغتروا بغيرهم من يخالفهم في هذه المسألة، فلا صلاح ولا فلاح إلا إذا صحت عقائد الناس واتضحت لهم معالم وأصول هذه العقيدة.

10- وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحجر

ثمود:

قال أبو كثرة الأنصاري: لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادي في الناس: «الصلاحة جامعة» قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بغيره، وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟» فناداه رجل منهم: نعجم منهم يا رسول الله، قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبعكم بما كان قبلكم وما هو كان بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعأب بعذابكم شيئاً، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً»⁽¹⁾. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ

(1) انظر: الفتح الرباعي (21/195).

أرض ثمود، الحجر، واستقوا من بئرها، واعتنقوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستنقوا من البئر التي كانت تردها الناقة (1) وقال رسول الله ﷺ: «**لَا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إِلا أَن تكونوا باكين حذراً** أن يصيّبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر (2) فأسرع حتى خلفها (3)، وهذا منهج نبوى كريم في توجيهه رسول الله ﷺ صاحبته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وألا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعدة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتابكي، تحقيقا للتأثير بعد الآلة، ولو أنهما مررا بها كما نمر نحن بأثار السابقين، لترعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوة، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نعمة الله وغضبه.

إن الله عز وجل ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى عز وجل وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعدة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى سبحانه - أبلغ، ولهذا تسجي النبي صلوات الله وسلامه عليه بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة واستحث خطارا حلاته (4) وقال لأصحابه: «**لَا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إِلا أَن تكونوا باكين، حذراً أن يصيّبكم ما أصابهم**» (5).

11- وفاة الصحابي عبد الله ذي الجدادين (6)

(1) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم 3379.

(2) زجر: أي زجر ناقته، ومعناه ساقها سوقا شديدا حتى خلفها أي جاوز المساكن.

(3) البخاري، كتاب الأنبياء، رقم 3381.

(4) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، ص 480.

(5) البخاري، كتاب الأنبياء رقم 3381. (7)

(6) البجاد: الكسأء الغليظ الجاف.

قال عبد الله بن مسعود رض: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ص في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ص وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ص في حضرته، وأبو بكر وعمر يدلانيه إليه، وهو يقول: «**أدنينا إلى أحاكمًا**» فدللياه إليه، فلما هيا بشقه، قال: «**اللهم إني أمسنت راضيًا عنه، فارض عنه**» قال (الراوي عن ابن مسعود): قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة⁽¹⁾.

قال ابن هشام: وإنما سمي ذا البجادين؛ لأنه كان ينazuء إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك يضيقون عليه، حتى تركوه في بجادة ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ص، فلما كان قريباً منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بوحد واشتمل بالأخر، ثم أتى رسول الله ص فقيل له: ذو البجادين، لذلك⁽²⁾.

وفي هذه القصة دروس وحكم وفوائد منها:

1- تكريم النبي ﷺ لجنوده أحياء وأمواتاً:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرصن النبي ص على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله تاركين وراءهم أعز ما يملكون، وكانت تلك الرعاية مظهراً من مظاهر تكريمه في الدنيا، حيث لم يترك جثتهم تتناوشها الذئاب وغيرها من دواب الأرض؛ لكي يكون هذا التكريم من الأساليب التي تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام في ميادين الجهاد، ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يجد من يدعوه إلى تطبيقه إلا في العصر الحديث، وبهذا يمكن أن يقال: إن رعاية القائد المسلم لشئون جنده تعد سبقاً عسكرياً لم تعرفه النظم والدساتير الوضعية إلا بعد قرون طويلة، من بزوغ الإسلام⁽³⁾.

فهذه صورة من البر والتكريم فريدة يتيمة، لن تجد في تاريخ الملوك والحكام من يبر ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسع الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير، ثم يلتمس له المرضاة من رب

(1) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 598.

(2) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/182).

(3) انظر: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص 299.

العالمين، أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضيا عنه⁽¹⁾.

2- جواز الدفن في الليل، والغبطة مشروعة في الخير:

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليلاً، والسنة أن يجعل في دفن الميت، كما أن الغبطة وهي أن تتمنى حصول الخير لك كما حصل لغيرك من إخوانك، وهذا عكس الحسد، إذ الحسد تمنى زوال النعمة عن غيرك، والحسد كله شر كما ترى، أما الغبطة فلا تكون إلا في الخير⁽²⁾، تأمل قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما سمع رسول الله ﷺ يقول في حق ذي البجادين: «اللهم إني أمسنت عنه راضيا فارض عنه» فقال ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب اللحد⁽³⁾ إنها كلمة كل مؤمن آمن بالله واليوم الآخر، ووقف موقفه ذاك، فقد عرفوا أين تكون ميادين التنافس⁽⁴⁾.

12- موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرسول ﷺ النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط هم الناس قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: «فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خَلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا شَفَرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُ حَرًا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلَيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيُبَيِّكُوا كَثِيرًا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [التوبه: 81-82].

وقال رسول الله ﷺ وهو في جهازه لتبوك، للجد بن قيس: «يا جد، هل لك العام في جلد بنى الأصفر؟» قال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء مني وإنني أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر إلا أصبر، فأعرض عنهم رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففيه نزلت الآية: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتَنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لِمُحِيطَةٍ بِالْكَافِرِينَ» [التوبه: 49]. وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدئن أعدارًا كاذبة ليأذن لهم

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، ص 472.

(2) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 163، 164.

(3) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص 598.

(4) انظر: معين السيرة، ص 452.

بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكِ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبُونَ﴾ [النوبة: 43].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سويم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويم⁽¹⁾.

وهذا يدل على مراقبة المسلمين الدقيقة ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظة تراقب تحركات اليهود والمنافقين، واجتماعاتهم وأوكارهم، بل كانوا يطلعون فيها على أدق أسرارهم واجتماعاتهم وما يدور فيها من حبك المؤامرات، وابتكر أساليب التثبيط، واحتلائق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعوة الفتنة وأوكارها حازما حاسما، إذ أمر بحرق البيت على من فيه من المنافقين، وأرسل من أصحابه من ينفذه، ونفذ بحزم، وهذا منهج نبوى كريم يتعلم منه كل مسئول في كل زمان ومكان كيف يقف من دعاة الفتنة ومراكيز الشائعات المضللة التي تلحق الضرر بالأفراد والمجتمعات والدول؛ لأن التردد في مثل هذه الأمور يعرض الأمن والأمان إلى الخطر وينذر بزوالها⁽²⁾.

لقد تحدث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة وأنباءها وبعدها، ومما جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمن استئذانهم، وتخلفهم عن الخروج، وكان من تخلف عبد الله بن أبي ابن سلوى، وقد تحدث القرآن عنهم فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَرَا قَاصِداً لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعْدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النوبة: 42]. فقد بين - سبحانه وتعالى - موقف المنافقين وأنهم تخلفوا بسبب بعد المسافة وشدة التها، وأنه لو كان الذي دعوتهم إليه يا محمد عرضاً من أعراض الدنيا ونعمتها وكان السفر سهلاً لاتبعوك في الخروج، ولكنهم تخلفوا ولم يخرجوها، فالآلية تشرح وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة، وأسباب هذا الموقف، ثم حكى سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾

(1) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص 618.

(2) انظر: الصرع مع الصليبيين، ص 121.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤﴾. كان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك. والمعنى: وسيخلف هؤلاء المنافقون بالله -كذباً وزوراً- قائلين: لو استطعنا -أيها المؤمنون- أن نخرج معكم للجهاد في تبوك لخرجا، فإننا لم نتختلف عن الخروج معكم إلا مضطرين فقد كانت لنا أذارنا القاهرة التي حملتنا على التخلف⁽¹⁾.

وقوله -سبحانه-: **إِنْهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴿٤﴾. قال ابن عاشور: أي يحلفون مهلكين أنفسهم -أي موقعينها في الهاك، والهاك: الفناء والموت- ويطلق على الأضرار الجسمية وهو المناسب هنا أي يتسببون في ضر أنفسهم بالأيمان الكاذبة وهو ضر الدنيا وعذاب الآخرة، وفي هذه الآية دلالة على أن تعمد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهاك⁽²⁾.

ثم عاتب الله تعالى نبينا محمدا ﷺ قوله: **عَفَا اللَّهُ عَنِّكَ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبُونَ** ﴿٥﴾.

قال مجاهد⁽³⁾: نزلت هذه الآية في أنس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، وكانوا تسعًا وثلاثين واعتذرموا بأذار كاذبة⁽⁴⁾.

والآية الكريمة عتاب لطيف من اللطيف الخبير -سبحانه- لحبيبه ﷺ على ترك الأولى، وهو التوقف عن الإذن إلى انجلاء الأمر وانكشف الحال⁽⁵⁾ ثم قال تعالى: **لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ □ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَإِذَا تَأْتَتْ فُلُوْبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ** ﴿٦﴾ [التوبه: 44-45].

هذه الآيات أول ما نزل في التفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال⁽⁶⁾، فبين -سبحانه- أنه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (647/2).

(2) انظر: تفسير التحرير و التنوير (209/10).

(3) انظر: تفسير ابن كثير (360/2).

(4) انظر: التحرير و التنوير (210/10).

(5) انظر: حديث القرآن الكريم (647/2).

(6) انظر: تفسير المراغي (127/4).

الاستئذان وترك الجهاد في سبيل الله، وإنما هذا من صفات المنافقين الذين يستأذنون من غير عذر، وصفهم سبحانه - بقوله: ﴿ وَارْتَابُتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: شكت في صحة ما جئتهم به، و قوله ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبٍ يَرَدَّدُونَ ﴾ أي: يتحيرون يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليس لهم قدم ثابتة في شيء (1).

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت فيها الحواجز بين الطرفين، ولم يعد هناك أي مجال للستر على المنافقين أو مجاملتهم، بل أصبحت مجابهتهم أمراً ملحاً بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمجابهة الرسول والدعوة، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه الله تعالى ورسوله ﷺ والذي نزل به القرآن الكريم، بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين، وإيقافهم عند حدتهم واجباً شرعاً (2).

13- جواز القتال في الأشهر الحرم :

ومن الدروس جواز القتال في الشهر الحرام إن كان خروجه في رجب محفوظاً على ما قاله ابن إسحاق ولكنها هنا أمر آخر وهو أن أهل الكتاب لم يكونوا يحرمون الشهر الحرام بخلاف العرب فإنها كانت تحرمه وقد تقدم أن في نسخ تحريم القتال فيه قولين وذكرنا حجج الفريقيين .

14- بعض المعجزات التي حدثت في الغزوة :

ظهرت في غزوة تبوك معجزات منها:

1- الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه بالسقية:

لما جاز النبي ﷺ حجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربّه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله - سبحانه وتعالى - سحابة فامطرت حتى ارتوى

(1) انظر: تفسير ابن كثير (361/2).

(2) انظر: نصرة العجم (389/1).

الناس، واحتلوا حاجتهم من الماء، فتحدث ابن إسحاق عمن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله، إن كان الرجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمه، وفي عشيرته، ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك، ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الناس بالحجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: ويحك! هل بعد هذا الشيء؟ قال: سحابة مارة⁽¹⁾.

2- خبر ناقة رسول الله ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائراً في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له: عمارة بن حزم، وكان عقيباً بدرياً، وهو عمبني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنهنبي؟ ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقته؟

قال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلاً قال: هذا محمد يزعم أنه يخبركم أنهنبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته؟ وإنني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزماتها» فانطلقو حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ: آنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذى قال زيد بن اللصيت، فقال رجل من كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنها فيه) يقول: إلَيْكَ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر، اخرج أي عدو الله⁽²⁾ من رحلي فلا تصحبني، قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهمًا بشر حتى هلك⁽³⁾.

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/176)، صور وعبر من الجهاد البوي، ص473.

(2) انظر: إعلام النبوة للماوردي، ص100، السيرة النبوية لابن هشام (4/177).

(3) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (4/177).

3- الأخبار بهبوب ريح شديدة والتحذير منها:

أخبر رسول الله ﷺ أصحابه في تبوك بأن ريحًا شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوا بهم فلا يخرجوها حتى لا تؤذنهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، فهبت الريح الشديدة وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد (1) فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك فقال رسول الله ﷺ: **ستهب عليكم الليلة ريح شديدة**، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيء(2).

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم معقباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من إخباره ﷺ بالغيب وخوف الضرر من القيام وقت الريح (3).

4- تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه من خصب:

قال معاذ بن جبل ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتني» فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك (4)، تبض (5) بشيء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسببهما النبي ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه وجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهم حتى استقى الناس (6).

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مليء جناناً» (7)، لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله -عز وجل- أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل

(1) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 141.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي (42/15)، مختصر مسلم رقم 1543.

(3) شرح النووي على صحيح مسلم (42/15).

(4) الشراك: هو سير النعل ومعنى أنه قليل جداً.

(5) تبض: بفتح التاء وكسر المونحة وتشديد الضاد ومعناه تسيل.

(6) صحيح مسلم بشرح النووي (41/15)، مختصر مسلم رقم 1530.

(7) صحيح مسلم بشرح النووي، الفتح الرباني (196/21).

بغزارة، ولم يكن هذا آتياً لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنان وبساتين مملوقة بالأشجار المثمرة، ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، وما زالت تبوك حتى اليوم تميّز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلّم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقاً، ولا ينبيء بشيء إلا ويتحقق (1).

5- تكثير الطعام:

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا (2) فأكلنا وأدمينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «افعلوا»، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قل الظهر (3) ولكن ادعهم بفضل أزواجهم، ثم ادع لهم بالبركة، لعل الله يجعل في ذلك، فدعا رسول الله ﷺ بنطع (4) فيسطه، ثم دعاهم بفضل أزواجهم فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر، والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع في ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: «خذوا في أو عيتكم» فأخذوا من أو عيتكم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاكٍ فتحجب عنه الجنة» (5).

هذه بعض المعجزات والكرامات التي أظهرها الله على يد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك تدل على صدق نبوته ورسالته، وتدل على رفعه منزلته وتكريمه عند ربه (6).

15- إذا استنفر الإمام الجيش لزمهنهم النفير:

(1) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 142.

(2) نواضحنا: جمع ناضح وهي الإبل التي يسفى عليها.

(3) الظهر: ما يحمل عليه من الإبل.

(4) النطع: بساط من الجلد.

(5) الفتح الربابي (198-196/21).

(6) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 141.

ومن الدروس وال عبر أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه ولا يشترط في وجوب النفير تعين كل واحد منهم بعينه بل متى استنفر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه وهذا أحد الموضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عين . والثاني : إذا حضر العدو البلد . والثالث إذا حضر بين الصفين .

16- خطر الاستهزاء بالدين والصالحين:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لا يُخْبِرُ رسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقاً بحقب⁽¹⁾ ناقة رسول الله والحجارة تنكب⁽²⁾، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ولنلعب، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ؟».

وفي رواية قتادة قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوه إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيئات هيئات.. فأطلع الله نبيه على ذلك فقال نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احبسوا هؤلاء الركب»، فأتاهم فقال: قلتم كذا وقلتم كذا، قالوا: فأنزل الله فيهم ما تستمعون⁽³⁾، فأنزل الله تعالى: {يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُتَبَّعُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَلَمَّا سَمِعُوا أَنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحَذَّرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كَنَا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ فَلَمَّا أَبْلَغُهُمْ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}. [التوبة: 64-65].

والاستفهام في قوله: {فَلَمَّا أَبْلَغُهُمْ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} استفهام إنكارٍ.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء موبحاً ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون

(1) الحقب: حبل يشد به الرحل في بطن البعير.

(2) الحجارة تنكب: تصبيه وتؤذيه.

(3) انظر: الدر المنشور للسيوطى، (230/4).

به في مزاحكم ولعبكم - كما تزعمون- سوى فرائض الله وأحكامه وأياته ورسوله الذي جاء لهدايتك وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟!

ثم بين - سبحانه - أن استهزاءهم هذا أدى بهم إلى الكفر فقال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِإِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبه: 66].

ومعنى الآية: أي لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لا ينبغي أن يكون، فاعذاركم إقرار بذنبكم، فهو كما يقال: عذر أقبح من ذنب (1).

وقوله: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِإِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم لتوبيتهم وإنابتهم إلى ربهم - كمخشن بن حمير - نعذب بعضاً آخر لجرائمهم وإصرارهم عليه (2).
بـ- إيهاد الرسول والمؤمنين ومحاولة اغتيال رسول الله:

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلْمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلُوا وَمَا نَقْمُدُ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَأْكُلُوكُمْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبه: 74].

وقد ذكر ابن كثير أن الضحاك قال: إن نفراً من المنافقين هموا بالفتک بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية (3)، وفي روایة الواحدی عن الضحاك: خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه، وطعنوا في الدين، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم رسول الله: «يا أهل النفاق، ما هذا الذي بلغني عنكم؟» فلحفوا ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله هذه الآية إكذاباً لهم (4).

(1) انظر: تفسير المراغي (153/4).

(2) المصدر نفسه (153/4).

(3) تفسير ابن كثیر (372/2).

(4) انظر: أسباب النزول للواحدی، ص 251.

والمعنى الإجمالي للأية: يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة التي نسبت إليهم، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التي رويت عنهم. ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغي ذكرها... (1).

17- وجوب الجهاد بالمال:

ومن الدروس كما يقول بن القيم وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس وهذا إحدى الروايتين عن أ Ahmad وهي الصواب الذي لا ريب فيه فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيق الأمر أهم وأكيد من الجهاد بالنفس ولا ريب أنه أحد الجهادين كما قال النبي ﷺ من جهز غازيا فقد غزا فيجب على القادر عليه كما يجب على القادر بالبدن ولا يتم الجهاد بالبدن إلا بيذهله ولا ينتصر إلا بالعدد والعدد فإن لم يقدر أن يكثر العدد وجب عليه أن يمد بالمال والعدة وإذا وجب الحج بالمال على العاجز بالبدن فوجوب الجهاد بالمال أولى وأحرى.

دروس من قصة مسجد الضرار:

وفي قصة مسجد الضرار دروس وعبر وفوائد منها:

18- أ- الكفر ملة واحدة:

وقد تبين هذا في موقف أبي عامر الراهن من الإسلام ومن المسلمين؛ إذ غضب غضباً شديداً، وتآلم لهزيمة المشركين في بدر، فأعلن عداءه للرسول، وتوجه إلى عاصمة الشرك مكة يبحث أهلها على قتال المسلمين، وخرج مقاتلاً معهم في أحد، وحاول تفتتت الصف الإسلامي (2) وصدق الله تعالى عندما قال: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أُولَئِكَ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾** [الأفال: 73].

19- بـ(محاولة التدلیس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشرعية على هذا البناء وأنه مسجد بنوه لأسباب مقنعة في الظاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (665/2).

(2) انظر: الصرع مع الصليبيين، ص 179.

باركه رسول الله ﷺ بالصلوة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلي على كثير من الناس⁽¹⁾.

20- (ج) فالله خير حافظ وهو أرحم الراحمين:

إن الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهية بالنبي ﷺ؛ فقد أطلعه الله -عز وجل- على أسرار هؤلاء المنافقين وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله لما أدرك رسول اللهحقيقة نواياهم، ولصلى في البناء فأضافي عليه الشرعية وأقبل الناس يصلون فيه لأن رسول الله ﷺ صلى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم بالشائعات⁽²⁾.

21- (د) العلاج النبوى الحاسم:

إن ما قام به الرسول ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضرار هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنه لقيادة الأمة في القضاء على أي عمل يراد منه الإضرار بال المسلمين وتفرق كلمتهم، فالداء العossal لا يعالج بتسكينه والتخفيف منه، وإنما يعالج بحسمه وإزالة آثاره، حتى لا يتجدد ظهره بصورة أخرى، وإن الثمار العملية، التي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر النبوى الحازم لتدلنا على أن هذه المنهجية التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث، هي الطريقة المثلث لقمع حرفة النفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى لم يبق منهم بعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى إلا عدد قليل، ولم يعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضرار أن قاموا بأعمال تخدم الهدف نفسه لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشفهم⁽³⁾.

22- (هـ) ما يلحق بحكم مسجد الضرار:

ذكر المفسرون ما يلحق بمسجد الضرار في الحكم، فهذه بعض

(1) المصدر نفسه، ص 181.

(2) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 79.

(3) انظر: التاريخ الإسلامي (8/130).

أقوالهم:

أ- قال الزمخشري:... وقيل كل مسجد بنى مباهاة أو رباء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار (1).

علق الدكتور عبد الكريم زيدان على قول الزمخشري فقال: ولكن هل يلحق بمسجد الضرار فيهدم، كما هدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون في المدينة وأمر النبي ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنما يمكن أن يقال إن المسجد الذي بنى لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى (2).

ب- قال القرطبي في تفسيره: قال علماؤنا: وكل مسجد بنى على ضرار أو رباء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه (3).

ج- وقال سيد قطب في تفسيره: هذا المسجد مسجد الضرار الذي اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين، هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى؛ يتخذ في صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه... ويتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتنترس وراءها، وهي ترمي هذا الدين، ويتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام، لتخدّر الفاقلين الذين يرون الإسلام يُذبح ويُمحق، فتخدّرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب بما توحّيه لهم من أن الإسلام بخير، وأنه لا داعي للخوف أو القلق عليه (4).

23- (و)قاعدة لعرفة ما يلحق بالمسجد الضرار :

قال الدكتور عبد الكريم زيدان: كل ما يتخذ مما هو في ظاهره مشروع، ويريد متذووه تحقيق غرض غير مشروع، فهو ملحق

(1) انظر: تفسير الزمخشري (310/2).

(2) انظر: المستفاد من قصص القرآن (504/2).

(3) انظر: تفسير القرطبي (254/8).

(4) في ظلال القرآن (3)، 1710، 1711.

بالمسجد الضرار، لأنه يحمل روحه وعنصره⁽¹⁾، وإذا أردنا الإيجاز قلنا في هذه القاعدة: كل ما كان ظاهره مشروع ويريد متذووه الإضرار بالمؤمنين فهو ملحق بالمسجد الضرار⁽²⁾.

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضرار وما يلحق به، ما ذكره الإمام ابن القيم من مشاهد الشرك، ومن أماكن المعاشي والفسوق كالحانات وبيوت الخمر والمنكرات ونحو ذلك؛ لأن هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به وإن استحقت الإزالة كمسجد الضرار باعتبارها منكرات ظاهراً وباطناً⁽³⁾.

24- (ز) مساجد الضرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين والملحدين، والمبشرين (المنصريين) والمستعمرين، يقيمون أماكن باسم العبادة وما هي لها، وإنما المراد بها الطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين في معتقداتهم وأدابهم، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بث سموهم بين أبناء المسلمين، وصرفهم عن دينهم، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة في القلوب، والقيم الأخلاقية في النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم، وقد اتخذوا من البيئات الجاهلية والفقرة -لا سيما في بلاد إفريقيا- ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدينية التي لا يقرها عقل ولا شرع ولا قانون.

إن مساجد الضرار ليس حادثة في المجتمع الإسلامي الأول وانقضت، بل هي فكرة باقية، يخطط لها باختيار الأهداف العميقية، وتختار الوسائل الدقيقة لتنفيذها، وخططتها تصب في التآمر على الإسلام وأهله بالتشويه وقلب الحقائق، والتشكيك، وزرع بذور الفتنة لإبعاد الناس عن دينهم وإشغالهم بما يضرهم ويدمر مصيرهم الآخرولي⁽⁴⁾.

(1) انظر: المستفاد من قصص القرآن (506/2).

(2) المصدر نفسه (507/2).

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (508/2).

(4) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 182.

25- لا يعذر العاجز بماله حتى يبذل جهده:

ومن دروس هذه الغزوة أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه فإن الله سبحانه إنما نفى الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم فقال لا أجد ما أحملكم عليه فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد فهذا العاجز الذي لا حرج عليه.

دروس وعبر من قصة المخلفين الثلاثة:

وردت قصة الثلاثة الذين خلوا على لسان كعب بن مالك في كتب السيرة والحديث والتفسير بروايات متقاربة في ألفاظها، ولقيت عنابة فائقة في الشرح والتدرис، وكان صحيح البخاري من أكثر الكتب دقة وتفصيلاً لهذه القصة⁽¹⁾.

ونترك كعب بن مالك يحدثنا بنفسه حيث قال: لم أختلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تختلف في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة⁽²⁾ حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبرى أنني لم أكن -قط- أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحتان -قط- حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورثى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى لل المسلمين أمرهم ليتأهلاً أهلاً غزوهـم، فأخبرـهم بوجهـهـ الذي يريدـ، والمسلمـونـ معـ رسولـ اللهـ ﷺـ كثيرـ، ولاـ يـجمـعـهـمـ كتابـ حـافـظـ، يـرـيدـونـ الـديـوانـ، قالـ كـعبـ: فـماـ رـجـلـ يـرـيدـ أـنـ يـتـغـيـبـ إـلـاـ ظـنـ أـنـ سـيـخـفـيـ لـهـ، مـاـ لـمـ يـنـزـلـ فـيـهـ وـحـيـ اللهـ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع

(1) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 187.

(2) ليلة العقبة: الليلة التي باع رسول الله ﷺ الأنصار على الإسلام.

ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم الحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو⁽¹⁾ وهمنت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجمت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزاني أني لا أرى إلا رجالاً مغموماً عليه النفاق أو رجلاً من عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره في عطيه⁽²⁾ فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيضاً⁽³⁾ يزول به السراب⁽⁴⁾ فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه⁽⁵⁾ المنافقون، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً⁽⁶⁾ من تبوك حضرني بشي⁽⁷⁾⁽⁷⁾، فتفققت أذكري الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غالياً؟ واستعنتم على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً⁽⁸⁾ زاح⁽⁹⁾ عنى الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً، فأجمعتم صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفربدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحللون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايدهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى

(1) تفارط الغزو: تقدم الغزاة وسيقوا وفاتوا.

(2) والنظر في عطيه: أي جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(3) مبيضاً: لابس البياض.

(4) يزول به السراب: يتحرك وبنهض، والسراب ما يظهر للإنسان.

(5) طره المنافقون: عابوه واحتقروه.

(6) توجه قافلاً: راجعاً.

(7) حضرني بشي: حزني.

(8) أظل قادماً: أقبل ودنا قدومه كأنه أبقى على ظله.

(9) زاح: أزال.

(10) أجمعتم صدقه: عزمت على صدقه.

الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم المغضب، ثم قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعد ظهرك؟**» قال: قلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً⁽¹⁾ ولكنني والله- لقد علمت لئن حدثتكاليوم حديث كذب ترضى به عنِّي، ليوشك⁽²⁾ الله أن يُسخطك علىِّي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علىِّي فيه⁽³⁾ إني لأرجو فيه عقبي الله⁽⁴⁾، لا والله- ما كان لي عذر، والله ما كنت -قط- أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك**»، فقمت وثار رجال منبني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنونني⁽⁵⁾ حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهمما مثل ما قيل لك، قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً، فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا -أيها الثلاثة- من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تذكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبتنا على ذلك خمسين ليلة، فأما أصحابي فاستكانا⁽⁶⁾ وقعدا في بيوتهم يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم⁽⁷⁾ فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وأتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فاقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد

(1) أعطيت جدلا: فصاحة وقوه في الكلام وبراءة.

(2) ليوشك: ليسرعن.

(3) تحد علي فيه: تغتصب.

(4) إني لأرجو عقبي الله: يعذبني خيراً ويشيني عليه.

(5) يؤنونني: يلومونني أشد اللوم.

(6) استكانا: خضعا.

(7) أشب القوم وأجلدهم: أي أصغرهم سنا وأقواهم.

السلام أم لا؟ ثم أصلي قرباً منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنِّي، حتى طال ذلك علىَّ من جفوة الناس، مشيت حتى تصورت جدار حائط أبي قتادة، - وهو ابن عمِّي، وأحب الناس إلىِّي - فسلمت عليه، فوالله ما رد علىَّ السلام، فقلت له: يا أبي قتادة، أنشدك بالله⁽¹⁾ هل تعلم أنِّي أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشته فسكت، فعدت فناشته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تصورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام⁽²⁾ من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلىِّي، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان، و كنت كتاباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة⁽³⁾ فالحقُّ بنا نو فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور، فسجرتها⁽⁵⁾ به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين واستتبث الوحي إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها، قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل هذا.

قال: فقلت لأمرأتي: الحقُّ بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه - والله - ما به حرفة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه، قال فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدراني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال فلبت ذلك عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة على ظهر بيته من بيته، فبینا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت علىَّ

(1) أنشدك بالله: أسألك بالله.

(2) نبط أهل الشام: فلا حرج العجم.

(3) مضيعة: يعني أنك لست بأرض يضيع فيها حملك.

(4) تيممت: قصدت.

(5) فسجرتها: أحرقتها.

نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع⁽¹⁾ يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، قال: فاذن⁽²⁾ رسول الله ﷺ توبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلى فرساً، وسعي ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبه فكسوته إياهما ببشراته، والله ما أملك غير هما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتمم⁽³⁾ رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجا فوجا⁽⁴⁾ يهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنأك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله يهروي حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ استئنار وجهه كأنه قطعة قمر قال: وكنا نعرف ذلك قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أخلع⁽⁵⁾ من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت: فإنّي أمسك سهمي الذي بخيّر قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي إلا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلغه⁽⁶⁾ الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلغني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، قال: فأنزل الله عز وجل: **﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْغُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادُوا**

(1) أوفى على سلع: صعده وارتفع عليه، وسلح: جبل بالمدينة معروف.

(2) فاذن الناس: أي أعلمهم.

(3) أتمم: أي قصد

(4) فوجا فوجا: الفوج الجماعة.

(5) أخلع من مالي: أتصدق به.

(6) أبلغه الله: أنعم عليه.

يَرِبُّ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَوُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَىٰ
الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ وَظَنُوا أَن لَا مَلْجَأً مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا
إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ {التوبه: 117-118} حتى بلغ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**
آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّالِقِينَ} {التوبه: 119}.

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة -قط-. بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صديقي رسول الله ﷺ إلا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله: **{سَيَخْلُفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَبَّتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ**
فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجُسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
يَخْلُفُونَ لَكُمْ لِتُرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} {التوبه: 95-96}.

قال كعب: وكنا تخلفنا -أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبایعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، ف بذلك قال الله عز وجل: **{وَعَلَىٰ الْثَّلَاثَةِ الَّذِينَ**
خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنفُسُهُمْ
وَظَنُوا أَن لَا مَلْجَأً مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْتَّوَابُ الرَّحِيمُ {التوبه: 118} وليس الذي ذكر الله مما تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخلفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا⁽¹⁾، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه⁽²⁾.

وفي هذه القصة دروس وعبر وفوائد كثيرة نذكر منها:

26- (أ) الأسلوب الجميل والبيان الرائع والأدب

الرفيع:

لقد تمت صياغة هذا الحديث بأسلوب جميل، وبيان رائع، وأدب رفيع، وإنه ليعتبر -مع أمثاله كحديث صلح الحديبية وحديث الإفك- نماذج عالية للأدب العربي الرفيع، وليت القائمين على وضع المناهج الدراسية يختارون هذه الأحاديث وأمثالها لتنمية مدارك الطلاب،

(1) إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.

(2) البخاري، كتاب المغازي رقم 4418، صحيح السيرة النبوية، ص 614.

وتكون الملكة الأدبية والثروة اللغوية العالية، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أنني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب؛ فأجمعـت صدقـه⁽¹⁾.

27- (ب) الصدق سفينـة النجـاة:

لقد أدرك كعب، وهـلـلـاـ، وـمـارـاـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ خـطـورـةـ الـكـذـبـ فـعـزـمـواـ عـلـىـ سـلـوكـ طـرـيقـ الصـراـحةـ وـالـصـدـقـ وـإـنـ عـرـضـهـمـ ذـلـكـ لـلـتـعـبـ وـالـمـضـيـقـاتـ، وـلـكـنـ كـانـ أـمـلـهـمـ بـالـلـهـ تـعـالـىـ كـبـيرـاـ فـيـ أـنـ يـقـبـلـ تـوـبـتـهـمـ ثـمـ يـعـودـونـ إـلـىـ الصـفـ الـإـسـلـامـيـ أـقـوىـ مـاـ كـانـواـ عـلـيـهـ⁽²⁾، وـمـاـ أـجـمـلـ خـتـمـ ربـ الـعـالـمـينـ تـوـبـتـهـ عـلـىـ كـعـبـ وـمـنـ مـعـهـ بـقـولـهـ تـعـالـىـ: { يـاـ أـيـهـاـ الـذـيـنـ آمـنـواـ تـقـوـاـ اللـهـ وـكـوـنـواـ مـعـ الصـادـقـينـ } [التوبـةـ: 119].

28- (ت) الهجر التربوي وأثره في المجتمع:

إن الهجر التربوي له منافعه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ومنع أفراده من التورط في المخالفات التي تكون إما بترك شيء من الواجبات أو فعل شيء من المحرمات؛ لأن من توقع أنه إذا وقع في شيء من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع، فإنه لن يفكر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أن تطبيق هذا الحكم يجب أن يتم في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوـيـ المـدـنـيـ، حيث تـوـجـدـ الـدـوـلـةـ الـمـهـيـمـةـ وـالـمـجـتمـعـ الـقـوـيـ، معـ أـمـنـ الـوـقـوعـ فـيـ الـفـتـنـةـ لـمـنـ طـبـقـ عـلـيـهـ هـذـاـ الحـكـمـ.

وهـذـاـ الـهـجـرـ التـرـبـويـ يـخـتـلـفـ عـنـ الـهـجـرـ الـذـيـ يـكـوـنـ بـيـنـ الـمـسـلـمـينـ عـلـىـ أـمـورـ الدـنـيـاـ، فـهـذـاـ دـنـيـوـيـ وـذـاكـ دـيـنـيـ، فالـهـجـرـ الـدـيـنـيـ مـطـلـبـ شـرـعيـ يـثـابـ عـلـيـهـ فـاعـلـهـ، أـمـاـ الـهـجـرـ الـدـنـيـوـيـ فـإـنـهـ مـكـرـوـهـ إـلـاـ إـذـاـ زـادـ عـنـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ فـإـنـهـ يـكـوـنـ مـحـرـماـ⁽³⁾ لـقـولـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ: « لـاـ يـحـلـ لـمـسـلـمـ أـنـ يـهـجـرـ أـخـاهـ فـوـقـ ثـلـاثـ لـيـالـ، يـلـتـقـيـانـ فـيـعـرـضـ هـذـاـ وـيـعـرـضـ هـذـاـ، وـخـيـرـهـمـ الـذـيـ

(1) انظر: التاريخ الإسلامي (137/8).

(2) انظر: التاريخ الإسلامي (138/8).

(3) المصدر نفسه (139/8).

ببدأ بالسلام» (1) ولقوله ﷺ: «من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه» (2).

29- (ث) تنفيذ أوامر القيادة في المجتمع المسلم:

استجاب المجتمع المسلم كله لتنفيذ أمر المقاطعة والهجر الذي صدر من القائد الأعلى ﷺ وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة، ووصف كعب لنا ذلك فقال: ... فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فاما صاحبنا فاستكانا وقعدا في بيتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد (3)... وقد أطلق كعب السلام على ابن عمه أبي قتادة فلم يرد عليه السلام، وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، مع أنه من أحب الناس إليه، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزع الفكر بين إجابة رجل حبيب إليه عزيز عليه، وبين تنفيذ أمر النبي ﷺ بتطبيق الهجر التربوي، ولكن ليس هناك تردد بين الأمرين، فالذى أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبي ﷺ فظهر ذلك على سلوكه (4).

وقد بلغ الالتزام بالأمر النبوى في الهجر التربوي ذروته حين أمر رسول الله ﷺ الثلاثة الذين خلفوا باعتزال زوجاتهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، فاللتزم الجميع بذلك، واستأنفت زوجة هلال بن أمية -وكان شيخاً طاعناً في السن لا يجد من يخدمه- فطلبت من الرسول ﷺ أن يأذن لها أن تخدمه فأذن لها النبي ﷺ بذلك شريطة لا يقربها؛ فاللتزمت رضي الله عنها (5).

30- (ج) الولاء التام لله ورسوله:

(1) مسلم، كتاب البر، رقم 2560، ص 1984.

(2) مسندي أحمد (220/4).

(3) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 195.

(4) انظر: التاريخ الإسلامي (140/8).

(5) انظر: الصراع مع الصليبيين، ص 196.

كان العدو الصليبي يراقب ويرصد ويستغل الفرصة السانحة لكي يمزق الجبهة الداخلية ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ليوهن البنية ويقوض الأركان، ولذلك استغل ملك غسان فرصة هجران المسلمين لکعب بن مالک رض وعقبة رسول الله صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ له، بأن يرسل سفيره لکعب بر رسالة خاصة منه إِلَيْهِ يَغْرِيهِ فِيهَا، تأمل قوله: قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك⁽¹⁾. فكان تعليق کعب على هذه الرسالة: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع في رجال من أهل الشرك، ثم أحرق الرسالة⁽²⁾ وهذا الموقف يدل على شدة ولاء کعب لله ورسوله وقوته وإيمانه وعظمته نفسه، فقد أدرك أنها محنة جديدة أقسى من الأولى، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسلب، أو يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في التنور ليصير رماداً، ويصير كل ما به دخاناً يتبدد في الهواء، وخرج الرجل من محنته وهو أقوى ما يكون إيماناً، وأصفى ما يكون رحمة، وأكرم ما يكون أخلاقاً، فبالعظمة هذه النقوس المؤمنة الكبيرة⁽³⁾! لقد مر کعب من فوق هذا الاختبار والابتلاء عزيزاً قوياً بإسلامه، لم يتاثر به ولا انزلق فيه⁽⁴⁾.

31- (ح) توبة الله على العبد قيمة دينية يتطلع

إليها الصادقون:

عندما نزلت الآيات الكريمة التي بينت توبة الله على هؤلاء الثلاثة كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ حتى استثار كأنه قطعة قمر، وظهرت الفرحة على وجوه الصحابة رضي الله عنهم- حتى صاروا يتلقون كعباً وصحابيه أفواجاً يهنتونهم بما نفضل الله به عليهم من التوبة، وجاء کعب إلى النبي صلی اللہ علیہ وسَلَّمَ ووجهه يبرق من السرور فقال له: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدت أمك، وهذا يعني مقام التوبة وأنها أعظم من الدخول في الإسلام.

(1) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4418

(2) المغازي (1051/3).

(3) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (517/2).

(4) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 307

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم، وبالتالي فإنه يحظى بحفظه -جل وعلا- في الدنيا وتكريمه في الآخرة، لقد كانت توبة كعب عظيمة عبر عنها بنزع ثوبيه -الذين لا يملك يومئذ غيرهما- وإهدائهم لمن بشره⁽¹⁾ وعدم نسيان كعب لطحنة بن عبيد الله مصافحته وتهنئته له⁽²⁾ وكذلك كانت فرحة صاحبيه عظيمة غير أن كعبا لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له⁽³⁾ وقد جاء في رواية الواقدي: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبته سعيد بن زيد قال: وخرجت إلىبني واقف فبشرته فسجد، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتى تخرج نفسه⁽⁴⁾.

32- (خ) تشرع أنواع من العبادات شكرًا لله عند

النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله -سبحانه وتعالى- عليه لا تحدوها حدود، ولا يتصورها مثل، وقد تفنن هو رضي الله عنه في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

أ- سجود الشكر: حينما سمع كعب البشرة بتوبة الله عليه خر ساجداً من فوره شكرًا لله -تبارك وتعالى-. فقد كان من عادة الصحابة -رضي الله عنهم- أن يسجدوا شكرًا لله -تعالى-. كلما تجددت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نعمة، وقد تعلموا ذلك من رسول الله ﷺ⁽⁵⁾.

ب- مكافأة الذي يحمل البشري: فقد نزع كعب ثوبيه اللذين كان يلبسهما، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما، ثم استعار ثوبين فلبسهما، ولا شك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة، فإن كان المبشر غنياً كان له هدية، وإن كان فقيراً كان له صدقة، وكلاهما إخراج المال شكرًا لله -تعالى-. على إنزاله الفرج⁽⁶⁾.

ج- التصدق بالمال: فقد جعل كعب من توبته أن ينخلع من ماله

(1) انظر: التاريخ الإسلامي (141/8).

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (581/2).

(3) انظر: التاريخ الإسلامي (142/8).

(4) المغازي للواقدي (1054/3).

(5) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي، ص 493.

(6) نفس المصدر، ص 493، الصراع مع الصليبيين، ص 202.

صدقة الله تعالى، لكنه -عليه الصلاة والسلام- لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»، وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله⁽¹⁾ وقد ثار الخلاف الفقهي فيما نذر التصدق بجميع ماله، والصدقة مستحبة، والنذر واجب الوفاء، ولم يذهب كعب إلى النذر، وإنما استشار في الصدقة بكل المال، فأشار رسول الله ﷺ عليه بإمساك بعض ماله.

33- (د) لم يكن يتخلف عنه ﷺ إلا منافق أو معذوراً أو

من خلفه النبي ﷺ :

فإنه لم يكن يتخلف عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة إما معموص عليه في النفاق أو رجل من أهل الأعذار أو من خلفه رسول الله ﷺ واستعمله على المدينة أو خلفه لمصلحة . ومنها : أن الإمام والمطاع لا ينبغي له أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور بل يذكره ليراجع الطاعة ويتبوب فإن النبي ﷺ قال بتبوك : ما فعل كعب ؟ ولم يذكر سواه من المخلفين استصلاحا له ومراعاة وإهمالا للقوم المنافقين .

34- (ر) جواز الطعن اجتهاداً :

جواز الرد على الطاعن إذا غالب على ظن الراد أنه وهم وغلط كما قال معاذ للذي طعن في كعب بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ولم ينكر رسول الله ﷺ على واحد منها .

35- (ز) الحكم بالظاهر :

ومنها : أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين ويكل سريرته إلى الله ويجري عليه حكم الظاهر ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره .

36- (س) ترك رد السلام على من أحدث حدثاً :

ترك الإمام والحاكم رد السلام على من أحدث حدثاً تأدبياً له وزجراً لغيره فإنه ﷺ لم يُنقل أنه رد على كعب بل قابل سلامه بتسم المغضب .

37- (ش) تبسم الغضب :

(1) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوى، ص493.

ومنها : أن التبسم قد يكون عن الغضب كما يكون عن التعجب والسرور فإن كلاً منها يوجب انبساط دم القلب وثورانه ولهذا تظهر حمرة الوجه لسرعة ثوران الدم فيه فينشأ عن ذلك السرور والغضب تعجب يتبعه ضحك وتبسم فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه في وجهه ولا سيما عند المعتبة كما قيل :

إِذَا رَأَيْتَ نَيُوبَ الْلَّيْثَ بَارِزَةً فَلَا تَظْنُنْ أَنَّ الْلَّيْثَ مُبْتَسِمٌ .

38- (ص) جواز معاتبة الإمام والمطاع أصحابه:

ومنها : معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم عليه فإنه عاتب الثلاثة دون سائر من تخلف عنه وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة واستلذاده والسرور به فكيف بعتاب أحد الخلق على الإطلاق إلى المعذوب عليه والله ما كان أحلى ذلك العتاب وما أعظم ثمرته وأجل فائدته والله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات وحلوة الرضى وخلع القبول .

39- (ط) توفيق الله لکعب وصحابيه:

ومنها : توفيق الله لکعب وصحابيه فيما جاءوا به من الصدق ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذرلوا بغير الحق فصلحت عاجلتهم وفسدت عاقبتهم كل الفساد والصادقون تعدوا في العاجلة بعض التعب فأعقبهم صلاح العاقبة والفلاح كل الفلاح وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة فمرارات المبادي حلوات المبادي مرارات في العواقب . وقول النبي ﷺ لکعب أما هذا فقد صدق دليل ظاهر في التمسك بمفهوم اللقب عند قيام قرينة تقتضي تخصيص المذكور بالحكم كقوله تعالى : **﴿وَدَأْوَدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمَانَ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمَّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ﴾** [الأنبياء 78 و 79] وقوله ﷺ جعلت لي الأرض مسجداً وتربتها طهوراً وقوله في هذا الحديث أما هذا فقد صدق وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قد تخصيصه بالحكم .

40- (ظ) نهيه ﷺ عن کلام هؤلاء الثلاثة لتأديبهم

دليل على صدقهم :

وفي نهي النبي ﷺ عن کلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل على صدقهم وكذب الباقيين فأراد هجر الصادقين وتأديبهم على هذا الذنب وأما المنافقون فجرهم أعظم من أن يقابل بالهجر فدواء

هذا المرض لا يعمل في مرض النفاق ولا فائدة فيه وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة فلا يزال مستيقظا حذرا وأما من سقط من عينه وهاه عليه فإنه يخلّي بينه وبين معاصيه وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة والمغفور يظن أن ذلك من كرامته عليه ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها كما في الحديث المشهور إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا وإذا أراد بعد شرا أمسك عنه عقوبته في الدنيا فيرد يوم القيمة بذنبه.

41- (ع) التنكر والوحشة دليل على حياة القلب:

وقوله حتى تنكرت لي الأرض فما هي بالتي أعرف هذا التنكر يجده الخائف والحزين والمهموم في الأرض وفي الشجر والنبات حتى يجده فيمن لا يعلم حاله من الناس ويجده أيضاً المذنب العاصي بحسب جرمه حتى في خلق زوجته ولولده وخادمه ودابته ويجده في نفسه أيضاً فتنكر له نفسه حتى ما يخفي إلا على من هو ميت القلب وعلى حسب حياة القلب يكون إدراكه هذا التنكر والوحشة.

وما لجرح بميت إيلام

ومن المعلوم أن هذا التنكر والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به وهكذا القلب إذا استحكم مرضه واشتد ألمه بالذنوب والإجرام لم يجد هذه الوحشة والتنكر ولم يحس بها وهذه علامة الشقاوة وأنه قد أليس من عافية هذا المرض وأعيا الأطباء شفاؤه والخوف والهم مع الريبة والأمن والسرور مع البراءة من الذنب . فما في الأرض أشجع من بريء ولا في الأرض أخوف من مريب

وهذا القدر قد ينتفع به المؤمن البصير إذا ابتألي به ثم راجع فإنه ينتفع به نفعاً عظيماً من وجود عديدة تقوت الحصر ولو لم يكن منها إلا استثماره من ذلك أعلام النبوة وذوقه نفس ما أخبر به الرسول فيصير تصديقه ضروريًا عنده ويصير ما ناله من الشر بمعاصيه ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق النبوة الذوقية التي لا تطرق إليها الاحتمالات وهذا كمن أخبرك أن في هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيت وكيت على التفصيل فخالفته وسلكتها فرأيت عين ما أخبرك به فإنك تشهد صدقه في نفس خلافك له وأما إذا سلكت طريق الأمان وحدها ولم

تجد من تلك المخاوف شيئاً فإنه وإن شهد صدق الخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً فإن علمه بتلك يكون مجملًا.

42- (غ) رد السلام على من يستحق الهجر غير واجب

وقوله وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة
فأقول هل حراك شفتـيه بـرد السلام على أم لا ؟ فيه دليل على أن الرد
على من يستحق الهجر غير واجب إذ لو وجـب الرد لم يكن بد من
اسـمـاعـه .

43- (ف) دخول دار الصاحب من غير إذن :

وقوله حتى إذا طال ذلك علي تصورت جدار حائط أبي قتادة فيه دليل على دخول الإنسان دار صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك وإن لم يستأذنه .

44- (ق) ایتلاء اللہ لکعب بمقاتلۃ ملک غسان له:

وفي مكاتبة ملك غسان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى
وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله وإظهار للصحابة أنه ليس ممن
ضعف إيمانه بهجر النبي ﷺ وال المسلمين له ولا هو ممن تحمله الرغبة
في الجah والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه
فهذا فيه من تبرئة الله له من النفاق وإظهار قوة إيمانه وصدقه لرسوله
وال المسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه ولطفه به وجبره لكسره وهذا
البلاء يظهر لب الرجل وسره .

٤٥- (ك) اتلاف ما يخشى منه المضره في الدين:

وقوله فتيممت بالصحيفة التنور فيه المبادرة إلى ائتلاف ما يخشى منه الفساد والمضررة في الدين وأن الحازم لا ينتظر به ولا يؤخره وهذا كالعصير إذا تخمر وكالكتاب الذي يخشى منه الضرر والشر فالحزم المبادرة إلى ائتلافه وإعدامه .

-46 -(ل) عداوة غسان لرسول الله ﷺ وكتابه عليه السلام لهم :

وكان غسان إذ ذاك - وهم ملوك عرب الشام - حرباً لرسول الله ﷺ
وكانوا ينعلون خيولهم لمحاربته وكان هذا لما بعث شجاع بن وهب

الأستدي إلى ملتهم الحارت بن أبي شمر الغساني يدعوه إلى الإسلام وكتب معه إليه قال شجاع فانتهيت إليه وهو في غوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لقى صر وهو جاء من حمص إلى إيليا فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت ل حاجبه إني رسول الله ﷺ إليه فقال لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه - وكان روميا اسمه مري - يسألني عن رسول الله ﷺ وكنت أحدثه عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه فيرق حتى يغلب عليه البكاء ويقول إني قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبي بعينه فأنا أؤمن به وأصدقه فأخاف من الحارت أن يقتلني وكان يكرمني ويحسن ضيافي . وخرج الحارت يوما فجلس فوضع التاج على رأسه فأذن لي عليه فدفعته إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه ثم رمى به قال من ينزع مني ملكي وقال أنا سائر إليه ولو كان باليمين جئته علي بالناس فلم تزل تعرض حتى قام وأمر بالخيول تتعل ثم قال أخبر صاحبك بما ترى وكتب إلى قيسر يخبره خبرني وما عزم عليه فكتب إليه قيسر أن لا تسر ولا تعبر إليه واله عنه ووافني بإيليا فلما جاءه جواب كتابه دعاني فقال متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ فقلت : غدا فأمر لي بمائة مثقال ذهبا ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة وقال اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام فقدمت [فأخبرته فقال " باد ملکه " وأقراته من حاجبه السلام وأخبرته بما قال رسول الله ﷺ " صدق " ومات الحارت بن أبي شمر عام الفتح ففي هذه المدة أرسل ملك غسان يدعو كعبا إلى اللحاق به فأبانت له سابقة الحسني أن يرغب عن رسول الله ﷺ ودينه .

47- (م) حرص الصحابة على الخير :

وفي استباق صاحب الفرس والراقي على سلع ليبشرها كعبا دليل على حرص القوم على الخير واستباقهم إليه وتنافسهم في مسيرة بعضهم بعضا .

48- (ن) استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية

و فيه دليل على استحباب تهنئة من تجددت له نعمة دينية والقيام إليه إذا أقبل ومصافحته بهذه سنة مستحبة وهو جائز لمن تجددت له نعمة دينية وأن الأولى أن يقال له ليهناك ما أعطاك الله وما من الله به :

عليك ونحو هذا الكلام فإن فيه تولية النعمة ربها والدعاء لمن نالها بالتهني بها .

49- هـ يوم توبة المسلم خير الأيام :

وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يوم توبته إلى الله وقبول الله توبته لقول النبي ﷺ أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك فإن قيل فكيف يكون هذا اليوم خيرا من يوم إسلامه؟ قيل هو مكمل ليوم إسلامه ومن تمامه في يوم إسلامه بداية سعادته ويوم توبته كمالها وتمامها والله المستعان .

50- وسورة ﴿توبة الله﴾ على المخالفين دليل على

شفقته على أمته :

وفي سرور رسول الله ﷺ بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأمة والرحمة بهم والرأفة حتى لعل فرحة كان أعظم من فرح كعب وصاحبيه .

51- (ي) من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمـه إخراج

جميعـه :

وقول رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك دليل على أن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمـه إخراج جميعـه بل يجوز له أن يبقي له منه بقية وقد اختلفت الرواية في ذلك ففي "الصحابـين" أن النبي ﷺ قال له أمسك عليك بعض مالك ولم يعين له قدرـا بل أطلق ووكلـه إلى اجتهادـه في قدر الكفاية وهذا هو الصحيح فإنـ ما نقصـ عن كفايته وكفايةـ أهله لا يجوزـ له التصدقـ به فنذرـه لا يكون طاعةـ فلا يجبـ الوفـاءـ به وما زـادـ علىـ قدرـ كفايتهـ وحاجـتهـ فإخراجـهـ والصدـقةـ بهـ أفضلـ فيـجبـ إخراجـهـ إـذاـ نـذـرـهـ هـذـاـ قـيـاسـ أـداءـ الـواـجـبـاتـ الـمـالـيـةـ سـوـاءـ كـانـتـ حـقاـ اللـهـ كـالـكـافـرـاتـ وـالـحـجـ أوـ حـقاـ لـلـأـدـمـيـنـ كـأـدـاءـ الـديـونـ إـنـاـ تـرـكـ للمـفـلسـ مـاـ لـاـ بـدـ مـنـ مـسـكـ وـخـادـمـ وـكـسـوـةـ وـآلـةـ حـرـفـةـ أوـ مـاـ يـتـجـرـ بـهـ لـمـؤـنـتـهـ إـنـ فـقـدـتـ الـحـرـفـةـ وـيـكـونـ حـقـ الـغـرـمـاءـ فـيمـاـ بـقـيـ .ـ وـقـدـ نـصـ الـإـمامـ أـحـمـدـ عـلـىـ أـنـ مـنـ نـذـرـ الصـدـقةـ بـمـالـهـ كـلـهـ أـجـزـاهـ ثـلـثـهـ وـاحـتـجـ لـهـ أـصـحـابـهـ بـمـاـ روـيـ فـيـ قـصـةـ كـعـبـ هـذـهـ أـنـ قـالـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ إـنـ مـنـ تـوـبـتـيـ إـلـىـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ أـنـ أـخـرـجـ مـنـ مـالـيـ كـلـهـ إـلـىـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ صـدـقـةـ قـالـ "ـلـاـ"ـ قـلـتـ

: فنصفه ؟ قال " لا " قلت : فثلاثه قال " نعم " قلت : فإنني أمسك سهمي الذي بخبير رواه أبو داود . وفي ثبót هذا ما فيه فإن الصحيح في قصة كعب هذه ما رواه أصحاب الصحيح من حديث الزهري عن ولد كعب بن مالك عنه أنه قال أمسك عليك بعض مالك من غير تعين لقدره وهم أعلم بالقصة من غيرهم ولده وعنده نقلوها .

ونواصل دروس هذه الغزوة المباركة بعد هذه الاطلالة مع دروس قصة المخلفين الثلاثة.

52- استخلاف الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على

من بقي :

ومنها : استخلاف الإمام - إذا سافر - رجلاً من الرعية على الضعفاء والمعذورين والنساء والذرية ويكون نائبه من المجاهدين لأنه من أكبر العون لهم . وكان رسول الله ﷺ يستخلف ابن أم مكتوم فاستخلفه بضع عشرة مرة .

53- معالم من المنهج القرآني في الحديث عن غزوة

تبوك:

إن الآيات التي أنزلها الله في كتابه المتعلقة بغزوة العسرة هي أطول ما نزل في قتال المسلمين وخصوصهم، وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة تفريط في حماية دينه ونصرة نبيه، وإن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم، يعد مزلقة إلى الردة والافق⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَلَّتُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبِدُّ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبه: 38، 39].

وعند التأمل في سورة التوبة يلاحظ القارئ أن لها معالم في عرضها لغزوة تبوك منها:

(1) انظر: فقه السيرة للغزالى، ص404

1- عاتب القرآن الكريم من تخلف عتاباً شديداً، وتميزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأن الله حث على الخروج فيها - وعاتب من تخلف عنها- والآيات الكريمة جاءت بذلك، كقوله تعالى: ﴿ انفِرُوا خَفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهُوهُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبه: 41].

وقد ختمت الغزوات النبوية بهذه الغزوة، وقد كان تطبيقاً عملياً لوضع النص القرآني في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتَلُوا الَّذِينَ يُلُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبه: 123] موضع التنفيذ⁽¹⁾.

2- ميز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها، فسماتها الله تعالى ساعة العسرة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبه: 117] فقد كانت غزوة عسرة بمعنى الكلمة.

3- من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة أن الله رد على المنافقين لمزهم فقراء الصحابة عندما جاء أحدهم بنصف صاع وتصدق به، فقالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياء، فنزلت الآية: ﴿ الَّذِينَ يُلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخِرُونَ مِنْهُمْ سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبه: 79].

4- بين القرآن الكريم أن المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ - وعددهم يزيد عن الثلاثين ألفاً - قد كتب الله لهم الأجر العظيم⁽²⁾ قال تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكَ لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجُدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلُّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبه: 92].

54- ممارسة الشورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصديق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة ومن هذه النوازل:

أ- قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش

(1) انظر: حديث القرآن الكريم (702/2).

(2) انظر: حديث القرآن الكريم (703/2).

لعطش شديد:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنتقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيده فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظللت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكرية (1).

ب- قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ﷺ في نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ﷺ في ذلك جاءه عمر ﷺ فأبدى مشورته في هذه المسألة، وهي أن الجندي إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر ﷺ حل لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملأوا أو عيّتهم منه وأكلوا حتى شبعوا.

ج- قبول مشورة عمر ﷺ في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفاً من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب ﷺ بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمراً صعباً، إذ إنه يتطلب تكتيقاً خاصاً لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفاً، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر (2).

(1) أخرجه ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم 1707.

(2) انظر: غزوة تبوك، باشميل، ص 176، 177.

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية... إلخ منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

55- لا يجوز الشرب ولا الطبخ ولا العجن ولا الطهارة

من آثار ثمود :

ومنها : أن الماء الذي بآبار ثمود لا يجوز شربه ولا الطبخ منه ولا العجين به ولا الطهارة به ويجوز أن يسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة . وكانت معلومة باقية إلى زمن رسول الله ﷺ ثم استمر علم الناس بها قرنا بعد قرن إلى وقتنا هذا فلا يرد الركوب بئرا غيرها وهي مطوية محكمة البناء واسعة الأرجاء آثار العتق عليها باديبة لا تشتبه بغيرها .

56- جواز الجمع بين الصلاتين في السفر : ...

ومنها : أن النبي ﷺ كان يجمع بين الصلاتين في السفر وقد جاء جمع التقديم في هذه القصة في حديث معاذ كما تقدم وذكرنا علة الحديث . ومن أنكره ولم يجيء جمع التقديم عنه في سفر إلا هذا وصح عنه جمع بعرفة قبل دخوله إلى عرفة فإنه جمع بين الظهر والعصر في وقت الظهر فقيل ذلك لأجل النسك كما قال أبو حنيفة . وقيل لأجل السفر الطويل كما قاله الشافعي وأحمد . وقيل لأجل الشغل وهو اشتغاله بالوقوف واتصاله إلى غروب الشمس . قال أحمد يجمع للشغل وهو قول جماعة من السلف والخلف وقد تقدم .

57- جواز التيمم بالرمل :

ومنها : جواز التيمم بالرمل فإن النبي ﷺ وأصحابه قطعوا الرمال التي بين المدينة وتبوك ولم يحملوا معهم ترابا بلا شك وتلك مفاوز معطشة شكوا فيها العطش إلى رسول الله ﷺ وقطعوا كانوا يتيممون بالأرض التي هم فيها نازلون هذا كله مما لا شك فيه مع قوله ﷺ فحيثما أدركت رجلا من أمتي الصلاة فعنده مسجده وظهوره .

58- ترجيح قصر الصلاة في السفر دون تحديد مدة

الإقامة :

ومنها : أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك ولكن اتفقت إقامته هذه المدة وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع . وقد اختلف السلف والخلف في ذلك اختلافا كثيرا ففي " صحيح البخاري " عن ابن عباس قال أقام رسول الله ﷺ في بعض أسفاره تسع عشرة يصلي ركعتين فنحن إذا أقمنا تسع عشرة نصلي ركعتين وإن زدنا على ذلك أتممنا وظاهر كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمان الفتح فإنه قال أقام رسول الله ﷺ بمكة ثمان عشرة زمان الفتح لأنه أراد حنينا ولم يكن ثم أجمع المقام وهذه إقامته التي رواها ابن عباس . وقال غيره بل أراد ابن عباس مقامه بتبوك كما قال جابر بن عبد الله أقام النبي ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة رواه الإمام أحمد في " مسنده " . وقال عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصرها سعد ونتهما . وقال نافع أقام ابن عمر بأذربیجان ستة أشهر يصلي ركعتين وقد حال الثلوج بينه وبين الدخول . وقال حفص بن عبيد الله أقام أنس بن مالك بالشام سنتين يصلي صلاة المسافر .

وقال أنس أقام أصحاب رسول الله ﷺ برامهرمز سبعة أشهر يقصرون الصلاة . وقال الحسن أقمت مع عبد الرحمن بن سمرة بقابل سنتين يقصر الصلاة ولا يجمع . وقال إبراهيم كانوا يقيمون بالري السنة وأكثر من ذلك وسجستان السنتين . فهذا هدي رسول الله ﷺ وأصحابه كما ترى وهو الصواب .

59- التدريب العملي العنيف :

كان في خروج الرسول ﷺ بأصحابه إلى تبوك فوائد كثيرة، منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً، فقطع بهم ﷺ مسافة طويلة في ظروف جوية صعبة حيث كانت حرارة الصيف اللاهب، بالإضافة إلى الظروف المعيشية التي كانوا يعانون منها، فقد كانت هناك قلة في الماء حتى كادوا يهلكون من شدة العطش، وأيضاً كانت هناك قلة في الزاد والظهر ولا شك في أن هذه الأمور تعد تدريباً عنيفاً لا يتحمله إلا الأقوياء من الرجال.

وفي هذا الدرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: تعلم الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً، كاجتياز مواقع وعرائق صعبة جداً، وقطع مسافات طويلة في ظروف جوية مختلفة، وحرمان من الطعام والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، لقد تحمل جيش العسرة مشقات لا تقل صعوبة عن مشقات هذا التدريب العنيف - إن لم تكن أصعب منها بكثير - لقد تركوا المدينة في موسم نضح ثمارها، وقطعوا مسافات طويلة شاقة في صحراء الجزيرة العربية صيفاً، وتحملوا الجوع والعطش مدة طويلة.

إن غزوة تبوك تدريب عنيف لل المسلمين، كان غرض الرسول ﷺ منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية... فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، فلابد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى⁽¹⁾ وقد ساعد هذا التدريب العملي الصحابة في عصر الخلفاء فقاموا بفتح بلاد الشام وببلاد الفرس بقوة إيمانهم، وثقتهم بخالقهم، وساعدتهم على ذلك لياقتهم البذنية العالية، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح وأنواع الأسلحة في زمانهم.

60- تركه ﷺ قتل المنافقين :

ومنها : تركه قتل المنافقين وقد بلغه عنهم الكفر الصريح فاحتاج به من قال لا يقتل الزنديق إذا أظهر التوبة لأنهم حلفوا للرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا وهذا إذا لم يكن إنكاراً فهو توبة وإلاع وقد قال أصحابنا وغيرهم ومن شهد بالردة فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لم يكشف عن شيء عنه بعد وقال بعض الفقهاء إذا جحد الردة كفاه جحدها . ومن لم يقبل توبته الزنديق قال هؤلاء لم تقم عليهم بينة ورسول الله ﷺ لا يحكم عليهم بعلمه والذي بلغ رسول الله ﷺ عنهم قولهم لم يبلغهم إيه نصاب البينة بل شهد به عليهم واحد فقط كما شهد زيد بن أرقم وحده على عبد الله بن أبي وكذلك غيره أيضاً إنما شهد عليه واحد . وفي هذا الجواب نظر فإن نفاق عبد الله بن أبي وأقواله في

(1) انظر: الرسول القائد، ص 281، 282

النفاق كانت كثيرة جداً كالمتوترة عن النبي ﷺ وأصحابه وبعضاً منهم أقر بلسانه وقال إنما كنا نخوض ولنلعب وقد واجهه بعض الخوارج في وجهه بقوله إنك لم تعدل . والنبي ﷺ لما قيل له ألا تقتلهم ؟ لم يقل ما قامت عليهم ببينة بل قال لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

والجواب الصحيح إن أنه كان في ترك قتلامهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليف القلوب على رسول الله ﷺ وجمع كلمة الناس عليه وكان في قتلامهم تنفير والإسلام بعد في غربة ورسول الله ﷺ أحرص شيء على تأليف الناس وأترك شيء لما ينفرهم عن الدخول في طاعته وهذا أمر كان يختص بحال حياته ﷺ وكذلك ترك قتل من طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزبير وخصمه أن كان ابن عمك . وفي قسمه بقوله إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وقول الآخر له ترك استيفاء حقه بل يتبعين عليهم استيفاؤه ولا بد وللتقرير هذه المسائل موضع آخر والغرض التنبيه والإشارة .

61- ثواب من حبسه العذر :

ومنها : قوله ﷺ إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم طائفة من الجهل أنهم معهم بأبدانهم فهذا محال لأنهم قالوا له وهم بالمدينة ؟ قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وكانوا معه بأرواحهم وبدار الهجرة بأشباحهم وهذا من الجهد بالقلب وهو أحد مراتبه الأربع وهي القلب واللسان والمال والبدن . وفي الحديث جاهدوا المشركين بالاستكم وقلوبكم وأموالكم .

62- تحريق أمكنة المعصية ودهمها :

ومنها : تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها ودهمها كما حرق رسول الله ﷺ مسجد الضرار وأمر بهدمه وهو مسجد يصلى فيه ويذكر اسم الله فيه لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين وأموى للمنافقين وكل مكان هذا شأنه فواجب على الإمام تعطيله إما بهدم وتحريق وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له . وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار فمشاهد الشرك التي تدعوه سذتها إلى

اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بالهدم وأوجب وكذلك محال المعاشي والفسق كالحانات وبيوت الخمارين وأرباب المنكرات . وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكمالها بباع فيها الخمر وحرق حانوت رويشد الثقي وسماه فويسيقا وحرق قصر سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية وهم رسول الله ﷺ بتحرير بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة النساء والذرية الذين لا تجب عليهم كما أخبر هو عن ذلك .

63- جواز إنشاد الشعر للقادم فرحا به :

ومنها : جواز إنشاد الشعر للقادم فرحا وسرورا به ما لم يكن معه محرم من لهو كمزمار وشابة وعود ولم يكن غناء يتضمن رقية الفواحش وما حرم الله به لا يحرمه أحد وتعلق أرباب السماع الفسيقي به كتعلق من يستحل شرب الخمر المسكر قياسا على أكل العنب وشرب العصير الذي لا يسكر ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا : إنما البيع مثل الربا .

64- أهم نتائج الغزوة:

أ- يمكن للباحث أن يلاحظ أهم نتائج هذه الغزوة وهي:

1- إسقاط هيبة الروم من نفوس العرب جميعا - مسلمهم وكافرهم على السواء- لأن قوة الروم كانت في حس العرب لا تقاوم، ولا تغلب، ومن ثم فقد فزعوا من ذكر الروم وغزوهم، ولعل الهزيمة التي لحقت بال المسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكدة على ما ترسخ في ذهن العربي في جاهليته من أن الروم قوة لا تقهـر، فكان لا بد من هذا النفير العام لإزاحة هذه الهزيمة النفسية من نفوس العرب.

2- إظهار قوة الدولة الإسلامية كقوة وحيدة في المنطقة قادرة على تحدي القوى العظمى عالميا - حينذاك- ليس بدافع عصبي أو عرقي، أو تحقيق أطماء زعامات معاصرة، وإنما بدافع تحريري؛ حيث تدعو الإنسانية إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبودية رب العباد، ولقد حققت هذه الغزوة الغرض المرجو منها بالرغم من عدم الاشتباك الحربي مع الروم الذين آثروا الفرار شمالا فحققوا انتصارا للMuslimين

دون قتال، حيث أخلوا مواقعهم للدولة الإسلامية، وترتب على ذلك خضوع النصرانية التي كانت تمت بصلة الولاء لدولة الروم مثل إمارة دومة الجندي، وإمارة إيلة (مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة)، وكتب رسول الله ﷺ بينه وبينهم كتاباً يحدد ما لهم وما عليهم⁽¹⁾ وأصبحت القبائل العربية الشامية الأخرى التي لم تخضع للسيطرة الإسلامية في تبوك تتعرض بشدة للتأثير الإسلامي، وببدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة، ويعود ما حدث في تبوك نقطة البداية العملية لفتح الإسلامي لبلاد الشام⁽²⁾ وإن كانت هناك محاولات قبلها ولكنها لم تكن في قوة التأثير كغزوة تبوك، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عمليات متواصلة لفتح البلدان، والتي واصلها خلفاء رسول الله ﷺ من بعده، ومما يؤكد هذا أن الرسول ﷺ قبل موته جهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربة موجهة صوب الروم، وطليعة لجيش الفتح، ضم هذا الجيش جُلّ صحابة رسول الله، ولكنه لم يقم ب مهمته إلا بعد وفاته ﷺ، ومع هذا فقد حقق الهدف المطلوب منه كما سيأتي⁽³⁾ بإذن الله عند الحديث في سيرة الصديق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى والخطوات المثلثى لفتح بلاد الشام والفتحات الإسلامية.

3- توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول ﷺ، حيث تأثر موقف القبائل العربية من الرسول ﷺ والدعوة الإسلامية بمؤثرات متداخلة كفتح مكة، وخبير، وغزوة تبوك، فبادر كل قوم بإسلامهم بعد أن امتد سلطان المسلمين إلى خطوط التماس مع الروم ثم مصالحة نجران في الأطراف الجنوبية على أن يدفعوا الجزية، فلم يعد أمام القبائل العربية إلا المبادرة الشاملة إلى اعتناق الإسلام والالتحاق بركب النبوة بالسمع والطاعة؛ ونظرًا لكثرة وفود القبائل العربية التي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربية بعد عودة النبي ﷺ من غزوة تبوك لتعلن إسلامها هي ومن وراءها، فقد سمي العام التاسع للهجرة في المصادر

(1) انظر: دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، للشجاع، ص 209.

(2) انظر: المسلمين والروم في عصر النبوة، عبد الرحمن أحمد، ص 102.

(3) انظر: دراسات في عهد النبوة، للشجاع، ص 209.

الإسلامية بعام الوفود (1).

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النبي ﷺ التي قادها بنفسه، فقد كانت حياته المباركة غنية بالدروس والعبر التي تتربي عليها أمتنا في أجيالها المقبلة (2)، وملائحة بالدروس وال عبر في تربية الأمة وإقامة الدولة التي تحكم بشرع الله.



اعلموا علم اليقين أن حكمة الله اقتضت أن يكون الحق والباطل في خلاف دائم، وصراع مستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كل ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب، فمذ بزغ هذا الدين وأعداؤه من يهود ونصارى ومشركين ومنافقين يحاولون القضاء عليه، بكل ما يستطيعون، **﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتَمِّنُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ﴾** [الصف: 8]، والتاريخ في ماضيه وحاضره يشهد بذلك أنى لهم أن يفلحوا ما تمسكنا بكتاب ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ.

وهكذا وصلنا بعون الله وتوفيقه إلى نهاية هذه الموسوعة التي ضمّت غزوات

(1) انظر: نصرة النعيم (395/1)، (396).

(2) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون، (460/4).

النبي المصطفى ﷺ دروس وعبر ، والحمد لله أولاً وأخراً .

سيقى الخط بعدي في الكتاب
وتبلى اليد مني في التراب
فياليت الذي يقرأ كتاب دعالي بالخلاص من الحساب
اللهم أغفر للقارئ والكاتب .

اللهم اجعل هذا العمل صالحاً ولو جهك خالصاً برحمتك يا أرحم الراحمين .
اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك يارب العالمين واكتب لنا
الشهادة في سبيلك بعد طول عمر وحسن عمل، إنيك ولني ذلك القادر
عليه .
هذا وصلى اللهم على نبينا محمد وعلى آبه وصحبه وسلم .

وكتبه:

الذكى من أمير محمد المدارى

اليمن - المهرة

Almadari_1@hotmail.com

00967711423232 وتس آب /

770343470



المصادر والمراجع

1. الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح، القاهرة، مؤسسة قرطبة، 1987 م.
2. الأساس في السنة وفقها - السيرة النبوية، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط3، 1416 هـ - 1995 م.
3. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع
4. الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد الجاجي، دار الجيل، بيروت، ط. أولى، 1412 هـ.
5. أعلام النبوة، بو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي
6. إمتناع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تقى الدين أحمد بن على المقرizi، تحقيق : محمد عبد الحميد النمسى، دار الكتب العلمية ،بيروت ، 1420/1999م.
7. البداية والنهاية، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي. ط/ دار المعرفة ، ط2/1978 م .
8. تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، تحقيق: عمر تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، 1411 هـ.
9. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، الإسكندرية.
10. تاريخ الأمم والملوك، ابن جرير الطبرى، محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار سويدان، د. ت.
11. تاريخ دمشق، ابن عساكر، محبى الدين العموي، بيروت، دار الفكر، 1415 هـ.
12. تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى، محمد بن عبد الرحمن المباركفورى، بيروت، دار الكتاب العربى، ط3، 1404 هـ - 1984 م.

13. تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1984 م.
14. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير تقديم: يوسف المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ط 2، 1407 هـ.
15. تفسير القرطبي، لأبي عبد الله القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1965 م.
16. التفسير الكبير، الفخر الرازي، بيروت، دار التراث العربي، د. ت.
17. تفسير المراغي، الشيخ / أحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1365 هـ - 1946 م.
18. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهمة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، ط 2، 1418 هـ.
19. جامع الأصول، لابن الأثير المتوفى سنة 606 هـ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني سوريا، عام 1392 هـ.
20. الجامع الصحيح (سنن الترمذى)، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى، تحقيق: كمال يوسف، بيروت، دار الكتب العلمية، 1408 هـ.
21. جوامع السيرة، ابن حزم الأندلسى، دمشق، دار ابن كثير، 1986 م.
22. الحوار : أصوله المنهجية وآدابه السلوكية لأحمد الصويان ، ، طبعة دار الوطن.
23. الدر المنثور في التفسير بالتأثر، الإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.
24. الدر المنثور في التفسير بالتأثر، جلال الدين السيوطي، بيروت، دار الفكر، ط 1، 1403 هـ.
25. الذخيرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، دار الغرب الإسلامي- بيروت، 1994 م.
26. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، المنصورة،

دار الوفاء، 1987 م.

27. الرسول القائد، محمود شيت خطاب، دار الفكر – بيروت، ط، 6، 1422 هـ.

28. زاد المعاد في هدي خير العباد، أبو عبد الله ابن القيم حقه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر، الطبعة الأولى، 1399 هـ، دار الرسالة.

29. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1394 هـ- 1974 م.

30. سنن أبي داود، السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د. ت. القاهرة، دار الريان، 1989 م.

31. سنن النسائي، النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، بيروت، دار الفكر، والقاهرة، دار الحديث، 1987 م.

32. سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1403 هـ.

33. السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلببي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط، 2، 1427 هـ.

34. السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم العمري، الطبعة الأولى 1412 هـ/ 1992 م، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة.

35. السيرة النبوية دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، 1406 هـ - 1986 م.

36. السيرة النبوية عرض حقائق وتحليل أحداث ، د. على محمد الصلاibi الطبيعة الأولى.

37. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1417 هـ - 1996 م.

38. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: الدكتور مهدي رزق الله أحد 1412-1 ط

ـ مكتبة الملك فيصل.

39. السيرة النبوية لأبي الحسن الندوبي، دار ابن كثير – دمشق، ط 1425، 12 هـ.

40. السيرة النبوية موافق وعبر :الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ط2 دار الدعوة .

41. السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ط7/1408.

42. السيرة النبوية، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر.

43. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 1424هـ - 2003م.

44. شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي المتوفي 676هـ - طبع المطبعة المصرية ومكتبتها - القاهرة عام 1347هـ.

45. شرح النووي لصحيح مسلم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1349هـ.

46. صحيح ابن حبان، أبو حاتم البستي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة، 1970 م.

47. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، 1407هـ.

48. صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.

49. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، دار النفائس، الطبعة الثالثة، 1408هـ - 1998م.

50. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم بن محمد بن حسين العلي الشبلي، ط1، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، 1415هـ - 1995م.

51. صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، 1402هـ.

52. الصراع مع الصليبيين، محمد عبد القادر أبو فارس، دار البشير، طنطا، طبعة عام 1419هـ - 1999م.

53. الصراع مع اليهود، محمد أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1990م.

54. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، 1417 هـ - 1997 م.

55. صفوة الصفوة، أبو الفرج بن الجوزي، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، 1392 هـ.

56. صور وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، تأليف: د. محمد فوزي فيض الله، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ- 1996 م.

57. طبقات ابن سعد الكجرى، محمد بن سعد الزهرى، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، 1376 هـ- 1957 م.

58. على خطى الحبيب : عمرو خالد .

59. غزوة أحد دراسة دعوية، محمد عيظة بن سعيد بن مذحج، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، 1420 هـ- 1999 م.

60. غزوة أحد لأبي فارس، محمد عبد القادر أبو فارس، ط 1، 1402 هـ- 1982 م، دار الفرقان، عمان – الأردن.

61. غزوة الأحزاب وما بعدها: الشيخ منصور الرفاعي عبيد ط 1 الدار الثقافية للنشر.

62. غزوة الأحزاب، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى، 1403 هـ- 1983 م.

63. غزوة بدر الكجرى الحاسمة، محمود خطاب .

64. غزوة بدر الكجرى، محمد أبو فارس، دار الفرقان، الطبعة الأولى، 1402 هـ- 1982 م.

65. غزوة بدر الكجرى، محمد أحمد باشميل، طبعة دار الفكر، الطبعة السادسة، سنة 1394 هـ

66. غزوة تبوك، محمد أحمد باشميل، دار الفكر، بيروت.

67. الفتوى، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د. ت.

68. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، 1407 هـ.

69. الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، القاهرة، د. ت.
70. فقه السيرة النبوية: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ط 111991م
71. فقه السيرة النبوية، منير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.
72. فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالى، ط. خامسة، دمشق، دار القلم، 1414 هـ.
73. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة، 1400 هـ- 1980م.
74. القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، دار القلم، الطبعة الأولى، 1410 هـ- 1990م.
75. الكامل في التاريخ، على بن أبي الكرم ابن الأثير، تحقيق:
76. الكشاف عن حقائق التزيل وعيون الأقوايل، جار الله الزمخشري، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
77. لسان العرب، ابن منظور، أعاد ترتيبه: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد، وهاشم الشاذلي، القاهرة، دار المعارف، 1981م، بيروت، دار صادر، د. ت.
78. المستدرك على الصحاحين، الحكم النيسابوري، الهند، حيدرآباد الدكن،/ بيروت، دار المعرفة، د. ت.
79. المستطرف في كل فن مستطرف، الأ بشيهي، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1988 م، وببيروت دار الفكر.
80. المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1418 هـ- 1997م.
81. مسند الإمام أحمد بن حنبل، رق م أحاديثه: محمد عبد السلام عبد الشافي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1414 هـ/ 1993 م.
82. المغازى للواقدي، محمد عمر بن واقد المتوفى 207 هـ، تحقيق د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1404 هـ- 1984م

83. المغازى، محمد بن عمر الواقدي، ط 3.، بيروت، عالم الكتب، 1404هـ.

84. المغنى، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، مركز البحث والدراسات الإسلامية العربية، ط 1، 1406 هـ.

85. من معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1413هـ - 1992م.

86. المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير الغضبان، مكتبة المنار، الأردن الطبعة الثالثة 1411هـ - 1990م.

87. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، د.ت.

88. نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، عدد من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرث المكي، ط 4، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.

89. جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك، تحقيق : عبد القادر الأرنؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، 1391هـ ، 1971م.

90. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود الطناحي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1363هـ.

91. نيل الأوطار من أحاديث سيد الأئمـاـر، الشوكاني، بيروت، دار الجيل، د. ت.

92. الولاء والبراء في الإسلام ، محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار طيبة، الرياض



